قديسة من بلادنا

سلسلة
«دراسات كرمليّة»

لا يخفى على أحد كم كان للروحانيّة التي انبثقت من جبل الكرمل من تأثير، مدى العصور وحتى اليوم، على الصوفيّة المسيحيّة والمتصوّفين. فهي أخرجت الكثيرين من جلبة العالم وضوضاء الحياة الصاخبة إلى «حوريب»، الجبل المقدّس، حيث التقوا الله لا «في الريح العظيمة ولا في الزلزلة ولا في النار، بل في صوت النسيم اللطيف»، في الصلاة والتأمل والعمل الحثيث.

وما هذه السلسلة الجديدة، «**دراسات كرمليّة**»، إلّا برهان ساطع على ما يستطيعه الإنسان من سموّ القداسة وجليل الأعمال، إذا ما توافقت إرادته وإرادة الله.

١ – **القديسة تريزيا الأفيليّة**.

٢ – **قدّيسة من بلادنا**، مريم البواردي أو الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب (١٨٤٦–١٨٧٨)، تأليف أديب مصلح.

٣ – **قصّة نفس**، بقلم القديسة تريزيا الطفل يسوع (١٨٧٣–١٨٩٧)، تعريب الأب إميل الحاج البولسيّ.

٤ – القديسة تريزيا الطفل يسوع: **مخطوطات السيرة الذاتيّة**، تقديم وتعريب المطران الياس نجمه.

سلسلة
« دراسات كرملية »
٢

قديسة من بلادنا

مريم البواردي

أو

الطوباوية الأخت مريم يسوع المصلوب

(١٨٤٦ - ١٨٧٨)

تأليف

أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسية

إيقونة الغلاف من رسم كرمل الوحدة
(حريصا)
قدّمها غبطة البطريرك مكسيموس الخامس حكيم
لقداسة البابا يوحنا بولس الثاني
بمناسبة تطويب أمة الله (١٣/١١/١٩٨٣)

الطبعة الأولى
١٩٩٠

•

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية
شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

الطوباويّة
الأخت مريم البواردي
(عبلّين ١٨٤٦ - بيت لحم ١٨٧٨)

كرمل بيت لحم

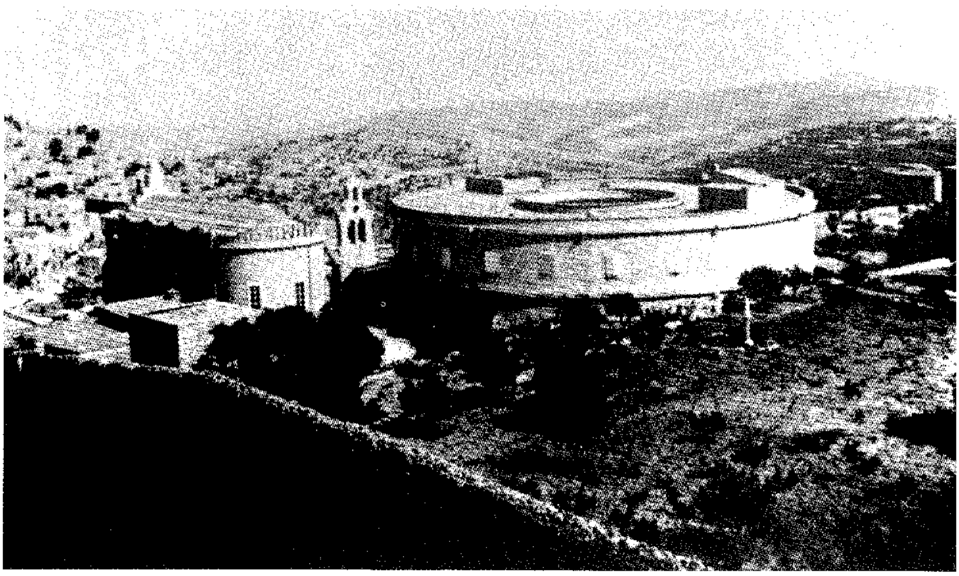

الفهرس

تمهيد ٧
الفصل ١: أسْرةٌ صهرَتها المحن، وَصاغهَا الإيمَان ٢٧
الفصل ٢: الخَادمَة المرتحلة ٤١
الفصل ٣: "انْطَلَقي مِن أرضك وَعَشيرتك
وبيتِ أبيك إلى الأرَض التي أُريَك" ٤٩
الفصل ٤: مَر يم الرّاهبة ٥٩
الفصل ٥: في كرمِل "پـــو" ٦٧
الفصل ٦: صيَامُ عَام ١٨٦٨ .... ٨٩
الفصل ٧: صرَاعٌ مع قوى الجَحيم........................ ٩٩
الفصل ٨: تلمّسٌ في الظَّلام
(من أيلول ١٨٦٨ حتى نهاية عام ١٨٦٨) ١٣١
الفصل ٩: ليلٌ وَ نُورٌ وَ إلهامٌ........................١٤٥
الفصل ١٠: مرحَلة منغَالور
(آب ١٨٧٠- تشرين الثاني ١٨٧٢) ١٥٥
الفصل ١١: إجازة في كرمِل "پـــو"
(١٨٧٢/١١/٥ - ١٨٧٥/٨/٢٥)........................١٩٧
الفصل ١٢: مَرحَلة بيتَ لحم
(أيلول ١٨٧٥ حتى الوفاة في ٢٦ آب ١٨٧٨) ٢٣٥
الفصل ١٣: كَراماتٌ واستحقاقٌ ٢٨١
الفصل ١٤: حضورٌ يخترق اللّحد ٣٢٩
الفهرس..٣٣٥

تمهيد

لا مِراء أَنّ أرضنا الطيّبة التي حضنَت مولد كنيسة يسوع، وما فتِئت، عَبْر قرونٍ من المِحَن والأعاصير، تحمل ليسوع الحبّ والوفاء، والتي أنبتت، في فجر المسيحيّة، ألمع القدّيسين والشهداء، وما انفكّت تشهد، في كلّ عهدٍ، مولد قدّيسين وشهداء وأبطالٍ، قد ينبُه صيت قلّةٍ منهم، فتتداول أخبارهم الألسن، ويثبّت ذكراهم التاريخ، في حين يظلّ سوادٌ عظيمٌ منهم مغمورين، زهورًا بريّةً في حدائق نائيةٍ، تتفتّح وتفوح وتعطّر من حولها الأجواء، وتمجّد بكلّ ضَوْعٍ خالقَها، ثم تُحرقها الشمس وتذرُوها الرياح، وتطمسها الرمال، وتطوي الأرض أثرها، ولكنّها تحتلّ، في سجلّ العادل الأوحد، المقام الأسمى، وتظفر منه بالنصيب الأمثل الذي لن يُنتزع منها.

قد يكون أولئك القدّيسون المغمورون، هم أعظم القدّيسين على الإطلاق، وهم الذين يكوّنون جسد كنيسة المسيح الدهريّة، التي ستظلّ قِوى الجحيم، أبدًا، عاجزةً عن النَّيل منها، خاسِئةً دونها.

بَيدَ أنّ العناية الإلهيّة تحرص، بين حينٍ وحينٍ، على إبراز بعض الوجوه النيّرة، ولا سيّما تلك التي تتميّز بالبراءة والتواضع، والامتثال المُطلق لمشيئة الله، تمجيدًا لعمل النعمة فيها، وأسوةً يحتذيها كلّ ناشدِ قُدوةٍ على دروب الكمال.

ومن تلك الوجوه، وجهٌ عربيٌّ فذٌّ، هو وجه مريم البواردي، أو **الأخت مريم يسوع المصلوب**، أو "العربيّة الصغيرة" على حدّ ما دعَوها في بلاد الغرب، التي أعلنها قداسة البابا يوحنا بولس الثاني طوباويّةً، في الثالث عشر من تشرين الثاني ١٩٨٣، والتي أدهشت كلّ من عايشها، وانتزعت إعجاب عددٍ كبيرٍ من الكتّاب والمفكّرين في غروب القرن المنصرم، وفي مطلع هذا القرن، وما برحت سيرتها،

لكلّ من يطالعها، مَبْعث دهشةٍ جمّةٍ، ومَدعاة تعظيمٍ بلا حدودٍ، لعمـل النعمـة فـي البشر، وتحدّيًا لكلّ طالب كمالٍ، وكنز تعاليم خلاصيّةٍ لا ينضب له مَعينٌ.

إنّها زهرةٌ نادرةٌ، ضربت جذورها في بلاد الشام، ونمت فـي فلـسطين، أرض الأنبياء، التي قدّستها أقدام يسوع وأقواله السماويّة التي ما انفكّـت وسـتظلّ، عبـر الدهور، منبع رجاءٍ وخلاصٍ؛ ثمّ عادت لتمزج تراب جسدها الطاهر بتـراب تلـك الأرض المقدّسة، بعد أن ضوّعت في أوروپـا، وفي أرجاء الهند، عبيـر مُواطنهـا الجليلي، معيدةً إلى الأسماع نبرةَ صوته الساحر، وإلى الأذهـان، روعـةَ تعاليمـه الخالدة، الأبديّة النداوة، فخلّدت، بحقٍّ وجدارةٍ، سُلالة صيّادي الجليل، الـذين، مـع جهلهم ووهَنهم، نشروا أنوار الإنجيل، في حواضر العلم والحـضارة، وفـي قلـب الإمبراطوريّات الحاكمة المتجبّرة، بفضل عمل الروح، وقُدُراته اللامحدودة.

إنّها، مذ تفتّح ذهنها على الإدراك، سمعت نداء الربّ، فامتثلت له غير هيّابـةٍ، ولا متردّدةٍ، منتظمةً في صفوف "حجّاج المطلق"، أولئك الذين، إذا ما نمـى إلـيهم دعاء الربّ، انطلقوا، في الحال، غير عابئين بما سيُفضي إليه المطاف. فعندما يأمر الله بالمسير، يغدو من القحة وانعدام الإيمان، السؤال عن حال الطريق أو عن المآل. إنّ "حجاج المطلق" يضربون، أبدًا، في القفر، لا دليل لهم سوى كلمة الله، وثقةٍ فيـه من غير حدود.

إنّ مغامرتهم تبدأ عندما يهجرون كل شيءٍ، امتثالاً لنداء السماء، وهم مدركون لكلّ ما هم عنه يتخلّون، وجاهلون لكلّ ما ينتظرهم. يـرون الـصحراء المتراميـة الأطراف التي عليهم الخوض في فيافيها، والغابات البكر التي لا بدّ لهم من اقتحامها، ولكنّهم لا يلمحون لها نهايةً، ولا يستشفّون منها مخرجًا، ولا يتوقّعون محطّـةً فيهـا يصيبون بعض راحةٍ، أو مفترق طرقٍ ينتظرهم، في زاويةٍ منه، عزاء الربّ. شيءٌ واحدٌ يقفون منه على يقينٍ، هو الانطلاق في المسيرة بإيمانٍ صافٍ، وتأهّبٍ مطلـقٍ غير مشروطٍ لكلّ ما يأمر به الربّ، من غير تريّثٍ ولا استقرارٍ، فالربّ لا يني يوفّر لهم من الأحداث ما يدفع بهم إلى غذّ السير باطّرادٍ، من غير هوادةٍ ولا تمهّلٍ.

على هذا، النحو كانت سيرة مريم البواردي – الأخت مريم يسوع المصلوب – قفزةً في المجهول من غير قرارٍ ولا تهيّبٍ، وكانت حياتها كلّها فعل إيمانٍ حيٍّ مطلقٍ رائعٍ.

لقد استهلّت مسيرتها في مجاهل الله، وهي، بعدُ، طفلةٌ. وظلّت، بالروح، طفلةً، سحابة عمرها القصير الذي لم تتعدّ سنواته عدد سني معلّمها الإلهي الثلاث والثلاثين. وهل المؤمن، في علاقته مع الله، سوى طفلٍ يقرّ بعجزه ووهنه، ولكنّه لا يبالي بهما، لأنه موقنٌ، يقينًا لا يتزعزع ولا ثُغرة فيه، أنّه، بمعونة أبيه وقدرته، يقوى على كل شيءٍ! إنّه طالما ظلّ من أبيه قريبًا، وبه ملتحمًا، لا يفتقر إلى شيءٍ، ولا يرغب في شيءٍ، بل إنّ كلّ ما يرهبه هو الابتعاد عن أبيه، أو افتقاد حبّه وأزره وحدبه. ومن ثمّ فهو يوكل مصيره بين يديه في اطمئنانٍ، ولا يملك ما يقدّمه، في المقابل، سوى هذا الاستسلام الواثق الفرح، والانقياد من غير تحفّظٍ لمشيئته، وإن خفيت عليه حكمتها، أحيانًا كثيرةً.

بيدَ أن هذا الانقياد وذلك الاستسلام، ليسا، دائمًا، بالأمر اليسير الليّن، فالربّ لا يضمن لناشديه العيش الرغيد، والمقام الوثير، والمسيرة الممتعة، بل غالبًا ما يقتضي منهم الشخوص إلى ملكوته، عبر وَعْثَاء طريقٍ متوعّرٍ، ملطَّخ الصوُى بنزف الدماء؛ ولا هو يوفّر لأتباعه الردّ على جميع التساؤلات الموجعة التي تُمضّ أذهانهم، عندما يجدون أنفسهم مُقحمين في خضمّ أحداثٍ مُستغلِقة المرامي، وإزاء مسالك مسدودة المنافذ، وحِيال قضايا شائكةٍ لا يُدرَك لها، في هذه الدنيا، سرٌّ، كتلك التي يستثيرها استفحال الشرّ، وطُغيان الألم والظلم، و"الشقاء البريء"، ولا جواب عليها، جميعها، سوى جنون الصليب.

وحده الإيمان يرتقي فوق تلك الأَحداث والتساؤلات والعقبات ويتخطّاها، وإن هو لم يُدرك لها حلاًّ، ريثما يتسنّى للمؤمن رؤية الحقائق بعين الله التي تروز الأمور بموازينَ غير موازين الأرض.

وهكذا يتجلّى الإيمان، على حدّ قول پاسكال، "قَدرًا من النور كافيًا لنؤمن، وغير كافٍ لأن نرى بوضوحٍ"، أو على حدٍّ قول الأب مونبيه "نورًا مظلمًا، وظلمةً منيرة". فالله غالبًا ما يقيم في عتمة ليلٍ داجٍ، ويكون هذا الليل دليلنا إليه، وسبيلنا إلى التماسه.

وعلى هذا النحو يغدو الايمان ائتمانًا لله، مع أنّ الله، وفقًا للظواهر، لا ينفكّ في حالة إفلاسٍ، وثقْله في موازين الأرض يكاد يكون معدومًا، وغيابه الظاهر عن الكثير

من أَحداث العالم، يبعث قُشعريرةً من الرُّعْب؛ ومع ذلك فائتمان الله هـذا يطهّرنـا، ويدفعنا في المَسارِ القويم، نحو الفائق الطبيعة، حيث الله ينتظرنا.

ومن ثمّ، فالإيمان ليس يقينًا راسخًا في منأًى عن كلّ هزّةٍ أو ريبةٍ – وإلا لمـا كانت إليه حاجةٌ – وليس هو معرفةٌ متبجّحةٌ لا تستكين إلاّ إلى ما تُلِمّ به وتدركه، إذ إنّ المعرفة الحقّة هي التي تعرف حدودها، وتُقرّ بعجزها، ولا تُنكر ما لا تُحيط بـه، بل الإيمان انتصارٌ متكرّرٌ على رِيَبٍ متجدّدةٍ، صيرورةٌ مستمرّةٌ، كفاحٌ دائـمٌ، ودأبٌ لا يفتر؛ إنّه اعترافٌ، عندما يستحيل النور في أبصارنا ظلامًا، بأنّ العتمة التي تغشى عيونَنا فتعطّل منها الرؤية، إنّما هي تنبعث من أعماقنا، وبأنّ الوفـاء لمـن ائتمنّـاه يقتضي منّا ألاّ ننكرِ، عندما يداهمنا الديجور، ما قد طالما رأيناه غارقًا فـي النـور، وألاّ يخون فكرنا، عندما يضعف منّا الجسد، حتّى إذا ما تكاثفت أسباب الشكّ، وبـدا غياب الله مُريعًا.

فالإيمان هو أكثر من وضعٍ نفسيٍّ قابلٍ للتحوّل بفعل مؤثّراتٍ متناقضةٍ، وأكثر من رأيٍ ومذهبٍ، إنّه موقفٌ راسخٌ، ونهْج حياةٍ، واتجاهٌ ثابتٌ، إنه بوصَلَةٌ شمالها الله أبدًا.

الإيمان احترامٌ لصمت الله، صيحة رجاءٍ في الليل، بل نشيد رجاءٍ بالليل؛ إنّـه ثقة أعمى بالظلام، واستكانة ضحيّةٍ بين يدي أبٍ يتنكّر في زِيّ جلاّدٍ.

الإيمان، كما كان يراه يسوع، ثقةٌ مطلقةٌ، استسلامٌ من غير تحفّظٍ، هوّةٌ سـحيقة الأغوار، حافلةٌ بالأسرار، نقذف أنفسنا إلى جوفها بكلّ حزمٍ وإقدامٍ، ومن غير وَجَلٍ، موقِنين بأنّ الهوّة هي الله، وأنّه يملأها، فلا يسعنا الوقوع إلاّ بـين ذراعيـه، وفـي أحضانه.

وهكذا ينقلب الإيمان رجاءً. "أَحَبّ الإيمان عندي هو الرجاء، يقول الربّ" علـى حدّ تعبير الشاعر المبدِع شارل بيغي.

ويصبح الإيمان مغامرةً مدهشةً، بل مقامرةً مجنونةً تُقايض المرئـيّ الملمـوس المتَّشِح بلألاء الأكيد المحسوس، باللامرئيّ المُبهم المُحاط بأسرارٍ كثيفةِ الغمـوض. بيد أنّها مغامرةٌ يحدوها رجاءٌ متوهّجٌ، مشدودٌ إلى النجوم بسلاسل صُلْبَةٍ، ومغمـورةٌ بفرحٍ راسخٍ، لا تعكّره أنواء السطح، ولا تطاله خيبات الأمل المريرة، التي قد طالما ولّدها "المرئيّ المحسوس الأكيد" لدى من حصروا فيه كلّ إيمانهم.

الإيمان خَيارٌ بين نداء العالم المادّي الذي ينتبذ الله، والصوت الخافت الهامس في أعماقنا توقًا إلى الحقّ والعدل والحبّ والجمال الأبديّ الخالد، توقًا إلى الله.

الإيمان شمسٌ تُدْفِئ أعماق القلوب، وتنير العقول؛ إنّه يهبنا الله، ويوطّد فينا حضوره، فنستغني به عن كلّ ما سواه.

وهو يؤهّلنا لاكتشاف ذاتنا العميقة، تحت قشور الظواهر الزائفة، ويعود بنا إلى جذورنا الضاربة في السماء، فنسعى دائبين إلى الامتزاج بمن نحن منه قَبَسٌ، وعلينا أن نكون له شُركَاء في الخَلق والحُبّ والفداء.

وفي قلب كلّ من آمن بإلهٍ قد تجسّد لينهض بوهَنِنا البشريّ إلى ذرى كمال ألوهته، وبفادٍ جعل من الصليب رمزًا للعطاء والحُبّ، تشتعل جُذوةٌ متوقّدةٌ تومِئ إلى المآل النيّر، حيث يقف الآب المخلِّص مُشرِعًا ذراعين حانيتين، وترسُخ الثقة بأنّ الجلجلة هي السبيل إلى القيامة، وأنّ الصلب هو تمهيدٌ للفصح، وأنّ الأسرار، التي يتهاوى عندها عقلُنا الواهي، إنّما تنطوي على حكمةٍ لا قِبَل لنا على الإلمام بها.

هكذا كان إيمان الأخت مريم يسوع المصلوب، طفولةً لم تخدَش يومًا براءتها، مُشْرَعةً أبدًا على نفحات الروح، تشبّثًا بالله عنيدًا لا ترتخي له قبضةٌ، قفزةٌ في المجهول لا تحفل بغدٍ أو بمصيرٍ، وصراعًا بلا هوادةٍ مع قوى الشرّ، وتجارب الجحيم الضارية، ثقةً بالله من غير حدودٍ، وخوفًا من الوهَن والخطيئة، يقاومه باستمرارٍ ويبدّده يقينٌ بقدرات الله اللامتناهية، وبرحمته اللامحدودة.

لطالما ارتعدت جزعًا أمام ضعفها، وعلى غِرار الكثيرين من القدّيسين، ران عليها شعورٌ بوِقْر الخطيئة اَلْبَشَرِيَّة، ويقينٌ مضنٍ بأنّ ابتعاد العالم عن الله يحوّل الأرض جحيمًا، فما الجحيم سوى البعدِ عَنْ الله. ولكنّها، قطّ، ما ارتابت في الله، بل كان لها من الإيمان مثل ما كان للمرأة الفينيقيّة ولقائد المئة، إيمانٌ استسلمت له قدُرات يسوع الإلهيّة، وأجرت في سبيله المعجزات.

فلا بدْعَ، إذن، إن غدَت حياة الأخت مريم يسوع المصلوب بأكملها نسيجًا متّصلاً من الخوارق التي قلّما اجتمع مثلها لإنسانٍ، في تعدّدها، وإدهاشها، وتواترها. أولَم يقل يسوع نفسُه: "من يؤمنْ بي يعمل الأعمال التي أنا أعملها، بل يعمل أعظم منها"؟.

إنّ ملكوت الله وقفٌ على أطفالِ الروح، ولا يلجه من يحاول قرع بابه بآراء

مُسبقةٍ، وبادّعاء الإلمام بكلّ شيءٍ. فمن ادّعى المعرفة ولم يسلّم إلا بالفهم رفض الإيمان، والمسافة بين المعرفة والإيمان هي الشقَّة التي تفصل بين الحياة والموت. الإيمان لا ينفي المعرفة، ولكنّه يحياها. "والويل للعلم الذي لا ينقلب حبًّا" على حدّ قول بُوسُويه.

العلماء الحقيقيّون يشتركون في شباب الله، ويعملون بثقة في ورشة المجهول، أما "الشيطان فطاعنٌ في السن" على حدّ قول برنانوس، وكذلك هو شأن كلّ من يحصر نفسه في أطُرٍ جامدةٍ، لا فَرجة فيها مُشرعةً على نفحات الروح.

وإنّه لمحزنٌ أن نلحظ أنّ إنكار فائق الطبيعة قد بات عقيدةً مطلقةً لدى أدعياء العلم، ولم يعد لمفهوم السماويّ دخلٌ في حساباتهم؛ أمّا العجيبة، فقد غدت موضِع ارتيابٍ ورفْضٍ، بل موضوع تهكّمٍ، وكأنّها من مخلّفات عصور الجهل والتخلّف، يرفضها الملحدون، منطقيًّا، لأنّ العجيبة، في غياب الله، مستحيلةٌ؛ ويتحرّج منها من هزُل إيمانهم، لأنّها تضعهم في موضع السخريّة والاتّهام بسلامة عقلهم، والخشية من التورّط في خطَل الحكم؛ ويشيح عنها أدعياء العلم، لأنّها ثغرةٌ في صرح الحتميّة العلميّة تحطّم الأُطُر التي تعبوا في بنائها، والصيغ التي جهدوا في رسمها، وسجنوا أنفسهم في حيّزها الضَنْك، واستكانوا إلى طمأنينتها الخدّاعة الزائفة، وصرفوا أبصارهم عن كلّ واقعٍ يتعارض ونظريّاتهم، من شأنه دعوتهم إلى إِعادة النظر، باستمرارٍ، في كلّ ما صاروا إِليه، واحتموا به.

إنّ العلماء الحقيقيّين هم الذين يُقرّون بحدود علمهم الضيّقة، ويُلصقون آذانهم ببابٍ موصَدٍ، ترقّبًا لمن يقرع الباب ويهمس بكلمة الحقيقة، على حدّ ما أعرب عنه نيوتن بهذا الاعتراف: "أنا لست أدري ماذا أمثّل في نظر العالم، ولكنّني أونِس، في قرارة نفسي، أنّني ما كنت يومًا سوى ولدٍ يعبث على الشاطئ، ويتمتّع، بين الفيْنة والفيْنة، باكتشاف حصاةٍ فائقة الصَّقل، أو صَدَفةٍ فذّة الروعة، في حين كان يمتدّ أمامي محيط الحقيقة الجمّة، يكتنفه الجهل".

وقد أدلى أينشتين باعترافٍ مماثلٍ، في غروب حياته، إذ قال: "إنْ أنا تلقّنت شيئًا خلال حياتي الطويلة، فهو أنّ كلّ علمنا، إذا ما قارنّاه بالواقع، يبدو بدائيًّا وصبيانيًّا".

والعجائب واقعٌ لا مجال لنُكرانه، يعجز العلم عن تفسيره، وفق سُننه الموضوعة، بَيْدَ أنّ المخلِصين للعلم هم الذين يلتمسون له تفسيرًا خارج الصيغ العلميّة المعروفة، ولا يخشون طرقَ باب الإيمان عندما يُعلن العلم فشله في الردّ على تساؤلاتهم، على نحو ما فعل ألكسي كاريل، بعد أن لمس الأُعْجُوبَة لمسًا ماديًّا، لا مجال لإنكاره. فالإنكار، في مثل تلك الحال، تنكّرٌ للعلم الصحيح، وجُبْنٌ، وتهرّبٌ، وعندما هو يتعلّق بتساؤلاتٍ تتّصل بوجودنا، وتمسّ مصيرنا، يُمسي الإنكار انتحارًا. وهذا ما عبّر عنه ألكسي كاريل بقوله: "ما قيمة النظريّات، حِيال الحياة والموت؟ نحن لا حاجة بنا، من أجل حياةٍ حقّةٍ، إلى علمٍ، بل حاجتنا إلى روحٍ وإيمانٍ".

والعجائب، في ذاتها، مهما عظمت وأدهشت، ليست هي الجديرة باسترعاء الاهتمام، بل ما تمثّله من قِيَم الروح، وما يبرّرها وما تستفزّه من إيمانٍ. والمعجزات التي حفلت بها سيرة الأخت مريم، إنّما كانت شُعاعًا يُومئ إلى الجمال الحقّ، الثاوي في نفسٍ تعمل فيها النعمة بحريّةٍ.

وربّما رمى الله، من خلال فَيْض العجائب التي حفلت بها سيرة الأخت مريم، وسِيَر سواها من القدّيسين، إلى إثبات خَطَل إيماننا المطلق بعلمنا، وإلى تذكيرنا بأنّ من خلق الكون وسُنَنه قادرٌ على العبث بذلك الكون، وخرْق السُّنَن التي وضعها له، إزراءً بمسلّمات العلم، وتأكيدًا بأنّ للإيمان والبراءة والتواضع والصلاة، والاتّحاد بالربّ، في معايير الله، من الوزن والقيمة الحقّة، أكثر من كلّ قانونٍ، وعلمٍ، ولاهوت.

ثمَّة من قد تبدو لهم بعض الخوارق التي ميَّزت سيرة الأخت مريم يسوع المصلوب غير معقولةٍ. ولكن هل كان تجسّد إلهٍ معقولاً؟ وهل صلبُه وقيامته، وحضوره الدائم في متناول يدنا، تحت أعراض الخبز والخمر، كلّها أمورٌ معقولةٌ؟

وكيف لا يُجري الله، بواسطة الأخت مريم، خوارق فريدةً، وهي التي قال عنها الأب لازار، معرّفها، المشهود له بخبرة متمرّسةٍ في إدارة النفوس، وبحكمٍ رزينٍ بعيدٍ عن كلّ تأثرٍ عارضٍ:

"إنّني على أُهبةٍ لاجتياز جميع نيران الدنيا، لكي أثبت أنّها لم تقترف، قطّ،

خطيئةً جسيمةً واحدةً، سحابة حياتها... إنّها لم ترتكب، قطّ، خطيئةً مميتةً، لا بل إنّني أظنّ أنّ هفواتها الطفيفة الطوعيّة زهيدةٌ جدًّا. كلّ شيءٍ، لديها، كان بطوليًّا".

إنّ براءة العماد لم تبارحها يومًا؛ وتلك البراءة نتلقّاها مجّانًا، غير أنّها تلقي على كاهل كلّ مسيحيٍّ مسؤوليّاتٍ باهظةً تجاه ذاته، إذ تلزمه بكمال الله نفسه، وتجاه إخوته، إذ سيُسأَل كلّ معمَّدٍ، يومًا، عمّا فعل من أجل خلاص أخيه.

والأخت مريم، بفطرتها التي ألهمها الروح، أبدًا، قد اضطلعت بتلك المسؤوليَّة المزدوجة، اضطلاع الأبطال. ففي سبيل بلوغ كمال الله مارست جميع الفضائل على نحوٍ سامٍ، في غير تحفّظٍ ولا مساومةٍ، وفي سبيل خلاص أشقّائها، أقلّت الصليب وسارت مشدودةً إليه سحابة حياتها، في حبٍّ، وسخاءٍ، وبسالةٍ، مشاركةً المخلّصَ الفداء.

إنّ الربّ، عندما يُجزل العطاء، يقتضي، بالمقابل، بذلاً وفيرًا، ويُلقي على كاهل من يصطفيه عبئًا باهظًا، ويدفع به نحو المزيد من السخاء في التضحية. وقد كانت سيرة الأخت مريم بأكملها تبريرًا لاختيار الله لها. فهي كانت مختارةً وضحيّةً في آنٍ معًا، وعاشت في فرحٍ وجيعٍ، في نورٍ باهرٍ ونارٍ حارقةٍ، تجربةً عذبةً لا تُطاق. وقد مارست من الفضائل، على نحوٍ منقطع النظير، المحبّة السمحاء بلا حسابٍ، والطاعة المطلقة لمشيئة الله ولأوامر ممثّليه، بلا تردّدٍ ولا جدالٍ، والتجرّد، حتّى العُري، عن كلّ ممتلكات الأرض وخيراتها، وخصوصًا عن ذاتها، عن رغباتها، وعن إرادتها التي أودعتها طائعةً مختارةً، من غير نكولٍ ولا رجوعٍ، بين يَدي باريها، والعفّة بكلّ صفائها وشفافيّتها وتضحياتها حتّى الاستشهاد، محقّقةً قول سيمون ويل: "وحده الطهر يدرك معنى الدنس". فالأخت مريم التي كانت للطهر مثالاً فذًّا، وكَلِفت به، وصانته، في حرْصٍ ضنينٍ، لا بل ذادت عنه بدمها وحياتها، قد مقتت كلّ مظهرٍ من مظاهر الدنس، وكافحته بضراوةٍ، بحيث إنّ إبليس الذي أُتيح له امتلاك جسدها وتعذيبه، كرّتين، امتدّت الأولى أربعين يومًا، والثانية تسعة أيّامٍ، حُظر عليه مسّ طُهرها العذريّ، الذي ظلّ إناءً ثمينًا يحرص عليه الربّ.

غير أنّ ما تميّزت به تميّزًا فريدًا مذهلاً أخّاذًا، هو التواضع السحيق إلى ما لا قرار، والامّحاء حتّى التلاشي بين يدي الربّ. إنّ أساس كلّ قداسةٍ هو اختبار عَدَم

الإنسان، والأخت مريم قد دعت نفسها، منذ حداثتها "العَدَم الصغير" أو "اللاشيء الصغير"، وقد عاشت بكلّ جوارح كيانها، تلك التسمية التي استعذبها الله، وطالما ردّدها، وهو يشير إليها، وبها حطّمت شوكة الأبالسة، ودحرت هجماتهم دحرًا ذريعًا، بحيث أُرغم إبليس على الاعتراف، بعد أَن فشل في النيل من نفسها: "إنّ فعل تواضعٍ كفيلٌ بتدمير جبروتي".

الكبرياء والغرور هما ذريعة إبليس للسيطرة على نفوسنا، وهما الستار الصفيق الذي يحجب الله عن أبصارنا. أمّا التواضع، فهو الذي يحطّم الحواجز التي تحول بنا دون الاتّصال بالله.

تقول سيمون ويل: "على المرء ألاّ يكون شيئًا لكي يحتلّ مكانه من الكلّ"؛ والأخت مريم، بتلاشيها، حتّى العدم، قد قهرت الشيطان، كما لم يقهرْه، قطّ، إنسانٌ، وانتهجت إلى قلب الله صراطًا مباشرًا. لقد انحدرت إلى هوّةٍ من التواضع لا يُسبر لها غورٌ، وهوّة تواضعها استدعت هوّة الله الغنيّة، واستجلبت وابل نِعَمه. لقد أفرغت ذاتها من ذاتها، فأغدق الله على ذلك الفراغ عطاياه، وملأه بذاته وبحضوره. ولا عجب، بالتالي، إن أَجمع كلّ الذين عرفوا الأخت مريم، عن كثبٍ، بأنّهم، حِيالها، كانوا يشعرون شعورًا كثيفًا بحضور الله. وهل لإنسانٍ أن يبلغ من كمال الإنسانيّة، وسموّ الروحانيّة، أَكثر من أَن يُصبح هيكلاً يحتوي الله، ويُشيع حضوره؟

والتواضع ليس صَغارةً أو استسلامًا أو تقاعسًا، وليس من شأنه إِضعاف القدرة على العمل، بل إِنّه يضاعفها، فالمتواضع يعرف أنّه، بنفسه، لا يستطيع شيئًا، ولكنّه موقنٌ أنّه، بقدرة الله، يستطيع كلّ شيءٍ، فلا تُرهبه مخاطرةٌ، مهما بدت جريئةً وطموحةً، ولا يُثبّط عزيمته فشلٌ، مهما كان ذريعًا، وقد اضطلعت الأخت مريم، مع تواضعها، لا بل بفضل تواضعها، بالجسيم من المهامّ، التي لم يكن يجسر على الإِقدام عليها من كانوا أوفر منها علمًا ومعرفةً، وأعلى مقامًا، وأوسع سلطانًا، فصحّت فيها الرؤيا التي خطرت لها يومًا، والتي رأت فيها جبّارًا ينوء تحت وِقْر بضع قشّاتٍ، في حين كانت نملةٌ تنهض بصرحٍ شامخٍ، وتُقلّه في همّةٍ وحزمٍ. لقد كانت مريم نملةَ الله، ونهضت بأعظم أعماله، وحُقَّ فيها قولُ الرسول بولس في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين (١: ٢٧-٣١):

"إنّما اختار الله ما هو جاهلٌ في العالم ليُخزي الحكماء، واختار الله ما هو ضعيفٌ في العالم ليُخزي ما هو قويٌّ؛ واختار الله ما هو خسيسٌ في العالم وحقيرٌ، وغير الموجود، ليُعدم الموجود، لكي لا يفتخر ذو جسدٍ أمام الله... حتّى إنّه، على ما هو مكتوب: "من افتخر، فليفتخر بالرب".

بالبراءة والتواضع توفّرت للأخت مريم بساطة الروح التي تمثّل مفتاح ملكوت السماء، ورؤية الله وجهًا لوجهٍ، على حدّ ما وعد يسوع أنقياء القلوب، وغدا إيمانها بالله رؤيةً له دائمةً، وامتزاجًا به حميمًا. لقد قيل لها، في إحدى رؤاها: اِسفحي دَلْو ماءٍ في البحر، ثم حاولي العثور عليه، فيتعذّر عليك ذلك، إذ إنَّه سيكون قد امتزج بمياه البحر امتزاجًا جوهريًّا. وعلى هذا النحو هي سفحت نفسها في محيط الربّ بحيث لم يعد ما يفرّقها عنه، وباتت سيرتها إنجيلاً حيًّا.

لقد طالما فهم البسطاء الإنجيل خيرًا ممّا فهمه المثقّفون واللاهوتيّون، فالبسطاء يفهمونه بقلوبهم، على نحو ما تدفّق من قلب يسوع، ويعيشون كلّ دقائقه وحذافيره، ومخاطراته، وجنونه، بكلّ جوارحهم، وبكلّ لحظةٍ من حياتهم؛ لا يدجّنونه، ولا يلطّفون عنفه بالتنازلات، ولا يرضَون فيه تأويلاً. البسطاء والقدّيسون، - البسطاء من القدّيسين -، هم الذين، عَبْرَ الأجيال، ينفضون الغبار الذي جعله فتور المسيحيين والمؤسَّسات الكنسيّة، يتراكم فوق كلمات الإنجيل، فيُبرزون من جديدٍ، تألّق طلاوته، وأصالة تعبيره عن روعة جنون الحُبّ، وينفخون الرماد عن النار المُنعشة التي تسري بين سطوره. وإن هم فسّروا الإنجيل، أدهشوا، على غرار يسوع الذي ما انفكّ يُذهل الأجيال، لأنّهم يفسّرونه بقلوبهم وبحياتهم، لا كتفسير بعض العلماء واللاهوتيّين الذين يتكلّمون في أمور الله الحارقة بألفاظٍ من جليدٍ.

حَفْنةٌ من التلاميذ فقط طُلب منهم تدوين الإنجيل، في حين فُرِض على الجميع التبشير به: وأيّ تبشيرٍ أجدى من التشبّه بيسوع، والعمل بتعاليمه؟ هكذا بشّرت الأخت مريم بيسوع المصلوب بالإنجيل، الذي ارتمت في خضمّه بكلّ طاقاتها، ومزجت مزجًا رائعًا الإيمان بالحبّ، على غرار نِسوة الإنجيل. إنّ معايشتها الحسيّة الصوفيّة لله، ورؤيتها له وجهًا لوجهٍ، تعلّمنا عنه أكثر من أيّ كتابٍ. فالله لا يُلتمَس

في الكتب، بل في أعماق الذات الغارقة في لجّة الصلاة والتأمّل، والمندمجة في محيط الله، وفي قلوب القدّيسين الذين أحبّوه، وعاينوه في ذاته، وفي وجوه إخوانهم ونفوسهم.

إنّ الإنجيل يُكتب، كلّ يومٍ، في سيرة القدّيسين، ويدوّن في صدور المتأمّلين ولن يُفرَغ من كتابته أبدًا. إنّ قلوب القدّيسين هي سماء الله، وحياتهم إِنجيلٌ حيٌّ معاصرٌ، أبديّ النداوة. هكذا كان قلب الأخت مريم يسوع المصلوب، وتلك كانت سيرتها. فهي تنتظم في قافلة "تلك السحابة من الشهود" التي تجعل من المسيحيّة أكثر من حَدَثٍ تاريخيٍّ جرى لألفين من السنين، وتبرزها واقعًا حيًّا، ينبض في قلب كلّ جيلٍ، دافعًا إلى أسمى ذُرى البطولة.

لقد تساءل الكاتب الفرنسي جوليان غرين: "ألا يمكن كتابة إِنجيلٍ – وأيّ إنجيلٍ! – بجمع كلمات يسوع التي أفضى بها إلى قدّيسيه؟".

والأخت مريم كانت، بنصاعة براءتها، ونار حبّها، الفم الذي غالبًا ما تكلّم به الروح؛ وهكذا، عَبْر تلك الأمّيّة، بلّغتنا السماء تعاليم ساميةً تفوق كلّ حكمة الحكماء.

وفي ما أفضى به يسوع للأُخت مريم من أَقوَالٍ، قراءةٌ قشيبةٌ للإِنجيل، فقد طالما تحدّث إِليها أحاديث أخّاذةً، كفيلةً بمؤازرتنا على اكتشاف الإنجيل وقد أشرق بنورٍ ساطعٍ بهيٍّ. وقد ضمّنّا صفحات هذا الكتاب شذراتٍ مستفيضةً من تلك الأحاديث، فهي كنزٌ ثمينٌ حافلٌ بالدّرر النادرة، ومنبعٌ ثرٌّ يفيض نورًا خلاصيًّا.

* * *

ولئن كان سواد الناس ينشدون السعادة – ويخطئونها – في التماس الرفاه ومُتع الجسد، في الثراء والامتلاك، في تقدير الناس وتبجيلهم، في الاستقلال وكبرياء الإِرادة والفكر، فالأخت مريم، على غِرار كبار القدّيسين، قد نشدت السعادة – وعثرت عليها – في التقشّف وإِذلال الجسد، في الفقر المطلق، والتجرّد من كلّ شيءٍ، في ازدراء الناس لها، في العزلة والتنسّك، في التخلّي عن إرادتها، وفوق كلّ شيءٍ، في الألم والصليب. قبل يسوع، كان المتعبّدون يطلبون، لقاء صلواتهم، وبدل أضاحيهم، تحقيق حاجاتهم، وتنفيذ رغباتهم: الثروة والقوّة والصحّة والنجاح وقهر

الأعداء. وقد قَلَبَ يسوع المفاهيم: "لا مشيئتي، بل مشيئتك، أيها الآب!". ففي تلاقي مشيئة الربّ العليا، ومشيئة الإنسان المطيعة، في اتّفاقهما واتّحادهما، تكمن السعادة الحقّة. الله لا يستطيع أن يبتغي سوى خير الإنسان، ولو بدا ما يريده شرّ الشرور في عيون الناس أجمعين.

إنّ جنون الله يسمو، بما لا يُقاس، على حكمتنا؛ والاستشهاد الذي قد يقتضيه منّا ينطوي على بذور السعادة أكثر من كلّ أفراح الأرض ومباهجها. وعندما يتخلّى الإنسان، طائعًا، عن إرادته الذاتيّة، بكلّ ما يَعتورُها من وَهَنٍ وتردّدٍ وتردٍّ وأنانيَّةٍ، كي يلتئم بالإرادة الكليّة الشاملة، حينئذٍ فقط، يظفر بحرّيّته الكاملة، وينعتق من قلقه، وتوتّره، وضياعه.

والأخت مريم قد وهبت الله ذاتها، في عطاءٍ مجرّدٍ مُطلقٍ، لا باختيارها نهج حياةٍ أو سلوكٍ معيَّنٍ، بل بالصدوف عن كلّ اختيارٍ، وبالاقتصار على الانقياد لنفحات الروح والإذعان لإلهامه. وقد انتهجت الأخت مريم، إلى الربّ، درب الحياة الرهبانيّة الخفيّة. فالنظام الكرمليّ، الذي انتظمت في سِلكه، يفرض العزلة التامّة عن العالم، والتحجّب، والصمت، والتجهّد، والزهد.

لقد بات الكثيرون، في عصرنا المزهوّ بإنجازاته التقنيّة، لا يفقهون هذا النمط من العزلة ولا يتقبّلونه، بل قد يعتبرونه تهرّبًا من النضال، وانزواءً أنانيًّا، مغفلين سموّ معاني شِركة القدّيسين، والتضامن الإنسانيّ، وبطولة التضحية التي تقتضيها الحياة الرُهبانيِّة التي تتوخّى الصلاة عمّن باعوا نفوسهم وأغفلوا الصلاة، وتحرَص على التأمّل نيابةً عمّن حَسَر بصرهم، فما عادوا يدركون سوى المادّة الواقعة على منال يدهم، والتي تُبقي أواصر الروح مشدودةً بين السماء وأرضٍ يكاد سواد قاطنيها يفقدون الروح.

يقول جوليان غرين: "أسمع حتّى من أناسٍ فطنين، أَنّ الانحباس في منسكٍ للتأمّل وخلاص النفس، عملٌ يتّسم بالأنانيّة المطلقة، وفي هذا القول تجاهلٌ لشركة القدّيسين التي تجعلنا، جميعًا، متضامنين. فلا أحد يخلُص بفضل ذاته. وكم من نفوس انتزعتها من براثن الشيطان صلاة راهبٍ كرمليٍّ متواضعٍ، سيظلّ العالم يجهل حتّى وجوده!

"كيف نستطيع إقناع رجال اليوم، أنّ هناك دعواتٍ متباينةً إلى ما لا نهايةٍ، ولكنّها، جميعها، يحدوها الحبّ. إنّ أكثر ما يصدمني هو تفاهة الاعتراضات وعنادها، والتي منها نشأت النزعة الأميركيّة: العمل قبل الصلاة، وكأنّ الصلاة ليست هي العمل على أرقى مستوى!".

من يستطيع تقييم سخاء أولئك الرهبان والراهبات الذين سجنوا أنفسهم طوعًا في محبسٍ مزدوجٍ من عزلةٍ خفيّةٍ وإغفالٍ تامٍّ، وبذلوا كلّ دقيقةٍ من حياتهم، في سبيل إِخوةٍ لهم، وفي مجّانيّةٍ من الحبّ، مذهلةٍ؟

لقد اعترف الكاتب الفرنسي، إِميل بومان، وكان ذات ليلةٍ ضيفًا في منسك رهبانٍ، وسمع في هدأة الليل صوت جلداتٍ ينهال بها على جسده راهبٌ يقيم إلى جواره، أنّ شعورًا غريبًا عميقًا تولّاه أحسّ معه أنّ كلّ جلدةٍ كان ينزلها بنفسه ذلك الراهب إنّما كانت تكفيرًا عن خطيئةٍ اقترفها هو.

إِنّ أولئك الذين يعتكِفون للصلاة، لا يهجرون العالم، بل يحملون معهم روحه الأبديّة، وهمومه الجوهريّة، ومصائره، ويلقون بها عند أقدام المخلّص، مبتهلين من أجل تنقيتها. إِنّهم يقفون أمام الربّ، وفي قلوبهم وعلى مناكبهم، البشريّةُ بأسرها. إِنّهم سفراء الضعف البشريّ ووسطاؤه. إنّ عزلتهم آهلةٌ بالربّ، وبجميع من يدبّون على الأرض، في غير تمييزٍ، وآهلةٌ أيضًا بمن انتقلوا عن الأرض، وما برحوا يفتقرون إلى غوْث ودعاء.

إِنّهم أبطالٌ، إذ قد توفّرت لهم قوّة التمرّد على سيرة العصر ومفاتنه، والإزراء بأوهام التقدّم المزعوم الذي لا يمثّل سوى عبوديّة المادّة، ومضاعفة حاجاتٍ نافلةٍ يسلخ المرء عمره في إِشباعها، عبثًا، وأيقنوا أنّ التقدّم الحقّ إِمّا أن يكون روحيًّا أو لا يكون أبدًا، وأنّه إنّما هو تصعيد النفس في معارج الكمال، وفي الدروب المؤدّية إلى الله.

الكنز الوحيد الذي يطمحون إلى اقتنائه هو الاختفاء؛ وبتجرّدهم عن كلّ شيءٍ يتّحدون بالله، وبإِغفالهم ذواتهم يكتشفون نفس العالم الخالدة، وبصلواتهم يعانقون البشريّة كلّها. بهم تجثو البشريّة المتقلّبة، التي تتقاذفها هموم اضطراباتٍ زائفةٍ،

متحرّرة القلب، أمام باب الفردوس الأبديّ، وبفضلهم تُصغي أُذُن العليّ إلى توسّلات البشر وأناشيد تمجيدهم.

فكم من نفسٍ قد ظفرت بالنور والهداية والخلاص، بفضل واحدٍ من أولئك الذين ضحّوا بحياتهم، في صمتٍ وخفاءٍ، والذين لن تُكتب لهم رؤية ثمار تضحياتهم إلاّ في الشاطئ الآخر من الحياة، مكتفين من هذه الدنيا بالصلاة والجهد والتضحية بكلّ عزاءٍ ماديٍّ، حتّى الأكثر براءةً!

ولئن كان لا يزال في العالم متّسعٌ من رجاءٍ، فإنّما الفضل يعود إلى أولئك الذين، في عزلتهم، يصلّون من أجل العالم أجمع.

هذا، فضلاً عمّا يمثّل لنا أولئك الرهبان من تذكيرٍ حيٍّ بأنّ لنا نفسًا خليقةً باهتمامنا فوق كلّ اهتمامٍ، وبأنّنا، ما لم ننغمس في الربّ، لنسينا قريبنا، ولفقدنا إنسانيّتنا، وأنّنا، إن لم نُحِط أنفسنا، بين حينٍ وآخر، بجوٍّ من الصمت لا يعكّره صخب العالم، لتعذّر علينا سماع صوت الله الهامس في أعماقنا.

إنّ مثال الأخت مريم يسوع المصلوب يضعنا أمام حقائق أساسيّةٍ، خليقةٍ بتأمّلنا العميق. فهي عندما واجهت الخَيار الجوهريّ الرهيب: الله أو لا شيء، اختارت الله، وعزفت عن كلّ شيءٍ، فأنقذت نفسها، وأسهمت في إنقاذ ألوف الآخرين، وظفرت بالربح الوحيد الجدير بالاختيار، فوق كلّ شيءٍ. كما أنّها عاشت، في بساطةٍ وسخاءٍ، إيمانها بتضامن الأطهار والأشرار، الجلاّدين والضحايا، الآباء والأبناء، الخطأة والقدّيسين، الأرض والسماء.

وهي، بوفائها لنذورها الرهبانيّة، تدلّنا إلى سبيل الانعتاق ممّا يرهقنا ويزهق أرواحنا: الجسد والمال والكبرياء، وغرور الإرادة.

ولم تقتصر الأخت مريم على الصلاة والتأمّل والتزهّد نيابةً عمّن أغفلوا الصلاة، وطوّحت بهم دوّامة الصخب، وسيطرت عليهم الأهواء، بل إنّها حملت على كاهلها الصليب، نيابةً عمّن تنكّبوا عنه، وتأفّفوا من وِقْره، وثِقَلِ وطأته.

لقد كان الصليب خَيارها الأسمى والجوهريّ، فجعلت منه رمزًا لحياتها وشعارًا. "إنّ كلام الصليب عند الهالكين جهالةٌ، وأمّا عندنا، نحن المخلّصين، فقدرة الله".

وما أكثر الذين يتنكّرون اليوم للصليب، ويرفضونه، ويتمرّدون عليه، مع أنّه الشجرة الوحيدة التي تحمل الحياة!

إنّ المسيحية، على نحوٍ خاصٍّ، قائمةٌ على الصليب، والذين يبشّرون بمسيحيّةٍ خاليةٍ من الصليب، فإنّما هم خدّاعون، كذبةٌ، مضلّلون. فالمسيحيّة، بلا صليبٍ، شوهاء، كاذبةٌ، بل هي خيالٌ باطلٌ.

إنّ الألم يغمر الأرض، ومنه ما هو ينبع من صَغارات الناس وأنانيّاتهم وجشعهم، فيسمّم وجودهم؛ وهو وَصْمة عارٍ في جبين الإنسانية؛ ومنه ما هو اختلالٌ في نظام الطبيعة والمجتمع، يتوجّب على كلّ قادرٍ تقويمه ومكافحته والقضاء عليه، وقد دأب يسوع، أثناء عبوره الخاطف بكوكبنا، على محوه والتخفيف من وقعه.

غير أنّ هناك من الألم ما يبقى سرًّا أو ما لا مفرّ منه، ويسوع لم يحاول تفسيره، بَيدَ أنّه استنكر اعتباره عِقابًا، وتمثّل بمن يعانونه، لا بل شرب، هو نفسه، كأسه حتّى الثمالة. إنّه "لم يأتِ ليُزيل الألم، بل جاء ليملأ الألم بحضوره"، على حدّ قول بول كلوديل.

ومذ تألّم ذلك البريء الأوحد، اكتسب الألم معنًى يتخطّى حجمه، وما عاد مثار شكٍّ. ومذ أقام يسوع ملكوته على الصليب، بات الصليب أسمى ما يطمح إليه أتباعه.

إنّ مواقف الناس من الألم شديدة التباين. فثمّة من يرفضه، وهو غير قادرٍ على الإفلات من قبضته، فتتضاعف محنته، ويمسي بين براثنه ضحيّةً يائسةً لسيّدٍ ضارٍ يدسّ السمّ في فكره وحياته. وثمّة من يقف منه موقف المتحدّي، الذي يزعم مقاومته بازدرائه له، ولكنّه يمتلئ منه مرارةً.

وهناك من يرنو إلى الصليب، فيقبل الألم تمثّلاً بإلهٍ قبِلَ الصليب افتداءً للبشر؛ إنّه يرضى بالألم فينقّيه ويتنقّى به، يطهّره ويتطهّر به، يمسي سيّده، فيسمو به.

ومن قَبِل الصليب، أعانه المصلوب على حمله، وأشركه معه في سرّ فدائه، وفي مجد قيامته، فيغدو له الصليب مَعين حبٍّ وخلاصٍ، وسخاءٍ وفرحٍ وسلامٍ، وانعتاقٍ من العبوديّة والخوف، بل يغدو أجنحةً تساعد على التحليق إلى أجواز السماء. الألم

لا يصبح صليبًا إنْ هو لم يُقدَّم لله، في نيّة فداءٍ وتضامنٍ، بالاشتراك مع صليب يسوع. وما لم تتحوّل الآلام صلبانًا تثمر الخلاص، ظلّت أعباءً تحطّم، وتنتج النقمة والتمرّد، وكانت، كالخطيئة، شرًّا ومعثرةً.

يسوع، المخلّص الأوحد، هو، وحده، سيستطيع أن يحوّل إلى صليبٍ فادٍ، آلام البشر النافلة، التي عليها يتمرّد البشر؛ بَيدَ أنّ عمل الربّ نفسه لا يُجدي إنْ لم يمرّ عبر حرّيّة البشر، وإن لم يتضامن البشر مع المخلّص، وبعضهم مع بعضٍ.

وفي ضوء ذلك يتجلّى صواب قول غوستاف تيبون: "من يأبى للإنسان الصليب، يُثبت أنّه يجهل ما هو الإنسان، وما هو الصليب".

لِمَ قلّةٌ هم أَتباع يسوع المخلِصون؟ لأنّ السواد الأعظم يودّون حبّه إلاّ أنهم يأبَوْن اقتسام آلامه، في حين هو يمدّ لنا ذراعين مُسَمَّرَتين على الصليب، بحيث لا بدّ لمن يروم عناقه من تَقبِيل صليبه، ولمن يبتغي الاتّحاد به، من معاناة نزاعه.

أتباع يسوع لا يفرّون من الألم، ولا يسيطرون عليه، بل يعانقونه، عناقهم للصليب الذي سيظلّ أبدًا "فضيحةً"، وموضع استنكار. يعانقونه في حلَكِ ليل الإيمان، وأسراره المُستغلِقة، وجهلِه المفعَم حكمةً، شأن حبّة القمح التي تتوغّل في الأرض لكي تموت، غير حافلةٍ إلاَّ بالاستسلام للموت، تاركةً للشمس مهمّة البَعث والقيامة.

إِنّ القدّيسين، على تباين نزعاتهم، يشتركون في ولهِهِم بالصليب، لا من أَجل الصليب نفسه، أو حبًّا مَرَضِيًّا بالألم، بل حبًّا مندفعًا بالذي اختاره رمزًا للحبّ الأكبر، من أجل فداء العالم.

إِنّ فرح القيامة مستمَدٌّ مباشَرةً من الجمعة الحزينة، والذين يرفضون الصليب، إِنّما هم يرفضون الفرح.

وقد يحكم العالم، على من يلتمسون الصليب، بالجنون، لأنّ العالم تستهويه البهارج، في حين أنَّ ملتمسي الصليب يبتغون الحقّ الصافي، ووجه الله.

يقول خوري أرس القدّيس: "إِنّ الصليب يعانق العالم. إِنّه مغروسٌ في زوايا العالم الأربع، وثمّة لكلّ إنسانٍ قِسْطٌ منه.

"الصليب أغزر الكتب التي يمكن مطالعتها علمًا. ومن لا يطّلع عليه جاهلٌ، ولو هو أحاط بكلّ ما على الأرض من كتبٍ. وليس عالمًا حقيقيًّا إلاّ من أحبّه، واتّخذه مرجعًا، وأمعن في دراسته. إنّه كتابٌ مرٌّ، ولكن، ليس من سعادةٍ أكبر من الغرَق في تلك المرارة. وكلّما أطال المرء التتلمذ عليه، ازداد به تعلّقًا. معه يمرّ الوقت في غير سأمٍ، وبه يدرك المرء كلّ ما يودّ معرفته، ولكنّه لا يرتوي، أبدًا، ممّا يتذوّق فيه؛

"علينا السعي إلى الصليب، مثلما يسعى البخيل إلى المال...

"التألّم، مع الحبّ، ليس ألمًا..."

ويقول ذلك الكاهن القدّيس أيضًا:

"ضعْ عنبًا جيّدًا تحت المعصرة، فينبثق منه عصيرٌ لذيذٌ؛ كذلك نفسنا تحت معصرة الصليب تنتج عصيرًا يغذّيها ويقوّيها. وعندما نفتقر إلى الصليب، يحلّ بنا الجدب والقفر، ولكنّنا عندما نحمل الصليب بتسليمٍ، يغمرنا شعورٌ بالعذوبة والسعادة... ونشرع بولوج السماء.

"الأشواك تنضح العبير، والصليب ينضح العذوبة، ولكن يجب عصر الأشواك باليد، وضمّ الصليب إلى القلب، لكي تجود بما تنطوي عليه من عصارةٍ".

والأخت مريم قد اختارت المصلوب اسمًا لها وشعارًا؛ امتشقت صليبها برضًى، منذ طراوة عودها، وما زادتها الأيام إلاّ التصاقًا به، وفيه تلاشيًا، فصاغ الصليب حياتها، وغدا بوتقة قداستها.

لقد اختارها الله وميّزها ولكن "أيّ ثمنٍ باهظٍ، بالمقياس البشريّ، قد دفعت لقاء ذلك الامتياز الإلهيّ، وأيّة آلامٍ!" على حدّ ما قيل فيها.

اختارها الربّ فسمّرها على الصليب، وأراد إشراكها في سرّ فدائه فأوسعها من الآلام ألوانًا. لا بل إنّه قال لها، في إحدى رؤاها: "أريد أن تتألّمي، وإن أنت لم تتألّمي، بالقَدرِ الكافي، سأقيم من الحجارة ما يسبّب لك الألم".

وقد عاشت، حتّى أعماق كيانها، صليب الجسد والفكر والروح. وبرهنت على استئهالها اختيار الربّ، بتوافقها مع كأس الألم، وإقبالها عليه في رضًى وحبٍّ وسخاءٍ. فظلّت، مع كلّ ما عانت، وحتّى ساعاتها الأخيرة، تلتمس المزيد، وتعتقد أنّها لم تنلْ من الألم المطهّر الفادي، القسط الوافي.

وقد شدّدها الربّ في حمل الصليب، من غير أن يخفّف آلامه بأيّ عزاءٍ، ليكون تشبّهها بالفادي كاملاً، وإسهامها في سرّ الفداء جزيلاً، بحيث كان يحقّ لها أن تردّد مع الرسول: "أنا الآن أفرح بالآلام التي أعَانيها... فأكمّل في جسدي ما نقص من آلام يسوع في سبيل جسده الذي هو الكنيسة".

ذلك التوافق مع الصليب جعل من جميع الأحداث، في حياتها، عوامل قداسةٍ، فحتّى العقبات التي اعترضتها قد استثارت فيها المزيد من الفضائل.

فقد كانت، في التماس الكمال، وفي محبّة الله، نارًا مضطرمةً، والنار أبدًا لا تقول: كفى.

وكانت قداستها أكثر من مجرّد التمرّس بالفضائل: كانت إنصاتًا مرهفًا لصوت الربّ، وتأهّبًا دائم اليقظة للارتحال في حرّيّة الحبّ، وثقة الإيمان، إلى حيث تأمر المشيئة الإلهيّة، مهما اكفهرّت المسالك، واكتنف السرّ غاية المطاف.

إنّها لم تَتوقّع، يومًا، من الله سوى الله، ولم تبتغِ سوى مجده، وغدت، على حدّ قول الرسول بُولُس: "ليست هي التي تحيا، بل الله فيها يحيا". فلا عجب إن اتّخذها الله أداةً لأروع معجزاته.

بَيدَ أنّها بقدر ما خرقت أُطُر العالم وسُنَنه، قد عاشت فيه، ببساطةٍ وتواضعٍ، فكانت طفلةً سماويّةً، وملاكًا أرضيًّا؛ وبقدر ما انغمست في الله حقّقت إنسانيّتها، وعانقت نفوس البشر.

إنّها قطعت، في دروب الصوفيّة، شأوًا بعيدًا، ولم تكن صوفيّتها إلا ارتقاءً بالحياة اليوميّة إلى أسمى ذُرى الكمال والازدهار. فقد كان السامي والعاديّ، عندها، يسيران جنبًا إلى جنبٍ، والخارق والمألوف، لديها، لا يفترقان، كما هو شأن الإنجيل.

وقد احتفظت أبدًا بنظرتين: إحداهما يبهرها الأبديّ، والأُخرى تتبصّر بالزائل. فلا يتغذّى فيها الرجاء بالأوهام، ولا يتمادى التبصّر حتّى الجُنوح إلى القُنوط، بل كان إيمانها بالكلّ يترسّخ مع زوال الإيمان بالجُزئيّات.

بحيث صحّ فيها قول فرانسوا مورياك:

"نحن، جميعًا، عرفنا بعض هؤلاء الأشخاص، الذين، مع انصرافهم إلى المهامّ

العامّة المبتذلة، لا يكفّون عن الإقامة في حضور الله باستمرارٍ، بحيث يدين لهم بالإجلال، حتّى أكثر الناس حقارةً، بدافع شعورهم الغامض بذلك الحضور".

* * *

في ١٨٧١/٨/١٦، كتب الأب لازار، الذي كان، سحابة سنواتٍ عديدةٍ، مُعرّفًا للأخت مريم يسوع المصلوب، فتسنّى له الاطلاع على سنى نفسها الفذّة: "سيكون لنا في الأخت مريم قدّيسةً كبيرةً، إن هي ظلّت وفيّةً، وستكون سيرتها إحدى أعجب السِيَر في تاريخ الكنيسة".

ولقد كان وفاء الأخت مريم مدهشًا، فغدت سيرتها، حقًّا، من أعجب السِيَر، في تاريخ الكنيسة. وقد وصفها المطران لاكروا، أسقف بايون، الذي راقبها عن كثبٍ، أثناء إقامتها في كرمل "پو" بفرنسا، بأنّها "معجزة النعمة الإلهيّة".

أمّا الكردينال تبّوني، الذي التمس تطويبها فقد أكّد "أنّ الكنيسة الشرقيّة تعتبرها أحد أمجادها الحاضرة، بل من أكثر أمجادها نقاءً وتألّقًا".

ومع ذلك، فإنّ ذلك الوجه البهيّ الفريد، من بلادنا، يكاد يكون مجهولاً في شرقنا المسيحيّ.

إنّ جمال ذلك الوجه المنقطع النظير لحَريٌّ بأنْ يوضع على منارةٍ ليتأمّل الجميع إشعاعه.

وإنّ المُثُل السنيّة التي زخرت بها تلك السيرة الفذّة، لجديرةٌ بالنشر والتعميم لتكون أسوةً ونبراسًا، وتحدّيًا واستفزازًا. فالقداسة ليست وقفًا على قلّةٍ ضئيلةٍ، بل الجميع منتدَبون لها.

وإنّ تلك الفتاة التي أنبتتها أرضنا العربيّة، وكانت عُروبتها إحدى سماتها المميَّزة، لخَليقةٌ بهزّ أعمق ما فينا من نزعات الخير والكمال، وبنَشْر عدوى القداسة والإيمان في صفوفنا.

وهذا ما حدا بي إلى تقصّي سيرة الأخت مريم يسوع المصلوب في دأبٍ وحُبٍّ، وحِرصٍ على إبراز دقائقها المُدهشة، فاستقريت أوثق المراجع التي تناولتها، واستقيت أوفر المعلومات من أوثق المصادر، وأكثرها إلمامًا بها، وأدقّها أمانةً في تدوين أفعالها وأقوالها.

ولا بدّ لي، قبل الخَوض في تفاصيل هذه السيرة المدهشة، من كلمة شكر أوجّهها إلى كلٍّ من نيافة السفير البابوي بدمشق، المونسنيور نقولا روتونّو، الذي تكرّم فوافاني بوثائق تطويب الأخت مريم يسوع المصلوب، بكلّ ما حفلت به من شهاداتٍ ووثائق نادرةٍ، وإلى الصديق الحبيب الأب الياس زحلاوي، الذي، بإرشاده السديد، وتشجيعه المُفعم محبّةً، حفّزني على المضيّ، بصبرٍ وأناةٍ، في مشوار هذا الكتاب.

بيت لحم

الفَصْلُ الأَوَّل

أسْرةٌ صهرَتْها المحن، وَصَاغها الإيمَان

في مطلع القرن التاسع عشر، كانت قسوة ظروف العيش، وضراوة الاضطهادات، قد أسهمت في تهجير العديد من الأسر الشاميّة إلى شتّى بقاع الأرض، وقد دفعت، في من دفعت، كلاً من أسرتَي بواردي وشاهين إلى الفِرار من دمشق وجبل لبنان، إلى جليل فلسطين.

"جريس بواردي" كان قد استقرّ في قرية حُرفَيْش، حيث مارس صناعة طحن البارود، مواصلاً مهنة أسلافه التي أكسبتهم لَقبًا بات لهم اسمًا، ولكنّها لم تكسبهم الكثير من المال. فقد عاش جريس فقيرًا، ومات مُعدمًا، ولكنّه كان غنيًّا بخُلُقٍ منيعٍ، وهمّةٍ لا يتسرّب إليها الكَلَل، ومحبّةٍ سخيّةٍ لا حدّ لبَذلها، وعلى الأَخصّ بإيمانٍ لا يتزعزع، كان له في الحياة سندًا وحافزًا، وعانى، في سبيله، من المضايقات، قِسطًا وفيرًا.

وقد اختار جريس لنفسه زوجةً من قرية ترشيحا المجاورة، هي ماري شاهين، التي كانت تُضارعه استقامةً وإِيمانًا. وقد تعرَّضت الأسرة الشابّة، على نحو ما يتعرّض الكثيرون من أولياء الله، إلى فَيضٍ من المحن.

فقد ارتُكِبت، يومًا، جريمة قتلٍ، في قرية ترشيحا؛ وإذ كانت الشرطة العثمانية في حاجةٍ إلى متّهم، لكي تُثبت قدرتها على إِشاعة الأمن، ألصقت التُهمة بالبواردي الوديع المستقيم، وأودعته السجن، في تعسّفٍ لا يثنيه وجدانٌ ، ولا تظلّم بريءٍ. وتقبّل جريس تلك المحنة، في جرأةٍ وإِيمانٍ، وثقةٍ بالعناية الإلهيَّة التي انتهت بالكشف عن الجاني الحقيقيّ. وكان، في غمرة محنته، يشدّ من أزر زوجته، ويدعوها إلى الاستسلام للمشيئة السامية، والعناية العليا الساهرة.

غير أنّه، في أعقاب الإفراج عنه، قد آثر الابتعاد عن كلٍّ من حُرفَيْش وترشيحا، تفاديًا للصدام مع من لفَّقوا له التُهمة جُزافًا، بُغية التشهير به، والقضاء عليه؛ واستقرّ به وبزوجته المقام، في قريةٍ مغمورةٍ، هي قرية عبلّين، حيث استأنف مهنته في دأبٍ، ولم يلبث أن ظفِر بتقدير الجميع واحترامهم، وحيث مارست زوجته، على حداثة عهدها بالقرية، تأثيرًا بالغًا في نسائها وفتياتها، إذ لقّنتهنّ الخياطة، وصناعة الخبز، والصلاة، وخلّفت سُمعةً عطرةً، ظلّ عَرفها يتضوّع أجيالاً متعاقبةً.

بَيدَ أنّ المِحَن لم تُهادن الأسرة المنكوبة، في منفاها في عبلّين، بل ما انفكّ ينهال عليها من المآسي أضراها، تلك التي تصيب المرء لا في جسده أو في كرامته، بل في أعزّ من يحبّ. فقد رُزق جريس وماري اثني عشر صبيًّا اختطفتهم المنيّة جميعهم، وهم بعدُ في المهد، قبل أن يسعد الأبوان بمشاهدة خطواتهم الأولى، وقبل أن يسمعا لهم ثغثغةً. وقد حطّمت تلك الفواجع المتعاقبة قلبيهما، ولكنّها عجزت عن النيل من إيمانهما.

وذات يومٍ، جال إلهامٌ في خاطر الأم الملتاعة، فبادرت زوجها قائلةً: "هيا بنا نحجّ إلى بيت لحم. فنسأل العَذْرَاء طفلةً نكرّسها لها، وندعوها باسمها، ونَنذُر عنها مثل وزنها شمعًا، عندما تبلغ من العمر ثلاثًا".

وفي الحال انتظم الزوجان في حجٍّ متلهّفٍ، اقتضى منهما السير على الأقدام مسافة مئةٍ وسبعين كيلومترًا. وفي المغارة التي شهدت ولادة الطفل الإلهيّ، تضرّعا في حرقةٍ استجاب لها المولى، الذي غالبًا ما يلين أمام الإيمان الصادق.

وفي عشيّة عيد الظهور الإلهيّ، في الخامس من كانون الثاني ١٨٤٦، جاءت إلى العالم هديّة العذراء، مريم البواردي، التي ستحفل سنواتها الثلاث والثلاثون، على الأرض بخوارق، قلّما اجتمعت لسواها من مختاري الله. وبعد عشرة أيّامٍ، عُمّدت الطفلة، في كنيسة طائفة الروم الكاثوليك في القرية.

وبعد انقضاء سنتين، رُزقت الأسرة، أيضاً، صبيًّا دُعي بولس. ومع زقزقة الطفلين، شاع الحبور في منزلٍ قد طالما خيّمت عليه الفواجع، وخُيّل للوالدين أنّ عهد المحن قد ولّى. ولكن لم يكن ليخطر لهما ببالٍ أنّ محنهما قد أشرفت على التلاشي، حقًّا، وإلى الأبد، على نحوٍ لم يكونا ليتوقّعاه، لتنشَب بالطفلين البريئين، بقسوةٍ.

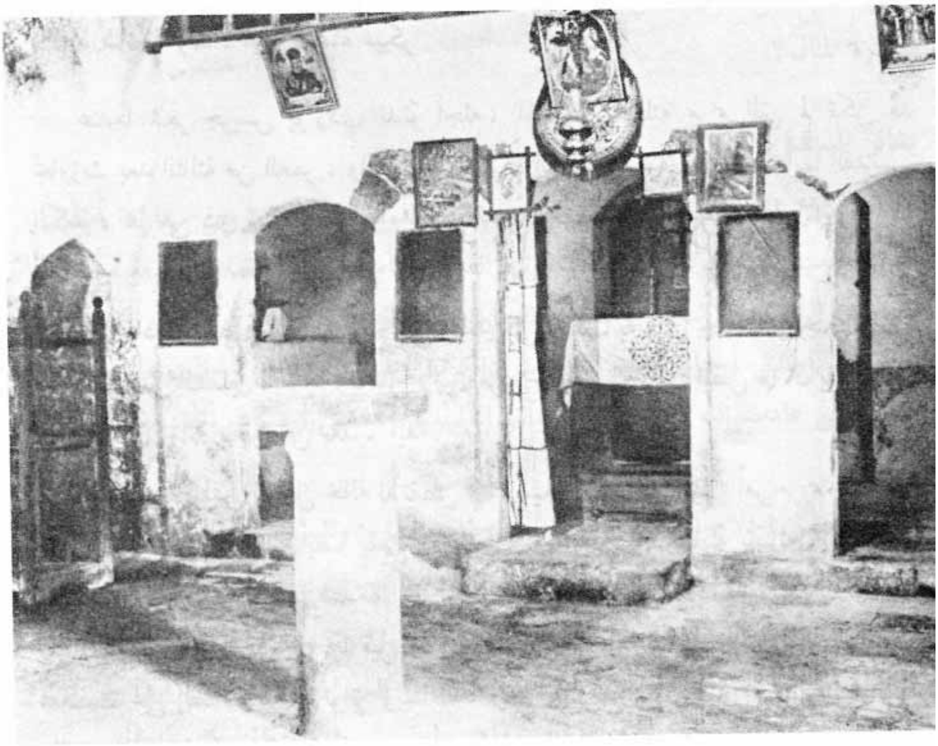

داخل كنيسة عبلّين

طفولة شائكة ونداءٌ من السماء مبكّرٌ

عندما شعر جريس بواردي بدنوّ أجله، استدعى طفلته مريم التي لم تكن قد تجاوزت بعد الثالثة من العمر، والتفت إلى صورة القدّيس يوسف قائلاً: "أيّها القدّيس الكبير، ها هي ذي ابنتي؛ العذراء القدّيسة هي أمّها، فتكرّم واسهر عليها، وكن لها أبًا".

وما كادت تنقضي أيّامٌ معدودةٌ على وفاته حتّى لحقت به، في لحده، زوجته الوفيّة. ولم يُقضَ على الطفلين، مريم وَبُولُس، بيُتمٍ مزدوجٍ فحسب، بل قُيِّض لهما أَن يفترقا قبل أن يتعارفا، وألاّ يلتقيا من بعدُ، أبدًا.

لقد تبنّت بولس الطفل خالةٌ له تقطن في ترشيحا، في حين تولّى أمر مريم عمٌّ لها، ميسور الحال، كان هو أَيضًا يُقيم في عبلّين، وقد عُني بها عنايته بأبنائه، ولكنّه لم يستطع أن يمحوَ من نفسها صدمة اليُتم المبكّر التي وسَمَتها بدمغةٍ دائمةٍ. بَيدَ أَنّ ما كان يُبلسم بالعزاء قلبها الجريح، ما قيل لها أنّ العذراء هي أمّ اليتامى، على نحوٍ خاصٍّ، فعكفت على الصلاة لها في تواترٍ وبساطةٍ، وهي على يقينٍ بأنّ العذراء قد غدت أمّها مرّتين، أمًّا سماويّةً وأمًّا أرضيَّةً، بعد أن فقدت الأمّ التي أنجبتها.

وخليقٌ بالملاحظة أنّ كلاًّ من أبي مريم وأمّها قد توفيّ في يوم سبتٍ، وهو اليوم الموقوف على تكريم العذراء أمّ الله، وأنّ مريم نفسها قد أَلِفَت، منذ الخامسة من عمرها، حتّى مماتها، ممارسة الصيام التامّ حتّى الغياب، كلّ يوم سبتٍ، والامتناع عن كلّ طعامٍ تستمرؤه. وكانت تندفع إلى قطف أجمل الزهور، وأعذبها أريجًا لتودِعها أضاميم عابقةً أمام صورة العذراء، وتجدّدها باستمرارٍ لكي تظلّ نديّةً أبدًا. وببدو أَنّ العذراء كانت ترمق، في رضًى واستحسانٍ، مبادرات ابنتها تلك، وقد كافأتها، ذات يومٍ، بلفتةٍ خارقةٍ، حين ضربت الزهورُ التي كانت مريم قد وضعتها في إناء أمام صورة أمّها السماويّة جذورًا، ونمت، وتضوّعت منها طيوبٌ فاغمةٌ. فهرعت لتعلم عمّها الذي استدعى أهل بيته وكاهن القرية، وبعض الجيران، فأوقدوا الشموع، وحمدوا الله بالتسابيح. وخشي الكاهن أن يتسرّب شيطان الغرور إلى صدر الصغيرة، فأوهمها بأنّ ما تمّ هو من عمل إبليس، فما كان منها إلاّ أن ارتمت جاثيةً، نادمةً، مستغفرةً. وقد واكبتها تلك البراءة المتواضعة سحابة عمرها، وكأنّ الخطيئة لم تلطّخ، يومًا، نفسها بكَدَرٍ. وحُقّ لجميع من عرفها، في تلك الفترة، التساؤل، ما عساها أن تُصبح تلك الفتاة النادرة المثال؟

بشائر المستقبل

ولم يكن العَبَث واللهو يستهويانها، فعزفت، منذ طراوة طفولتها، عن مشاركة أطفال القرية اللعب على البيادر والمزابل، مؤثرةً العزلة والتأمّل، بين أحضان الطبيعة، حيث تلمح في الزهور والأشجار والطيور انعكاس صورة الخالق. وفي قرية عبلّين المُشرفة على آفاق الجليل وجبل الشيخ، ملأت ذاكرتها وعيونها من أفقٍ حبيبٍ ظلّ ساكنًا فيها، حتّى عادت إليه، في غروب حياتها القصيرة، لتقضي نَحبها في أحضانه، وتُدفن في ثراه.

إنّ بعض أَحلام الطفولة ترسم سمات حياةٍ برمّتها، وتضيء دروبها المجهولة، وفي طفولة مريم مثل تلك السِمَات التي خلّفت آثارًا لا تمّحي.

فبُعَيد تَيتّمها أُعطيت بعض العصافير كي تلهوَ بها وتسلو؛ وكانت، منذ صغرها، حريصةً على النظافة، كَلِفةً بها، وقد لحظت أنّ العصافير لا تستحمّ أبدًا فقررّت غسلها، وهكذا ماتت جميعها، فتولاّها عليها حزنٌ شديدٌ، وعمدت إلى دفنها في ورعٍ وأسًى. وحينئذٍ جاءها هاتفٌ يقول:

"هكذا كلّ شيءٍ يمضي؛ فإن شئتِ أن تهبيني قلبك، بقيتُ لك إلى الأبد". وقد ترسّخت تلك الكلمات في نفسها، وقادت حياتها بكاملها، إذ ما انفكّت أصداؤها تتردّد في حنايا صدرها، في كلّ مرحلةٍ حاسمةٍ من مسيرتها، وران على نفسها الشعور ببُطلان الدنيا وزوال كلّ ما عليها، وواكبتها فكرة الموت بلا هوادةٍ.

ومنذ ذلك الوقت، باتت لا تكترث لأيّة زينةٍ أو لباسٍ مُوَشّى، وتمقت كلّ تبرّجٍ وبهرجةٍ، بل تتألّم لذلك، رغم ما تُمارسه مثل تلك المظاهر من جاذبٍ على من هم في مثل سنّها. وكانت تردّد، في حكمةٍ تفوق سنّها: "علامَ تُعنَين، أنتِ ذرّة الغبار الصغيرة، بتزيين جسدٍ عليه أَن يُصبح للدود طعامًا؟".

ولطالما نَقَبت بيديها، في أرضِ الحديقة، حُفَرًا كانت تستلقي فيها متمثّلةً ما ستصير إليه بالموت. لا بل كانت أَحيانًا تتمنّى لو أَصابها ما أَصاب إِخوتها الاثني عشر الصغار، الذين طاروا إلى السماء، وهم، بعد، في شهورهم الأولى على الأرض، في حين كانت هي تخشى أَن ترتكب، في حياتها الأرضيّة، ما ينأى بها عن الله.

وقد أُنعم عليها، منذ طفولتها، بقراءة الغيب. ومن الأَمثلة التي تنهض شاهدًا على تلك الموهبة، أَنّها رأت، ذات ليلةٍ، في الحُلم، سمّاكًا جاء بيت عمّها، عارضًا بيع سمكةٍ كبيرةٍ رائعةٍ، وسمعت هاتفًا يقول: "إنّ كلّ من يأكل من تلك السمكة سيلقى حتفه". وكم كانت دهشتها بالغةً، في الغداة، عدما طرق الباب سمّاك تُحاكي ملامحه، محاكاةً تامّةً، ملامح السمّاك الذي رأته في الحلم، وباع ذويها سمكةً تشبه إلى أبعد حدٍّ، السمكة التي شهدتها؛ فهرعت إِلى عمّها، وروت له حلمها متوسلةً إليه أن يطرح السمكة جانبًا؛ غير أنّه لم يكترث لحلم طفلةٍ، وأمر الخدم بإعداد السمكة، ولكنّها ظلّت تتوسّل في إِصرارٍ، بل طلبت، في حال عزم الأسرة على تناول السمكة، أن تكون هي البادئة بالأكل منها، كي تثبت صحّة حَدْسها؛ وحيال إلحافها، إنتاب الشكُّ عمَّها، فعمد إلى تفحّص السمكة عن كثبٍ، وتبيّن له أَنَّها مسمومةٌ حقًّا. وهكذا أُعطي للطفلة المختارة، إِنقاذ ذويها من الموت.

ولم تكن تلك المواهب الفريدة التي خُصَّت بها مريم، لتخفى عن العيون الشاخصة إلى الله، وعن النفوس العائشة في حضرته. فقد استضافت أسرة عمّها، يومًا، ناسكًا كان يمرّ بالقرية، لم يعرفوه، قطّ، من قبلُ، ولم يروه ثانية، من بعدُ؛ وقبل أَن يغادر المنزل، جاؤوه بالأطفال ليباركهم، فارتعش لدى رؤية مريم، واعتراه تأثّرٌ يندّ عن الوصف، فأخذ يديها الصغيرتين بين يديه، وشدّ عليهما، وبعد فترة صمتٍ، بادر عمّها قائلاً: "أتوسّل إليك أن تُعنى عنايةً خاصّةً بهذه الفتاة".

أسقفٌ شيخٌ آخر، كان يختلف إلى منزل عمّها، الذي تربطه به أواصر قربى، فيأخذ الطفلة مريم ويجلسها على ركبتيه، ويكلّمها عن الله، الجدير، وحده، بكلّ حبٍّ، فيما الدموع تنهمر من مآقيه.

وإذ كانت مريم، في شبابها، تستذكر ذيْنك الشيخيْن الجليلين كانت تعلّق قائلةً: "لا جرمَ أنّ الله كان يُبدي لهذين القدّيسين كم أنا خاطئةٌ، ومعرّضةٌ للهلاك".

توثّبٌ نحو الله

لقد كانت مريم ذكيّةً، حادّة الطبع، متدفّقة النشاط، غير أنّ التقاليد كانت توصد دون الفتيات أبواب المدارس، وتلزمهنّ منازلهنّ بانتظار أن تأذن ساعة الزّواج الذي

قد يتمّ في سنّ الثانية عشرة أو بُعَيدها. وبالتالي لم يتسنّ لمريم تعلّم القراءة أو الكتابة، غير أَنّ ذلك قد جعلها تنكفئ على الحياة الداخليّة وتُغرق في التأمّل. وقد تولاّها المعلّم الفذّ الذي يُظهر للصغار ما يخفي عن الكبار، ويُري الأمّيّين ما يظلّ على العلماء مستغلقًا، أَعني به الروح القدس، الذي أَخذ يصوغ في تأنٍّ مأثرته الجميلة.

ومنذ السابعة من عمرها، أَلِفت مريم الاعتراف، كلّ يوم سبتٍ، وبعد الاعتراف كانت تلحف بالتوسّل إلى الكاهن لكي يقبل إِشراكها بالمائدة السماويّة ويناولها جسد المسيح السرّيّ. ولم يكن بوسع الكاهن أن يردّ بقسوة سؤالاً على ذلك القدر من البراءة والحرارة، غير أَنّ الأنظمة الكنسيّة السائدة، آنذاك، لم تكن تتيح له الموافقة عليه، فكان يدعو مريم إلى التريّث بضعة أشهرٍ أُخرى، ولكن عندما أشرفت على الثامنة من العمر، يبدو أن يسوع نفسه كان قد ضاق ذرعًا بالإرجاء والمماطلة، وعندما طلبت الطفلة من الكاهن مرّةً أُخرى، أن يأذن لها بتناول القربان، ردّ بالإيجاب، وهو في شبه غفلةٍ عن نفسه. في تلك الليلة حفل نوم الفتاة السعيدة بأسنى الأحلام: ومنذ الفجر طفقت تتأهّب للقاءٍ قد طالما صَبَتْ إليه، لاهفةً. والخشوع الذي سيطر عليها أَثناء القدّاس لم يمنعها من عدّ الدقائق والثواني التي كانت تفصلها عن اللحظة الحاسمة. ولمّا دنت من المائدة السماويّة وقد تلفّعت بشالٍ كبيرٍ يخفي طفولتها، خيّل إليها أن يسوع كان قادمًا إليها في هيئة طفلٍ بارع الجمال؛ ولا ريب أنّ الملائكة قد جذلت، بل طربت، لمشهد اللقاء الأوّل بين الفادي الذي وهب نفسه غذاءً يوفّر الحياة، ونفسٍ لم تلطخها لوثةٌ، متلهّفةٍ إلى لقياه.

وعندما طلبت مريم المناولة من جديدٍ، في الأسبوع التالي، دهش الكاهن وسألها:

– "وهل سبق لك أَن تناولتِ؟

– " أجل، في الأسبوع الفائت، بعد أَن أذنتَ، أنتَ، لي، بذلك.

– "حسن، ولكن لا تشيعي الأَمر، ولا تلفتي انتباه أَحد"

وهكذا ظلّت مريم تلتقي، كلّ أسبوع، بمخلّصها الحبيب، في خلسةٍ عن ذويها، وبمعرفة كاهنٍ انقاد لإلهام الروح، واستبق توصيات البابا بيوس العاشر، وذلك، قبل أَن يؤذن لها بالاحتفال بالتناول العلنيّ، عندما بلغت الثانية عشرة.

ولا ريب أَنّ ذلك القوت السماويّ هو الذي وفّر لها التمرّس بمنعة الأبطال، وبسالة الشهداء، في مقاومة المِحَن الضارية التي كانت تترصّدها.

منذ تلك السنّ المبكّرة كانت مريم قد اختارت طريقها، وعزمت على اقتفاء أَثر يسوع، وهي مدركةٌ أنّ يسوع يقتضي من أتباعه امتشاق صليبه واتّباعه على دروب الجلجلة.

"من مصر دعوت ابني"

كانت مريم في الثامنة عندما هاجرت أسرة عمّها إلى مصر، واستقرّ بها المقام في ضواحي الإسكندريّة.

وكان عمّها يرعاها ويُوليها من العناية مثل ما يُولي أبناءه، وعلى غير علمٍ منها، كان قد خطّط لها مستقبلاً آمنًا، وقرّر تزويجها من أخي زوجته المقيم في القاهرة.

ولدى بلوغها الثالثة عشرة أُعلنت خطبتها، وأُغدقت عليها هدايا فاخرةٌ من مجوهراتٍ وحليٍّ وثيابٍ، كان من شأنها دغدغة أحلام المراهقة فيها، ولكنّها لم تأبه لشيءٍ منها. ومع اقتراب موعد الزفاف تولّت إحدى قريباتها إطلاعها على ما سيتحتّم عليها من واجباتٍ زوجيّةٍ، فأدركت أنّ ذلك سيعني تضحيتها ببكارتها التي كانت قد نذرتها لله، منذ سنوات، بمبادرةٍ متفجّرةٍ من أعماق كيانها، وتردّدت في حنايا صدرها، من جديدٍ، الكلمات التي أُسرّت إليها يوم دفنت عصافيرها، لسنواتٍ خلت: "إن شئتِ أن تَهبيني قلبك، فسأبقى لك إلى الأبد".

وتجلّى لها في وضوحٍ لا لَبْس فيه القرار الذي كان عليها اتّخاذه: لن تتزوّج، بل ستكون كلّ خلجةٍ من قلبها، وكلّ ثانيةٍ من حياتها، وقفًا على خدمة يسوع وحده، وربّما تراءى لها، منذ تلك اللحظة، معنى الاسم الذي سيكون لحياتها دليلاً وبرنامجًا ونبراسًا، فهي ستكون ليسوع، وله مصلوبًا.

قضت ليلتها تلك ساهرةً، جاثيةً، ضارعةً أمام صورةٍ للعذراء، ملتمسةً أزرها، وجاءها الردّ في همسٍ سماويٍّ يقول: "أنا معكِ، يا مريم، سيري على نحو ما سألهمكِ، وأنا سأشدّ أَزْركِ".

ونهضت مشرقةً، فعمدت إِلى ضفائر شعرها فقصّتها، ولفّت بها ما جيء إِليها به من حليٍّ ومجوهراتٍ؛ وإذ كان عليها، في الغداة، أن تقدّم القهوة للمدعوّين من ذوي العريس، تقدّمت، وقد تلفّعت، كما أَلِفت، بوشاحٍ يُخفي رأسها، ودفعت إلى عمّها بطبقٍ يحمل، معًا، ضفائرها المقصوصة، والحليّ المهداة، وقرارها برفض الزواج.

صدمت المفاجأة الجميع، غير أنّها استثارت، على نحوٍ خاصٍّ، عمّها الذي أَنحى عليها ضربًا وتجريحًا؛ وقد حاول الحاضرون إِخماد غضبه، ودعوه إِلى اعتبار الأمر نزوةً صبيانيّةً عابرةً، يحسن معالجتها بالحسنى والأَناة.

ولم يألُ عمّها، في سبيل ردعها عن عنادها، ذريعةً. وعندما تبيّن له أَنّ دافعها كان إلهيًّا، توسّل إِلى إقناعها أسقفًا له بالأسرة صلات قربى، والكاهن الذي ألفت مريم الاعتراف بين يديه. وقد جهدا، كلاهما، في تذكيرها بواجب إِطاعة وليّ أمرها، ووصفا إِصرارها بالعناد والتمرّد، لا بل إنّ مُعَرِّفَهَا ظلّ، أشهرًا، يؤنّبها، حتّى أدّى به الأمر إلى منعها من تناول القربان المقدّس والاعتراف. ولكنّهما اقتنعا، في نهاية المطاف، أنّ ما عزمت عليه أمرها قد أُوحِيَ إليها به من سلطةٍ تسمو على سلطتهما وعلى سلطة الأهل، معًا، فتخلّيا عن مهمّة ردعها، مُكبرين فيها قرارها الصامد، في مثل تلك السنّ المبكّرة.

أما عمّها فلم يستسلم، بل حمله إصرارها على خلع كلّ ما أَلِفَه من دماثة خلقٍ وعطفٍ، وتصدّى بضراوةٍ من صُفِعت كرامته. فقرّر اعتبارها واحدةً من خدَمِه، وفرض عليها القيام بأكثر مهامّ الخدمة وضاعةً وقذارةً، بل إِنَّهُ حرّض الخدم على التعامل معها في خشونةٍ، وقد استجاب بعضهم إلى ذلك التحريض بسرورٍ، إذ وجدوا الفرصة المؤاتية للتسرية عن الكبت الكامن في أعماقهم، وللانتقام من الأسياد، في شخص واحدةٍ منهم.

وقد وصفت مريم، لاحقًا، تلك الفترة العصيبة من حياتها بقولها: "كنت دون الخدم ملبسًا وطعامًا، معزولةً عزلةً تامّةً عن ذويَّ، دائبةً على أعمالٍ شاقّةٍ لم آلفها، قطّ، من قبل، محرومةً من القدّاس والأسرار المقدّسة، لا بل إنّ معرّفي ما انفكّ يونّبني، معتبرًا أنّ موقفي يُمليه العناد فحسب؛ ولكن، في حين هجرني الجميع ودانوني، كان الفرح يغمر نفسي، وشجاعتي تشتدّ بقدر ما تتفاقم مِحَني، إذ كنت أرى أنّ آلامي كانت دون آلام يسوع، وكان يبدو لي أنّ طائرًا صغيرًا كان يشدو في صدري".

شهيدةٌ وطبيبةٌ سماويّةٌ

ثلاثة أَشهرٍ تصرّمت ازداد فيها قلب العمّ قسوةً، في حين ازداد إِصـــرار مـــريم على التشبّث ببكارتها ترسّخًا.

إلاّ أنّها وسْط العزلة التي أُحكم حولها طوقها، آنست شوقًا عارمًا إِلـــى أَخيهـــا بولس الذي كان قد بقي في ترشيحا. فاستكتبت له رسالةً تدعوه بها إِلى زيارتها فـــي بيت عمّها بالإسكندريّة. وإذ نُمي إِليها أَنّ شخصًا تركيًّا سبق له أَن خدم فـــي منـــزل عمّها، كان مزمعًا على السفر إِلى الناصرة، حملت إِليه الرسالة، خلسةً، ذات مـــساءٍ، ورجته أَن يسلّمها إِلى أَخيها، وهمّت بالعودة؛ غير أنّ الرجل وزوجته وأمّه ألحفـــوا في دعوتها إِلى تناول العشاء معهم، ولم تجد بدًّا مـــن الامتثـــال لـــرغبتهم، بـــدافع مقتضيات الضيافة الشرقيّة.

كان المضيف جاهلاً، وغالبًا ما يتآخى الجهل والتعصّب الدينيّ، فراح يزيّن لها الارتداد عن دينها للتخلّص ممّا تلقاه على يدي عمّها من عنتٍ واضطهادٍ.

ولكن كيف لتلك التي ذادت عن عذريّتها، في بسالةٍ نادرةٍ، ألاّ تدافع عن دينها فـــي جرأةٍ مطلقةٍ؟ فلقد انتفضت مريم لدى سماعها ذلك الاقتراح الماكر وكأنّ أفعى قد لدغتها، وردّدت، في ثباتٍ وحكمةٍ، على مسامع مجرّبها، جوهر إِيمانها: "أنا ابنة الكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة، وأرجو أَن أظلّ وفيّةً لها، بفضل نعمة الله، حتّى مماتي".

وانتابت الرجل، إِزاء هذا التحدّي يأتيه من فتاةٍ مراهقةٍ، نوبة جنونٍ، فأَقبل عليها بركلةٍ من حذائه المحدّد، رمتها أرضًا، ثمّ استلّ خنجره وانهال به على عنقها فذبحها ذبح الشاة؛ وما لبث أَن ثاب إلى رشده أمام الدم المتدفّق، وجريمة القتل التي بدت له محقّقةً، فهرع هو وزوجته وأمّه إِلى لفّ الجثمان بغطاءٍ صفيقٍ، وألقوا بـــه، تحـــت جناح الليل، في زقاقٍ مهجورٍ.

وتضرّجت زنبقة الطهر بنجيع الشهادة. وآن للسماء أَن تتدخّل، بعـــد أَن أفـــرغ البشر ما في جُعَبهم من مكرٍ وضراوةٍ.

جرى ذلك في السابع من أيلول ١٨٥٨، وكانت الأرض ما تزال تضجّ بزيارة أمّ الله العذراء لها، في قرية لورد الفرنسيّة، حيث، لأَشهرٍ قليلـــةٍ مـــضت، كانـــت قـــد ظهرت، وبلّغت رسائل خلاصيّةً، وأجرت من الخوارق قسطًا وفيرًا.

لم يخطر ببال ذوي مريم أن تكون قد وقعت فريسةَ جريمةٍ دنيئةٍ، إنّما راودهم أن تكون قد فرّت هربًا من قسوة المعاملة التي فُرضت عليها، وخشوا عليها أن تهوي إلى مزالق الغواية في دهاليز الإسكندرية. إلاّ أنّهم، تفاديًا للفضيحة والعار، تذرّعوا بالصمت.

في تلك الأثناء، كانت الشهيدة تكتشف عالمًا جديدًا، وتحظى، من دنيا السماء، بأهلٍ لها. ففي حين كان جسمها يتعرّض لضراوة الجريمة، كانت روحها تنطلق إلى الديار السماويّة. وحريٌّ بنا أن نستمع إلى الشهادة التي أدلت بها، في ما بعد، بهذا الشأن، بأمرٍ من رؤسائها الروحيّين، وهي شهادةٌ تنهض كلّ حياتها التي طبعتها القداسة دليلاً على صدقها:

"لقد بدا لي أنّني صرت إلى السماء، وشاهدت العذراء القدّوسة، والملائكة والقدّيسين، يتقبّلونني في حفاوةٍ بالغةٍ، ورأيت أيضًا والديّ في ما بينهم. وتأمّلت عرش الثالوث الأقدس المتألّق، وسيّدنا يسوع المسيح في إنسانيّته. لم يكن هناك شمسٌ ولا مصابيح، ولكن كلّ شيءٍ كان يتوهّج نورًا وكنت أنعم بما أشاهد عندما داهمني أحدهم وقال: "صحيحٌ أنّكِ عذراء، غير أنّ كتابكِ لم يكتمل بعد"، ولم يكد يفرغ من كلامه حتّى تبدّدت الرؤيا، وعدت إلى نفسي، وألفيت ذاتي في مغارةٍ صغيرةٍ منعزلةٍ، لم أدرك كيف صرت إليها، ولا مَن نَقلني. كنت مستلقيةً على فراشٍ وضيعٍ، وقد لمحت إلى جواري راهبةً تكرّمت وخاطت عنقي. ما رأيتها، قطّ، تأكل أو تنام، بل كانت واقفةً تسهر عليّ بلا هوادةٍ، وتُعنى بي، في كثيرٍ من الحبّ والصمت. وكانت ترتدي ثوبًا جميلاً، أزرق بلون السماء، شفّافًا، متموّجًا، وكان لوشاحها اللون عينه. لقد شاهدت، في ما بعد، الكثير من الأزياء الرهبانيّة، ولكنّني لم أشهد ما يحاكي زيّها. كم من الوقت قضيت في ذلك المكان؟ لا يسعني الإجابة على نحوٍ دقيقٍ، إنّما أعتقد أنّني بقيت فيه نحو شهرٍ. ولم أتناول، أثناء ذلك، طعامًا، بل كانت الراهبة، في فتراتٍ متباعدةٍ، تقتصر على ترطيب شفتيّ بواسطة اسفنجةٍ في مثل بياض الثلج. ولا بدّ من القول أنّها كانت تجعلني أغفو بشكلٍ متّصلٍ تقريبًا.[1]

---

(١)جدير بالملاحظة أن مريم قد أسمت دائمًا اختطافها نومًا أو نعاسًا.

"في اليوم الأخير أطعمتني تلك الراهبة حساءً لم أذق، قطّ، ما يدانيه طعمًا. وعندما فرغت من الوجبة التي قدّمتها لي، سألتها مقدارًا آخر منها، ولكنّها، حينذاك، خرجت من صمتها وقالت: "حسبك الآن، يا مريم. سأطعمك من هذا الحساء في ما بعد أيضاً. تذكّري ألاّ تفعلي مثل أولئك الذين يبدو لهم أنّهم ظفروا، قط، بكفايتهم؛ بل قولي دائمًا "كفى". والله الذي يرى كلّ شيءٍ سيوفّر أبدًا كلّ احتياجاتك. كوني دائمًا فرحةً، مع كلّ ما قد ينالكِ من عذابٍ، والله، في عطفه، سيدفع إليكِ بكلّ ما تفتقرين إليه. لا تصغي إلى الشيطان أبدًا، بل احترسي منه، فهو واسع الحيلة. عندما تسألين الله أمرًا، قد لا يعطيكِ إيّاه دائمًا، في الحال، لكي يمتحنكِ ويتحقّق من أنّكِ تحبّينه دائمًا بنفس القدر، ولكنّه سيهبك إيّاهُ، بعد فترةٍ وجيزةٍ، إن أنت أقمت على الفرح وعلى محبّته. مريم، مريم، لا تنسي أبدًا نعم الله عليكِ. وإذا ما أصابكِ مكروهٌ، فاذكري أنّ الله قد أراد ذلك. كوني دائمًا مفعمةً محبّةً للقريب، وأحبّيه أكثر من نفسك.

"لن تري، بعدُ، أسرتك أبدًا. وستذهبين إلى فرنسا، حيث ستصبحين راهبةً. ستكونين ابنةً للقدّيس يوسف، قبل أن تصبحي ابنةً للقديسة تيريزا. سترتدين ثوب الكرمل في دير، وتنذرين في ديرٍ آخر، وستموتين في ديرٍ ثالثٍ، في بيت لحم...

"ستتألّمين كثيرًا أثناء حياتك، وستكونين سببًا للمعارضة".

والتأم الجرح في عنق مريم، وأبلّت من وهنها، بعد فترةٍ لم تستطع يومًا، تقديرها على وجه الدقّة، فأمسكت الراهبة ذات الثوب السماويّ بيدها، وانطلقت بها إلى كنيسة القدّيسة كاترينا، في الإسكندريّة، حيث استدعت لها كاهنًا معرّفًا. وقبل أن تقبل مريم على كرسيّ الاعتراف، رجت طبيبتها ودليلتها السماوية أَن تنتظرها وألاّ تهجرها. ولكنّ الراهبة اكتفت، من الجواب، بابتسامةٍ مبهمةٍ.

لم يكن في جعبة مريم ما تعترف به للكاهن، ففرغت على عجلٍ، وهرعت للالتحاق بدليلتها، ولكنّ هذه كانت قد اختفت. وألفت الفتاة نفسها، أكثر يُتمًا على الأرض، من أيّ يومٍ مضى، يُتمًا كاملاً مطلقًا. ومع ذلك، كان يشيع في صدرها يقينٌ راسخٌ بأنّ لها في السماء أسرةً حانيةً، وأمًّا منقطعة النظير، لن تتوانى عن مساندتها، وتعزيتها، وقيادة خطواتها في البلاد الغريبة، التي دعتها إلى الضرب في مجاهلها.

من تلك المرحلة الحاسمة في حياتها احتفظت مريم بأثرٍ دائمٍ، هو ندبةٌ طولها عشرة سنتمترات بعرض سنتمترٍ واحدٍ تمتدّ على عرض الجيد، وتمتاز بلون أشدّ بياضًا وشفافيّةً من الجلد المحيق بها. وقد عاينها عدّة أَطبّاء، في ما بعد، عندما كانت في كرمل پو[١]، فأجمعوا على وجود نقص عددٍ من العظام الرغاميّة في حنجرتها؛ وقد أكّد أحدهم، وهو ملحدٌ، أنّ مجرّد بقائها على قيد الحياة، وهي على هذا النحو، يعتبر معجزةً في ذاته.

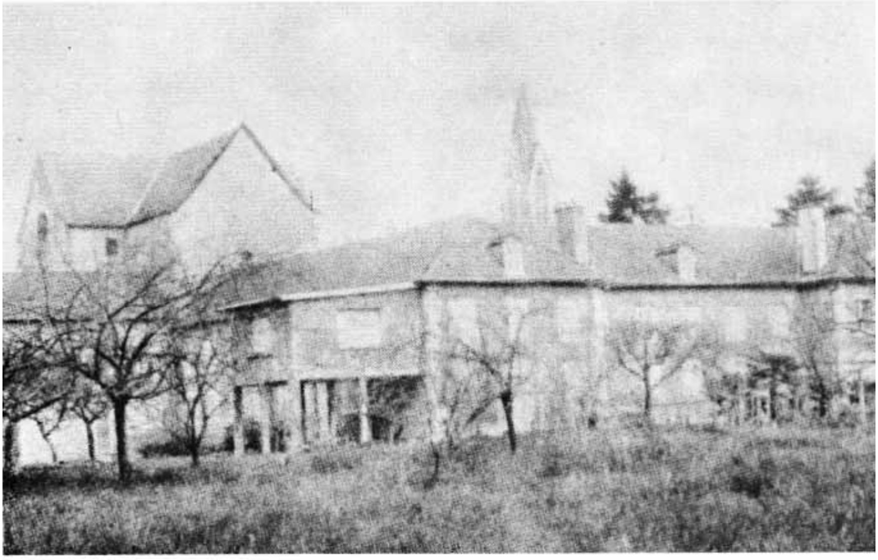

كرمل پو

وغالبًا ما كانت مريم، أَثناء انخطافها، في ذكرى يوم استشهادها تكرّر القول: "في مثل هذا اليوم ذُبحت، وقد شفتني العذراء، وأطعمتني حساءً لم أذق لطعمه مثيلاً قطّ... وقد وعدتني بجُرعةٍ منه عند مماتي".

ندبةٌ، وطعمُ حساءٍ سماويٍّ، وطريقٌ مُشرَعٌ على المجهول والصليب.

(١) "پــو" مدينةٌ فرنسيّةٌ صغيرةٌ، تنبسط عند أقدام جبال البيرينيه، على مقربةٍ من مدينة لورد، التي أضفى عليها ظهور العذراء عام ١٨٥٨، شهرةً عالميةً. و"الكرمل" – نسبة إلى جبل الكرمل في فلسطين، الذي اتخذ نسّاكٌ عديدون من مغاوره مقرًّا للعزلة والتزهّد، في القرون الوسطى – اصطلاح يعني ديرًا تابعًا لنظامٍ رهبانيٍّ، طوّرت فرعه النسائي ورسّخته، القديسة تيريزا الأڤــيلاويّة، وهو منتشرٌ في شتّ أصقاع العالم، ويضمّ، بين صفوفه، راهباتٍ منقطعاتٍ عن الدنيا، متحجّباتٍ، منصرفات إلى حياةٍ خفيّةٍ يسلحنَها في الصلاة، والتعبّد والتكفير.

الفَصْلُ الثَّانِي

الخَادمَة المرتحلة

الطريق الوعر

قد يكون الاستشهاد، في غمرةٍ من الاندفاع، أَكثر يسرًا من ذاك الذي يعانيه المرء سحابة العمر، ويحتمل معه طائعًا، صابرًا، في كلّ يومٍ، الاضطهاد والعنت، وفاءً لمثُلٍ اختارها وآلى على ذاته عدم الحياد عنها.

وكان على مريم البواردي أن تمارس من الاستشهاد جميع أشكاله، حتّى أكثرها ضراوةً وتكرارًا.

فبعد أن أطلعتها الراهبة السماويّة على لمحاتٍ من السماء ساحرةٍ، أعادتها إلى وادي الدموع، وتركتها تجتاز طريق الجلجلة، في تؤدةٍ وعناءٍ، كي تنتزع سماءها بالصليب، وتكون للكثيرين ممّن يقسو عليهم القدر، قدوةً في الصبر والإيمان، والرجاء الصامد.

وقد استهدت تلك الفتاة المختارة، على طراوة عودها، في تصعيدها على الطريق الوعر، بمبادئ أساسيّةٍ نذرت لها إخلاصًا لا يلين، ولا يثنيه وهْنٌ أو تجربةٌ، وفي طليعة تلك المبادئ: البتوليّة، والفقر، والتواضع والمحبّة.

لقد روى لها الكاهن الذي جاءت بها إليه الراهبة السماويّة، أنّ هناك فتاةً هجرت منزل ذويها، هربًا من زواج آثرت عليه البتوليّة، وأنّ ذويها يبحثون عنها قلقين، ويخشَون أن تكون قد اندفعت في مزالق الغِواية، فاكتفت مريم بأن أكّدت له أنّ لها

بالفتاة المذكورة معرفةً وثيقةً، وهي، بالتالي، قادرةٌ على التأكيد بأنّها بعيدةٌ تمامًا عن سبُل الغواية. وعندما رأى الكاهن رقّة حالها، حاول استدراجها إلى البوح بما تعرفه من سرّ مريم، واعدًا إيّاها بمكافأةٍ جزيلةٍ قد تُحوّل فقرها يسرًا، ولكنّها ردّت: "صحيحٌ أنني فقيرةٌ، فضلاً عن كوني يتيمةً، ولكنّ الله لم يضنّ عليّ يومًا بما يلزمني. إنّني لست راغبةً في ثروات الأرض، فخيرات السماء تكفيني".

وقادها الكاهن إلى أسقفٍ عربيٍّ كان يمرّ بالإسكندريّة، فأفضت إليه بسرّها، على أن يحيطه بكتمانٍ مطلقٍ، واهتمّ الأسقف بأمرها، فأحضر لها ثيابًا لائقةً، واصطحبها في رحلة حجٍّ إلى القدس، ثم دعاها إلى مرافقته إلى روما حيث كان سيسعى إلى إيداعها ديرًا للراهبات. غير أنّها، وقد عادت إلى فلسطين، استبدّ بها الشوق إلى رؤية أخيها بولس الذي كان لا يزال مقيمًا في ترشيحا. فأبحرت شطر عكّا، غير أنّ عاصفةً هوجاء قد حالت دون وصول السفينة إلى مقصدها. وتذكّرت مريم إنذار دليلتها السماويّة بأنّها لن تتمكنّ، بعدُ، من رؤية أخيها، ووجدت نفسها من جديدٍ، في الإسكندريّة.

لقد أبت العودة إلى بيت عمّها، الذي، ربّما كان سيفتح لها ذراعيه وقلبه، ولكنّها كانت قد صمّمت على انتباذ العيش الرغيد، مؤثرةً أن تظلّ نكرةً مرذولةً، كما خشيت أن يستأنف عمّها محاولة حملها على الزواج. وعلى أيّة حالٍ، كانت دليلتها السرّية قد أوعزت إليها التنكّب عن طريق ذويها، فاختارت أن تعمل خادمةً في المنازل. وهكذا شرعت مرحلةٌ من حياتها حافلةٌ بالتشرّد والهوان، والبذل والبطولة.

كانت تسارع إلى هجر أيّ منزلٍ تلقى فيه حفاوةً وعنايةً، وتُطيل الإقامة حيث تلقى العَنَت والتحقير؛ فقد كانت الإهانات هي خبزها الأثير، والكأس التي تنهل منها بنَهَم. وكانت لا تحتفظ ممّا يجود به علَيها مخدّموها من أمتعةٍ إلاّ بثوبٍ ترتديه وآخر تغسله، وتهب أجمل ما تظفر به إلى من هم أشدّ منها فقرًا وعوزًا؛ وكان أجرها يسلك نفس السبيل، فلا تحتفظ منه إلاّ بقروشٍ قلائل، تمكّنها من ابتياع ما يلزم من زيتٍ وفتيلٍ، لإبقاء المصباح مضاءً ليلَ نهارٍ، أمام إيقونةٍ للعذراء، كانت رفيقة ترحالها الدائمة.

خادمةٌ في منزل أَقرباء

واتَّفَقَ لها أن عملت في خدمة منزلٍ في الإسكندريّة، لم تفطن إلاّ بعد لأيٍ، أنّه منزل أقرباء لها؛ ولم يلحظوا هم أنّ تلك الخادمة الوضيعة، ذات الهندام الرثّ الذي يحاكي زيّ بنات القُرى الفقيرات، قد تمُتّ إليهم بصلة قربى؛ وقد أوكلوا إليها، بادئ الأمر، العناية بشؤون المطبخ والأطفال الذين سرعان ما أَنِسوا بها، واطمأنّوا إليها، وتشبّثوا بها، بحيث رغب إليها الأهل التخلّي عن مهامّ المطبخ للتفرّغ للأطفال. وكانت تؤنس، من جرّاء ذلك، عزاءً وعذابًا، عزاءً لعنايتها بأطفالٍ تربطهم بها صلات الدم، وعذابًا لاضطرارها الدائم إلى كتمان هويّتها. وكم قد كلّفها ذلك الكتمان من آلامٍ نفسيّةٍ، إذ كانت رواية مريم التي فرّت من منزل عمّها، تتردّد على نحوٍ مستمرٍّ، فتنهال اللعنات على تلك التي مرّغت سُمعة ذويها بحمأة العار، وهي عاجزةٌ عن الدفاع عن نفسها؛ ذات مرّةٍ، انفجرت بالبكاء، واشتدّت بها التجربة حتّى كادت تصيح: "أنا هي مريم"، ولكنّ العذراء التي كانت تستنجدها، قد هرعت إلى شدّ أَزرها.

خادمة الفقراء

ثلاثة أشهرٍ انصرمت على هذا النحو، عانت مريم، خلالها استشهادًا شِبه يوميٍّ. ثمّ انتقلت إلى منزل أسرةٍ أُخرى موسِرةٍ، ولكن سرعان ما نُمي إليها خبر أسرةٍ بائسةٍ يتخبّط جميع أفرادها بين براثن الفقر والمرض، وليس لهم من معينٍ. وفي الحال جمعت رزمة أمتعتها الوضيعة، واستأذنت بالانصراف، من أجل نجدتهم. ولم يرُق لسيّدتها الثريّة أن تهجرها خادمتها على ذلك النحو المباغِت، فانقضّت في إثْرها وأوسعتها ضربًا وشتيمةً.

البؤس المدقع، والمرض المضني، والقذارة المنفّرة التي طالعتها منذ ولوجها بيت الأسرة المنكودة الحظّ، أنستها أوجاع الضرب التي نالت من كلّ مواقع جسمها. فهرعت إلى تنظيف البيت، وتغيير الأسرّة المتعفّنة المهترئة، وتوفير العلاج والطعام. وعندما أصفرت يداها، خرجت تستعطي إلى أَن أتمّت مهمّة الإِنقاذ التي انتدبت لها نفسها، وحينئذٍ، قبل أن تدع لمضيفيها المساكين فرصة شكرها، أوصتهم بالتعبّد للعذراء مريم، ومضت لتستأنف دربها المرسوم، على طريق الجلجلة.

أخٌ سماويٌّ

ومرّةً أُخرى يمّمت شطر القدس، وسط قافلةٍ من الحجّاج، وفي الطريق بادرها، من بين الرَّكب، شابٌ بارع الجمال، وراح يكلّمها في لهجةٍ بالغة العذوبة، محذّرًا إيّاها ممّا قد تتعرّض له من مزالق، وممّا قد يطرق سمعها من كفرٍ وترّهاتٍ بذيئةٍ، ومزيّنًا لها البتوليّة في أسنى صورةٍ. ثمّ غاب عن الموكب، بعد أن وعدها باللقاء من جديدٍ في المدينة المقدّسة. وقد التقاها هناك، فعلاً، وأسرّ إليها بأنّه يدعى "يوحنا جورج"، ودعاها إلى مرافقته إلى القبر المقدّس. وكانت أحاديثه عن سموّ البتوليّة قد نمت ونضجت في ذهنها، فعزمت على أن تحوّل نذر البتوليّة الذي كانت تجدّده باستمرارٍ، إلى نذرٍ أبديٍّ، أمام قبر المخلّص. وكان رفيقها السرّي على علمٍ بذلك، قبل أن تُفضي إليه بعزمها، إذ راح يهنّئها، ويحثّها على المضيّ قُدُمًا في ما عزمت عليه أمرها. ولكنّها طلبت منه أن يؤدّي هو أيضًا نذرًا مماثلاً، في آنٍ معًا، فابتسم ووعد واستجاب، ونذرا معًا بتوليّةً أبديّةً أمام ضريح الفادي، ومنذ ذلك الحين اعتبرته أخًا لها.

ثمّ راح يعيد على مسامعها نبوءات الراهبة السماويّة: "ستسافرين إلى فرنسا، حيث ستصبحين راهبةً، ثمّ إلى الهند حيث سنلتقي من جديدٍ، ثم ستعودين إلى هنا وستموتين في بيت لحم". بعدئذٍ، توارى عن أبصارها، على نحوٍ لم تستطع، قطّ، تفسيره. ولكنّها كانت على يقينٍ من أنّها لم تشهده يومًا يتناول طعامًا. وغالبًا ما برز، فجأةً، ذلك الرفيق السرّي، في دربها، في ما بعد، وكانت ملامحه، أبدًا، على مثل ما كانت عليه يوم رأته للمرّة الأولى على طريق القدس، لا يطرأ عليها أيّ تغييرٍ، وكان يكشف لها خفايا ما يحدث لها من خوارق، ويحثّها على المضيّ قدمًا في السبيل الذي رسمته لها العناية الإلهيّة.

خوارق ودموع

وإذ كانت حياتها نهبًا بين أسمى العلاقات السماويّة ورؤاها الرائعة، وأكثر مهامّ الدنيا وضاعةً، عملت، في أعقاب حجّها إلى القبر المقدّس، خادمةً لدى أسرةٍ من القدس، ولم يَطُل بها المقام لديها، إذ جرى حدَثٌ على جانبٍ من الغرابة دفعها إلى

الارتحال من جديدٍ. فقد هوى طفل الأسرة من شرفةٍ عاليةٍ، تحت أبصار والدته ومريم التي هرعت إليه مستمطرةً عليه نعم القدرة السماويّة، في حين تهاوت والدته، وقد أيقنت أنّه قد قضى نحبه. وكم كانت دهشتها بالغةً، عندما ألفت مريم الطفل بين يديها، حيًّا يُرزق، ولم يخلِّف السقوط فيه من أثرٍ سوى كدمةٍ سطحيّةٍ؛ وعُزِيَت نجاته العجيبة إلى قداسة الخادمة مريم، التي كان ذلك الموقف منها شديد الوطء على تواضعها، ما دفعها إلى الفرار، رغم توسّلات أسيادها.

بَيدَ أنّ الأسياد الأغنياء متقلّبون، يهون عليهم إلصاق أبشع التّهم وأسوأ الظنون بمَن هم لا يملكون ثروةً ولا حَوْلاً، حتّى ولو أدّى ذلك، في بعض الأحوال، إلى تدمير حياةٍ بكاملها. فقد تبيّن، غداة مغادرة مريم للمنزل، فقدان حِليةٍ ثمينةٍ، وكانت الفتاة الغريبة، وهي الأكثر فقرًا وضعفًا، الأَولى بالاتّهام. وإذ كانت في طريقها إلى يافا، ملتمسةً الإبحار في محاولةٍ جديدةٍ لرؤية أخيها، إذ برجلين في إثرها، يُلقيان عليها القبض ويقتادانها إلى القدس، غير آبهين لاعتراضها الحازم وتأكيدها براءتها في صِدقٍ لا يحتمل ارتيابًا، على غرار ما حدث لوالدها، لسنواتٍ خلت. وجُرَّت مريم عبر شوارع القدس، في مهانةٍ، ثمّ أُلقي بها في سجنٍ قذرٍ، مع زمرةٍ من البغايا الشرّيرات.

غير أنّ فرحًا عارمًا كان يغمر صدرها، إذ قد أتيح لها التشبّه، إلى حدٍّ، بالبريء الأكبر، البريء المطلق الأوحد، الذي اتُّهم وأُدين من أَجل فداء البشر، في نفس مدينة القدس التي فيها صُلب، وعلى مسرح آلامه نفسه.

ولم تطلْ محنتها، إذ بعد يومين فقط، أُلقي القبض على خادمةٍ زنجيّةٍ كانت تحاول بيع الحِلية المسروقة؛ ولم تعبأ مريم للاعتذار عمّا أُلحق بها من حيْفٍ، بل استأنفت، فور الإفراج عنها، طريق يافا؛ ربّما كان قد غاب عن ذهنها، أنّه قُيّض لها ألاّ ترى أَخاها أبدًا، وألاّ توثّق علاقات قرابةٍ إلاّ مع أسرة السماء. وعلى حدّ ما حصل في محاولاتها السابقة، تعرّضت السفينة التي كانت تقلّها لعاصفةٍ هوجاء، دفعتها باتجاه بيروت، حيث وجدت مريم نفسها، من جديدٍ، يتيمةً، وحيدةً، لا أمل لها في عونٍ سوى عون السماء.

امتحان بيروت

في عزلتها تلك، كانت الكنيسة هي ملجأها الوحيد. وبعد أَن ألمّ كاهن الكنيسة بظروفها، اقتادها إلى آل عطاالله، فعملت في خدمتهم عشرة أشهرٍ. وما كاد يستقرّ بها المقام حتّى تكرّرت محنة القدس، إذ اتُّهمت بسَرقة حِليةٍ ثمينةٍ، ولم تمضِ سوى أيّامٍ قلائل على استضافة أسرة عطاالله لها. ولكن ما إن استُدعيَ رجال الشرطةِ للتحقّق، حتّى بادر شقيق السيدة عطاالله إلى الاعتراف بمسؤوليته عن السَّرِقة. وقد حاولت الأسرة تعويض مريم عن التّهمة الظالمة، بمزيدٍ من مظاهر التقدير، ولا سيّما بعد ما لمسوا لديها من نُبل أَخلاقٍ، ونزاهةٍ نادرةٍ، وخوارق كانت تخصّها بها السماء.

فبعد ستّة أشهرٍ من عملها لدى آل عطاالله، ابتُليت مريم بفقدان البصر، فقدانًا كاملاً، وقد أجمع الأطبّاء الذين عاينوها على أنّه داءٌ مستعصٍ لا يُرجى منه شفاءٌ. وفي تلك الأثناء توفّي في بيروت كاهنٌ قد أجمع الجميع على إِجلال قداسته، وتهافتوا على التبرّك بجثمانه، وكانت تدفع مريم، أيضًا، رغبةٌ حارقةٌ في التبرّك به، هي أيضاً، غير أَنَّ عاهتها كانت تحول دون تحقيق رغبتها هذه، فطفقت تتضرّع إلى أمّها السماويّة، التي سبق لها أَن شفتها من الموت نفسه، مبلّلةً دعاءها بالدموع وقائلةً: "اُنْظُري، يا أمّاه، أيّ عناءٍ يتجشّمونه، هنا، من أجلي. إِنّهم يُعنَون بي، وكأنّني ابنة الأسرة، ولكنّني، في الواقع، عبءٌ على كاهلهم، وعالةٌ عليهم. فلَيتكِ، أنتِ وابنك، تتكرّمان بإعادة البصر إلى عينيّ". وما كادت تفرغ من هذا الدعاء، حتّى شعرت، مثلما شعر شاول بدمشق، أنّ شيئًا سقط من عينيها، وإذا بها ترى من جديدٍ.

وما هي إلاّ أيّامٌ معدوداتٌ، حتّى تعرَّضت لحدثٍ عَجَبٍ آخر. إِذ، فيما كانت تنشر الغسيل على سطح المنزل، زلت قدمها فهوت، وتهشّمَت، حتّى خيّل للجميع أنها لقيت نَحبَها. وعندما عاين الأطبّاء مدى الكسور التي عمّت جسمها، أكّدوا أنْ لا أمل في شفائها، وأنّ موتها محتومٌ وشيكٌ. غير أنّ السيدة عطاالله قد أحاطتها بعناية أمٍّ رؤومٍ، وبذلت، في سبيل شفائها كلّ مستطاعٍ. وانقضى شهرٌ كاملٌ، وحال مريم يتفاقم سوءًا. وذات ليلةٍ توهّج المنزل بنورٍ ساطعٍ، وتضوّع منه طِيبٌ منقطع النظير، وهرع أهل المنزل إلى مصدر النور والعطر اللذين كانا ينبعثان من غرفة مريم. وإذا بهذه قد تعافت، ودهشوا عندما سألتهم طعامًا، بعد أَن كانت، منذ سقوطها، قد عزفت عن كلّ طعامٍ.

أمّا العطر والنور، فكانا قد رافقا السيّدة العذراء التي زارت ربيبتها، وقد هتفت مريم لدى رؤيتها: "أرجوك، أمّاه، أنْ تأخذيني معك". فردّت عليها العذراء: "لم تأزَفْ بعد ساعة رحيلك، فكتابك لم يكتمل بعد. وحتّى يحين الأوان، أوصيك بثلاثةٍ: طاعةٍ عمياء، ومحبّةٍ كاملةٍ، وثقةٍ بالله جمّةٍ، على غير اكتراثٍ بالغد، وما قد ينطوي عليه من أحداثٍ".

وفي الغد تداعى الجيران، وتوافدت جماهير غفيرةٌ من كهنةٍ وعلمانيّين، من شتّى الطوائف والمِلَل، وقد لحظوا أنّ زيت السراج المضاء بشكلٍ دائمٍ أمام إيقونة العذراء، في غرفة مريم، قد فاض وانتشر فوق المنضدة ودروجها. ووجدوا مريم معافاةً، فجثوا، إجلالاً لله، وتعظيمًا لأعماله. واحتلّت مريم، في تقدير الجميع، مقامًا رفيعًا؛ غير أنّها لم تكن ترتاح إلى تكريم بشرٍ، ولا تنشد سوى الامّحاء. ومن ثمَّ، فقد عزمت، لا على مغادرة منزل أسيادها فحسب، بل على هجر بيروت بأسرها.

بعد ستّ سنواتٍ، من ذلك، كانت مريم مبتدئةً في كرمل "پو" بفرنسا، وكانت، بأمر الطاعة، قد اضطرّت إلى سرد كلّ ما جرى لها من أحداثٍ في بيروت. وللتثبّت من صدق أقوالها، كتبت رئيسة الكرمل إلى الأم جيلاس، رئيسة راهبات المحبّة في بيروت مستفسرةً، فجاءتها، في رسالة تحمل تاريخ ١٨٦٩/١٠/١٦، هذه الشهادة القيّمة عن حِقبة مريم البيروتيّة:

"إنّ المعلومات التي استقيناها من أسرة عطا الله، والتي أفضت إلينا بها السيّدة نفسها التي كانت طالِبَتُكم في خدمتها، تطابق ما أوردتموه في رسالتكم مطابقةً تامّةً. هذا، فضلاً عن طائفة من الوقائع الأُخرى، التي لا تقلّ أهميّةً، والتي كانت لنا قدوةً جليلةً.

"إنّ ما لم تستطع الفتاة البوْح به، هو أنّها، حيثما مرّت، قد خلّفت عطر فضيلةٍ، قائمةٍ بشكلٍ خاصٍّ، على البراءة والتقوى الأخّاذة، بحيث قد طالما تأثّر بها أعمق تأثّرٍ، كلّ من عاش إلى جوارها...

"إنّه لمن النادر أن تخلو سِيَرٌ على هذا القدر من التخبّط، من كلّ مثلبٍ. إنّ مثال تلك الفتاة يحملنا على تجديد إكبارنا لرحمة الله، الذي في عنايته الإلهيّة، يحفظ ويصون، على أكمل وجه، أولئك الذين يضعون فيه ثقتهم، ويقودهم إلى شاطئ السلامة".

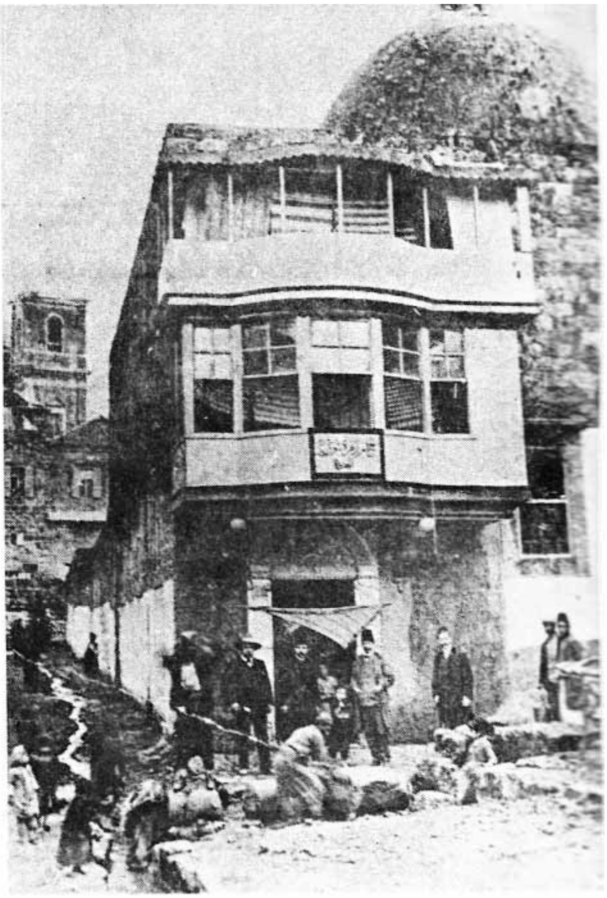

بيروت القديمة

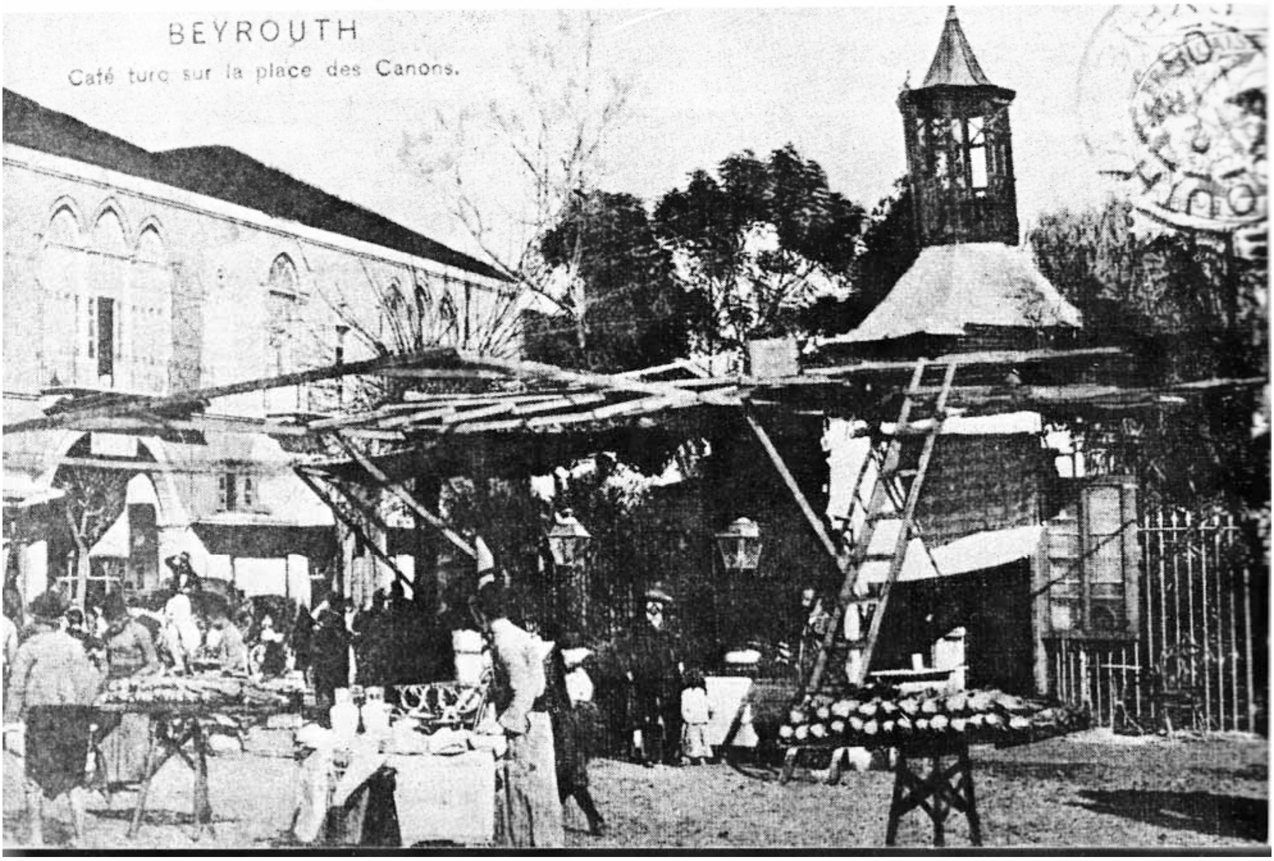

الفَصْلُ الثَّالِث

"انْطَلِقي مِن أرضكِ وَعَشيرتكِ وَبيت أبيكِ، إلى الأرض التي أُريك"

نبوءاتٌ تتحقّق

كانت مريم قد وطّنت العزم على الابتعاد عن بيروت، وهي لا تعلم، بعدُ، أيّ طريقٍ ستسلك. وقد استكتبت رسالةً إلى أَخيها بولس، تدعوه إلى الحضور لاصطحابها، وبادر بولس إلى إبلاغ عمّه الذي هرع إلى بيروت، علّه يقف، أخيرًا، على أثر ابنة أخيه، التي فقدها منذ سنواتٍ، وكَلَّ، عبثًا، في البحث عنها. ولكنّه عندما وصل إلى بيروت، كانت مريم قد غادرتها، وخُيّل إليه أنّها إنّما عبَثت به، مرّةً أُخرى، فعاد أدراجه، وهو يصبّ على رأسها اللعنات. والواقع أنّ العناية الإلهيّة هي التي كانت قد رسمت لها دربًا آخر.

فقد جاءتها دعوةٌ إلى العمل لدى أسرة النجّار، السوريّة الأَصل، التي تقطن في مدينة مرسيليا الفرنسيّة. وكان لاسم فرنسا، في سَمْعهَا، وقع النبوءة توشك أن تتحقق. أوَلَم تتنبّأ لها الراهبة السماويّة التي خاطت عنقها المذبوح، أنّ المرحلة الأولى من رحلتها إلى الشواطئ البعيدة ستكون فرنسا؟ أَوَلَم يؤكّد لها هذه النبوءة عينها أخوها الروحيّ، الذي، معه، نذرت البتوليّة الدائمة، على ضريح الفادي، في القدس؟

انطلقت إذن، في دنيا المجهول، يحدوها إيمانٌ راسخٌ بأنّ يدًا من عالمٍ آخر تتولّى

أمرها وتقود خُطاها. وقد بدا، منذئذٍ، أنّ حياتها قد غدت، أَكثر فأكثر، نهبًا بين عالميْن يتجاذبانها على التوالي، بل ربّما في آنٍ معًا.

إيمانٌ يهدّئ البحر الهائج

ولنسمعْها تروي ما حدث لها أثناء الرحلة البحريّة إلى مرسيليا:

"كانت قد ثارت عاصفةٌ هوجاء، وقد بذل القبطان أَقصى جهوده في مواجهة الرياح واللُجج، إِلى أن أُسقط في يده، وأعلن استسلامهُ. واندفع الركّاب إلى قوارب النجاة، وسْط فوضى لا توصف، وعندما تحقّق القبطان من عددهم، تبيّن له غيابُ واحدٍ منهم، وهرع من جديدٍ إلى حُجَرِ المسافرين يتفقّدها، إلى أَن وجدني في إِحداها أَغطّ في نومٍ عميقٍ، فأنهضني وهو يصرخ: "انهضي سريعًا، وارتدي ثيابك، وألقي بنفسك في أحد القوارب، فنحن هالكون، وارتديت ثوبي على عجلٍ، وصعدت إلى سطح السفينة، وأُوحِيَ إليَّ أن أصلّي، بعد أن أخذتُ على الجميع قلّة إيمانهم، فجثوت، وبسطت ذراعيّ، ورنوت إلى السماء، وقلت: "أيّها الربّ يسوع، إنّك كلّيّ القدرة، فسكّن هذا البحر" ويا لقدرات الإيمان! لقد سكنت العاصفة، وهدأت الأمواج، ونجونا. هذا ما فعله الله لخاطئةٍ مثلي، ردًّا على صرخة إِيمانٍ. آه! لو كنّا نملك الإِيمان، ايمانًا كبيرًا، لظفِرنا، من الله، بكلّ شيءٍ".

في مرسيليا: ما لقيصر، لقيصر. وما لله، لله

عندما حطّت مريم الرِّحال في مرسيليا، في شهر أيّار من عام ١٨٦٣، كانت في الثامنةَ عشرة من عمرها. وقد أوكلت إِليها السيّدة نجّار شؤون المطبخ، إلاّ أَنّها، خشيَت عليها، من جرّاء حداثة سنّها، الوقوع في حبائل الغِواية التي تحفَل بها مدينةٌ ساحليّةٌ مثل مرسيليا، فأحكمت عليها الرّقابة، وقيّدت تحرّكاتها. ولم يكن لمريم من مطلبٍ سوى الاختلاف إلى الكنيسة، كلّ يومٍ، لممارسة الأسرار المقدّسة، غير أَنّ حِرص السيّدة نجّار قد حبس عنها حتّى تحقيق تلك الرغبة، فاعتراها حزنٌ شديدٌ؛ ولم تقوَ طويلاً على احتمال ذلك الحرمان من أخطر مقوِّمات حياتها، وأعزّ مبرّرات وجودها، فاضطرّت إلى هجر أسرة نجّار، والبحث عن أسرةٍ عربيّةٍ أُخرى تتيح لها حرّية ممارسة شعائرها الدينيّة. بَيدَ أنّ السيّدة نجّار، كانت قد توسّمت فيها الكثير من

النبل، والخصال الرفيعة النادرة، فسارعت إلى استردادها بعد أن غدت مستعدّةً لتلبية رغبتها في ارتياد الكنيسة، كلّ يوم.

وهكذا قضت مريم، في منزل أسرة النجّار، سنتين تميّزتا بانسجامٍ رائعٍ بين الخدمة المخلصة والتقوى الحارّة؛ ولم تكن تقواها لِتُعيق نشاط خدمتها، بل، على النقيض من ذلك، كانت تُسبغ عليها مزيدًا من الدأب والبذْل، وغالبًا ما كانت تحملها على أداء مهامّ أترابها وزميلاتها.

كانت تستهلّ نهارها مع ساعات الفجر الأولى، بالشخوص إلى الكنيسة، فتشترك بالذبيحة الإلهيّة والمناولة. وبما أنّ سجوف الليل تتأخّر في الانقشاع، في فرنسا، في أيّام الشتاء، فقد كانت الفتاة المسكينة تستيقظ أحيانًا، والليل ما يزال في منتصفه، ويخيّل إليها أَنّ موعد القدّاس قد أذِن، فتهرع إلى الكنيسة. وذات ليلةٍ تعقّبها أحد أفراد أسرة النجّار، وقد ساوره الشكّ حول خروجها في مثل ذلك الحلَك من الليل، فرآها تمضي مسرعةً إلى الكنيسة، وتجثو عند عتبتها، وتستغرق في صلاةٍ عميقةٍ حتّى تُفتَح الأبواب.

أمّا في المناسبات الكنسيّة الخاصّة، فقد كانت تُؤثر ارتياد كنيسة القدّيس نيقولاوس للروم الكاثوليك، حيث تلتقي الطقوس التي أَلِفتها وعلِقت بها منذ صباها، وتستعيد نغَمات لُغتها، وترانيمها المعهودة، وروائح البخور التي تحمل إليها طيوب بلادها. وقد أَصبح لها كاهن تلك الكنيسة، الأب فيليب عبده، معرّفًا ومرشدًا، وقاد خطواتها نحو الحياة الرهبانيّة، وقد ظلّت تذكره، أبدًا، بالتقدير والامتنان.

رقيبٌ سرّيٌّ وزائرةٌ مجهولةٌ

وقد لَحَظت مريم أَنَّ مجهولاً كان يتعقّبها، ممسكًا بيده طفلاً، وهي في مشوارها الصباحيّ اليوميّ إلى الكنيسة؛ إلى أن ضاقت ذرعًا بتلك المثابرة المُريبة؛ فالتفتت إليه، يومًا، قائلةً: "أيّها السيّد، إنْ كنت تبيّت أيّة نيّةٍ، فأنت تهدر وقتك وجهدك سدًى، فأنا مكرّسةٌ لله". وكم دهِشَت عندما أَجابها: "يا مريم، أنا أعرف أنّك مكرّسةٌ لله، ولن أكفّ عن تعقّبك حتّى تدخلي الدير".

ألا يمكن أَن يكون ذلك الرقيب الغريب هو القدّيس يوسف الذي أوكلها إليه والدها المحتضر؟

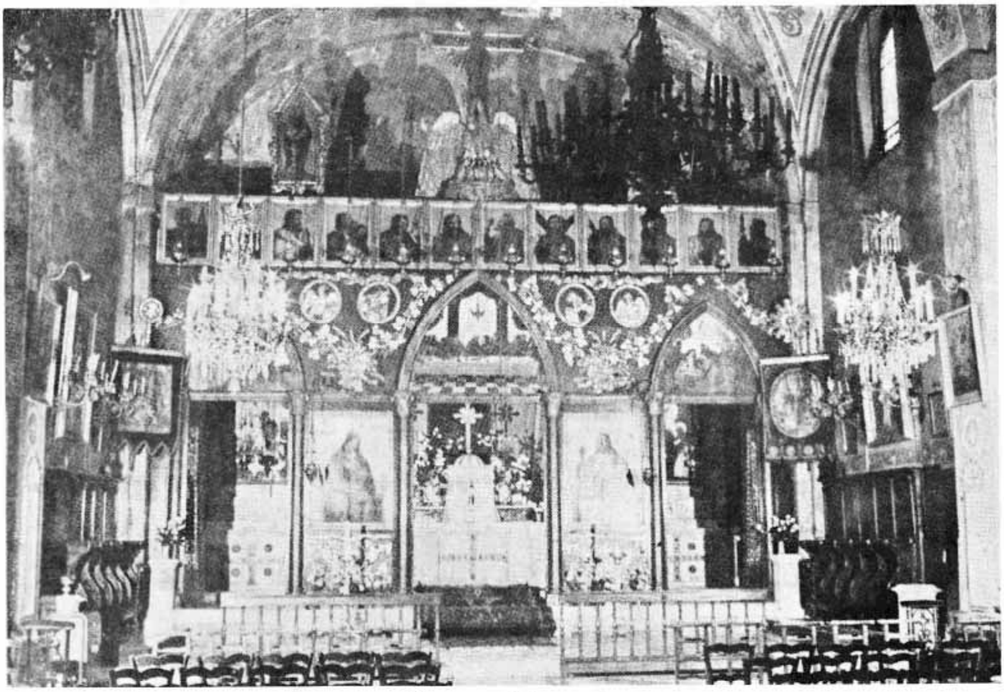

داخل كنيسة القدّيس نيقولاوس

مدينة مرسيليا

ولنسمعْها، الآن، تروي حدَثًا آخر، جرى في تلك الحِقبة عينها:

"كان أسيادي يُبدون نحوي قدْرًا كبيرًا من العطف، ويولونني ثقةً مطلقةً. وقد أوكلوا إليَّ، مرّةً، تسديد حسابات مورّدي المنزل. وكنت عائدةً للتوّ، بعد أن فرغت من تلك المهمّة بأكملها، وما كدْت أهبط إلى المطبخ، حتّى لَحَظت إلى جانبي امرأةً ينمّ هندامها عن بؤسٍ سحيقٍ. وقد فاجأتْني رؤيتها، إذ إنّني كنت قد أوصدتُ الباب، ولم أسمع أحدًا يفتحه من جديدٍ. وقد تفاقمت دهشتي عندما بادرتني تلك الغريبة، مناديةً إيّاي باسمي، وقائلةً في صوتٍ بالغ العذوبة: "يا مريم، أتوسّل إليك أن تمنّي عليّ بإحسانٍ، فلي أولادٌ كثيرون يتضوّرون جوعًا". وأجبتها، وقد نال منّي التأثر: "يا سيّدتي، لا أستطيع أن أعطيَك شيئًا ممّا يخصّ أسيادي. بَيْدَ أنني أمتلك خمسين فرنكًا من أجوري، خذيها، واستخدميها في إكساء أولادكِ وإطعامهم" فاعترضت: "وأنت، يا مريم، ماذا سيكون شأنك، حينئذٍ، حين لن يبقى لك شيءٌ؟" قلت: "لا تقلقي، يا سيّدتي، فأنا لم أحتفظ قطّ بأيّ مالٍ، ومع ذلك لم يَدَعني الله أحتاج إلى شيءٍ، فاقبلي، إذن، كلّ مالي". وتناولت المرأة المبلغ شاكرةً، في كثيرٍ من التأثر؛ والتفتّ، بعد لحظةٍ، فإذا بها قد اختفت، والباب ما انفكّ موصدًا، وإذا بالخمسين فرنكًا ملقاةٌ على المنضدة. وساوَرَتني الرِّيبَة، خشيةَ أن أكون قد احتفظت بهذا المبلغ من حساب أحد المورّدين، وبادرت إلى التحقّق من الأمر، فتبيّن لي أنّ جميع الحسابات كانت قد سوّيت. وحين تأكّد لي أنّ المبلغ يخصّني، وهبته لأوّل فقيرٍ صادفته. وقد علمت في ما بعد أنّ تلك المرأة المجهولة، لم تكن سوى العذراء القدّيسة التي تنازلت فامتحنت سخاء أمَتِها الصغيرة".

الانخطافات الأولى

وتوالت الخوارق بقَدْر ما كانت مريم ماضيةً في طريق الله بأمانةٍ. ومنذ تلك الفترة أخذ الله يمنّ على روحها بالارتحال، بين الفيْنة والأُخرى، إلى دياره السماويّة، التي كانت محطّ تطلّعاتها، وقُبلة رَغَباتها.

انخطافها الأوّل استمرّ ساعتين. وخُيِّل إلى الجميع أنّه ضربٌ من الإغماء الشديد. أمّا الانخطاف الثاني فكان فريدًا في امتداده وفي ظروفه وصداه، وبخاصّةٍ، في ما أفضى إليه من ارتحالٍ غريبٍ إلى عالَم الآخرة. وقد جرى، في كنيسة القدّيس

نيقولاوس، في أعقاب المناولة، التي أقبلت عليها مريم، في شوقٍ ملتهِبٍ. ففي حين كان الكاهن يناولها القربان المقدّس، هتفت: "إنّك، يا أبتاه، تعطيني ولدًا" وهوَت على الأرض جثّةً هامدةً.

وهرعت السيدة نجّار، عندما نُمي إليها النبأ، فأقلّتها في عَرَبةٍ، وعادت بها إلى المنزل، حيث استقدمت أمهر الأطباء، الذين استنفدوا جميع الذرائع، ولم يتورّعوا عن أشدّها عنفًا، من غير أن يُفلحوا في إعادة الوعي إلى الصبيّة الممدّدة أمامهم، في حين كانت وجنتاها مصطبغتين باللون الورديّ، وجسمها يضجّ بكلّ دلائل العافية، ممّا زاد في حَيرتهم، وفي عجزِهم عن أيّ تفسيرٍ لحالةٍ لم يشهدوا لها، قطّ، مثيلاً. واستمرّت على هذه الحال أربعة أيّام، أفاقت من بعدها لاستئناف عملها في خدمة المنزل، وكأنّ شيئًا لم يحدث.

رحلةٌ إلى الآخرة

وعندما أُمرت مريم، سنواتٍ بعد ذلك، أن تروي ما حدث لها في غضون تلك الأيّام الأربعة، سردت تفاصيل رِحلةٍ قلّما قام بمثلها إنسانٌ بالروح، فيما جسده على الأرض يَنبِض بالحياة. وليس أعذب من سماع روايتها من فمها:

"نُقِلتُ إلى السماء، ورأيت العذراء القدّيسة يُحيق بها الملائكة، وإلى جوارها عددٌ غفيرٌ من العذارى، ورأيت نفسي صغيرةً جدًّا، بل قد تحوّلت عَدَمًا. ومع ذلك كنت أشعر أن جميع تلك النفوس كانت تحتضنني في فرحٍ جمٍّ.

"وارتميت عند أقدام العذراء قائلةً لها: "أيّتها الأمّ الحنون، هل ستُبقيني هنا إلى الأبد؟..، فأجابتني: "ما زال ينقصك الكثير"

"ليس بوسعي وصف ما كان يُحيق بها من مجدٍ. وقد قالت لها إحدى العذارى: "أيّتها الأمّ الحنون، ليست الفِعال العظيمة التي تُنجز على الأرض هي التي تستأهل السماء، بل يستأهلها الوفاء الكامل. وإنّي أرضى بالعَودة إلى الأرض من جديدٍ، كي أتمّم كلّ عملٍ على أكمل وجه.

"وقد أبلغتني تلك العذراء أنّ الله قد أوكل إليها مهمّة إطلاعي على السماء، وكذلك على ما يجري على الأرض وفي المطهر وفي الجحيم. وقد أرتني يسوع،

مُخلّصنا الإلهيّ، يتضرّم حبًّا، وعلى مقربةٍ منه، جماعة الرسل. وأرتني أيضًا جيش الشهداء، ونفوس الذين قاسَوا، على الأرض مِحَنًا شديدةً. إنّهم لم يُريقوا دماءهم على حدّ ما فعل الشهداء، ولكنّهم يساوونهم مقامًا، لأنّهم حملوا صليبهم. وقد قالت لي العذراء: "لكلٍّ صليبه، وعندما يرى الله نفسًا تتقبّل بشهامةٍ الصليب الملقى على كاهلها، يعينها هو نفسه، على حمله".

"وأرتني الكهنة الصالحين القدّيسين، وقد تألّقوا تألّق العذارى، وانتصبوا إلى جانب الربّ والرسل. وكانت تقول: "آه! كم يحبّ الربّ الكهنة الصالحين! وكم يفرح عندما يشهد اندفاعهم في سبيل مجده وخلاص النفوس! كم هو يحبّهم! إنّ عددًا ضئيلاً منهم يصعد إلى هنا مباشرةً من غير أن يمرّ بلهيب المطهر.

"وشاهدت الرجال الذين عاشوا عِيشةً مسيحيّةً، وقد تصاعد من أفواههم ومن أيديهم نورٌ، مكافأةً لهم على إحسانهم وعلى دأبهم. أمّا النساء اللآئي أخلصن لواجبات الحياة المسيحيّة، فكنّ دون العذارى مقامًا، وكنّ يحملن على صدورهنّ ما يشبه آنية ورودٍ رائعة، والنور يتوهّج من تلك الآنية.

"وقالت لي دليلتي وهي تشير إلى أمّ الله: "إنّك تحبّين هذه الأمّ الطيّبة الحنون، أليس كذلك؟ إنّك تشهدين أيّ مجدٍ يغمرها، مع أنّك لا ترَيْنها كما كان من شأنك أن ترَيْها لو كنتِ مقيمةً هنا إقامةً أبديّةً. ألا قولي لي ألا يستأهل مجد السماء أن تُبذَل في سبيل استحقاقه الجهود؟ وأكرّر لك القول: ليست عظائم الفِعال هي التي تستأهل السماء. ولا يسوغ للنفس أن تقول: "أودّ أن أتألّم، أرغب في ذلك الصليب، أو ذلك الحرمان، أو تلك المهانة، فالإرادة الخاصّة تفسد كلّ شيءٍ. إنّه من الأفضل أن يعانيَ الإنسان قَدْرًا أقلّ من الحرمان والآلام والمهانة، بإرادة الله، من أن يقاسي قِسطًا وفيرًا منها، بإرادته الخاصّة. الأمر الجوهريّ هو أن يتقبّل الإنسان، في حبٍّ، وفي توافقٍ تامٍّ مع مشيئة الربّ، كلّ ما يروق للربّ أن يبعث به إليه. هناك، في الجحيم، نفوسٌ كانت تطالب الله بصلبانٍ وإهاناتٍ، وقد استجاب لها الله، ولكنّها أخفقت في الإفادة من نعمه لأنّ الكبرياء قد أهلكتها. فلا تطلبي شيئًا، بل تقبّلي بشكرٍ، كلّ ما سيدفعه الله إليك.

"كم من أوهامٍ، أيضًا، تساور الإنسان عندما يبتليه الله بالمرض. فعوضًا عن

الإفادة منه، يقول في نفسه: "آه! لو كنت أتمتّع بعافيتي، لفعلت كيْت وكيْت، وأدّيت ذاك العمل في سبيل الله، لخير نفسي" أمّا من يطلب الشفاء، فليطلبْه أبدًا على نحوٍ شرطيٍّ: إن كانت تلك هي مشيئتك، يا ربّ، إن كان مجدك يقتضيه، وإن كان صالح نفسي يتطلّبه.

"وأردفت تلك العذراء: بودّي أن أهبِط معك إلى الدنيا كي أتألّم، وكي أتوافق، في كلّ شيءٍ، مع مشيئة الله، لكي أمجّده على نحوٍ أفضل، وكي أكون أكثر جدارةً بالدنوّ من جماله الأسمى.

"فلتحبّ النفوس الله، هذا الآب السماوي، الحنون العطوف، ولتحبّ القريب أكثر من ذاتها، ولتحبّ الفقراء، وإن لم تمتلك سوى كسرة خبزٍ فلتقسمها معهم، فيقوم عطف الله بتأمين أوَد غدها، ولن يدعها تفتقر إلى الضروريّ. وليكن الله لها الكلّ، في كلّ أمرٍ. ولا يكن لها من مطمعٍ خلا رِضاه وإتمام مشيئته القدّوسة.

"آه! كم أنّ النفس التي تنهج على هذا المنِوال هي مرضيّةٌ لدى جلاله السماويّ! بوسعها، وحدها، أن تهدي ملايين النّفوس الأُخرى، وليكن لدى النفس التي تحبّ الله والقريب، على هذا النحو، في جميع الظروف، ثقةٌ كبرى، لا تتزعزع. وبما أنّ كلّ إنسانٍ يعيش على الأرض هو ضعيفٌ، فقد يسمح الله أن يرتكب أخطاءً، لكي يبقى متّضعًا. ولكن ما عليه أن يقنط، بل فليتُبْ، وليعترف بخطاياه للكاهن، فيغفر له الله. أجل! فليثق، أيّةً كانت خطاياه، وليعترف بها جميعها، وستُغفر له كلّها.

"هناك قدّيسون، على الأرض، يسقطون من جرّاء الوَهْن البشري، في أخطاء قد تكون فادحةً. وحينئذٍ يبذل إبليس كلَّ الوسائل ليَبُثّ الذّعر في تلك النفوس الخاطئة، ويحول دون اعترافها بخطاياها. إذ يوسوس لها: أنّ الكاهن يظنّ أنّك صالحةٌ قدّيسةٌ، فكيف تجسرين على الإقرار أمامه بهذه الخطيئة؟ لا، لا يمكن أن تعترفي بهذه الخطيئة لإنسانٍ، ولن تفعلي ذلك! وتتستّر النفس المخدوعة على خطيئتها، وتستمرّ في تقبّل الأسرار، وينتهي الشيطان بإصابتها بالعمى، فتهوي إلى الجحيم".

"اذكري جيّدًا هذه الكلمات التي يقولها الربّ، ولا يَغفلَنّ عنها تلاميذه أبدًا: "تعالوا إليّ، تعالوا إليّ، أنتم يا جميع المنسيّين على الأرض، من أجل إلهكم، فأنا لم أنسَكم، تعالوا وادخلوا إلى الأبد، في فرح معلّمكم".

"ثم رأيت ما يشبه تطوافًا يقوده مزيجٌ من كهنةٍ وعذارى وراهباتٍ صالحاتٍ، يسيرون، وقد تألّقوا مجدًا، إلى جوار الفادي الإلهيّ. وإلى كلّ جانبٍ كان يقف عددٌ غفيرٌ من الملائكة. وكان حشدٌ من الأطفال الأبرياء، يُحاكون الملائكة، ومن العذارى الصغيرات، ومن شتّى النفوس الطاهرة يلحقون بالموكب، ورأيت سائر المختارين غارقين في نشوةٍ وعبادةٍ".

"وقالت لي رفيقتي العذراء: يا مريم، هذا العيد جديدٌ أبدًا، وسيدوم أبدًا، ستشتركين به يومًا، ولكن لم يحن بعدُ الوقت لذلك، فكتابك لم يكتمل. أفيدي جيّدًا من الحياة، فإنْ هي سوى لحظةٍ، أمّا هذه الحياة فتدوم أبدًا. وبالأَخَصِّ، لا تفقدي رجاءك يومًا، وسْط المحن والآلام، بل اقذِفي بنفسك، مُغْمَضة العَينَين، بين ذراعَي الله، لكي تكوني، في السماء، أدنى قربًا منه...

"وولجنا المطهر: مكانٌ تغشاه الخُضرة، فسيحٌ، وكم من النفوس فيه على تقاربٍ في ما بينها، ولكن على تباينٍ شاسعٍ في المعاناة! عذاب بعضها يتجاوز أضرى صنوف الآلام، في حين أنّ آلام نفوسٍ أُخرى تحاكي آلام الأمراض على الأرض. لا تُشاهَد نارٌ ظاهرةٌ، غير أنّ كلّ نفسٍ تحمل نارها فيها، وليس هناك من أبالسة.

"وقالت لي رفيقتي العذراء إنّ أمّ الله تهبط، كلّ يوم سبتٍ، إلى المطهر تحفّ بها طائفةٌ من الملائكة، فتحرّر الكثير من النفوس، التي تلحق، في جَذَلٍ، بتلك الملكة السماويّة، وكأنّها خِرافٌ صغيرةٌ.

"والآن، تعالَي نُلقِ على الجحيم نظرةً، من غير أن نلجه، قالت لِيَ العذراء. وعندما رأيته، بدا لي المطهر فردوسًا. فأنفسُ المطهر خاضعةٌ للمشيئة الإلهيّة وهي سعيدةٌ بالتطهّر بالنار لكي تستأهل به رؤية التجلّي الإلهيّ. في حين أنّه لا يُسمع في الجحيم سوى صيحاتٍ مُريعةٍ، وسِبابٍ وشتائم. وصُعقت الأبالسة عندما رأت العذراء التي تقودني؟ فعلى إبليس أَن يقف ساكنًا، وقفة عبدٍ حقيرٍ، في حضور نفسٍ تخصّ الله بكلّيتها، وكذلك الأمر عندما يشاهِد نفسًا تصعد إلى السماء، إذ تنتابه حُمّى من الغَيظ...

"وقد أدركت أنّ الشيطان كالرّيح، عندما تهبّ، يوصد في وجهها كلّ شيءٍ، وتسدّ الفجوات والشقوق لاتّقائها. فعلى النَفْس أن تحترز على هذا النحو من إبليس، فتغلق كلّ ثغرةٍ فيها لئلاّ تدع منفذًا لذلك الروح الشرّير.

"وكان أوّل ما راعتني رؤيته في جهنّم، تلك النفوس التي هلكت من جرّاء رذيلة الفِسْق. كان يحيق بها لهيبٌ يتّخذ شكل المحبوب الذي هامت به حتّى العبادة على الأرض، على نحوٍ جنونيٍّ. والبخلاء أيضًا كانوا محاطين بلهيبٍ يُمثّل الذهب والفِضّة. وكذلك كانت ألسنة النار التي تلبس كلّ مَن أُدين، ترتدي شكل ما كان لإدانته سببًا. ولقد شاهدت في جهنّم نفوساً من جميع الطبقات، ومن جميع المستويات.

"إنّني أشعر أنّ ما سرَدته لم يكن سوى لعثَمةٍ..."

لم تكن تلك الرحلة إلاّ لتزيد مريم بالسماء هُيامًا، وبالأرض وما عليها، خلا حُبّ الله، زهدًا.

غير أنّها في بساطتها الحكيمة، قد عرفت التوفيق بين أسمى التطلّعات الروحيّة وأكثر المهامّ وضاعةً في خدمة أسيادها على أكمل وجهٍ، على حدّ ما ورد في شهادة مخدّمتها السيّدة نجّار التي أفادت وهي تذكر تلك الفترة:

"ما زلت أتحسّر على خادمةٍ تدعى مريم، شديدة التقوى والأمانة، بل جوهرة الخدّام. لم أجد لها، قطّ، مثيلاً. كانت لا تني تعبّر عن رغبتها في الترهّب إلى أن أودعناها الدير. لقد كانت تتمتّع بمواهب خارقةٍ".

وكان الله قد أَوعز إليها أثناء ذلك الانخطاف الذي دام أربعة أيّامٍ، أن ترتدي أكثر الثياب فقرًا، تكفيرًا عمّا يُقترَف في العالم من فُحشٍ وغُرورٍ، وأن تصوم طوال سنةٍ كاملةٍ على الخبز وحده والماء القَراح، تكفيرًا عن ذنوب الشراهة. وما كان على مريم أن تغيّر الكثير من هندامها كي تنفّذ الشقّ الأوّل ممّا أُمرت به، فقد اتّسم زيّها، منذ بدء تشرّدها، بالفقر المطلق. أمّا الصوم فكانت قد خَبرَته في الإسكندريّة، ولم تُصب منه صحّتها بأذى. وبالتالي، لم يتردّد معرّفها، الأب عبده، في السماح لها بمزاولته. ولكنّ الصوم، في هذه النوبة، قد أَنهك قواها، وعندما أشرف على نهايته زامنه التهابٌ شديدٌ في حنجرتها، ممّا دفع بها إلى حافّة الموت، بحيث زُوِّدت بالأسرار الأخيرة، ومع ذلك أبت العدول عنه. وسارع الله إلى مكافأتها، فتعافت فجأةً، واستعادت كامل قواها، وكانت آنذاك، تقضي أيّامها الأولى في دير راهبات القدّيس يوسف، في ضواحي مرسيليا.

الفَصْلُ الرَّابِع

مَريم الرّاهبة

محاولات فاشلة

كانت مريم قد بلغت العشرين من العمر، غير أنّ المِحَن المتعاقبة، بما انطوت عليه من حرمانٍ ومشاقّ مارستها في سنٍّ مبكّرةٍ، قد أعاقت نموّها فبدت وكأنها لم تتجاوز الثالثة عشْرة.

ومع ذلك، كان دافعٌ في أعماقِها يشدّها إلى المزيد من البذل والتّضحية. وكان معرّفها، الأب فيليب عبده، الذي خَشي على تلك الزهرة النادرة من شراسة العالم ورِجسه، يحاول أَن يقود خطواتها نحو الحياة الرهبانيّة التي باتت لها مطلبًا جوهريًّا. إلاّ أنها كانت غافلةً عمّا ينهض دون تحقيق رغبتها تلك من عقباتٍ كأداء، منها فقرها الذي لا يُمكّنها حتّى من تأمين مستلزمات لباسها الأساسيّ، وصحّتها المتخلخِلة التي زادها الصيام هُزالاً، وأمّيّتها، وجَهلها شِبه المطلق للُّغة الفرنسيّة، فضلاً عن مقاومة السيّدة نجّار التي كانت تودّ الاحتفاظ بخادمتها، فتسعى جاهدةً لدى بعض الأديرة للحؤول دون قبولها فيها.

ابنة القدّيس يوسف

في أعقاب عدّة محاولاتٍ فاشلةٍ، قدّمتها أَرملةٌ تقيّةٌ إلى دير راهبات القدّيس يوسف، في قرية الكابليت، في ضواحي مرسيليا، الذي كان يضمّ في صفوف

المبتدئات المتأهّبات للرهبنة عددًا من الفتيات العربيَّات، موفداتٍ من قبل فروع الدير في سوريّة. ولكي يمهّد الله سبيل قبولها، منّ عليها بشفاءٍ تامٍّ مفاجئٍ، ممّا ألمّ بها إثر صومها السنويّ، فتعافت بعد أن كانت مَعِدَتها، حتّى اليوم السابق لدخولها الدير، عاجزةً عن الاحتفاظ بأيّ طعامٍ أو شرابٍ. وقُبِلَت في الحال. أوَلم تتنبّأ لها العذراء بأنّها ستكون، أوّلاً، ابنةً للقدّيس يوسف؟

ولكنّ الله الذي مهّد السبيل، لم ينتزع منه الأشواك كلّها.

عُيّنت مريم مساعدةً في المطبخ، وكانت الراهبة المكلّفة بتدريبها تفتقر إلى الرحمة والأناة. وكانت مريم، من جرّاء جَهلها اللُّغة الفرنسيّة، غالبًا ما تفهم الأوامر الصادرة إليها، على نقيض معناها، فتؤدّي من الأعمال خلاف ما يُطلب منها، فتنصبّ عليها زميلتها تأنيبًا وتحقيرًا، بل صفعًا أحيانًا. غير أنّ تواضع مريم ومحبّتها كانا يتغلّبان على ذلك، إذ كان جوابها أبدًا، في لغةٍ فرنسيّةٍ مهشّمةٍ: "عفوًا، أنا سيّئة جدًّا. أنتِ صلّي من أجلي".

لقد كانت مريم تجد في التضحية والإماتة من المتعة ما تجده سائر النساء في الجواهر والحلِى.

وكان أسلوب حديثها بلهجةٍ فرنسيّةٍ محطّمةٍ، لا تحفل بأصولٍ أو قواعد، مَوضِعَ تندّرٍ أثناء الفُسَح. فأُطلِق عليها اسم العربيّة الصغيرة، أو مريم العربيّة.

إلاّ أنَّ جميع الراهبات المُبْتَدِئات اللواتي عرفنها في تلك الحِقبة، قد أجمعن على تميّز مريم بفضائل نادرةٍ، من طاعةٍ وتواضعٍ ومحبّةٍ وتقوًى بذّت بها حتّى أكثر الراهبات تمرّساً بالحياة الروحيّة.

لقد كانت أبدًا السبَّاقة إلى القيام بالأعمال الشاقّة الوضيعة، حتّى تلك المناط أداؤها بالأُخريات، وإذا ما سُئلت عن دافع مبادراتها هذه، كانت تجيب: "أَنا أفعل ذلك، لأنّ لديّ الوقت". وإذا ما أُنّبَت بسبب خطأٍ، ولو على غير وجه حقٍّ، كانت تجثو مستغفرةً، في كثيرٍ من الصدق والتواضع المؤثّرَين.

ذات مرّةٍ، كانت تهبط سلّمًا، وهي تحمل دلو ماءٍ في كلّ يدٍ، فزلّت قدمها، وهوت، وتغرّقت بالماء المراق، ونهضت غير عابئةٍ بما ألَمَّ بها، وقالت: "شكرًا لك، يا ربّ". لقد كان شكر الله دَيْدَنها، كلّما تعرّضت لمحنةٍ شديدةٍ.

كما أنّ طاعتها المطلقة كانت موضع إعجاب رئيساتها وزميلاتها على السواء. فبعد عملها، فترةً من الزمن، في المطبخ، أُوكِل إليها عملٌ آخر أَقلّ مشقةً، رأفةً بصحّتها المعتلّة، ثمّ أُعيدت من جديدٍ إلى العمل وراء المواقد، فكانت أبدًا تلبّي كلّ ما تُؤمر به من غير اعتراضٍ ولا تذمّرٍ، في رضًى وفرح.

من أمثلة الطاعة التي تميّزت بها، في تلك الحقبة، أنّها، مع دنوّ صيام عام ١٨٦٦ استأذنت بالصوم التامّ طوال النهار، غير أنّ رئيسة الابتداء رفضت طلبها بسبب هُزال صحّتها، فأجابت في عفويّةٍ: "حَسَنٌ، كم وجبةٍ تأمرينني أن أتناول يوميًّا: ثلاثًا أو خمسًا أو عشرًا؟". لقد كانت تدرِك أَنّ الطاعة خيرٌ من تضحيةٍ نافلةٍ.

وقد قُدِّر لها أن تحظى برعاية راهبتين، على قدْرٍ كبيرٍ من الفطنة والغَيرة والمحبّة، هما الرئيسة العامّة الأمّ إيميلي جوليان، ورئيسة الابتداء، الأمّ هونورين، اللّتان ما عتّمتا أن استشفّتا، لدى المبتدئة الجديدة، أمارات المواهب السماويّة النادرة، ولا سيّما أَنّ حالات الانخطاف التي كانت قد بدأت في كنيسة القدّيس نيقولاوس، قد عادت تتكرّر بتواترٍ.

وكانت الأمّ هونورين هي أوّل من اكتشف لدى مريم البسيطة الوضيعة الجاهلة، مواهب الله الخارقة. فقد ألمّ يومًا ألمٌ شديدٌ بجنب مريم الأيسر، لم تعد تقوى معه على التنفّس. ومرَّت أيّامٌ ثلاثةٌ من غير أن يطرأ أيّ تحسّنٍ على حالها. وفي اليوم الثالث قالت لمعلّمة الابتداء: "في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم سأشفى" – "ومن الذي سيشفيك؟" – "الله تعالى". وعادتها الأمّ هونورين، في الموعد المحدّد، فألفتها وقد تعافت تمامًا. وحِيال دهشتها بادرتها مريم بالقول: "لقد مرّ الربّ بغرفتي، مثل نورٍ عظيمٍ، وشفاني".

مرّةً أُخرى كان سقوطٌ مؤلمٌ قد ألزمها الفراش؛ ولكنّها تنبّأت بأنّ السيّدة العذراء ستشفيها عند الظهر. وقد تمّ لها ذلك، بعد أَن زارتها أمّها السماويّة، ولمستها بحنانها.

وذات يوم رأتها الأمّ هونورين جاثيةً عند باب المعبد، مُبحرةً في رحلةٍ روحيّةٍ بعيدةٍ. وعندما سألتها، لاحقًا، عن ذلك، أَجابتها، في كثيرٍ من العفويّة، أنّها كانت تشعر بالأسى لأنّ أعمالها لم تعد تتيح لها التفرّغ للصلاة، كما أنّها لم تعد قادرةً على ممارسة الصوم، كسابق عهدها، وأردفت: "لقد وافتني العذراء القدّيسة معزِّيةً،

ونصحتني بالطاعة، ومحبّة الآخرين أكثر من نفسي، وبعدم الاهتمام بشيءٍ آخر؛ ومنذئذٍ وجدتُ السلام".

وتواترت حالات التنبّؤ وقراءة الغيب لديها، على حدّ ما جرى عندما أَنبأت بوفاة إحدى راهبات الجمعيّة في فلسطين، وبعد أَيّام جاءت رسالةٌ تؤكّد تلك الوفاة في الوقت الذي رأتها فيه مريم.

أما الحَدَث الذي بدّد جميع رِيَب الأمّ هونورين، ورسّخ لديها اليقين بأنّ طالبتها هي من مختاري الله، حقًّا، فقد جرى في مطلع عام ١٨٦٦، فيما كانت متّجهةً وإيّاها إلى قاعة الاجتماع، فاستأذنت مريم بأخذ مِنديل قد نسيته في قاعة النوم. واهتبلت فرصة انفرادها كي تجثو وتتلو صلاة "أَبانا"، وفي الحال تولاّها انخطافٌ، وإذ تلكّأت في العودة، لحقت بها معلّمة الابتداء مُستطلِعةً واقع الأَمر، فوجدتها راكعةً وقد أسندت يدها اليُمنى على صدرها، فيما تدلّت على الأرض يدها اليسرى ممسكةً المسبحة، وقد تضرّج كلٌّ من يدها والمسبحة بالدم. وجهِدت الأمّ هونورين عبَثًا في إيقاظها. وقد استغرق "سُباتها" ساعتين ونصف الساعة، وعندما ثابت إلى عالم الواقع، رسمت على ذاتها إِشارة صليبٍ عريضةً، وإذ رأت معلّمة الابتداء إلى جانبها، اعتذرت عن تأخّرها الذي خُيّل إليها أنّه لم يتعدّ دقائق معدوداتٍ. ثمّ أردفت قائلةً لمعلّمتها: "حمدًا لله أنّك كنت الشاهدة الوحيدة على سباتي". ولم تشأ أَن تبوح بشيءٍ، حتّى أمرتها معلّمتها باسم الطاعة فأفادت: "مراتٍ عديدةٍ كانت إحدى نفوس المطهر قد طلبت منّي أن أسأل حفيدها الكاهن أن يتلو عن نيّتها ثلاثة قداديس، ويخصّص ثلاث ساعات صلاةٍ، ممّا يسهّل انتقالها إلى السماء. وقد طلبتُ إشارةً ملموسةً تؤكّد حقيقة هذه الرؤية، يشاركني شخصٌ آخر في رؤيتها. وهذه هي الإِشارة". وألمحت إلى يدها ومسبحتها المبلّلتين بالدّم.

وأَخذ الدّم يصبغ، أكثر فأكثر، حياة مريم كلّها، تشترك به مع الفادي الإلهيّ في غسل ذنوب البشر؛ فبضعة أَيّام بعد ذلك الانخطاف، أعطتها معلّمة الابتداء صورةً للمخلّص وأوعزت إليها بالصلاة، في معبد الدير. فتراءى لها يسوع على الهيكل وقد تجلّت جراحه الخمسة، وندبة إكليل الشوك على رأسه، وقد تدفّقت من جميعها سواقٍ من اَلدِّمَاء. وفجأة رأت جمرًا متّقدًا يوشك أَن يهبط من يدَي يسوع على رؤوس

الخطأة، فيما راحت أمّه، العذراء مريم، وقد جثت أمامه، تتوسّل إليه أن يصفح عن المذنبين. ولكنّ يسوع، وقد طغى عليه الأسى، كان يجيب أمّه: "آه! كم من الإهانات تلحق بأبي، كم من الإهانات!". عندئذٍ انقضّت الأخت مريم نحو يسوع ولمست جرح قلبه الأقدس هاتفةً: "يا إلهي أعطِني، إن شئت، جميع هذه الآلام، ولكن ارحم الخطأة". وعندما ثابت من انخطافها، وجدت يدها مضرّجةً بالدّم. وقد غسلت معلّمة الابتداء، التي شهدت الخارقة، اليد الملطّخة، فلم تكتشف أيّ أثرٍ لجرحٍ. ومنذ ذلك اليوم، أخذت تنتاب مريم آلام في جنبها الأيسر، الذي بات ينزف دمًا كلّ يوم جمعةٍ. وكانت حريصةً على إزالة آثار الدّم هذه، كاتمةً عن الجميع أَمرها.

ثمّ تكرّم عليها الفادي فوسمها بجميع سِمات جراحه(١). ففي مستهلّ صوم ١٨٦٧ اختُطِفت مرَّةً أُخرى، وبأمر الطاعة روت ذلك الانخطاف فقالت:

"تراءى لي أنّني كنت أجني وردًا أزيّن بها هيكل العذراء. وكان لتلك الورود أشواكٌ من جانبيها تنغرس في يديّ ورجليّ. وعندما استيقظت كانت المرارة تملأ فمي، ويداي وقدماي منتفخةٌ، وفي وسط يديّ ورجليّ، برزت بثورٌ سوداء". يوم الخميس تفاقمت آلامها وظلّت تشتدّ حتّى يوم الجمعة، وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم سقطت البثور السوداء من تلقاء ذاتها، وارتسم إكليل الشوك بجلاءٍ حول هامتها، وطفق الدم يتدفّق من رأسها ويدَيها ورجليها. وقد تكرّرت تلك الخارقة مرّاتٍ عديدةً، في نفس المواعيد من أيّام الصوم الأربعينيّ، تحت أنظار معلّمة الابتداء وبعض الراهبات.

كانت تبدو، أيّامَ الجمعة، وكأنّها تحتضر، بل كأنّها اختزلت في ذاتها كلّ بؤس العالم، وحاكت يسوع، في آلامه، عندما أَشار إليه بيلاطس قائلاً "هوذا الرجل".

---

(١) يُقصد بالسمات (Stigmates) كرامةً خاصّةً يجود بها الربّ على بعض مختاريه، بحيث تظهر على أجسادهم جروحٌ تذكّر بجروح المصلوب الخمسة: في اليدين، والقدمين، والجنب.

قلّةٌ هم القدّيسون الذين خُصّوا بمثل تلك الكرامة، ولا يتعدّى عدد المعروفين منهم، في تاريخ الكنيسة، الخمس مئةٍ، وأشهرهم فرنسيس الأسيزي. وخليقٌ بالملاحظة أن ظاهرة السمات هذه، ما زالت متواترةً، فقد تجلّت حديثًا لدى الأب پيو الإيطالي و"مارت روبان" الفرنسية، وفي أيّامنا الحاضرة لدى بعض من ظهرت لهم السيّدة العذراء في وطننا، واختارتهم أداةً لتبليغ رسائلها.

وقد كانت مريم حريصةً على إخفاء تلك العوارض التي تظنّها عِقابًا لها، ووهنًا. فقد كانت تدعو انخطافها "سُباتًا"، وسمات جروحها "مرضًا"، وآثار الدِّماء "قذارةً". ورُغم حِرصها وحرص الرؤساء على إخفاء تلك الظواهر إلاّ أنّ أمرها فشا وشاع في الدير، وأثار نقاشًا محتدمًا، ومواقف متنابذةً. فقد كانت مريم، على غِرار جميع أولياء الله، سببًا للمعارضة، وعلى حدّ ما يحدث دائما حِيال الخوارق، اتّخذ الإكليريكيّون منها مواقف شديدة التباين، بين مؤيّدٍ يرى يد الله فيما يجري لها، ومرتابٍ يتّهمها بالإيهام والتضليل، وفي سبيل الحدّ من البلبلة الناشئة، منعَ الرؤساءُ التناقش في الأمر، وأَمروا الأخت مريم بالامتناع عن الانخطاف أثناء النهار أمام زميلاتها، وبعدم النهوض أو الركوع أثناء الليل، وبالاقتصار على الصلاة وهي جالسةٌ على سريرها. وكانت الأخت مريم شديدة الحِرص على الطاعة، فسألت الله أن يبعد عنها "السُبات" في الأوقات والأوضاع التي نُهيت عنها. واستجاب لها الربّ، فانحصرت انخطافاتها، في آناء الليل، وهي على سريرها جالسةٌ.

ثمّ أمرتها معلّمة الابتداء أن تسأل الله ألاّ يُظهر شيئًا من سمات الجراح فيها للآخرين، وكم كان فرحها عارمًا عندما أوعزت إليها العذراء بإبلاغ معلّمتها أنّ السمات ستختفي حتّى صيام السنة المقبلة.

وكانت طاعتها، المقرونة بالتواضع والفرح، الدليل الساطع الذي أكّد لرؤسائها أَنّ ما يجري لها إنّما هو من عمل الله، وأنَّها لم تقع هي، ولم يقعوا هم، فريسةً لأيّ وهم، أو تضليلٍ شيطانيٍّ. ومنذئذٍ أحاطها كلٌّ من الرئيسة ومعلّمة الابتداء بحبٍّ وتقديرٍ لا حدود لهما، واعتبرا "العربيّة الصغيرة" كنزًا نادرًا، لا يقلّ ثمنًا عن برناديت سوبيرو، التي كانت قد ظهرت لها العذراء في لورد، لبضع سنواتٍ خلت، والتي كان يضمّها أَحد أديرة الجمعيّة.

في غضون ذلك، ألمّ بالأمّ هونورين مرضٌ عضالٌ ألزمها الفراش، فتولّت مسؤوليّة رعاية المبتدئات الأمّ ڤيرونيك، التي، بعد تمحيصٍ دقيقٍ متمعّنٍ، تيقّنت من الطابع الإلهيّ في ما يحدث للعربيّة الصغيرة، فمحضتها حبّها وعطفها، ولكنّها لم تتخلّ عن امتحانها، كلّما سنحت لذلك فرصةٌ، كي تدفعها قُدُمًا في دروب التواضع والقداسة.

وأشرفت فترة الابتداء على الانتهاء. وكان لا بدّ من التقرير بشأن قبول مريم النهائيّ في الدير. وكان رأي بعض المرشدين والراهبات أن لا مكان للحالات الخارقة التي تتعرّض لها مريم، في ديرٍ مهمته الخدمة العامّة، وأَنّ الأديرة النسكيّة المغلقة هي بها أولى. وأوكل إلى سبع راهباتٍ التصويت على مصير مريم، في غياب الأمّ الرئيسة عن الدير، وتغيّب الأم هونورين التي قيّدها المرض. فأسفرت نتيجة التصويت عن امتناع صوتين، وتأييد صوتين لبقائها، وإقرار ثلاثة أصوات إبعادها عن الدير.

وقد اعترف كلّ من الأمّ الرئيسة والأمّ هونورين، في ما بعد، أَنّ الدير، بهذا القرار قد فقد كنزًا لا يُقدّر بثمنٍ.

نُبوءاتٌ ورؤًى تتحقّق

كانت مريم قد تعلّمت الاستسلام في اطمئنانٍ إلى مشيئة الله، إلاّ أنّه حُقّ لها التساؤل عن أيّ دربٍ ستسلك، بعد أن أُوصد في وجهها باب دير القدّيس يوسف.

ولكنّ العناية الإلهيّة كانت سريعةً في الردّ على تساؤلها، إذ كانت الأمّ ڤيرونيك التي تولّت أَمرها في الأسابيع الأخيرة من إقامتها في الدير، قد استأذنت قبل وقتٍ طويلٍ، بالانتقال إلى دير الكرمل في مدينة "پو" بفرنسا. وقد وردتها الموافقة على طلبها في الوقت الذي تقرّر فيه إبعاد مريم عن دير القدّيس يوسف. فاقترحت اصطحاب مريم إلى دير الكرمل. وكتبت، بهذا الشأن، إلى رئيسة كرمل "پو" مُغفِلةً كلّ إشارةٍ إلى خوارق مريم، ومقتصرةً على التعريف بها بالقول: "ستكون مطيعةً على نحوٍ عجيبٍ". ووافقت رئيسة كرمل "پو" على استقبال الفتاة اليتيمة.

بعد بضع سنواتٍ كتبت رئيسة دير القدّيس يوسف إلى كرمل "پو" ما يلي: "عليكنّ تقديم الشكر لله الذي سمح أن أكون غائبةً، ساعة التصويت على قبول مريم في ديرنا. لو كنت حاضرةً لما رضيت أبدًا بإبعادها. ولكنّ الربّ أراد بذلك تحقيق ما رسمه لهذه الفتاة الخارقة. لولا ذلك لكنت اتّهمت القدّيسة تيريزا بسلْب ما يخصّ القدّيس يوسف".

نبوءات العذراء تتحقّق، خطوةً خطوةً: فها قد قدِمت مريم إلى فرنسا، وصارت

ابنةً للقدّيس يوسف، وهي الآن تصبح، في الكرمل، ابنةً للقديسة تيريزا. في حين أنّها لم تكن تعرف من أمر الكرمل شيئًا. بَيدَ أنّها تذكّرت رؤيا عرضت لهـا، لـسنواتٍ عديدةٍ مضت، وروتها، بعدئذٍ لمعرّفها، وهي جديرةٌ بأن نسمعها كما سردتها:

"بدا لي أنّني كنت أرى يسوع وأمّه القدّوسة، وعند أقـدامهما القـدّيس يوسـف وامرأةٌ لم أكن أعرفها. ففزعتُ إلى القدّيس يوسف، واختبأت تحت معطفه. وكـأنني خائفةٌ من تلك المرأة المجهولة، مع أنّها كانت على قدرٍ كبيرٍ من الطِّيبة. وكان يسوع ومريم يتطلّعان ويبتسمان. وإذا بهذه المجهولة تبادر القدّيس يوسف بـالقول: "أيّهـا القدّيس الكبير، إنّك لم ترفض لي، وأنا على الأرض، أمرًا، فهل سترفض لـي فـي السماء طلبًا؟ أعطِني هذه الفتاة" ورفع القدّيس يوسف أنظاره نحو يسوع ومريم، ثـمّ قادني إلى تلك المرأة المجهولة، فأدركت أنها القدّيسة تيريزا، وتلاشـى لـديّ كـلّ خوفٍ، وأحببت تيريزا حبّي لأمّي".

الفَصْلُ الخَامِسُ

في كرمِل "پو"

الشاطئ الآمن

كانت الراهبات الكرمليات يرتّلن صلاة الغروب، في عصر يوم السبت، الخامس عشر من شهر حزيران ١٨٦٧، عندما قرعت الأمّ ڤيرونيك والمبتدئة مريم، باب الدير.

وداخَل مريم شعورٌ عذبٌ بأنّها أخيرًا، أرست على شاطئٍ آمنٍ، ووجدت البيت الذي إليه دعاها الربّ، فلم تتمالك عن الاندفاع نحو الراهبات، حين آن لها التعرّف إليهنّ، تقبّلهن، وتلثم أيديَهنّ، تعبيرًا عن شكرها لقبولهنّ إيّاها بين ظهرانيهنّ، وهي تهتف: "كم أنا سعيدةٌ، فها قد ظفرت بأسرةٍ، الرئيسات بمثابة أمّي، والراهبات لي أخواتٌ".

أمَّا هنّ فكن يتنسّمن فيها عَبَقًا من أرض الجليل، من موطن يسوع، ونسيمًا من ذُرى الكرمل، وهديّةً من السماء. براءتها، فقرها، بساطتها، عَفويّتها، تعبيرها الفرنسيّ المهشّم الذي يسبغ على حديثها نكهةً مستملَحةً، كلّ ذلك كان يشدّهنّ إلى القادمة الجديدة. فمع جهلهنّ لما خُصَّت به من امتيازاتٍ خارقةٍ، كان يغمرهنَّ حيالَها شعورٌ أخّاذٌ بحضورٍ إلهيٍّ كثيفٍ.

قَسَمات وملامح

كانت شرقيّة الملامح، حنطيّة البشرة، سوداء العينين متّقدتهما، متّسعة الفم، ممتلئة الشفتين، مستطيلة الوجه. وكانت تبدو أصغر سنًّا من سنواتها العشرين، ويزيد هُزال جسمها من انطباع الطفولة الذي كانت تشيعه. فلا عَجب، إذن، أَن تظلّ تسمية "العربيّة الصغيرة" ملتصقةً بها.

ولكن لم يكن يخفى على العيون المتمرّسة بالحياة الروحيّة، ما كانت تتستّر عليه تلك المظاهر من كنوزٍ داخليَّةٍ ثمينةٍ، انطوت عليها نفسٌ صاغتها وأَنضجتها، على نحوٍ مبكّرٍ، المِحَن التي واكبتها منذ مولدها، ونعمة الله التي تولّتها برعايةٍ خاصّةٍ.

فلقد كانت عباراتها العفويّة تنطق بحكمةٍ سماويّةٍ غير مألوفةٍ، ومرحها كان ينقلب وقت الصلاة تقوى موغِلةً في عالم السماء، وفرحها يبلغ أوجه في المعاناة، والامّحاء، والطاعة. كانت تفتقر إلى علوم الأرض ومعارفها، ولكنّها امتلكت امتلاكًا، ثرًّا راسخًا، جميع الفضائل التي تقود إلى الكمال من كرّس كلّ ذاته لله. فامتلكت بذلك النصيب الأفضل الذي لا يُنتزع منها.

لقد قرنت، على نحوٍ فذٍّ، البساطة والحكمة، العفويّة والجدّ، السبُل الوضيعة والخوارق النادرة. ووفّقت في تناغمٍ فريدٍ بين الأرضيّ والسماويّ.

إنّ الشهادات المتوفّرة عن مريم، الأخت المبتدئة في كرمل "پو"، تُجمع على تصويرها نفسًا تغمرها النعمة، وتمضي في ممارسة الطاعة حتّى المعجزة، وسائر الفضائل كالتقوى والتفاني والتواضع والمحبّة، حتّى البطولة. وحريٌّ بنا أن ننقل هذه الشهادة التي تُلقي بعض ضوءٍ على ذلك الوجه الفذّ:

"لقد باشرت الأخت ابتداءها في فرحٍ واندفاعٍ، كلّ شيءٍ كان يروق لها في الكرمل: الصمت، وغرفتها الفقيرة، وأسوار الدير والتضحية، وعلى نحوٍ خاصٍّ ممارسات التواضع المتّبعة في هذه الرهبنة. كانت معجبةً، حتّى الذهول، بكلّ شيءٍ. ولعجزها عن التعبير عن امتنانها، كانت تضمّ يديها على صدرها، وترنو إلى السماء، ثم تُطرق بنظرها أرضًا، وتلثم أيدي الراهبات في حرارةٍ، لتشكر لهنّ قبولهنّ إيّاها في الدير. وكانت تفعل كلّ ذلك في سذاجةٍ مؤثّرةٍ. منظرها يوحي أنّها ما برحت في الثانية عشرة، فقامتها الضئيلة، ووجهها البريء، وما تلاقيه من عناءٍ في النطق بلغتنا، وجهلها المطبِق، إذ كانت لا تعرف حتّى القراءة بالعربيّة أو بالفرنسيّة، كلّ ذلك مجتمِعًا كان يصنع منها نموذجًا للطفولة الحقّة. وبالتالي، لم يكن بوسعنا أَن نسمّيها فيما بيننا سوى "الأخت الصغيرة". بَيدَ أنّ ما يدهش هو أنّها كانت تجمع إلى تلك البساطة حكمةً فائقةً، وفكرًا مستقيمًا، وحكمًا رائعًا، وقدْرًا من التبصّر كبيرًا، وخبرة إنسانٍ كهلٍ. ولئن هي كانت تفتقر إلى المواهب المكتسبة، إلاّ أننا ما عتّمنا أَن تأكّدنا أَنّ قلبها وذهنها كانا غنيّين بالمواهب التي تصنع النفوس الكبيرة".

الأخت
مريم يسوع المصلوب
المبتدئة الكرمليّة

اسمٌ برنامج

لقد قُبلت مريم، أوّل الأمر، بصفة راهبةٍ عاملةٍ، وأوكلت إليها شؤون المطبخ، فرحّبت بتلك المهمّة التي تلبّي تطلّعاتها إلى الامّحاء والخدمة والبذل.

وكم سَعِدَت بالاسم الجديد الذي أُطلق عليها، والذي حفل بالرموز والمعاني بل كان لها برنامج حياةٍ ودعوةٍ. فقد دعوها "مريم يسوع المصلوب"؛ وهكذا احتفظت باسم مريم الذي وُهبته مع العماد، اسم الأمّ الفذّة التي تبنّتها يتيمةً في عبلّين، وأعادتها إلى الحياة إثر استشهادها في الإسكندرية، وقادت خطاها في الدرب الذي رسمه لها الربّ. وفضلاً عن ذلك حظيت باسم ابن مريم، ابن الله، الذي في سبيله استُشهدت، ومعه اقترنت منذ الثامنة، عبر سرّ الافخارستيا، والذي كان، أبدًا، قُبلة تطلّعاتها، وحبّها الأوحد. إنّ يسوع يقتضي من أتباعه أن ينكروا ذواتهم، ويحملوا الصليب، ويمضوا في إثره، ومريم قد أنكرت أبدًا ذاتها، وامتشقت عود الصليب، وعودها ما برح لدنًا غضًّا، ومشت في إثر يسوع في غير تردّدٍ. لقد أحبّته، وأحبّته مصلوبًا، وأدركت منذ طفولتها أنّ لقاءها به سيتمّ عبر الجلجلة والفداء والتضحية، واندفعت في ذلك السبيل بكلّ ثقةٍ.

"**مريم يسوع المصلوب**": اسمٌ يعكس ماضيها، ويصوّر حاضرها، وينبئ بمستقبلها.

لقد وفّر الكرمل لمريم المناخ المؤاتي لتوطيد قداستها، وكانت تلك الحِقبة من حياتها حافلةً خَصبةً. فقد أينعت روحيًّا، وازدهرت فضائلها الفريدة، وتجلّى الله من خلالها بخوارق لم يؤتَ لأحدٍ من القدّيسين مثلها في تنوّعها، وتواترها، ومدى خرقها للمألوف.

وقد قيّض الله لها نفوساً تمرّست بالحياة الروحيّة الكثيفة، والبصيرة التي تنيرها النعمة، فتولّتها بالإرشاد والرعاية.

في طليعة تلك النفوس رئيسة كرمل "پو"، الأمّ ماري تيريزا إيلي، التي استقبلت مريم، ثمّ ما لبثت أن غدت مرشدة المبتدئات، فكانت علاقتها بها وثيقةً، يوميّةً، حميمةً، اتّسمت بالعطف، والمحبّة والتبصّر، وطوال أربع سنواتٍ، وحتّى وفاتها – بين يدي مريم، كما سنرى – لم تتخلَّ ساعةً عن ربيبتها. كانت قد اكتسبت خبرةً

راسخةً في إدارة النفوس، وتمرّست بالأمانة في خدمة الله. قاسيةٌ على، ذاتها، رفيقةٌ بالآخرين، في محبّةٍ لا حدّ لها، وحزمٍ يعرف كيف يلوي الإرادات نحو حبّ يــسوع. لقد اجتازت مع مريم قسطًا أساسيًّا من سيرتها الروحيّة، فكانت لهــا أمًّــا وملاكًــا. وكانت مريم، أثناء انخطافها، تسمّيها "العجوز حبيبة يسوع".

سرعان ما اطمأنّت إليها مريم، فكشفت بين يديها جميع مكنونات نفــسها، ومــذ ذاك، لم يمضِ يومٌ لم تبُح فيه المبتدئة بنجواها لأمّها الروحيّة، ولم تُغدق الأمّ نصحها وإرشادها لابنتها، التي توطّد لديها اليقين بأنّ الله يبلّغها مشيئته من خلالهــا، فغــدت طاعتها امتثالاً للمشيئة الإلهيّة، لا تعرف، حيالها، تردّدًا، وحتّى في أثناء انخطافهــا، حين يكون سمَعها، وجميع حواسّها في سُباتٍ سحيقٍ، كان أيّ أمرٍ يصدر إليها مــن الأمّ إيلي خليقًا بإعادتها من رحلتها السماويّة النائية، فترتعش وتستيقظ، وتنفّــذ فــي الحال ما يُطلب منها.

وعد مار الياس

وقد جرى أول اختبارٍ لطاعتها، نحوَ ستّة أسابيع بعد دخولها الدير، في العشرين من تموز ١٨٦٧، يومَ كانت الجمعية تحتفل بعيد النبيّ إيليّا، شفيع الأمّ إيلــي، وقــد نُصب تمثاله في قاعة الطعام، بهذه المناسبة؛ وعندما رأته مريم راحت تصفّق فــي فرحة الأطفال، فمار الياس مواطنٌ لها، وهو يُحاط، في مسقِط رأسها، في المنطقــة المحيقة بجبل الكرمل في فلسطين، بتكريمٍ شاملٍ منقطع النظير، تشترك فيــه جميــع الطوائف المسيحيّة والإسلاميّة والدرزيّة، على السّواء. وطفقت مريم تروي للراهبات الحماس العارم الذي يعمّ في مثل هذا اليوم، احتفاءً بالشيخ الجليل الحيّ، ذي اللحيــة البيضاء، الذي لا يجسر أَحدٌ على تحدّيه أو الاستخفاف به.

وحيال فرح المبتدئة الجديدة "بالأب إيليا"، وبتمثاله الذي احتلّ من قاعــة الطعــام مكانًا بارزًا، خطرت للراهبات فكرةٌ انطوت على دعابة. فبما أَنّ النبيّ إيليّــا مــا زال حيًّا، لمَ لا تسكب له مريم وجبةَ طعامٍ على غِرار الآخرين! وامتثلت مريم، في عفويّــةٍ رائعةٍ، ووضعت أمام تمثال النبيّ طبقًا مليئًا، وما كادت تجلس في مكانها، حتّى تراءى لها أنّ التمثال يتحرّك، وأَنّ الشيخ الجليل، بقامته الشامخة، ومحيّاه المــشرق، ولحيتــه

البيضاء، يطوف بالمكان مباركًا الراهبات. وفي الحال تلاشى كلّ شيءٍ عن أبصارها، فأسندت رأسها على كتف الراهبة الجالسة إلى جوارها، وبدت وكأنّ إغماءً قد انتابها.

وكانت الأمّ ڤيرونيك التي جاءت بمريم من دير القدّيس يوسف، قد خبرت مثل هذه الحالات، فأسرّت في أذن الأمّ إيلي أنّ مريم في حالة انخطاف، ولكن ما على الأمّ إيلي إلاّ أن تأمرها، باسم الطاعة، أن تثوب إلى عالم الواقع، حتّى تمتثل، في الحال. وحدث ذلك فعلاً، واستيقظت مريم مرتعشةً، وقد اعتراها الخجل، بحيث حاولت التواري عن أنظار زميلاتها. إلاّ أنّها، في غضون تلك الرّحلة القصيرة، كانت قد تلقّت من قدّيسها المحبوب، النبيّ إيليّا، وعدًا بأنّها سترتدي الثوب الرهبانيّ، في وقتٍ قريبٍ، وقبل الموعد النظاميّ.

وقد تحقّق ذلك الوعد، بأسرع ممّا حلمت به مريم، إذ كانت الرئيسة قد آنست، منذ اللحظة الأولى، أنّ كنزًا فريدًا قد أُوكل إليها، وأُودع ديرها، ومع تخوّفها من فَيض الخوارق التي طفقت تنهال على القادمة الجديدة، بوتيرةٍ آخذةٍ بالتّسارع، غير أنّ ما برهنت عنه من فضائل نادرةٍ، ولا سيّما التقوى، والتواضع، والطاعة، والمحبّة، قد بدّد كلّ تردّدٍ لديها، ورسّخ لديها القناعة بأنّ نفسًا مختارةً هي التي جاءت تقرع باب الجمعيّة. ومن ثمّ فقد دعت، في نفس اليوم، العشرين من تمّوز، إلى عقد مجلسٍ للجمعيّة، وطرحت على التصويت أمر قبول مريم، فأجمعت الأصوات على قرارٍ إيجابيٍّ، متجاوزةً التقاليد التي كانت تقتضي فترة اختبارٍ أطول أمدًا. وضُرب موعدُ ارتدائها الثّوب الرهبانيّ، في يوم السبت السابع والعشرين من تمّوز.

رياضةٌ روحيّةٌ بإشراف العذراء

وكان على مريم أن تتأهّب لذلك الحدَث بأسبوع رياضةٍ روحيّةٍ وتأمّلٍ. وقد تولّت السيدة العذراء نفسها إلهامها وإرشادها، سحابة ذلك الأسبوع، مقتصرةً على معالجة موضوعٍ واحدٍ، رسَّخت قناعته فيها، ألا وهو امتياز النفس الرهبانيّة، الوفيّة لنذورها، وخلُصت إلى القول: "إنّ ابني الإلهي سيقدّم تلك النفس إلى أبيه قائلاً: "هذي عروسٌ سلَكَتْ في إثري بأمانةٍ، وهجرتْ، في سبيل اتّباعي، كلّ شيءٍ، وتنكّبتْ عن ملذّات الحواسّ، لا بل إنّها تخلّت عن إرادتها. لقد كانت طاهرةً، فقيرةً، مطيعةً". ومن

ذا يستطيع وصف الحبّ الذي به سيستقبل الأب السماويّ تلك النفس ويكلّلها؟".

أوَلَم تكن العذراء، في الواقع، تصف، بهذه العبارات، نفس ربيبتها الأثيرة، التي كانت تتولاّها بعنايتها، والمصير الذي أُعدّ لها في الديار السماويّة؟

الراهبة المبتدئة

أمّا مراسم ارتداء مريم الثوب الرهبانيّ، فقد تمّت، في احتفالٍ مُغلقٍ، اقتصر على راهبات الدير، خشية الانخطافات المتواترة التي كانت تداهم "العربيّة الصغيرة" على حين غرّةٍ، وتحاشيًا لإفشاء أمرها أمام غرباء.

ووفقًا للتقاليد، كان على مريم أن تختار لنفسها عرَّابًا وعرَّابةً. فقالت: العذراء هي أمّي، والقدّيس يوسف أبي، ولذلك أختار إيليّا عرّابًا لي، والقدّيسة تيريزا عرّابةً. فاحتلّ تمثالاهما مكانهما من حولها، فحقّ لها أن تهتف جَذلى: "يا للأسرة الرائعة التي هي لي الآن في السماء!".

غير أنّ ما عكّر صفو سرورها هو قرار الجمعيّة قبولها مبتدئةً بصفةِ راهبةٍ متعبّدة، أي من أولئك اللواتي يقفن حياتهنّ على الصلاة والتأمّل، لا على العمل اليدويّ. فبعد أن أخذت تتجلّى فيها مواهب الروح الخارقة، خُيِّل إلى الراهبات أنّها ستمجّد الله أكثر إن هي انتظمت في سلك المتعبّدات المتأمّلات. وأُسنِدتْ إلى الرئيسة المعاونة مهمّة تلقينها اللاتينيّة والفرنسيّة. وقد بذلت الأخت مريم جهودًا مستميتةً، وكانت تشاهَد، أثناء الطقوس، وهي تحاول أن تتابع بإصبعها في جهدٍ ظاهرٍ، أسطر كتاب الصلاة. بَيد أَنّ الثمار لم تأتِ بمستوى الجهد. فلقد كانت تطلّعات الله مغايرةً لتطلّعات البشر. فهو يؤثر البسطاء بالروح الذين يشاهدونه وجهًا لوجهٍ، من غير حاجةٍ إلى، كتبٍ ولغاتٍ، والذين يعيشونه على نحو ما يتنفّسون، ويستدفئون الشمس. وغالبًا ما كانت غشاوةٌ تنسدل على بصرها، وهي تجهد في حفظ درس القراءة، وتتوارى عن بصرها الحروف، فتضرع إلى الله سائلةً عونه، ومستفسرةً إن كان عليها المضيّ قدمًا في محاولات التعلّم أو التخلّي عنها، وفقًا لإرشاد معلّمة الابتداء التي أوعزت إليها استلهام الله، في هذا الشأن. وكان الردّ يأتيها عبر رؤًى يظهر لها الربّ فيها

ملطّخًا بالدّم، ويُسرّ إليها: "يا ابنتي، قد يتولاّك الغرور، إن أنت تعلّمت القراءة سريعًا. إنّ هذا العلم ليس بضروريٍّ لك. ثلاثةٌ تكفيك: أنظري إليّ واذكريني؛ كوني، في كلّ شيءٍ، أخيرةَ الجميع؛ وأطيعي طاعةً عمياء".

وظلّت مريم تتوق إلى اعتمار القناع الأبيض الذي يميّز الراهبات العاملات، وتتوسّل في ذلك. إلاّ أنّ رغبتها هذه لم تتحقّق إلاّ بعد سنواتٍ أربعٍ.

مواهب استثنائية

لقد ألمحنا إلى الفضائل النادرة، والهبات الفريدة التي تجلّت لدى مريم، منذ أيّامها الأولى، في كرمل "پو". وقد كانت هذه وتلك من التعدّد والتفوّق بمكانٍ. فقد اتّضحت لديها موهبة الفِراسة، واستشفاف خفايا النفوس، وقراءة الغَيب، على نحوٍ مُذهِلٍ. ولكن لم يكن ذلك بأجمل ما فيها. بل كانت تقواها الراسخة اَلْمُتَّقِدَة والعلاقات الحميمة التي تعقدها مع الربّ هي أسنى وأثمن ما انطوت عليه جوانحها. وكان القربان المقدّس، على نحوٍ خاصٍّ، هو الجاذب الذي يشدّها بعنفٍ، وكثيرًا ما كان يستبدّ بها الوَجْد، في حضوره، فتستأذن بالانصراف، لئلاّ تقع في انخطافٍ تحت أبصار زميلاتها. فالافخارستيّا لم تكن لها رمزًا أو معنًى مجرّدًا، بل كانت حضورًا حقيقيًّا، حسّيًّا، فذًّا، بكلّ دفئه وسحره، يأخذ بمجامع كيانها.

والصلاة، أيضًا، لم تكن لها تلاوة عباراتٍ وطقوساً، بل كانت حوارًا يشترك به كل وَتَرٍ فيها. إنّها قلّما استطاعت المضيّ في تلاوة "أبانا" أو "السلام" حتّى نهايتهما. إذ ما إن تلفظ العبارات الأولى منها حتّى تعقد حديثًا حميمًا نابضًا، تنطلق عبره، إلى موطن الآب الذي في السماء، والأم السماويّة، ذاهلةً عن الأرض وما فيها، والجسد وحواسّه. وكانت المسكينة تشكو، في ألمٍ وبراءةٍ، عجزها هذا عن تلاوة تلك الصلوات بكاملها.

شريكة آلام الفادي

وعلى حدّ ما رمز له اسمها الرهبانيّ الجديد، أُعطيت مريم أن تشاطر الفادي الإلهيّ آلام صليبه. صحيحٌ أَنّ العذراء كانت قد وعدتها بأنّ سِمَاتها لن تنزف حتّى

الصوم المقبل، إلاّ أن جنبها ظلّ، كلّ يوم جمعةٍ، يفرز دمًا وماءً، منذ الساعة العاشرة صباحًا حتّى الثالثة بعد الظهر. وكان صليبٌ من دمٍ يرتسم على الأقمشة التي يُحاط بها خصرها. وسحابة تلك الساعات الطوال كانت مريم، الأخت المبتدئة، تعاني آلامًا مبرّحةً أخّاذةً، وتتلظّى ظمأً، ويتّخذ الماء الذي تعطاه لإرواء غليلها طعم العلقم، وتنتفخ يداها ورجلاها، ويحمرّ موضع السِّمَات منها، ويرتسم على وجهها أثر الصفعة التي لطمت وجه يسوع، وعلى منكَبيها وركبتَيها آثار الكدمات، وتعاني ما يشبه التوثيق بالحبال، وتعجز عن تناول أيّ طعامٍ، ويجفوها النوم، ويخامرها إحساسٌ مَريرٌ بأنّ الجميع يضربونها وينبذونها، ولكنّها كانت تهتف: "شكرًا، يا إلهي، إنّني متأهّبةٌ للمزيد من الألم من أجل الخطأة، والأَبِ الأَقدس، والكنيسة". وإذا ما طغى عليها الأَلم فخشيت الوَهَن ابتهلت: "إرحمني، يا الله، فأنا ضعيفةٌ. أَنا لست سوى خطيئة، أفيحقّ لي أن أشكوَ من الألم؟ كلاّ، يا إلهي كلاّ! كم تألّمتَ يا يسوع، وكم أَنا سعيدةٌ بالتألّم حبًّا بك!"

ولطالما تراءى لها الربّ، وفي يديه، أَو على صدره، أكاليل من وردٍ، ينثال منها الدم. وقد رأت، ذات مرّةٍ، صليبًا تحيق به خمسُ ورودٍ، كانت أجملها تعلو الصليب. وقد أعطاها يسوع الصليب والورود، فجرت مسرعةً، جذلى، إلى العذراء مريم وقالت: "لديّ خمسُ ورداتٍ، اثنتان منها لك، وثلاث ليسوع، أرجوك ألاّ تشعري بالغيرة لأنّ نصيبك منها أقلّ من نصيب يسوع. فلو كان لديّ ستّ ورداتٍ عوضًا عن خمسٍ، لكنت، بلا ريبٍ، أعطيتك ثلاثًا". بَيْدَ أنّ العذراء القدّوسة رنت إليها في حنانٍ جمٍّ، وأجابتها، وقد أشرق محيّاها بابتسامةٍ ساحرةٍ، أنّها راضيةٌ بالقسمة وإنّما كانت الوردات الخمس، هي سمات جراحها التي ستتفتّح في مطلع الربيع، مع بدء الصوم.

وكان يستهويها، على نحوٍ خاصٍّ، اقتفاء مراحل درب الصليب التي تعيشها حسّيًا بكلّ جوارحها. وكان يسوع، آنذاك، يتراءى لها على نحو ما كان عليه، على طريق الجلجلة، وهو ماضٍ للتضحية بذاته لفداء البشر. فيَخترق هذا المشهد قلب المحبّة الولهى بطعنةٍ ماضيةٍ، فتنتحب وتجهش أمام كلّ مرحلةٍ، وغالبًا ما سكبت، في مثل تلك المناسبات، دموعًا من دمٍ وكثيرًا ما عجزت عن مواصلة الدرب حتّى آخر مراحله، وحُملت إلى سريرها، وقد صرعها الوجد والألم.

إلاّ أنّها مثلما عرفت الانخطاف والوجْد، وقاست الآلام الجسديّة، اجتازت، أيضًا، أزماتٍ قاسيةً من الجفاف النفسيّ، ومن العجز عن مناجاة الله؛ وفي تلك الفترات القاتمة كانت تعترف للأمّ الرئيسة قائلةً: "إنّني أسير اليوم على خشبةٍ ضيّقةٍ معلّقةٍ في الهواء. ويخيّل إليّ، في كلّ خطوةٍ، أنّني أهوي، وتنتشر عن يميني وعن يساري، الحُفَر والمزالق، وإبليس، كالهواء، يتسلّل من خلال الثقوب كلّها".

زائرون من السماء

في الثامن من آب، من ذلك العام، كان المرض قد حال دون حضور مريم القدّاس، ووافتها معلّمة الابتداء مستفسرةً عن حالها، فألفتها مستغرقةً في خشوعٍ سحيقٍ. والتمست منها الأخت مريم، بإشارةٍ من يدها، التزام الصمت، فحدجتها المعلّمة بنظرة فضولٍ، ورأتها تجهد في ابتلاع قربانةٍ، شأن من هو مصابٌ بنشافٍ في حلقه. وقد أردفت، بعد فترةٍ: "آه! كم من النعم قد ظفرتْ لي بها السيّدة العذراء! لقد نلتُ المناولة، وقد جاءني بها طائرٌ صغيرٌ أبيض... ثمّ ألقى عليّ القدّيس إيليّا عظةً جميلةً، جميلةً، جميلةً... وزارتني، أَيضًا، القدّيسة تيريزا، وقالت لي: "يا ابنتي، عليك أن تحبّي مريم حبًّا جمًّا فهي أمّك، وهي مليكتك. كلّ خيرٍ يأتينا عبر مريم، ولا نتلقّى شيئًا إلاّ بواسطتها..."

وغالبًا ما كانت تزورها السيّدة العذراء، وتحثّها على تقبّل الألم. ذات يومٍ جاءتها معلّمة الابتداء، في محبسها، لتصلّي معها؛ وفيما هما تتلوان "السلام عليك يا مريم" توقّفت فجأةً، وغطّت وجهها بيديها، وقد بهرها نورٌ فائق الطبيعة، وهتفت لمعلّمتها: "أنصتي، إنّ مريم تكلّمني" وأَخذت ترهف السمع، ثمّ التفتت إلى معلّمة الابتداء قائلةً: "هل أدركتِ ما قالت؟" وإذ لم تتلقّ جوابًا، أَضافت: "ها إنّها تمضي". وفي الغد سألتها معلّمة الابتداء عمّا أفضت إليها به السيّدة العذراء. وكانت، هي، في براءتها العذبة، موقنةً بأنّ معلمتها قد رأت وسمعت مثلما رأت هي نفسها وسمعت، ومن ثمّ فقد أَجابتها في دهشةٍ: "ألا تعلمين؟ لقد قالت: سعيدةٌ، بل ثلاثيّة السعادة النفس التي تتألّم. إنّ الوقت قصيرٌ، شديد القِصر. وبعد لحظة عذابٍ على هذه الأرض ستتعم هذه النفس، أبديًّا، مع ابني الإلهي، عند الآب السماوي". وسألتها المعلّمة: "وهل قالت لك شيئًا خاصًّا بك؟" فردّت: "أجل، إنّها لا تنفكّ تردّد: التواضع، التواضع. تُرى ما هو هذا التواضع الذي تعنيه؟".

تواضعٌ وطاعةٌ

ربّما كانت مريم تجهل معنى لفظة "التواضع"، ولكنّها كانت تمـارس التواضـع على نحوٍ قلّما مارسه أَحدٌ مثلها. كانت تسمّي نفسها "اللاشيء الـصغير" أو "العـدم الصغير". كانت قد تخلّت عن ذاتها، وأفرغتها من كلّ أثرةٍ وأَنانيّةٍ وغـرورٍ وحـبٍّ للذات، وتخلّت عن إرادتها الخاصّة، وكلّ رغباتها، لله؛ لقد جعلت من ذاتها هوّةً يسع الله أن يملأها على هواه، بذاته، ورحمته، وخوارقه. فالله يتدفّق بكلّ غناه، في هـوّة النفس التي فرغت من ذاتها، ويُفيض عليها دَفق وجوده.

وتروي مريم، في هذا الصدد، إحدى رؤاها، وفيها نكهة أَمثال يسوع المُـشبعة بالطلاوة فتقول:

"مثَلتُ في حضرة ملكٍ عظيمٍ. كان حقًّا ملك الملوك. وكـان يحـيط بـي أولادٌ يمسكون بصندوقٍ صغيرٍ قَذِرٍ، نَخِرٍ، تغشاه الأشواك والأكـدار والأوسـاخ. وقـدّم الأولاد ذلك الصندوق الصغير للملك، وذُهلتُ إذ رأيت الملك يتناوله، على قذارتـه، والرائحة الكريهة المنبعثة منه، والتي تجعله منفِّرًا. كان مقزّزًا بحيث لم أكـن أنـا لألمسه. إلاّ أنّ الملك قد أخذه بيده مبتسمًا وقال: "أحبّ هذا الصندوق، فهو ينطـوي على كنزٍ". وفتحه، فشعرت بأنّ قلبي ينفتح، وشاهدت، مدى لمحـة عـينٍ، جـلالاً عظيمًا، مثل ومضة برقٍ. أيّ فرحٍ! بل أيّة سعادةٍ! إلاّ أنّ ذلك مرّ سـريعًا، وحالمـا أغلق الصندوق، عادت الظلمات فغشت قلبي، من جديـدٍ. حينمـا كـان الـصندوق مفتوحًا، رنا إليه الملك في حبٍّ وقال: إنّني سأغلقه على مضضٍ؛ غطّوه أكثر فأكثر بالأشواك والأقذار، لكي لا يسلب الحراس والجنود الكنز المخبّأ فيه".

الأشواك والأقذار هي المحن التي نهلت منها العربيّـة الـصغيرة حتّـى الثمالـة والتجارب التي أوسعها منها الشرّير على نحوٍ لم يعهده أكثر القدّيسين تعرّضًا لهجماته.

وكان سبيلها إلى التواضع، والدليل على رسوخها فيه، طاعةً مطلقـةً لأوامـر رؤسائها التي تستشفّ من خلالها مشيئة الله. فامتثالاً لهذه الطاعة، لم تكـن تتـردّد، لحظةً، عن الخروج من عزلة محبسها حيث كانت تنعم بمناجاة الله وحيدةً مع الوحيد. إشارةٌ من رئيستها كانت كافيةً لحملها على التضحية بذلك النعيم الـسماويّ، للقيـام

بأكثر الأعمال وضاعةً وتفاهةً. ففي الطاعة أَيضا كانت تجد الله، وهكذا عرفت كيف تتخلّى عن الله من أجل الله.

ذات يومٍ حظّرت عليها الرئيسة تناول القربان، امتحانًا لها. ثم جاءتها مختبرةً وقالت:

- "لا ريب أَنَّك، اليوم، قد تكبّدت تضحيةً جسيمةً"

- "لا تتكلّمي عن التضحية - قالت مريم - فالطاعة أعظم شأنًا من التناول، بل هي أفضل من كل شيءٍ".

- "وإن قالت لك أمّنا: أعطيني ذراعك لأقطعها، فما يكون موقفك؟"

- "سأقدّمها قائلةً: ها هي ذي ذراعي فابتريها"

- "وإِن قالت لك: إبتُريها بنفسك؟"

- "سأبتُرها، في الحال، بكلّ فرحٍ".

تواضعها السحيق كان يصوّر لها، أحيانًا، أَنَّها، بجريرة خطاياها، هالكةٌ، لا محالة، لولا رجاؤها الوطيد، وثقتها بعطف الآب السماويّ اللامحدود، على نحو ما تظهره هذه الصلاة التي كانت بها تتوجّه إلى الله، عندما تداخلها مثل تلك المشاعر:

"لو كان عليّ أن أدين نفسي، لحكمت على نفسي بالجحيم. ولكنّك أنتَ، يا ربّ، سترأف بي. أنا أرى أنني خليقةٌ بجهنّم، ولو شئتَ أنتَ أن ترسلني إليها، لآثرت الذَّهاب إلى جهنّم، تنفيذًا لإرادتك ورغبتك وحكمك، على الذهاب إلى السماء بحكمي وإرادتي. يا ربّ، لقد ارتكبت من الخطايا، ما لم يرتكبه أحد على الأرض، واقترفت من الآثام، أكثر من أيّ إنسانٍ. إنّني أكثر خلائقك عُقوقًا، ولكنّك، أنت، أبي المُفعم حبًّا وعدلاً، وعطفًا، ورحمةً".

وقد سُئلت، يومًا، إن لم تكن تجارب الكبرياء قد راودتها، قطّ، فقالت: "أَزِبْلٌ مثلي يجرّب بالكبرياء؟" وكانت تردّد على مسامع معلّمتها: "إنّني، بكلّيّتي، خطيئةٌ، فمن أين تأتيني الكبرياء!، أنا لست شيئًا، أنا فقيرةٌ، جاهلةٌ، لا أعرف قراءةً ولا كتابةً، ولا فضائل لي، فمن أين الكبرياء؟" وفي مناسبةٍ أُخرى قالت: "أنا لست أخشى الشيطان، فأنا لذاتي أكبر شيطانٍ. لست أخشى سوى نفسي. يا إلهي، خلّصني من ذاتي: إنّني ألدُّ عدوّةٍ لنفسي".

لقد كانت المسكينة، أحيانًا، ضحيّة اندفاعها الفطريّ، الذي لا تقوى، دائمًا، على كبْح جماحه، مع ما فرضته على ذاتها من رقابةٍ صارمةٍ. فقد كانت تــتكلّم أحيانًــا، على غير وعيٍ منها، بصوتٍ مرتفعٍ يقلق سكون الدير، وإذا ما قامت بعملٍ يــدويٍّ نفّذته في حميّةٍ وعَجَلَةٍ لا تتماشيان ورصانة الرهبنة، وإن هي لحظت من الغير هَتْكًا للنظام والفضيلة، فقد كانت براءتها الساذجة، ولا سيّما في أوّل عهدها بالدير، تجهل معالجة الأمر بدرايةٍ وتكتّمٍ، بل تواجهه أحيانًا بفجاجة الغيرة المتّقدة.

وإذا ما تجلّت لها تلك الأخطاء، أو لُفت انتباهها إليها، انتابها، من جرّاء ذلك ندَمٌ يمزّقها، ويمحقها، فلا تتوانى عن الاستغفار، والإقرار بالذّنب في لهجةٍ وجيعةٍ: "أنــا أضعف الناس أجمعين، وليت كلّ الناس يعرفون ذلك. بــل ليــت ضــعفي وجُبنــي يسجّلان على جدران الدير وأبوابه! آه كم يعتريني الخزي وأنا أمضي لتقبّل يــسوع في المناولة المقدّسة، وعلى كاهلي كلّ تلك المعاصي".

صراعٌ مع إبليس

نبرة التواضع هذه كانت تثير حفيظة إبليس، وتوغر صدره على تلــك العربيّــة الصغيرة، التي كان يخشى أن يُبْعد مثالها الآخــرين عــن دربــه، درب الكبريــاء والغرور. لقد شقّ على الملاك المنحطّ أن يرى مواطنة يسوع تبثّ في ديار الغــرب أصالة الإنجيل، وتنهض شاهدًا ساطعًا على قُدرات الله اللامتناهية، فانبرى للإيقــاع بها. وكان الله شديد الثقة بتواضع أمَته ووفائها، وعَمَلِ نعمته فيها، فأطلق يد إبلــيس يجرّبها بكلّ ضراوته وخبثه، كي يبتليه بأذرع فشلٍ لقيه على الأرض، منــذ صــوم يسوع الأربعينيّ.

كان إبليس يجهد في إقصائها عن الدير، حيث وجدت المناخ المؤاتي لازدهــار فضائلها، ولعمل الروح الخصب فيها. فاستهدفت هجماته الأولى، النيل من صــحّتها، علّه يفتّ من عضدها، ويثنيها عن حياةٍ قائمةٍ على السّهَر والتقشّف. غير أنّ الآلام ما كانت إلاّ لتزيدها التصاقًا بالفادي الذي تألّم عن البشر.

ولم يستسلم الخبيث، بل جهد في بَعْث دوافع القنوط إلى نفسها. فلنــستمع إلــى حوارٍ، بل مبارزةٍ بين إبليس والراهبة المبتدئة، في يوم ذكــرى استــشهادها، فــي

الإسكندرية:

– "إنّ جميع الراهبات يؤدّين فروض الصلاة والتعبّد، أمّا أنت فلا تؤدِّينها.

– "هذا صحيحٌ، ولكنّه لن يحول بي دون حبّ الله.

– "سيطردونك، قبل إبرازك النذور، لأنّك، أبدًا، معتلّة الصحّة. ولن يولوكِ مثل ما يولونك الآن من شفقةٍ.

– "لا بأس، سأحبّ يسوع أبدًا، وسيُعنى يسوع بي.

– "ولكن إذا ما اتَّهمتك الرئيسة ونائبتها وسائر الراهبات، وضربْنك، فما عساك تفعلين؟

– "سأحبّ يسوع أبدًا

– "وإن قذف الله بك إلى جهنّم؟

– "إذن، في جهنّم أيضًا سأظلّ أحبّ إلهي، إلى الأبد.

– "إنّ المعلّم وأمّه لا يحبّانك، وإلاّ لما جعلاك تنحدرين من السماء، بعد أن دُقّت عنقك.

– "حتّى لو كانا لا يحبّاني، وهو افتراض المستحيل، فأنا سأحبّهما دائمًا، أجل، دائمًا، أكثر فأكثر.

– "أنت غير جديرةٍ بتناول الأسرار المقدّسة، فاقتصري على المناولة الروحيّة؟ إذ سيترتّب عليك تأدية حسابٍ عن جميع تلك النعم.

– "صحيحٌ أنّني غير جديرةٍ بالمناولة، ولكنّني أومن، وأرجو وأحبّ، وسأمضي فأتناول".

لم يقنط إبليس، إثر هذه الهزيمة، بل راح يتصدّى لها بأذًى مباشرٍ، فحاول أَن يثنيها، قسرًا، عن صيام أربعينيٍّ على الخبز والماء، كانت قد نذرته، فدفعها بعنفٍ نحو بابٍ أَصابت قبضة مزلاجه رأسها بجرحٍ بليغٍ، غير أنها استأذنت في مواصلة صومها رغم آلامها المبرّحة. وخليقٌ بالملاحظة أنّ الصوم، في أحيانٍ كثيرةٍ، كان يضاعف قواها.

وفي يومٍ آخر، قذف بها من أعلى سلّمٍ إلى دَركه، ولم يشهد أَحدٌ سقوطها، فلم تُنبئ به أحدًا، سحابة النهار، ولكن لوحظ أنّها كانت تسير بمشقّةٍ. وفي الغد ورمت ساقها، واكتشف فيها الطبيب كِسرًا، فألزمها الراحة طيلة عشرين يومًا، إلاّ أنّها

شُفيت، على نحوٍ عجيبٍ، في غضون يومين، ولم تتخلّ عن صيامها.

ولجأ إبليس إلى أساليب لا تجول إلاّ في خاطره. فقد كانت مــريم، فــي ســبيل التمرّس بالسيطرة على ذاتها، قد آلت على نفسها أن تتناول جميع وجبات الطعام التي تقدّم، سواءٌ استساغتها أو نفرت منها. واسترسل الخبيث في محاولة ثنيها عن ذلــك السلوك، ومذ ذاك، أَخذت تظهر في طبقها طوائف من اَلدِّيدَان الحيّــة. إلاّ أنّ مــريم كانت تتغلّب على نفورها ومشاعرها، فتسحق اَلدِّيدَان بملعقتها على طرف الطبق ثــم تتناولها مع الطعام. وأحيانًا كانت تنبعث من وجبة طعَامها روائح جِيَفٍ، غير أنّهــا كانت تلتهم تلك الوجبات حامدةً الله الذي وفّر لها فرصةً لإماتة ذاتها.

وفي بعض الأحيان كانت دبابيس تمتزج بطعامها، فتحاول تفاديها، ولكنّها، ذات يومٍ ابتلعت واحدًا منها، فعلق بحنجرتها، وكاد يقضي عليها. ولم يكن من حيلةٍ لــدى الرئيسة، سوى أمرها باسم الطاعة أَن تقذف ذلك الدبّوس، الذي وقع في الحال، فــإذا به أسود، معقوفٌ، غريب الشكل.

وقد لحَظت الراهبة المكلّفة بخدمة المائدة ذلك التحوّل المذهل الذي كان يطــرأ على وجَبات الأخت مريم، دون سواها. فأنبأت بذلك الأمّ الرئيسة، التي حظّرت على مريم تناول أيّ طعامٍ يحتوي على حشراتٍ. وحزنت العربيّة الصغيرة لذلك، إذ خُيّل إليها أَنّ جميع الراهبات كنّ يواجهنَ ما تواجهه هي، ولكنّهنّ، وقد تمرّســن بإماتــة الذات أكثر منها، كنّ لا يُعِرْنَ اهتمامًا لتلك المضايقات، في حين أشــفقت الرئيــسة عليها لأنّها غريبةٌ ويتيمةٌ وضعيفةٌ.

وفي إحدى النوبات قذف إبليس بطبق حسائها، فانسكب على الأرض. وسارعت مريم إلى الاستئذان بتنظيف الأرض بلسانها. وفي مناسبةٍ أُخرى كانت الرئيسة قــد أوعزت بإعداد حساءٍ خاصٍّ لها، وأبتِ المسكينة أَن تُميَّز عن الأخريات، فاســتَأذنت بعدمِ تناول ذلك الحساء، ولكنّ الرئيسة ردّت بأنّ عليها تناول كلّ ما يُقدّم لهــا. ولــم يتوانَ إبليس عن محاولة دفعها إلى العصيان، فإذا بطبق الحساء حافلٌ بكتــل الملــح غير الذائب، وفصوص الثوم، وقد بذلت الأخت مريم، في سبيل التمكّن مــن تنــاول ذلك الحساء، تضحياتٍ جسيمةً، وعندما فرغت، كانت النار تلتهم أحشاءها. ولكنهــا قالت: "يسوع قد تناول العلقم والخلّ، وليس هذا بكثيرٍ عليّ...".

وتذرّع إبليس بالخداع، وإذ كان يعهد لديها ولَهًا بالفواكه، ولا سيّما بالتفّاح، زيّن لها، يومًا، تناول تفاحةٍ على نحوٍ مخالفٍ لنظام الدير، ولكنّها ما كادت تُمسك التفاحة حتّى تبدّت لها بشاعة التجربة، فألقت بها أرضًا، وداستها بقدمها، ونذرت ألاّ تذوق، من بعدُ تفّاحًا، إن وافقت السلطة على السماح لها بذلك. وبعد فترةٍ من الزمن، إذ كانت مريم طريحة الفراش، جاءها إبليس في هيئة الأخت الوكيلة، حاملةً تفّاحةً رائعةً، وقائلةً: هذه التفّاحة من الأمّ الرئيسة التي تأمرك بتناولها، ووقعت مريم في حَيرةٍ شديدةٍ بين الطاعة والوفاء لنذرها. فاستلهمت السيدة العذراء سواء السبيل. وكان ذلك كافيًا لتبديد التجربة، إذ احتدمت الراهبة المزعومة غيظًا، وصفقت الباب بعنفٍ، ومضت لاعنةً شاتمةً. وقد أكّد تحقيقٌ أُجري، في ما بعد، أنّ الراهبة الوكيلة لم يكن لها أيّ علمٍ بما جرى، ولم يكن لها بالأخت مريم أيّ اتصالٍ.

نوبةً أُخرى، وافتها الأمّ الرئيسة، في صومعتها، صباحًا، وحظّرت عليها، في لهجةٍ غاضبةٍ، تناول القربان المقدّس، في ذلك النهار؛ وامتثلت المسكينة للأمر، في حرقة. وإذ لحظت الرئيسة تخلّف مريم عن التناول، استفسرتها عن السبب، وكم كانت دهشتها بالغةً، عندما أجيبت أنّ ذلك كان بأمرٍ منها، وهي عن ذلك الأمر غريبةٌ، بل إنّها في ذلك اليوم، لم تكن قد رأت الأخت مريم، ولا هي دنت من صومعتها.

ومع ذلك مضى إبليس قُدُمًا في مكره، فراح يرتدي زيّ مريم، وملامحها، ويطوف بالراهبات يحرّضهن على التمرّد على قوانين الدير، وطاعنًا بالمحبة والتواضع؛ وقد استنكرت بعض الأخوات الأمر، ولكنّهن عزونه إلى المحن التي انهالت على مريم فنالت من احتمالها، وبعضهنّ ارتبن في الأمر، ولكن، حيال تكرّر المحاولة، تحاوَرن فيما بينهنّ وتقصّين، فاتّضح لهنّ أنّها محاولاتٌ يائسةٌ من الخبيث لم يكن لمريم فيها يدٌ، ولا لها بها علمٌ، فأكبَرْنَها وازدَدْن بها تعلّقًا.

وحين أُسقِط في يد إبليس، في أعقاب كلّ تلك المحاولات، فزع إلى السهم الأخير، فارتدى لباس رسول القداسة. وراح يوسوس لمريم: "لقد نلتِ نعمًا فائقةً، فما تسمّينه سُباتًا إنّما هو انخطافٌ، وجميع أخواتك شاهداتٌ عليك، معجباتٌ بك، ويعتَبرْنَك، بحقٍّ، قدّيسةً. ولكن ألا تخشينَ نشوة الكبرياء؟ وعلامَ تبقين، هكذا،

عرضةً لتجربةٍ دائمةٍ تزيّن لك مجدًا باطلاً؟ ألن يفضي بك ذلك إلى السقوط والهلاك؟ إنّ ما منّ به الله عليك من نِعَمٍ، من الروعة والغرابة بحيث يتعيّن عليك إخفاؤه في صحراء. وإن كنت تخافين من العَيش وحيدةً تحت أنظار الله، فعليك بالاستعطاء: اذهبي إلى العالم، واستجدي على الأبواب، فتحصدين الازدراء، وسيكون هذا الازدراء هو المقابل الخيّر لكل الآلاء السماويّة التي أغدقها الربّ عليك".

وكان لدى الأخت مريم من المَيل إلى العزلة والامّحاء ونُشدان ازدراء الآخرين، ما كان من شأنه إيقاعها في شِراك الخبيث لولا أنّها كانت حريصةً على البوح بكلّ شيءٍ لرؤسائها، في صراحةٍ لا يشوبها أيّ تكتّمٍ، وبفضلها انتصرت على جميع مداهمات إبليس ووساوِسه.

عزاءٌ إلهيٌّ وتعاليم سماويّةٌ

وفي حين كان الخبيث يُعِدّ العدّة لحملةٍ جديدةٍ أشدّ شراسةً، كان الله ينعم على مختارته بفترات هدنةٍ قصيرةٍ يسكب فيها عزاه ونعمه وغناه وعذوبته على نفسها، ويختطفها إليه في رحلاتٍ أخّاذةٍ تزيدها منعةً لمقاومة عدوّ الله والبشر. وكان الله، في غضون تلك الرحلات والرؤى، يطلق على لسانها فيضًا من العِبَر والتعاليم، في عباراتٍ بسيطةٍ، عذبةٍ، ساميةٍ، تنطوي على أصداء من بشارة الناصريّ. تلك التعاليم، وإن كانت في مستوى قداسة العربيّة الصغيرة، وحِكمتها الفطريّة، إلا أنّها كانت ذات مضمونٍ لاهوتيٍّ يتخطّى بما لا يُقاس جهلها وأمّيتها.

وليس أعذب وأحفل بالجدوى من تمعّن شذراتٍ من هذه التعاليم.

أَثناء انخطافٍ استغرق ستًّا وثلاثين ساعة، أُعطي لها أن تشاهد تطوافًا سماويًّا، فأخذت ترحّب، على التوالي، بالنفوس القدّيسة التي تؤلّف الموكب. وعندما لحظت القدّيس فرنسيس الأسيزي هتفت: "**وأنت أيضًا، يا فرانسوا، لك خمس وردات.**"، مشيرةً الى سمات جراحه. ثم راحت تروي ما أُسدي إليها من نصائح، وهي ما انفكّت في حالة انخطافٍ، فقالت:

لقد أعطاني القدّيس توما ثلاث نصائح تتعلّق بالإيمان:

١ – أُنظروا إلى يسوع الذي ينحدر إلى الهيكل، أثناء القدّاس. إنّه ينحدر امتثالاً

لدعاء الكاهن، وثقوا بأنّه يأتي لكي يغذّيكم، وأنّكم، معه، لن تفتقروا إلى شيءٍ. إنّه، هناك، مثل طفلٍ صغيرٍ، إنّه حاضرٌ من أجلكم فاذهبوا إليه.

٢- ما أجمل الإيمان وما أعظم سلطانه، فالنفس التي تمتلك الإيمان تستطيع كلّ شيءٍ، ويهبها الله كلّ شيءٍ. اُنظروا إلى الحيوانات التي تخبئ مؤونتها، خلسةً، في الصيف من أجل الشتاء. فكما أنّ الحيوان يتوقّع خلاصه ممّا أخفاه تحت الأرض، ثقوا بأنّ يسوع سيغذّيكم، إن أنتم قصدتم الهيكل حيث هو يختبئ من أجلكم وينتظركم.

٣- اِلحظوا الحمل: أيّ إيمان له في راعيه! إنّه يسير إلى جانبه في اطمئنانٍ، ويستسلم لعنايته، ويمضي إلى حيث يقوده؛ يتوقّف عندما يتوقّف الراعي؛ يحتفظ بصوفه أو يهبه حسبما يرغب الراعي، يتبعه ليل نهارٍ. هكذا يتعيّن عليكم اقتفاء خطوات راعيكم يسوع، واتّباعه دائمًا، بالإيمان، أثناء الليل والنهار. هكذا عليكم أن تكونوا حملانًا حقيقيّين.

إن نحن قلنا، في إيمانٍ: أيّها الجبل، انتقل من مكانك، فهو سيمتثل، لا محالة، وإن قلنا للأرض اهتزّي، فهي، لا رَيب ستهتزّ.

وقد أعطتني القدّيسة ڤيرونيك سبع نصائح تتعلّق بالتواضع:

١- إنّ المتكبّر يحاكي حبّة قمحٍ طُرحت في الماء: إنّها تتفتّح وتَتَضَخَّم، ولكن إن هي تعرضت للشمس أو النار، جفّت واحترقت. أمّا المتواضع فهو يحاكي حبّة قمح ألقيت في الأرض، إنّها تهبط، وتختبئ، وتتوارى، إنّها تموت لتعود فتخضرّ في السماء.

٢- إنّ الزيتون يُجنى في كثيرٍ من العناية، ويُلتقط ما يقع منه على الأرض، كي يُعتصر منه الزيت. اِبحثوا، في كلّ مكانٍ، بمثل هذه العناية، عن مناسبات ممارسة التواضع. الزيت يعطي النور، والتواضع ينطوي على نور الله، ويتيح مشاهدة الله.

٣- اُنظروا إلى جماعة النحل: إنّها تتطاير من زهرةٍ إلى زهرةٍ، ثم تدخل إلى الخليّة لتصنع عسلها. تمثّلوا بها. اُجنوا من كلّ مكانٍ رحيق التواضع. إن كان العسل حلوًا، فللتواضع طعم الله، ويمكّن من تذوّق الله.

٤ً- اِعملوا كلّ يومٍ على اكتساب التواضع. عندما يُغْفل عن سـقاية الأشـجار المغروسة حديثًا، فهذه الأشجار تموت. وإذا ما ذهلتم عن ممارسة التواضـع كـلّ يومٍ، فشجرة نفسكم تيبس.

٥ً- اُنظروا كيف أنّ بيضةً صغيرةً في البحر تصبح سـريعًا سـمكةً كبيـرةً، واحرصوا على أن تظلّوا أبدًا صغارًا بالتواضع، فتُمسوا كبارًا لدى الله.

٦ً- تأمّلوا الحيوان: إنّه لا ينشد سوى خيره وخير صغاره. ونحـن أبنـاء الله الذي لا ينشد سوى خيرِنا. وهو لذلك يوفّر لنا فرص ممارسة التواضع، فلنُفِدْ منها.

٧ً- في التواضع وقايةٌ لنا: أيّ شيءٍ جميلٍ وجيّدٍ، إذا ما أُهمل، ضاع. والنفس من غير أعمال التواضع، تضيع هي أيضًا.

وأعطتني القدّيسة تيريزا نصائح أربع تتعلّق بالصبر:

١ً- عندما تتألّمين، اُذكري ضعفك ومعاصيكِ، واُذكري أنّ عدمًا صغيرًا مثلك لا يستأهل سوى الألم. اُنظري إلى يسوع في آلامه، فتتحمّلي كلّ ألمٍ بحبٍّ، شاكرةً الله.

٢ً- كي تحتفظي بالصبر، وسْط المحن، تأمّلي يسوع علـى الـصليب. كـان الجميع يشتمونه ويهزأون منه، ومن آلامه. وهو كان يعاني كـلّ شـيءٍ صـامتًا. وعلى ابنة تيريزا أنْ تتألمّ في صبرٍ وصمتٍ. كلّ شيءٍ إلى زوَالٍ.

٣ً- في آلامك، اُذكري أنّك تمجّدين الله. على الأرض يعمل الله كلّ شيءٍ مـن أجلك، فقاسي جميع الآلام من أجله، واذكري مجده، واذكري أنّ الـسيدة العـذراء ستكون لك أمًّا.

٤ً- واذكري أنّك، بعد الآلام والإهانات، ستصيرين إلى السماء. وكم سـتلقَين من مجدٍ وفرحٍ.

وقد أسدى إليّ القدّيس لوقا نصيحتين عن البتوليّة:

١ً- حافظي بحرص على عطر البتوليّة. عندما يودع عطرٌ فـي إنـاءٍ، يُحكـم إغلاق الإناء، لئلا يتبخّر العطر. فافعلي ذلك بالبتوليّة أيضًا. أحكمي إغلاقهـا كـي

تنشر في السماء عبيرها.

ً ٢- اِحفظي البتوليّة كما تحفظ الأشجار نُسْغها. تحتاج الأشجار إلى وقتٍ طويلٍ قبل أن تحمل ثمارًا. إنّ الله سيكون ثمرة البتوليّة. في السماء وعلى الأرض البتوليّة تشبه نورًا قريبًا من الله في السماء.

وقد أعطاني القدّيس يوسف خمس نصائح عمليّة بشأن المحبّة الأخويّة:

ً ١- أُذكري الحمامة، فهي تنتزع الطعام من فمها لتلقّمه أبناءها. هكذا عليك أن تحبّي جميع أخواتك. اِنسي نفسك، واحرمي ذاتك في سبيل الآخرين.

إنّ ما ستفعلينه، من هذا القبيل، سينظر إليه الله، وكأنّه موجّهٌ له.

ً ٢- تأمّلي الأسماك في البحر. إنّها تسير معًا، جماعاتٍ لا تُحصى، فسرنَ كذلك معًا تحدوكنّ المحبّة.

٣- تأمّلن الحيوانات العجم. فإذا ما تعرّض أحدها لخطر، أَنذره الآخرون. هكذا فليؤازر بعضكنَّ بعضًا.

٨- اُنظرنَ إلى النجوم. تأمّلنَ كيف هي تتألّق، وكيف تضمّ أنوارها جميعًا لكي تنتج، بتجمّعها، نورًا عظيمًا. وعلى هذا النحو أنتجنَ معًا، بتضامنكنّ، نورًا كبيرًا، يكون نبراس هدايةٍ.

٥- اُنظرنَ إلى الأطفال حديثي الولادة. إنّهم يُغذّون باللبن، فينمون، شيئًا فشيئًا، بفضل ما يُغمرون به من حبٍّ. ثم يتناولون طعامًا ليزدادوا نموًّا، ويتمكّنوا من السير. وهكذا عليكنّ، بالمحبّة، أن يغذّي بعضكنّ بعضًا، وأن يؤاسي ويدعم بعضكنّ بعضًا.

وأعطاني يسوع خمس نصائح عمليّة بشأن الصمت:

ً ١- إنّ النهار يمضي، والليل، كذلك، يمضي من غير ضجيجٍ. إنّهما يمرّان في صمتٍ. فأنتِ أيضًا، الزمي الصمت، ومرّي على الأرض في صمتٍ، كي تجدي الفرح في السماء.

٢- عندما ينبجس الماء من نبعه، يخرج بلا صخبٍ، ولا إِزعاجٍ، ثم هو يتدفّق

في صمتٍ. على هذا النحو مارسي الصمت.

٣- عندما تُزرع الأعشاب، والغِراس، ونبتات الورد، تستسلم في صمتٍ، وتنمو في صمتٍ، وتنفث عطورها في صمتٍ. ثم هي تهوي، وتموت في صمتٍ. إنّها تُتم كلّ شيءٍ في صمتٍ. فانهجي على غرارها.

٤- إنّ العنب يُقتطَف وهو صامتٌ، ويلقى في المعصرة، ويُداس في صمتٍ. وحينئذٍ يحلو نبيذه. والثمرة الطيّبة تحلو طعمًا بالصمت. فمارسي الصمت.

٥- تمثّلي بالخشب؛ يقطعونه وهو صامتٌ؛ ويُطلى بالألوان وفق رغبة طالبه، وهو صامتٌ، ويُحرق وهو صامتٌ: فتحمّلي المهانة في صمتٍ، واعملي، وتأمّلي، وأنجزي كلّ شيءٍ، وأنت صامتةٌ. إنّ الصمت يحفظك للسماء.

وقد أثارت هذه الأقوال حفيظة إبليس، فحاول تجربة الأخت مريم، وهي ما زالت مختطفةً، فدار بينهما الحوار التالي:

- "اِمضي إلى العالم، فتؤدّي للفقراء خيرًا عميمًا، في حين يمنّون هنا عليك بالإحسان. إنّ الحياة الرهبانيّة مصدر مهانة.

- "اُغرب عنّي، يا إبليس، فلن تنال منّي شيئًا. فكما أنّ العنب يعطي النبيذ عندما تضمّه المعصرة ويداس، أريد أن أبقى حبيسةً كي أهب الله خمر الطهارة.

- "اِمضي إلى العالم، حيث سيسعك ممارسة ما تشائين من صنوف التكفير، وتحقيق كل رغباتك.

- "ابعد عنّي، يا إبليس، فلن أمارس سوى الطاعة. يسوع قد مارسها حتّى الموت".

ثم مضت في روايتها، وهي ما زالت مختطفةً بالروح، فأفادت أنّ الشيطان قد تلقّى، من جرّاء استشهادها، وهي في الثالثة عشْرة، طعنةً نجلاء؛ فهو يمقت الاستشهاد، وقد صرّح لها: "لو أنّني خمّنت ما ستصيرين إليه، لكنت خنقتك أنتِ وأمّك وجميع ذويك". وأردفت: "هكذا هو كلّمني، ولكنّي، في الواقع، لست أنا شيئًا، لست سوى عجزٍ وضعفٍ وعدمٍ، وإنّما يسوع هو الذي قد فعل، فيّ، كلّ شيءٍ... لولا يسوع، لانتهيت، منذ زمنٍ طويلٍ، إلى ضياعٍ. يسوع هو الذي دعاني، وانتشلني

من العالم، ومريم هي التي سهرت عليّ. كم هي تحبّني، مريم! لقد شكوت، يومًا، لتلك الأمّ، عدم موتي يوم استشهادي فعزّتني قائلةً: إنّني سأكون شهيدة الحبّ".

نشيد للعذراء مريم

وفيما هي ما برحت مختطفةً، أنشدت مريم للعذراء:

« لقد كنتِ، في العالم، أيّتها الأمّ، عذراء. فمن ذا الذي كان يظنّ أنك ستغدين لله أمًّا؟ إنّك أمّ الله بفضل تواضعك. لقد مثل ملاك الربّ أمام مريم يبشّرها بأمومتها الإلهيّة. والعذراء، التي أضاءها نور الله الساطع، اتّضعت عندما جال بخاطرها أنّ خالق السماء والأرض سيصبح لها ابنًا. لطالما كلّم الملاك العذراء مريم، وكلّما كلّمها ازدادت اتّضاعًا. يا مريم، كم أنت متواضعةٌ، وكم أنت، في تواضعك، جديرةٌ بالحبّ.

"مريم كانت أيضًا للإيمان مثالاً. وكم كان الآب السماويّ يستعذب إيمانها! بإيمانها كانت تنمّي، كلّ يومٍ، يسوع، فيها. فلو كان لنا مثل هذا الإيمان، لجعلنا يسوع ينمو في قلوبنا...

"على الأرض، لا يولد الأطفال من غير أمٍّ. إنّهم يلجون العالم بواسطة امرأةٍ. ونحن، بواسطة امرأةٍ أيضًا، نلج السماء. وهذه المرأة هي مريم. إنّ الله يفتح السماء بواسطة ثمرة مريم. منذ المعصية، بات البشر ينتظرون ثمرة مريم، تلك العذراء العذبة، المتواضعة، القدّيسة.

"مباركةٌ أنت، يا مريم، مباركةٌ أنتِ ».

بعدئذٍ بُلّغت طائفةً من النصائح الثمينة لمن يتولّون رئاسة الأديرة وقيادة النفوس. ولما آبت إلى وعيها، بعد يومٍ ونصفٍ، لم تكن تذكر حرفًا ممّا قالت ولا حركةً ممّا فعلت، وكانت صرختها الأولى: "أمّاه! من أين أنا قادمةٌ؟ وأين أنا؟ قولي لي ماذا فعلت؟"

ولم يتوانَ إبليس عن استئناف الهجوم على مختارة الله، ولا سيّما أنّ صوم عام ١٨٦٨، كان قد بات قريبًا.

الفَصْلُ السَّادِسُ

صيَامُ عَام ١٨٦٨

تأمّلٌ في صيام يسوع

عندما أُمرت مريم، في دير القدّيس يوسف، أن تسأل الله وَقف تدفّق الدّم من سمات جراحها، استُجيب طلبها، إلاّ أنّ العذراء قد أنذرتها آنذاك بأنّ الدّم سيعود إلى التدفّق، مع مطلع صيام العام التالي.

وحلّ صيام عام ١٨٦٨. ويوم الخميس الأوّل من الصوم، اشتدّ الألم في يديها ورجليها، بحيث باتت عاجزةً عن الحركة. وقد تناول تأمّلها الصباحيّ يسوع في الصحراء، حيث حاولت أن ترافقه. وحريٌّ بنا أن نقتفي أثرهما:

« دخلتُ الصحراء، فألفيت الأرض قفرًا، والأشجار يباسًا. ولكن ما إن ظهر يسوع حتّى ازدانت الأرض بالخُضرة، واتّشحت الأشجار بالأوراق والزهور والثمار. واستبانت البهائم إلهها، وانطلقت العصافير تشدو، لما آنست في يسوع حزنًا. كلّ الخليقة جهدت في توفير السرور له، وودّت الاحتفاظ به؛ كلّ الخليقة دأبت على إرضائه، عدا الحجارة التي ظلّت، وحدها، جامدة الشعور، بحيث لم يفلح ضوءٌ، ولا دفءٌ، ولا ندًى، ولا مطرٌ في تحريكها. وقال يسوع وهو يرمق الحجارة: "أيّها الخطأة، تلك هي صورتكم. إنّني أفيض عليكم ماء نعمتي، فلا تفيدون منها: إلاّ بقدْر ما تفيد الحجارة...

"بقي يسوع في الصحراء أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب: لقد صام من أجلنا وكان في جوعٍ وعطشٍ إلى النفوس. وبكى، وفيما كانت تنساب دموعه على محيّاه، قال: "أيّها الخطأة المساكين، لن تكون لكم سماءٌ، ما لم تتوبوا وتتحوّلوا."

"ولقد أراني يسوع في الصحراء أشجارًا صغيرةً مثقّلةً بالثمار، وقال: "أُنظري إلى هذه الأشجار الصغيرة، وكيف يتضوّع عبير ثمارها في الصحراء. إنّها تمثّل النفس المتواضعة، والتي ترى ذاتها صغيرةً. ومقابل ذلك أُنظري إلى هذه الأشجار الباسقة، فهي لا تحمل سوى ثمارٍ فاسدةٍ، ذات روائح كريهةٍ. إنّها صورة النفس المتكبّرة.

"وقال لي يسوع: تأمّلي هذين الشخصَين: أحدهما يحيطه العالم بالتقدير، وهو يمتلك جميع مواهب الطبيعة. إنّه غنيٌّ وجميلٌ، ويزهو بنفسه، وينشد ملذّات الأرض ومُتَعَها، ولكنّ نفسه بشعةٌ في عين الله. أمّا الآخر ففقيرٌ، ومعتلّ الصحّة، ومحتقرٌ ولكنّ قلبه معي أبدًا. ولا ينشد سوى رِضاي، وإتمام مشيئتي. آه! كم أنّ هذه النفس جميلةٌ، وغنيّةٌ في عيوني، وأيّ مجدٍ ينتظرها في السماء!

"وسمعت يسوع يقول: أيّها الخطأة، أنا لا أسألكم لمَ خطئتم، بل أسألكم لمَ لا تتوبون؟ أنا لا أنظر إلى ماضيكم، شرط أن تأتوا إليّ. لقد خلق أبي من أجلكم السماء والأرض، فهلمّوا إلَيَّ لأخلّصكم.

"يسوع، في الصحراء، يصلّي. ويذكُرُنا ويذكُر ضعفنا. وكانت البهائم لدى رؤيتها يسوع باكيًا، تقف إلى جانبه تشاطره البكاء، وكان تعاطف البهائم هذا يزيد من حزن يسوع، إذ كان يرى أنّ البهائم أرهف شعورًا من البشر" ».

سمات الجراح تتدفّق دمًا من جديدٍ

وكانت آلام المبتدئة تتفاقم لحظةً إثر لحظةٍ، فأُودعت غرفة التمريض، التي راحت تنبعث منها روائح طيوبٍ عذبةٍ، كان يعبق بها أيضًا وشاحها ومعطفها. وبلغت آلامها أوْج حدّتها، أثناء الليل. ومع انبلاجٍ صباح يوم الجمعة، الأوّل من الصوم، طفق الدّم يتدفّق من يديها ورجليها: وانثال، أيضًا، غزيرًا، على دفعتين، من إكليل الشوك الذي ارتسم بوضوح على جبينها، ومن الجرح الذي أُشرع في جنبها. وقد توقّف نزف الدّم عند الظهيرة، في حين ظلّت الجروح فاغرةً، ومضت تزداد عمقًا، أسبوعًا إثر أُسبوعٍ، حتّى أحد الفصح.

أمّا تشكّل السمات فكان يتمّ باطّرادٍ على النحو التالي: مساء الأربعاء، وصباح الخميس، كانت تشتدّ آلام الأخت مريم، ثمّ كانت تتجلّى على ظهر يديها وقدميها ندبةٌ

سوداء تحاكي رأس مسمارٍ؛ وكانت هذه الندبة تسقط يوم الجمعة، عندما يأخذ الدم في التدفّق، لتعود فتتشكّل، بعد أسبوعٍ. وأثناء الفترة الممتدّة بين السبت والأربعاء، كان الدم يرشح برفقٍ.

وكانت تلك السمات النازفة تسبّب للأخت مريم قدرًا جمًّا من الخجل والحرَج، فرجت الربّ، يومًا، أن يزيلها، فأجابها يسوع: "**أُنظري إلى الثمار التي تنبت تحت الأرض، إنّها تنمو ولكن لا أحد ينعم بمنظرها. وعلى النقيض من ذلك، تأمّلي نبتة وردٍ معرّضةً لعيون الجميع؛ إنَّهَا تنتج براعم ستتحوّل إلى ورودٍ رائعةٍ تنشر عبيرها فيتنشّقه كلّ من يدنو منها. وليس هذا العبير ملكًا لشجيرة الورد، بل للآخرين، في حين لا تمتلك اَلشُّجَيْرَةَ سوى الخشب والأشواك. هكذا أنا أختار بعض النفوس لأتمجّد من خلالها. الهبات الخارجيّة التي أُغدِقُها عليها، ليست لها، بل للآخرين، في حين لا يبقى لتلك النفوس سوى الألم الذي هو بمثابة الشوكة في الوردة. ولكن، بعد أن تصيب من الألم قسطًا وفيرًا ستفعل ما تفعله الوردة المتفتّحة، سيتضوّع عبيرها، ثمّ تمضي فتتفتّح في السماء**".

وأردف يسوع: "**أُنظري إلى حبّة القمح: إنّها تُقذف في الأرض، فتتلف، وتموت، ثم تنهض، وتتشكّل السنبلة في رأس الساق بقدرتي، والذين يشهدونها يعجبون بعناية الله وعطفه. ولكن لا السنبلة، ولا الوردة، تنموان من تلقاء ذاتهما، بل هما تفتقران إلى الأرض التي توفّر لهما الغذاء، وتحتاجان من أجل نموّهما إلى حرارة الشمس وإلى الندى. كذلك، لا تستطيع نفسٌ أن تفعل من تلقاء ذاتها شيئًا من أجل الله. بل هو الذي يعمل فيها، ويتمجّد فيها، وينمو فيها بقدر ما هي تمّحي، وتتوارى، وتضمحلّ**".

يوم السبت الأول من الصيام، توسّلت الأخت مريم، غير حافلةٍ بآلامها المبرّحة، أن تُحملَ إلى المعبد كي تتناول القربان المقدّس؛ فرأت ملاكين يعاونان الكاهن على الهيكل، كما تراءى لها الربّ فوق الكأس، في هيئة طفلٍ بهيٍّ، ساحر الجمال. كان يبارك الأَخوات بيديه الصغيرتين؛ وفجأةً، رأته ينمو إلى أن بلغ قامة الرجل المكتمِل، وكان يقدّم ذاته لأبيه، عن نفوس البشر. وقد غمرتها تلك الرؤيا سعادةً، غير أنّ تساؤلاً كان يقلقها، إذ كيف يستطيع يسوع أَن يتواجد في آنٍ معًا، في السماء، وفي

كلّ مكانٍ يحتوي قربانًا تمّ تقديسه. وتكرّم الربّ فأجابها: "**لا يدهشنّك هذا السرّ؟ أوَليس النور الطبيعي منتشرًا في كل مكان في آنٍ واحدٍ؟ أوَلا يستطيع خالق النور نفسه، عَبْرَ سرّه المقدّس، أن يتواجد في أماكن مختلفةٍ، في آنٍ معًا؟**".

وأثناء ذلك الصوم، كانت رحلاتها الروحيّة إلى عالم السماء، يوميّة، وكانت تقابل فيها طائفةً من القدّيسين. وقد قالت لها القدّيسة تيريزا، في إحدى الرؤى، إنّه لو وُجد، في ديرٍ، ثلاث راهباتٍ فقط يحدوهنّ روح دعوتهنّ، حقًّا، لاستمطرنَ رحمة الله لا على ديرهنّ فحسب، بل على المدينة التي يقوم فيها ذلك الدير أيضًا.

بَيدَ أنّ سعادتها كانت تبلغ ذُروتها، عندما تقابل أُمّها، السيّدة العذراء، فتهتف: "كم أنت جميلةٌ، يا أمّاه، كم أنتِ جميلةٌ! أنا لا أستحقّ أن أكون لك ابنةً، بل أنا خادمتك، خادمة قدميك!".

لقد شهدت مريم، يومي الجمعة من الأسبوعين الأوَّلين من الصوم، وهي بكامل وعيها، تدفّق الدّم من سماتها. وكانت الأخت الممرّضة شاهدةً عليه أيضًا، ممّا ألقى الأخت مريم في هوّةٍ سحيقةٍ من الاضطراب والخجل، فتوسّلت إلى الأمّ الرئيسة أن تدعها وحيدةً أيّام الجمعة التالية، أثناء انسكاب الدم من سماتها. غير أنّ الرئيسة التي كانت حريصةً على ألاَّ تُبرز للأخت مريم الوجه الخارق والفائق الطبيعة لما كان ينتابها، أجابتها في حزمٍ: "أهي الكبرياء التي تحدوكِ؟ أتودّين أن تبقي وحيدةً لكي لا تتعرّضي لأنظار الآخرين، فتُخدش كبرياؤك؟ إذن، أنا أريد، لأجل مهانتك، أن تشهد جميع الراهبات مرضك، عندما سيظهر من جديدٍ".

وهكذا كان. فيوم الجمعة من أسبوع الصيام الثالث، حضرت الأخت مريم القدّاس، امتثالاً لأمر معلّمة الابتداء؛ وأثناء التكريس انتابها انخطافٌ، وفي الحال انساب الدم، غزيرًا، من رأسها، ويديها وقدميها، فنُقلت إلى غرفة التمريض حيث ما لبثت أن التأمت جميع الراهبات، وشهدن، للمرّة الأولى، خارقة السمات النازفة. وكانت الأخت مريم، في تلك الأثناء، لا تني تنطق بنصائح، وعظاتٍ، ونبوءاتٍ تتلقّنها من عالم الروح.

وقد استغرق انخطافها، يومًا بأكمله، رأت، أثناءه، يسوع يسير، مسرعًا، على دربٍ، مخلّفًا وراءه نورًا ساطعًا، يضيء سبيل النفوس الماضية في إِثره، ويقيها

المزالق والأشواك والأفاعي، في حين كانت العتمة تلفّ من يتخلّفون عن اللحاق به.وكانت مريم مع الركب، ولكنّها توقّفت لحظةً لتستعيد أنفاسها، وكم كان ارتباكها شديدًا عندما داهمتها نفوسٌ غفيرة العدد، ملتمسةً شفاعتها! واستولت عليها الحَيرة، فدخلت كنيسةً، وفتحت بيت القربان، في جرأةٍ أدهشتها هي نفسها، وألقت في حقّة القربان جميع الأدعية التي أُوكلت إليها. وأخذت تنتظر إلى أن ظهر يسوع فتناول الحقّة وأَفرغها بين يديه، وسارعت الملائكة، وجعلت تنهل من راحتيه اَلنِّعَم التي تدفّقت تلبيةً للأدعية، وراحت تحملها إلى سائليها.

ومن الأقوال التي جاءت على لسانها أَثناء انخطافها:

« **عندما أتى ربنا يسوع إلى الأرض، أقام القدّيس يوسف وصيًّا عليه، كي يطيعه، ويعلّمنا، بذلك، ثواب الطاعة.**

"**ألفُ سنةٍ من العذاب ليست بشيءٍ. بما أنّنا، في ما بعد، سنسكن السماء أبدًا. هنيئًا للنفس المتألّمة.**

"**يا إلهي، اُغمر برحمتك الخطأة المساكين. فلو هم كانوا يدركون كلامك، لو كانوا يعلمون حضورك في القربان، لو ذكروا أنّ كلّ شيءٍ زائلٌ، لارتدّوا. أيّها الخطأة المساكين، من ذا الذي يوفّر لكم كلّ شيءٍ؟ إنّه الله. أجل، الله هو الذي ينمّيكم، ويهبكم الصحّة والثروة. فعلامَ تُغضبون من يمنحكم كلّ شيءٍ؟ أيّها الخطأة، اِذهبوا إلى الله، واسمعوا كلامه** ».

وقالت: "**يا أمّي الكنيسة، أيّتها الوردة العُلويّة، إنّني أحبّك. أيّها الروح القدس، اُهبط على الكنيسة، وعلى الكهنة، وأنر أبناء الكنيسة...**"

وعندما تراءى لها يسوع هتفت: "سلامٌ عليك، يا يسوع، إنّني أعبدك، وأحبّك، وأهبك كلّ ما لي، أهبك ذاتي، الآن وإلى الأبد...".

أسبوع آلامٍ مع المخلّص

في مستهلّ أسبوع الآلام، فقدت الأخت مريم الشعور بحضور المعلّم الإلهيّ، الذي شاء أن يُشركها في نزاعه وشعوره بالتخلّي، وطفقت، في انخطافها، تعبّر عن القلق، والانسحاق، والرعب، والهَول لرؤية سَيل المعاصي الهادر.

وتعاقبت عليها الرؤى: رأت نفوسًا ثاويةً في هُوى يمدّ لها الله سلّمًا وحيدًا يمكّنها من الصعود، ولكنّها تأبى تسلّقه، لأنّه سلّم الألم؛ ورأت نفوسًا تهوي في حُفَرٍ سحيقةٍ، إذا ما هبّ عليها ريحٌ أو دخانٌ، ريح المجد الباطل ودخانه. ورأت نفوساً غارقةً في جبالٍ من الثلج لأنّها أصفرت من المحبّة، ورأت نفوسًا شُغلها قطف الأزهار واقتناص المتع، وفي إثرها نارٌ تداهمها وتوشك أن تلتهمها.

ولكن وَسْطَ تلك الرؤى القاتمة، كانت تسطع أَحيانًا رؤىً متألّقةٌ، فقد هتفت مثلاً، وقد تراءى لها خوري أرس القدّيس: "**كم أَنت جميلٌ، يا أبتِ، كاهن أرس!**".

في الساعة الثانية من بعد ظهر الخميس، خميس الأسرار، تحوّل عرقها دمًا يفوح منه عَرفٌ طيّبٌ. وحتّى الأقمشة التي كان يُمسَح بها ذلك الدّم، كانت تحتفظ طويلاً بذلك الطيب.

ثمّ ما لبثت أَن عانت آلام الجَلْد، التي عاناها يسوع في مثل ذلك اليوم، وقد سمعت الأمّ الرئيسة واثنتان من الراهبات، كُنَّ إلى جوارها، على نحوٍ واضحٍ، أصوات سياطٍ تنهال عليها. وفي أَثناء الليل استعرضت الأخت مريم جميع مراحل آلام الفادي الإلهيّ. وقد تسنّى للراهبات، يوم الجمعة الحزينة، أَن يشهدن، فيها، صورةً لتضحية الصليب، وكان الدّم يتدفّق من جميع سمات جراحها. وبعد أن غُسلت تلك الجراح، تبيّن أنّ يديها وقدميها قد باتت من الشفافيّة بحيث كان النور يتجلّى من خلالها.

يوم سبت النور، غمرها الفرح، وتهلّلت مع مريم المجدليّة، وقدّيسين آخرين جاؤوا لها زائرين. ومع أنّ قواها كانت ما تزال خائرةً، امتثلتُ لأمر الرئيسة فنهضت واشتركت في ترنيم تراتيل العيد.

ولم يستجب الله لدعائها بإبعاد "السبات" عنها، فظلّت تقضي لياليها، في حالة انخطافٍ، ولكنّها كانت تعتبر تلك الحالة عِقابًا لها، ولا تروي عنها شيئًا، إلاّ بأمرٍ من رؤسائها. وحدَها، هفواتها، كانت تهوى الاعتراف بها، ونشرها على الملأ، لو استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

طعنة الحبّ

في مطلع شهر أيّار من تلك السنة عينها، أُوكِلت إليها مهمّةٌ صادفت من نفسها أجمل ترحيبٍ وأشدّ حماسٍ، إذ كلّفتها الأمّ الرئيسة بتزيين مقامٍ مكرّسٍ للعذراء، سيّدة جبل الكرمل، فراحت تختار أروع ما في الطبيعة وأينعه، لتكريم أمّها السماوية، وتَهتَبِلُ كلّ فرصةٍ سانحةٍ للمثول بين يدي تلك الأمّ.

وفي الرابع والعشرين من ذلك الشهر، جاءت المزار طائفةٌ من الراهبات، فوجدن الأخت مريم مستغرقةً في الصلاة، وقد فاض قلبها وَجْدًا، وراحت تشدو للحبّ الإلهيّ الأناشيد. وسمِعنها تخاطب على التوالي عددًا من القدّيسين، الذين كانوا يتراؤون لها، إلاّ أنها كانَت تفتقر إلى يسوع، وينشده قلبها في حرقةٍ وجيعةٍ: "من رأى حبيبي؟ لقد بحثت عنه فلم أجده. إنّني أسير وأعدو، وأنتحب، ولم أجد حبيبي! يا يسوع، حبّي، لست أقوى على الحياة في معزلٍ عنك. أين أنت، يا حبيبي؟ من رأى يسوعي؟ من رأى حبيبي؟ أنت تعلم، يا حبّي، أنّ الأرض بأسرها ليست شيئًا من غيرك، وأن جميع مياه البحر لن تكفي لإنعاش فؤادي".

ولم يقوَ يسوع، طويلاً، على إغفال تلك الصيحات المؤثّرة، فحضر، واخترقت طعنةٌ قلب مريم، التي أشارت إلى مكان قلبها، وهي في غمرةٍ من السعادة والألم، وصاحت: "حَسْبي، يا يسوع. إنّني أكاد أموت ألمًا ونشوةً" ثم أردفت، وقد افترّت شفتاها عن بسمةٍ سماويّةٍ: "من ذا الذي عزّى قلبي؟ إنّه أنت يا حبيبي. من ذا الذي أنعشه؟ إنّه أنت، يا حبيّ".

ثم تراءت لها القدّيسة تيريزا فصاحت: "أيّتها الأمّ تيريزا، لقد اخترق يسوع قلبي". ولم تكن صيحتها تعبيرًا مجازيًّا، بل إنّ طعنةً حسّيّةً مادّيّةً اجتازت منها القلب، واخترقته من جانبٍ إلى جانبٍ. وقد تبيّن ذلك بوضوحٍ، بعد مماتها، فضلاً عن أنّه، منذ ذلك اليوم، أخذ قلبها ينزف دمًا، وتفاقمت آلامها، ولكنّها لم تَبُح بالأمر لأحدٍ، وحرصت على غسل غلالاتها المبلّلة بالدّم بنفسها، إلى أن باغتتها يومًا الأمّ الرئيسة، وأمرتها بالكشف عن الحقيقة. وكانت الأقمشة التي توضع على مكان القلب لدى الأخت مريم، يرتسم عليها، بالدّم، صليبٌ واضح المعالم، مائلٌ نحو اليسار، منتصبًا فوق الحرفين اللاتينيّين (OJ)، اللذين اعتُبرا اختزالاً لنداء "يا يسوع" (O Jesus).

آثار الدم المرتسمة على القماشة (ص. ٩٠)

دور إبليس

لقد كانت حياة مريم سِجالاً متّصلاً بين المواهب الخارقة والتجارب الشرسة المضنية. وقد آن لإبليس أن يجهد في النيل من تلك التي اصطفتها السماء. وعلى نحو ما أُعطي، قديمًا، الإيغال في تجربة أيّوب البارّ، أُتيح له أن يستحوذ على جسد الأخت مريم، طيلة أربعين يومًا. وكانت مريم قد أُنذرت، قبل فترةٍ طويلةٍ، بتلك التجربة، حين تراءى لها أنّ المخلّص أودعها سجنًا مظلمًا، طالبًا منها ألاّ تغادره. كما أنّ السيّدة العذراء كانت قد تراءت لها، أيضًا، وألقت بها في بحيرةٍ مليئةٍ بالأفاعي، وقالت لها: "أنا أمّك، أنا التي ألقي بك في هذا الماء، فلا تحيدي عنه. إنّك لن تريني، غير أنّني سأسهر عليك".

وكانت، مرَّةً، قد خاطبت القدّيسة تيريزا، وهي في حالة انخطاف، واصفةً ما ستتعرّض له فقالت: "لقد أنبأتني أمّي السماويّة، أنّني لن أراها طوال أربعين يومًا، وأنّني سأنهج دربًا تغشاه الظلمات، وتملأه الحفر، والأفاعي، وأضافت أَنّ عددًا ضئيلاً جدًّا من النفوس، فقط، ينهج مثل ذلك الدرب. وقد أكّد لي يسوع أنّكِ أَنتِ نفسكِ، أيّتها الأمّ تيريزا، لم تسيري فيه. ففي غمرة ما تعرَّضتِ له من تجارب، وقفرِ نفسي، ومِحَنٍ استطعتِ، أبدًا، أن تلهجي باسم يسوع، في أعماق قلبك، بل أن تتلفّظي به بشفتيك، في حين أنّني، عندما سأسلك ذلك الدرب، لن يتاح لي أن أفعل مثل ذلك. سيأذن يسوع لإبليس أن يعذّب جسدي طيلة أربعين يومًا، وسأقاسي الكثير. ولكن لن يكون للشيطان من سلطانٍ إلاّ على جسدي، أمّا نفسي فستكون مخبّأةً، إذ قد وعدني يسوع بأن يودعها صندوقًا بحيث يتعذّر على إبليس مسّها. سيحملني الشيطان على ارتكاب العديد من الأخطاء الخارجيّة، من غير أن أرتكب خطيئةً، فلن يكون لإرادتي أيّ سهمٍ في أفعالي، بل سأكون مثل الأطفال الذين يغفو منهم العقل، فلا يستطيعون اقتراف خطيئةٍ.

"يودّ إبليس لو يكون سيّدي، ولذا استأذن بامتحاني. بيد أنّ يسوع ومريم سيحميانني، ومن ثمّ، فبمحاولته الإيقاع بي، سيجعلني الشيطان أجلّ شأنًا لدى الله. أجل، يا إبليس، سأكبر شأنًا في عيون الله، بفضل خُبثك. إنّ أمّي العذراء قد سحقت رأسك، وسأسحقه، أنا أيضًا، بمؤازرة مريم ويسوع".

وتوسّلت الأخت مريم إلى العذراء أمّها أن تتيح لها التلفّظ باسم يسوع خلال تلك الأيّام الأربعين، أو على الأقلّ، قَول "يا ربّ ارحمني" وحين رُفض طلبها هذا، أعلنت: "أقبل، إذن، كلّ شيءٍ، وأقدّم نفسي لكلّ ما يريده الربّ. إنّني أدرك أنّني لو استطعت التلفّظ بهذه العبارات لما تألّمت بالقدر الكافي. مشيئة يسوع هي أن أتألّم مِن غير عزاءٍ. سأشرب الكأس، على غرار يسوع، ولكنّني لن أنهل منها سوى قطرةٍ، في حين أنّ يسوع قد شربها حتّى الثمالة!".

أيّ استسلامٍ، وأيّ إدراكٍ لمعنى الألم، وأيّة رغبةٍ في التمثّل بالفادي!

وعندما شعرت أنّ ساعة المحنة قد أزفت، استنَحت الهُنَيهات الخاطفة المتبقّية لتلفظ الأسماء الحبيبة التي سيحظر عليها ذكرها، فقالت: "يا إلهي، أقدّم لك، اليومَ،

كلّ شيءٍ، محبّةً بك، متّحدةً مع يسوع". وقدّمت محنتها عن نيّة الكنيسة، والأب الأقدس، وجمعيّتها الرهبانية، والأنفس القابعة في المطهر.

وقُبَيل إبحارها في لجّة الظُّلُمَات، عكفت على تنفيذ بعض واجباتها اليوميّة المألوفة. ولكن، أثناء تأمّل المساء، ألقى الربّ على كاهلها صليبًا من الثِّقل، بحيث سبّب لها آلامًا مبرّحةً، وانتفخ عنقها وكتفها، وباتت عاجزةً عن الحركة. وقد أحاطت معلّمة الابتداء علمًا بذلك، وردّدت على مسامعها وعد الربّ بأنه سيستدعيها إلى دياره، إن هي لم تقوَ على احتمال التجربة حتّى آخر أشواطها. وكانت تخشى ألاّ تستطيع الصمود، لأنّها، على حدّ قولها، كلّها وَهَنٌ. وتوسّلت إلى معلّمة الابتداء أن تتيح لها إبراز النذور الرهبانيّة، إذا ما رأتها مشرفةً على الموت.

ثم تنبّأت، وهي في حالة انخطافٍ، قائلةً: "عليّ أن أحارب تسعة ملوكٍ، وتسع أممٍ، قبل بلوغ القمّة التي يقف عليها يسوع"، مشيرةً إلى أنّ تسع جحافل من الشياطين ستتعاقب على مداهمتها.

وكانت، في الثالث والعشرين من تمّوز، ثلاثة أيّامٍ قبل استحواذ إبليس عليها، قد عرضت لها رؤيا شاهدت فيها جماعةً من الأطفال متسربلين بالبياض، متألّقين بالنور، مشرقين بالفرح. ورأت بابين، أحدهما كبيرٌ، جميلٌ، تتوهّج حوله الأضواء، مُشْرَعٌ على طريقٍ رائعٍ متّسعٍ، تتضوّع منه طيوبٌ عذبةٌ، وتوشّيه الزهور، وهو قصير المدى، وتنتهجه جماهير غفيرةٌ؛ بعضهم يرتدّ عنه بعد أن يسلك بعضًا منه، في حين يستمرّ معظمهم في سلوكه، غير عابئين بشيءٍ، حتّى نهايته. وحينئذٍ يهوون في دَرَكٍ لا عودة منه. وإلى جانب ذلك الباب الكبير، كان بابٌ آخر ضيّقٌ، تكتنفه الظلمة، وقد بُنيَ من حجارةٍ حادّةٍ تمزّق جسد كلّ من يلجه، وقد نُقِش عليه: "في معزِلٍ عن الله، لا عزاء، ولا طاعة، ولا محبّة"، وهو يُفضي إلى طريقٍ هو، أيضًا، قصير المدى، إلاّ أنه وَعْرٌ، ضَنْكٌ، مدلهمّ العتمة، حافلٌ بالحُفَر والأفاعي، وبكلّ ضروب المعاناة، ولكنّ السعادة الأبديّة تكمن في نهايته، مكافأةً لمن ينتهجه حتّى آخر مطافه. وتراءى لها يسوع وسألها إن كانت راغبةً في انتهاج هذا الدرب، حبًّا به.

وقد خلّفت تلك الرؤيا في نفسها انطباعًا من شدّة الأثر، بحيث غرقت في ذهول الانخطاف.

الفَصْلُ السَّابِع

صرَاعٌ مَع قوى الجَحيم

أربعون يومًا في حَوزة إِبليس

يقول الشاعر الفرنسيّ بودلير: "إنّ أكثر حِيَل إبليس دهاءً يكمن في إيهامنا بأنّه غير موجودٍ".

فلقد بات سواد الناس لا يؤمنون بوجود إبليس، إذ إِنّهم يعيشون في وئامٍ تامٍّ معه، يستجيبون لوساوسه، وينفّذون خططه، فيوفّر عليهم مؤونة كلّ وِقْرٍ نفسيٍّ، ويدع ضمائرهم غافيةً في سُباتٍ عميقٍ.

أمّا القدّيسون الذين يتصدّون له، فيفضحون خداعه ويفشِّلون حِيَله ويجهدون في انتزاع الضحايا من براثنه، فهو يُناصبهم عداءً ماكرًا، ويشنّ عليهم حربًا ضاريةً، ترتدي ألوانًا شتّى من مضايقات تُشيع الهَلَعَ والسأم، إلى استحواذٍ خارجيٍّ يستهدف الإيذاء الجسديّ، أو استحواذٍ داخليٍّ يحاول به الدّفع إلى القنوط والاستسلام.

ولا عَجَب، بالتالي، إِن حرص إِبليس أَبدًا على التسلّل إلى حيث يقيم الربّ. ويأذن له الله بممارسة مكره على النفوس التي يطمئنّ لوفائها له، ويُتيح له مقارعتها بأسلحةٍ متكافئةٍ، بحيث يشتدّ مكره وشراسته، بقدر ما يحبو الله تلك النفوس بنِعَمٍ سنيّةٍ.

وعلى غرار أكبر القدّيسين، تعرّضت الأخت مريم إِلى صَولاتٍ إبليسيّةٍ شرسة العُنف، مدى حياتها، وقد سلف لنا أن وصفنا بعضاً منها. وبعد أن باءت جميعها بالفشل الذريع، أذن الله لإبليس بالاستحواذ على جسدها، كرّتين، تمادت أولاهما أربعين يومًا.

والاستحواذ الشيطانيّ يندرج في ما أسماه مِلفان الصوفيّة، القدّيس يوحنّا الصليبي، ليلَ المشاعر وليلَ الفكر، اللذَين وصفهما بنفقَين يتعيّن على النفوس الكريمة المدعوّة إلى كمالٍ سامٍ، وإلى ذُرى القداسة، اجتيازهما. فإن خرجت النفس من النَّفَق الأوّل محتفظةً ببطولة فضائلها، وإن تجلّت هذه البطولة عند مخرج النفق التالي أوفر تألّقًا، ففي ذلك الدليل الأكيد على أنّها لم تتُهْ في تلك المعابر المعتمة الوعِرة، بل إنّها قد اكتسبت ثوابًا جزيلاً. وترتدي هذه المحن قسوةً أشدّ إيلامًا لدى النفوس المنتدَبة إلى مشاركة الفادي التكفير عن الخطأة.

ويقول اللاهوتيّ سودرو بهذا الشأن:

"ليس الاستحواذ الشيطانيّ شرًّا مطلقًا، بل وحدها الخطيئة هي الشرّ الحقّ. إنّ الاستحواذ هو، لمن يتعرّض له، عذابٌ مُريعٌ، ولكنّه قد يتحوّل لخير النفس الأكبر، وقد يغدو سبب فرحٍ لضحيّته التي ستقدّم الشكر عنه مدى الأبد. إنّه، في الغالب، محنةٌ أكثر منه عقابًا، وغالبًا ما سمح الله أن ينال أكثر النفوس براءةً...".

وخليقٌ بالملاحظة أنّ بَوْنًا شاسعًا يفصل بين التجربة والاستحواذ الشيطانيّ: ففي التجربة يبقى للمجرَّب كامل حرّيته لمقاومتها والتصدّي لها بالصلاة وبأعمالٍ صالحةٍ أُخرى، في حين أنّ الحرّيّة ترقد في غيبوبةٍ أثناء الاستحواذ الشيطانيّ الكثيف، فتنتفي مسؤوليّة المستحوَذ عليه، ولا يعود فاعلاً بل مسيّرًا. وإن هو ارتكب، آنذاك، خطأً خارجيًّا فإنّما إبليس هو فاعله والمسؤول عنه.

ويسوغ التساؤل: لِمَ سمح الله أن تتعرّض فتاةٌ على هذا الجانب من البراءة لمثل تلك التجربة الشرسة؟

إنّ اللاهوتيّين الذين أكبّوا على دراسة ذلك الحَدَث، وفي طليعتهم الأب "كاريغو لاغرانج"، اعتبروا ذلك الامتحان بمثابة استسلامٍ لتطهيرٍ، كفيلٍ بتنقية النفس تنقيةً تامّةً، وبإكسابها ثوابًا عظيمًا يؤهّلها للإسهام في خلاص العديد من النفوس الخاطئة، وبإعدادها، على هذا النحو، لاتّحادٍ حميمٍ مع الربّ.

وقد امتدّت تلك الحملة الشيطانيّة الشرسة على الأخت مريم، التي حفلت بالهول والرّوعة معًا، والتي قلّما تعرّض، يومًا، لمثلها قدّيسٌ، من السادس والعشرين من تمّوز حتّى الرابع من أيلول ١٨٦٨. وخلال تلك الفترة، أفواجٌ من الأبالسة تعاقبت

على تعذيب الأخت مريم، ولم تألُ جهدًا في سبيل تحطيمها. ولكنّ الله الذي أباح لقوى جهنّم أن تداهمها، قد وقى نفسها، بل أمدّها، من تلك المحنة، بمزيدٍ من اَلْمَنَعَة والسنى، كما تشهد بذلك أقوالها، في فُسُحَات الهدنة الخاطفة التي كانت تتيح لضحيّة الجحيم التقاط أنفاسها، فترنو إلى السماء في نظرة رجاءٍ وثقةٍ وحبٍّ.

لقد ازدادت، في المحنة، أمانةً للربّ، فوقاها "وما يحميه الربّ لهو في حرزٍ أمين" على حدّ قول خوري أرس القدّيس.

والآن فلنتابع حلقات ذلك المسلسل الرهيب الرائع.

عندما أَشارت عقارب الساعة إِلى الثانية عشرة من ظهر السادس والعشرين من تمّوز ١٨٦٨، امتَقع وجه الأخت مريم، وارتعشت أعضاء جسمها الذي كان إبليس قد تسلّل إليه في تلك اللحظة. وراح، في الحال، ينفث من فم مريم، كلّ حقده على كلّ ما يخصّ الله. ففي ذلك الوقت عينه قرع ناقوس التبشير، فصاح إبليس: "ما هذه المساخر، ما أشدّ سوادكنّ!. ثم قذف بالمِسبحة التي كانت بيد الأخت مريم أرضًا، وقال: "ما هي هذه السخافات؟" والتفت إِلى راهبةٍ كانت تلثم الصليب، وبادرها قائلاً: "أيّتها الحمقاء، أتقبّلين قطعة خشبٍ؟" وردّت الراهبة: "بل إنّه يسوع، إنّه الله تعالى" فجأر إِبليس: "لا وجود لله. أين العربيّة الصغيرة؟ إِليَّ بها".

وطفقت مريم، بتأثير إبليس، تضرب نفسها، ثم التمست سكينًا لتنتزع من جسدها "العلامات اللعينة" أي السمات المقدّسة. وأخذت تدعو الراهبات إِلى هجر الدير. وعندما لمحت الرئيسة صاحت: "من هي هذه العجوز؟ أنا لا أعرفها". وقد استمرّت تصيح، حتّى بعد إِعلان موعد الصمت، داعيةً الراهبات إِلى التمثّل بها، وإِلى عصيان أوامر الرئيسة.

وقد صرّح ذلك الفوج الأوّل من الأبالسة بأنّهم قليلو الخطر، وأنّ الله قد أمرهم بالامتثال لأوامر رئيسة الدير، ومعلّمة الابتداء، طوال نوبتهم التي ستستغرق ثمانية أيّامٍ، في حين أنّ الفوج الذي سيليهم لن يُطيع سوى الكهنة، والفوج الذي سيستحوذ على الأخت مريم، في ما بعد، لن يخضع إلاّ لأوامر الأساقفة.

وكانت الراهبات حريصاتٍ على سلامة مريم، يُحطنها بحمايةٍ يقظةٍ دائمةٍ، إذ كانت الأبالسة تجهد في القضاء على حياتها. وقد تميّزت الأمّ إيلي، مرشدة المبتدئات،

بسهرها الدائب على وقاية الأخت مريم، فكانت أثناء تعرّضها لهجوم الأبالسة تجلس على السرير من ورائها، وتُلقي رأس الأخت على صدرها، وتطوّقها بذراعيها، في حين تُمسك بعض الراهبات بذراعي الضحيّة وركبتيها. وكان إبليس يُبدي للأمّ إيلي مَقتًا شديدًا، لأنّ السيّدة العذراء قد منحتها السلطة على حماية الأخت مريم من شروره وأذاه. وكان لا ينفكّ يشتمها قائلاً: "ابتعدي أيّتها العجوز، فأنت تسلبين كلّ قوّتي، ولكنّك لا تفعلين بمفردك، فهناك أُخرى تؤازرك"، مُلمحًا إلى السيّدة العذراء. وعندما كان يشتدّ حنَقه عليها كان يصيح: "سأحطّمها، تلك العجوز. إنّ رائحتها كريهةٌ، وتجعلني أتقيّأ". وكان مجرّد ذكر الله يستثيره، فيزأر ويتوعّد.

غير أَنّ الكاهن كان يأمره، بين الفَينة والفَينة، بمغادرة جسم الضحيّة، فيمتثل بعد لأيٍ، وبعد كثيرٍ من المقاومة. وحينئذٍ كانت المسكينة تنفجر بالنحيب، إذ كان يخيّل إليها أنّ الربّ قد تخلّى عنها، وكذلك العالم أَجمع، وأخواتها الراهبات، وأَنَّهَا فقدت حبّ الله، والسيّدة العذراء، فيُعزّيها الكاهن مؤكّدًا أنّها ما زالت تحبّ الله، وأنّ الله ما انفكّ يحبّها، فتهتف: "إنّني أودّ أن أتألّم أبدًا، على أن لا أخطأ وأُغضب الله. لو كان بوسعي أن أحبّه قليلاً لكنت سعيدةً جدًا". ويدعوها الكاهن إلى ترداد فعل محبّةٍ لله، فتردّد العبارات في براءةٍ طفوليّةٍ، ممّا يُوغِر صدر إبليس، فيداهمها من جديدٍ، وفي الحال تهتف: "إنّني أكذب، إنّني أكذب". ويدعوها الكاهن: "يا مريم يسوع المصلوب"، فيأتيه ردّ إبليس: "إنّها ليست ههنا"، ويحاول إبليس، عَبْرها، تحدّي رجل الدين، حتّى يأمره باسم يسوع أن يخرج منها، ولكنّه سرعان ما يُداهمها من جديدٍ.

وقد أَنذر فوج الأبالسة الذين استحوذوا على مريم، طوال الأسبوع الأوّل، بكلّ ما ستُعانيه من مِحَنٍ. واعترفوا بأنّهم لا يستطيعون النُّطْق بلفظة "الخميس" لأنّه ذكرى تأسيس الافخارستيا. وكانوا يحاولون نشر البلبلة في الدير بإطلاق صَيحاتٍ مسعورةٍ تمزّق صمت الليل. ولكنّ أمرًا من الكاهن كان كافيًا لإخراسهم.

غير أنّ نِقمتهم كانت منصبّةً، في المقام الأوّل، على الأخت مريم، وكان أربهم القضاء على حياتها، وقد استغلّوا، مرّةً، عزلتها، من غير رقيبٍ، فدفعوا بها من شاهقٍ إلى خزّان ماءٍ مستهدفين خنقها. ولكنّهم خسئوا، وقد اضطرّوا إلى الإقرار بأنّ السيّدة العذراء، قد بادرت إلى وقايتها، فهزمتهم.

وكان أشدّ ما يخشاه إبليس هو اختلاف الأخت مريم إلى معبد سيّدة الكرمل القائم في حديقة الدير، وحيث كان الله قد منّ عليها بفَيضٍ من نعمه الخارقة، وكانت الأخوات يقُدنها إليه علّها تُصيب فيه بعض قوّةٍ روحيّةٍ وعزاءٍ، فتُحجم المسكينة عن ولوجه، إلى أن يبدّد أمر السلطة تردّدها. وحينئذٍ، بعد أن تتحرّر، برهةً، من ربِقة إبليس، كانت تبكي معاتبةً العذراء على تخلّيها عنها. ولكن سرعان ما كان إبليس يدفع بها خارجًا.

ويوم الأحد، في أعقاب أسبوع محنتها الأوّل، مُنحت مريم هدنةً، وِفقًا لما كانت قد تنبّأت به من قبل، فاستطاعت أن تعترف وتتناول القربان المقدّس. لقد أوتيت، آنذاك، على حدّ تعبيرها، أن ترفع رأسها، بعد أَن كانت غارقةً في بحرٍ قاتمٍ، إلاّ أنها كانت ترى البحر عينه أمامها، يتقدّم نحوها باطّرادٍ؛ وكان من دواعي ابتئاسها أَنّ تناولها القربان المقدّس ما عاد يحرّك فيها أيًّا من المشاعر التي كانت، من قبلُ، تُلهبها. وحتّى كلمات الكاهن الذي كان يحاول بها شدّ أَزرها، ما كانت تجد إلى نفسها سبيلاً. وما إن أذِنت الساعة الثامنة، وهي بعدُ في المعبد، حتّى أطلقت صَيحةً حادّةً، إذ داهمتها جوقة الأبالسة من جديدٍ، في هجومٍ شرسٍ، استمرّ حتّى الظهر تقريبًا.

ولم تدم الهدنة التي فُسحت لها، آنذاك، سوى ربع ساعةٍ، ثمّ نشبت بها الجوقة الثانية، وقد تبيّن، منذ الوهلة الأولى، أنها كانت تمتاز عن سابقتها بأساً ومكرًا، إلا أنّ أوامر الكاهن كانت تُفلح في أن تنتزع لها بعض لحظات هدنة، كانت، أَثناءها، تُردّد عبارات الاستسلام للمشيئة الإلهية، وأفعال محبّة لله، قائلةً: "يا إلهي، إنّني أريد أن أتألم أبدًا، على أن تكون راضيًا". ثمّ تلتفت إلى أخواتها، في رقّةٍ مفعمةٍ بالمحبّة فتقول: "ما أشقاني، إنّني لا أستأهل أن يُفعَل من أجلي شيءٌ، وكم أنتنّ طيّبات! إنّني أشعر أنّكنّ تصلّين من أجلي، وأنّ الجميع كذلك يصلّون".

وخليقٌ بالملاحظة أنّ الله الذي أتاح لإبليس الاستحواذ على جسد مريم، قد حظّر عليه أَن ينال قَيدَ شعرةٍ من حشمتها. ففي غمرة صراعه معها، كان، إذا ما انحسر رداؤها، ولو قليلاً، عن ساقها يصيح غاضبًا: "غطّوا العربيّة الصغيرة. فالمعلّم قد نهانا عن أيّ عملٍ يمسّ حشمتها، إذ هي، قطّ، ما اقترفت، في هذا المجال، خطيئةً. إنّ سلطتنا تنحصر في محاولة القضاء على حياتها. هذه العربيّة المقيتة سأحطّمها، وكم قد تمنّيت خنقها، وهي في أحشاء أمّها، إنّها، كلّما تقدّمت في السنّ، كلّما ازداد

سخطي، ولا سيّما من جرّاء سماتها. أعطوني عيناً من عينيها، أو إصبعًا من أصابعها، فأملأ صوامعكم ذهبًا".

لقد كانت الطهارة غريزةً متأصّلةً في الأخت مريم، تتشبّث بها، بكلّ طاقاتها، حتّى وهي فاقدة الوعي، وفي قبضة إبليس.

وكان إبليس يجهد في منع الأخت مريم من تناول أيّ طعامٍ، غير أَنّ سهر الأمّ إيلي كان يظهر على ذلك المخطّط الجهنّميّ، أو هو كان يحاول خنقها بدفعها إلى ازدراد دبابيس وشظايا زجاجٍ، بَيدَ أَنَّ يقظة الراهبات كانت تحول دون تلك المخاطر؛ وإذا ما تمكّن الشرّير من اختراق حذر الراهبات، وحَمْل الأخت مريم على ابتلاع شيءٍ ما يدسّه لها، كان أمر الطاعة كفيلاً بتخليصها منه. فيزداد إبليس في التنكيل بضحيّته ضراوةً، حتّى ليبدو جسمها، وكأنّ أصابع فولاذيةً قد حرثته، فتزأر المسكينة رُعبًا وألمًا، وفي آنٍ معًا تتضاعف قواها بحيث يتعذّر على الأخوات السيطرة عليها، ولا يعود يقوى عليها سوى أوامر الكاهن، الذي كان أَحيانًا يُلقي عليها بطرشيله، فتسكن، وتقبّله قائلةً: "هذا من أمتعة أمّي الكنيسة المقدّسة".

وأوامر الكاهن، هي التي كانت تلزم إبليس بعدم إقلاق صمت الدير ليلاً، وهي التي كانت تحلّ عُقَد اَلصَّمّ والبَكَم التي كانت تنتاب الأخت مريم فجأةً.

وكان الشرّير لا يني يردّد حانقًا: "أين هي العربيّة؟ يا لفرصتي لو استطعت النيل منها، إِذن لنَعِمت الجمعية كلّها بالسلام".

وكان يرفض النطق باللغة اللاتينيّة قائلاً: "إنّ هذه اللغة اللعينة توجعني! إنّها موجّهةٌ ضدّي".

ولكن ما إن كانت تُفسح للضحية هدنةٌ خاطفةٌ حتّى تفيض بأسمى التنهّدات: "سأتألّمّ حتّى نهاية العالم، يا إلهي، إن كانت تلك هي مشيئتك! سأعاني أبدًا كلّ ما تشاء! لست أبتغي سوى رضاك، يا يسوع. فاجعلني أحقّق مشيئتك".

ويتفاقم حَنَق الشرّير لسماعه هذا التحدّي، فيُرغي، ويُزبد، ويتلوّى، ويلعن، ويسأل الأب مانوداس، الشاهد على كلّ ذلك: "أعطني فقط شعرةً من العربية الصغيرة، وسأمضي في سبيلي". ولكنّ الكاهن كان يُلَقّمه حجرًا بقوله: "أنا لست سوى عَدَمٍ: إنّ المخلّص هو سيّدها الوحيد، ولن تسقط شعرةٌ من رأسها إلاّ بإِذن أبيها السماويّ".

«سأتألم حتى نهاية العالم، يا إلهي،
إن كانت تلك هي مشيئتك!»
(من أقوال الأخت مريم)

ويوم الجمعة من أسبوع المحنة الثاني، حاول إبليس التمرّد على الكاهن معلنًا: "لن أخضع لا باسم الطاعة، ولا باسم يسوع المسيح، إذ لا يملك أحد عليّ سلطانًا. أنا السيّد وسأحطّم العربيّة الصغيرة".

غير أنّ الأب مانوداس أَجابه: "صحيحٌ أنّنا لسنا سوى عدمٍ وخطيئةٍ؛ ولكنّني كاهن السيد المسيح، وآمرك بالخضوع". وأرفق كلامه بسجودٍ لاسم يسوع شاركته فيه الراهبات الحاضرات، ممّا أصاب إبليس بهزيمةٍ مخزيةٍ، وقد اعترف بانكساره قائلاً: "ألفٌ من أمثالك يعجزون عن النيل منّي، بيد أن فعل التواضع هذا يدمّر جبروتي".

وقد أرغم الله إبليس على الكشف عن الأساليب التي يستخدمها في تضليل النفوس، ولا سيّما الرهبانيّة منها، فإذا هي الغَيْرَة والغُرور، والفُضول، والتكتّم حِيال الرؤساء.

ويوم الأَحد، الثاني من شهر آب، ظهرًا، ثابت الأخت مريم إلى وعيها، مدى دقائق معدوداتٍ، فسألت: "أين أنا؟ يلوح لي، أنّني كنت في حلمٍ. لقد كنت في لُجّةٍ، وكانت الأسماك والحيوانات تفترسني. خطاياي هي السبب في ذلك. يا يسوع أودّ أن أتألّم من أجلك أبدًا. أنا لست جديرةً بالألم. أرى المياه القاتمة تداهمني. ثمّ هتفت لأمّها العذراء: "يا أمّي، شدّيني بعونك، ها إنّ اللجّة زاحفةٌ". وفي الحال، استحوذ على جسدها جحفلٌ ثالثٌ من الأبالسة.

لم يُغفل القادمون الجدد أسلوبًا من أساليب التعذيب لحمل ضحيّتهم على التبرّم من الألم، والتماس وضع حدٍّ لعذابها، فيكسبوا بذلك رهانًا تحدّوا به الربّ. وقد كانوا موقِنين من نصرهم، ولكنّ الأخت مريم قد مرّغت كبرياءهم بالحمأة، وبدّدت أوهامهم. فأربعين كرّةً، أفرغ الشرّير كلّ ما في جعبته من شراسةٍ وغيظٍ ليقسرها على الكفر بالألم، وأربعين كرّةً هتفت الضحيّة، بعد أن ثابت إلى وعيها: "المزيد من الألم، يا يسوع، إكرامًا لك". ثمّ استأذن إبليس أن يحاول مرّتين انتزاع اعتراف منها بأنّها تتألّم، فأذن الله له بسبع محاولاتٍ، باءت جميعها بالفشل الذريع، إذ، مع كلّ ما كانت تعانيه، قد ردّدت سبع مرّاتٍ: "إنّي أنتحب، يا يسوع، لأنّني لا أتألّم، إكرامًا لك، بالقدر الكافي".

هذه السلسلة المتّصلة من الانتصارات التي أحرزتها الأخت مريم علـــى قِــوى الجحيم، لم تغمر إبليس بالخِزي فحسب، بل إنّها شفعت بالعديد من النفوس القابعة في المطهر، فراحت زرافاتٌ منها تتحرّر، وتتصاعد إلى السماء، ممّــا ضـــاعف حَنَــق إبليس، فآثر الانسحاب من معركةٍ خاسرةٍ على كلّ صــعيدٍ، ولكــنّ الــربّ ألزمــه بالأربعين يومًا التي كان هو قد التمسها، كي يكتمل خِزيه. فاستأذن الشرّير في حمل الأخت مريم على القول: "أعتقني، يا ربّ، من إبليس"، وحاول ذلك أربع عشرة مرّةً، فكان الجواب، أربع عشرة مرةً: "لا أودّ سوى التألّم، حبًّا بك، يا يسوع".

ويوم الخميس، استيقظت الأخت مريم، وهي في كامل وعيهــا، بيــدَ أنّ آلامًــا مبرّحةً كانت تمزّق أحشاءها، فهتفت: "يا إلهي، فلأتألّم أبدًا، بقدر ما يحلو لك". ولكي لا يضطرّها الألم إلى الصراخ، دسّت منديلاً في فمها. وكان الألم لا ينــي يتفــاقم، فخيّل إليها أنّها تعاني سكرات الموت، فطلبت الاعتراف، ووافى الأب مانوداس فــي الثامنة، فاعترفت، بين يديه، اعتراف المحتضرين، اعترافًا كــاملاً شــمل حياتهــا بأسرها. وفي حين كانت جميع الوسائل البشريّة قد فشلت في تخفيف آلامها، أفلحــت مياه التوبة في إزالتها، فنعمت بالسكينة طوال النهار، ولكنها لم تكن تذكر شيئًا مــن أيّام محنتها السابقة، وخيّل إليها أنّها كانــت تــرى الأب مـــانوداس، والأمّ الرئيــسة والأخوات، للمرّة الأولى، منذ زمنٍ طويل.

ويوم الأحد، التاسع من آب، نشبت بها أزماتٌ رهيبةٌ منــذ الــصباح. وكانــت الراهبات قد أعددن ثوبًا ضيّقًا يشدّها بإحكامٍ، بحيث يوفّر عليهنّ ضرورة الإمــساك بها باستمرارٍ. وقد رفضه إبليس، أوّل الأمر، ولكن عندما تبيّن له أن ارتداءه يقتضي خلع الثوب الرهبانيّ، وأن ضيقه المفرط كفيلٌ بمضاعفة آلام ضحيّته، أخذ يصرّ في التماس ارتدائه، قائلاً: "هذا قميص مجانين، وأنا لست بمجنــونٍ، ولكــن، لا بــأس، ألبسوني إيّاه، فهو سيوجع العربيّة الصغيرة، إنّها هــي المجنونـــة، هــذه العربيّـــة الصغيرة، ضعوها في مأوى مجانين، واطردوها من هنا. ألبــسوها هــذا القمــيص الأحمر". إزاء هذا الإلحاف تحوّلت الأخوات عن عزمهنّ، إذ أدركن أن ذلك الثــوب الضيّق، خليقٌ بتحطيم الأخت مريم، وأنّ عليهنّ الإسهام بقسطٍ ضئيلٍ مــن كفاحهــا، بالبقاء إلى جانبها.

وفي السابع عشر من آب، بعث المطران لاكروا، أسقف بايون، مع رئيس إكليريكيّة أبرشيّته، الأب مانوداس، الذي أحاطه علمًا بكلّ ما جرى للأخت مريم، برسالةٍ إلى الأخت مشجّعًا، ومعتذرًا لتعذّر حضوره، ومنتدبًا عنه الأب مانوداس في مهمّة طرد الأبالسة، وممّا جاء في الرسالة:

"إنّ العذراء مريم تودّ أن تضمّك إليها، بالقرب من ابنها الإلهيّ، وأن تشركك بكأس آلامها، وتجعلك أكثر توافقًا مع هذه الكأس، إذ إنّ هذا التوافق هو علامة المختارين. ويسوع أيضًا الذي اختارك له وحده، يودّ أن يشركك في آلامه، وتجاربه وصراعه، وحربه على الشيطان والخطيئة. كما أنّه يريد أن يحقّق لك النصر بقوّته الإلهيّة، مثلما انتصر هو نفسه.

"ومثلما سمح للشيطان أن يجرّبه، أذن له بتجريبك، ولكنّه سيهزمه فيك كما هزمه في ذاته. إنّه سيطرد هؤلاء الأبالسة، مثلما كان يطردهم أثناء جولاته الإنجيليّة، حيثما ظهروا، إذ سحقهم وحطّم جبروتهم، بعد أن أوسعهم مهانةً وخزيًا. بالصليب، يسوع قهر الجحيم؛ والمسامير التي أوثقته بالصليب، قد قيّدت الأبالسة، وإكليله المضفور من شوكٍ، أمسى إكليل مجدٍ.

"يا ابنتي، كوني أبدًا مريم يسوع المصلوب".

وقد قاطعت الأخت مريم تلاوة هذه الرسالة، حين نعمت بلحظات هدنةٍ، لتعلن: "أنا لست جديرةً بمثل هذه الرسالة، فأنا لست سوى خطيئةٍ. هذا عطفٌ جمٌّ عليّ".

ولكن إبليس، الذي أثار غيظه كلام الأسقف فيه، مضى في التنكيل بالأخت مريم، بمزيدٍ من العنف والضراوة؛ ولكن بقدر ما كانت آلام الأخت تشتدّ، ومحنتها تقسو، كانت أقوالها تكتسب مزيدًا من السموّ والروعة، على نحو ما يتجلّى، من خلال الشذرات التالية، منها:

"لنتألّم من أجل الوردة، الكنيسة المقدّسة، ولنحطّم هذا الجسد حبًّا بيسوع. حتّى نهاية العالم، فلنحتمل الألم والازدراء. إنّني لست أرغب إلاّ في يسوع ومشيئته المقدّسة. لن أستطيع القول بأنّني أحقّق مشيئته، حتّى يتحطّم هذا الجسد، ويتحوّل مثل دقيقٍ تحت رحى الألم. يسوع هو الذي وهبنا هذا الجسد، فلنحطّمه في سبيله".

وإزاء مثل هذه الأقوال، كان إبليس يبدي خزيه أمام الجميع، مستخدمًا جسد مريم الذي استحوذ عليه، فيحملها على الركوع فوق سريرها، وقد انغرس رأسها بين كتفيها، واصطكّت أسنانها، وتقطّب وجهها، على نحوٍ مريعٍ، وأسندت ذقنها على قبضتيها المتوتّرتين. وقد حقّ للأب مانوداس، أن يخاطب الشرير قائلاً:

"ها إن فتاةً صغيرةً قد هزمتك، أيّها الروح المتجبّر! كم قد هويتَ إلى دركٍ سحيقٍ، أنت الذي كان أوّل الملائكة وأجملهم؟ فاتّضع أيّها التعيس وارتعد. فيسوع هو قاهرك".

إذ ذاك، ازداد جسد الأخت مريم انطواءً على ذاته، وقد سرت فيه قشعريرةٌ، وكأنّه ورقةٌ في مهبّ الريح، وانحنى أعمق انحناءٍ، وكأنّه يحاول الاضمحلال.

ومع ذلك لم يستسلم إبليس، بل استأذن في عشرين محاولةً أُخرى، كي ينتزع من ضحيّته صيحة تأفّفٍ، وقال: "إنّني أتألّم، إنّي أختنق". فأذن له الربّ بثلاثين محاولةً، واندفع مئة شيطانٍ يوسعون ضحيّتهم من التنكيل ألوانًا، ويحثّ بعضهم بعضًا على بذل المزيد في سبيل قسرها على التبرّم من الألم، ولكنّها بعد الجولة الأولى هتفت: "إنني أهب جسدي لمن وهبني إيّاه" وأضافت بصوتٍ مرتفعٍ: "تباركت يا ربّ". وعندما جاءتها الممرّضة ببعض ماءٍ ردّته قائلةً: "لا أريد أيّ تخفيفٍ لمعاناتي".

ونشبت الجولة الثانية أشدّ ضراوةً، فخلفت فيها جروحًا بليغةً، وتدفّق الدّم من فمها، يرافقه، من زمرة المهاجمين، زئيرٌ وشتائم. ولكنّ مريم قالت: "**الآن سأبارك الربّ، فلتكن، يا ربّ، مباركًا**".

وتوالت الهجمات حتّى الثلاثين كرّةً، أشدّ شراسةً وإيلامًا، وقد تفاقم معها حنَقُ الأبالسة وضغينتهم وشتائمهم، غير أن هتافات مريم كانت تزداد صوفيّةً وروعةً وسخاءً واتحادًا بيسوع المتألّم، ولم يكن أعذب من سماعها تقول:

« أضمّ صوتي إلى صوت يسوع، في بستان الزيتون، تباركت يا إلهي،
"إنّني أتّحد بيسوع، وهو يحمل صليبه في أزقّة القدس، تباركت يا إلهي،
"أضمّ آلامي إلى آلام يسوع، وقد خانه يهوذا، تباركت يا إلهي،
"أتّحد بيسوع، وقد هوى تحت عبء صليبه، تباركت يا إلهي ».

ثلاثون هجمةً انتهت بثلاثين هزيمةً لإبليس. وثلاثون نفسًا من النفوس التي انتقلت، في ذلك اليوم، عن الأرض، قد ظفرت، بفضل تضحية الأخت مريم، بغفران الله، فجاءت تحيّيها، وتشكر لها صنيعها. كما أنّ يسوع نفسه، وأمّه العذراء قد سانداها بحضورهما العذب، شادّين أزرَها.

وعندما ثابت إلى وعيها، كادت تذوب خجلاً واتضاعًا. فأعلنت: "**أنا لست شيئًا، لست سوى خطيئةٍ... لكلّ أمرٍ على الأرض جدوى، حتّى الحجارة، أما أنا فلست أنفع لشيءٍ. غير أن رؤيتي لعدَمي تحملني على الزّهد بكل شيءٍ، ولا سيّما بجسدي، وكم أودّ أن يتحطّم هذا الجسد، من أجل يسوع! لا رغبة لي سوى في حبّ يسوع، بصمتٍ... ويبدو لي أنّني أخرج من بحرٍ؛ يا إلهي ليت العالم أجمع يرى خطاياي، على نحو ما أراها. إنّني لست أدرك كيف يرضون بالاحتفاظ بي هنا. يا لمحبّتهم!**".

وتضيف قائلةً لمعلّمة الابتداء: "**بودّي أن أتألّم حتّى الدينونة العامّة، بل الأبديّة بأكملها، لو أمكن. إذ لا يسعني القول: أحبّك يا يسوع، حتّى يتحوّل جسدي اضمحلالاً وترابًا. فآنذاك فقط لن أعود أقوى على فعل الخطيئة... يا يسوع، اقطع، وابتر، وأحرق كل ما تشاء. يا إلهي، أين لي من يفصلني عن ذاتي؟ ومتى سأُعطى أن أكون لك إلى الأبد، يا يسوع!**".

أقوالٌ لا يلهمها إلاّ روح الله.

وقد دار بين الربّ وإبليس، أثناء إحدى هجماته على الأخت مريم الحوار التالي:

– "من الذي سيحاربنا؟" سأل إبليس

– "لن يكون محاربوكم ملوكًا، ولا ذوي سلطانٍ. إنّني سأقهركم بلاشيءٍ صغيرٍ" قال الربّ

– "ولكن من هو هذا اللاشيء الصغير؟ أيكون تلك العربيّة الصغيرة؟".

وقد جاءه الردّ عبر رسالةٍ ثانيةٍ بعث بها أسقف بايون إلى الأخت مريم، وقد ورد فيها:

«**... إن الله يختار أضعف ما في العالم، والأكثر مهانةً، كي يُخزي ما يبدو وكأنّه أقوى ما في العالم وأعظمه، وأعلاه مقامًا. لهذا السبب عينه، يا ابنتي، اختارك المعلّم الإلهي، أنت المخلوق المغمور، المتواضع، الفقير، المنبوذ، ليقاوم**

بك الشيطان وجحافله الجهنميّة المتسلّحة بالحقد على الكنيسة. إنّك لا شيء. وهذا اللاشيء كافٍ لقهر جميع الأبالسة، وتبديد سلطانهم.

"ستنتصرين إذن، أيّتها المخلوقة الهزيلة، أيّها العدم المسكين، ستنتصرين بقوة صليب سيّدنا يسوع المسيح، كلّيّ القدرة، أنت خادمة صليبه. وملك المجد هذا، سيتمجّد، مرّةً أُخرى، بوهنك وجهلك، اللذين يغدوان وسيلة انتصاره... ».

وفيما كان الأب مانوداس يتلو هذه الرسالة، في الثاني من أيلول، قاطعه إبليس قائلاً: "ماذا يقول هذا التعيس؟ أهو يقول إنّ العربيّة الصغيرة هي العدم الصغير؟ آه! لو عرفت ذلك لحطّمتها".

أجل، كانت "العربيّة الصغيرة" هي اللاشيء الذي حطّم قوى الجحيم!

وأنتِ، يا مواطنتنا الحبيبة مريم، لقد دعَوكِ "العربيّة الصغيرة" فكان هذا الاسم لك ولنا وسامًا غاليًا، وبات له وقعٌ أعذب في آذاننا وقلوبنا، بعد أن راح يطلقه عليك الشرّير ازدراءً وتحدّيًا، ولكنه خسئ. فعروبتك هي فخرٌ لنا. وصِغَرك جعلك إلى قلب الله أَثيرةً، وأحلّك بين مختاريه أسمى مقامٍ...

المشهد الأخير

ثمانيةٌ وثلاثون يومًا انقضت، استنفد خلالها إبليس جميع وسائله وأَشرسها، ولكنّه فشل في انتزاع صرخة تبرّمٍ أو شكوى من "العربيّة الصغيرة"، فخطر له التخلّي عن مساعيه. ولكن المعلّم الإلهيّ قد قسره على المضيّ في التجربة حتّى آخر الشوط، كي يوسعه خِزيًا وهزيمةً.

واستأذن إبليس بشنّ مئة هجومٍ في غضون اليومين المتبقّيين، فكان له ما أراد. وقد حفل ذانك اليومان بأعتى محاولات الجحيم، التي قابلتها أكثر مواقف الأخت مريم سموًّا وبطولةً واندماجًا بالله.

وجديرٌ بنا أن نشهد عن كثبٍ ذلك الصراع الذي تقابلت فيه السماء والجحيم، عبرَ فتاةٍ اختارها العليّ، وسكنتها الأبالسة مؤقّتًا، في محاولةٍ يائسةٍ لاختطافها من حضن الله.

التاريخ: يوما الثالث والرابع من شهر أيلول ١٨٦٨.

مسرح الأحداث: قاعة التمريض في دير كرمل پو، وقد انتصب في وسطها سريرٌ حديديٌّ أوشك على الانهيار، وكاد فراشه يتمزّق من جرّاء حدّة الصراع، طوال الأيّام الثمانية والثلاثين السابقة.

الأبطال: الأخت مريم يسوع المصلوب، مثخنةٌ بالجراح، مشبعةٌ ألمًا، تتكلّم بوحي الروح إثر كلّ جولةٍ من جولات إبليس، وتظنّ أنها وحيدةٌ في غرفة التمريض: وجوقةٌ من مئة شيطانٍ يستخدمون صوتها للشتيمة والوسوسة، وأعضاءها لتعذيبها والتعبير عن اهتياجهم المأفون.

الحضور: الأب مانوداس، رئيس إكليريكية أبرشيّة بايون، والأب سان جيلي، رئيس الجمعيّة، والأمّ إيلي مرشدة المبتدئات، وعددٌ من الراهبات.

الأخت مريم: في أعقاب الجولة الأولى، تبصق دمًا، ولكنّها تهتف:

"**أقدّم آلامي ليسوع، وإنّي متأهبةٌ لمعاناة كلّ ما يشاء في سرورٍ وحبٍّ، تباركت، يا إلهي!**".

إبليس: يشنّ الجولة الثانية، ويبصق على الصليب عندما يُدنيه الأب مانوداس من شفتي الأخت مريم لكي تقبّله.

الأخت مريم: "**أقدّم آلامي، في اتّحادٍ مع يسوع ومع الشهداء، من أجل انتصار الكنيسة، تباركت يا إلهي!**".

إبليس: يباشر الجولة الثالثة، ويبصق مرّةً أُخرى على الصليب، ويتلوّى في حركاتٍ هيستيريّةٍ، ويزأر، ويعوي، ويهتاج بحيث يرتجف السرير بعنفٍ، ويصيح: "أعدّوا النعش لها، أعدّوا النعش. إنّنا مئةٌ، إنّنا مئة".

الأخت مريم: "**إنّني أرغب في الألم، وأرجو أن أكون ضحيّةً، وأن أُسحَق، وأحترق حتّى نهاية العالم، من أجل انتصار الكنيسة. تباركت يا إلهي!**".

إبليس: لا يني يبصق على الصليب، ويُوسع ضحيّته تعذيبًا وتنكيلاً.

الأخت مريم: "إنّني أتّحد بيسوع على الجلجلة، وأقدّم نفسي ضحيّةً من أجل ارتداد الخطأة. تباركت يا إلهي!".

إبليس: يكشّر في وجه الأب مانوداس، ويخاطبه ساخرًا: "أيّها الخوري، لم تكن

رحلتك من بايون إلى پو نافلةً، فغدًا عليك دفن العربيّة".

الأب مانوداس: "سأقوم بواجبي، إن هي ماتت وأدفنها. ولكنّها لن تموت، بل ستُلحِق بك الخزي".

الأخت مريم: تطلق صرخاتٍ مروّعةً، ولكنّها لا تلبث أن تثوب إلى وعيها، فتسكن وتقول برفقٍ: "**أضمّ آلامي إلى آلام يسوع في حياته الخفيّة؛ أقدّمها عن العميان الذين لا يعرفون الكنيسة، كي يظفروا بهذه المعرفة. تباركت يا إلهي!**".

إبليس: يسخر من الأب مانوداس، ومن صلواته، ويسوم الأخت مريم عذابًا وحشيًّا، ويقول: "سابقًا، كان حسبي من العربيّة شعرةً. أما الآن فإنّني أبتغي القضاء على جسدها كلّه؛ أتعلمون لمَ أوسعتُ هذه الشقيّة كلّ هذه الآلام؟ لأنّ صيتها سيذيع في ما بعد، وهذا ما أسعى في الحؤول دونه".

الأخت مريم: "أتّحد بيسوع ومريم، وأقدّم آلامي من أجل كلّ الذين يناصبون الكنيسة العداء، علّهم يصبحون ليسوع أتباعًا. تباركت يا إلهي!".

إبليس (مخاطبًا الكاهن): أترى كيف هي فقدت كلّ حَوْلٍ وطَوْلٍ، وأصبحت عاجزةً عن الكلام، ونحن ما زلنا من الصراع في مستهلّه. إنّها ستقضي نحبها قبل انتهاء الجولات المئة.

الأخت مريم: "أتّحد بيسوع عندما مضى لإيقاظ التلاميذ النائمين. أقدّم آلامي عن الخطأة، كي يرتدّوا إلى أمّهم الكنيسة؛ تباركت يا إلهي!".

إبليس: انتظروا، عليّ أن أخنقها (ثم مقلّدًا صوت ضحيّته): "يا أمّي، إنّ أحشائي تؤلمني. يا أمّي لم أعد أطيق احتمالاً. لقد تحطّمت. لقد ثقبني إبليس بطعناته كالغربال" (ثم يضحك ساخرًا، ويطلب ماءً يرشّ به الراهبات! ثم يضيف:) "أريد أن أفقأ للعربيّة إحدى عينيها".

الأخت مريم: "يا إلهي! إنّني أضمّ آلامي إلى آلام يسوع، في بستان الزيتون، عندما كان يقطر دمًا ويقول: يا أبتِ، إن أمكن أبعد عنّي هذه الكأس، ولكن فلتكن مشيئتك لا مشيئتي. أقدّم آلامي مع آلام يسوع من أجل الخطأة والكنيسة. تباركت يا إلهي!".

إبليس: "لقد بذلت كلّ ما بوسعي لمنعها من الكلام، ولكنّها تكلّمت بصوتٍ أعلى" (يضع الكاهن على الأخت مريم صليبًا، فيهتاج إبليس، ويهدّد بعضها وتمزيقها،

ويردف هازئًا):

"أيّها الكاهن، إنّ الراهبات يخالفن القوانين ببقائهنّ ههنا، دعهنّ يمضين للاهتمام بواجباتهنّ، وأنت أيضًا ابتعد من هنا".

الأخت مريم: "أتّحد بيسوع، عندما جاء يهوذا مقبّلاً كي يسلّمه للأشرار. أتّحد بيسوع من أجل الكنيسة. تباركت يا إلهي!".

إبليس: يوغل في التنكيل بضحيّته، ويطلب، من جديدٍ، ماءً للشرب يقذف به في وجه الراهبات، ويضحك ساخرًا، ويتمخّط؛ ويدفع بضحيّته على عضّ ذاتها، فتحول الأمّ إيلي دون ذلك، ويدسّ إبليس ساخرًا: "أُنظرن، اُنظرن هذه العجوز؛ إنّ بها للعربيّة مودّةً خاصّةً، أمّا أنتنّ اللواتي أبرزتنّ نذوركنّ بين يديها، فلا تحبّكن. (يحاول ضرب رأس الأمّ إيلي، ويزأر كالوحوش، ويصفر كالقطار، ويردّد): "عليّ أن أحطّم جسد العربيّة".

(نحن، بعدُ، في الجولة الثانية عشرة. آلام الأخت مريم تنتزع من عيون الحاضرين فيضًا من الدموع).

الأخت مريم: "أتّحد بيسوع، عندما كان الأشرار يهزأون به، ويشتمونه، ويبصقون على وجهه. أقدّم آلامي من أجل انتصار الكنيسة، ولأجل هداية كلّ الذين يضمرون لها شرًّا. تباركت يا إلهي!".

إبليس: "أنا المجرّب، أنا المجرّب. (يدخل الأب سان جيليه، رئيس الجمعيّة، فيصرخ في وجهه): "إليك عنّي، مع هذا الشيخ (مشيرًا إلى الأب مانوداس) وكتاب صلواته. أنا المجرّب، أزرع الشقاق في كلّ مكانٍ، وأفعل ما أشاء".

(في الجولة السادسة عشرة، جسم الضحيّة يرتعد، ولكن إشارة صليبٍ يرسمها الأب سان جيليه تشيع فيه السكينة).

إبليس: سننتصر على الشيخ (الأب مانوداس) وعلى الخبيث المتخفّي (الأب سان جيليه) وعلى الأردان البنفسجية (الأسقف) وعلى الأبيض الشرير (البابا) وسنرقص فوقهم... ثم إنّه ينتزع قناع إحدى الراهبات قائلاً: "إنّني أنتزع هذا القناع، لأنّني أمقت التواضع الذي يستثيرني".

الأخت مريم: "أتّحد بيسوع لدى سقوطه الأوّل تحت عبء الصليب، وأقدّم

آلامي من أجل الخطأة الذين يسقطون، لكي ينهضوا مع يسوع. تباركت يا إلهي!".

إبليس: "أنا السيّد". (مخاطبًا الكاهنين): "امضيا أنتما". (ثمّ يُضيف في سخريةٍ): "أيّها الخوري!، أحِط علمًا بكلّ ما يجري صاحبَ الرداء الأبيض (الأب الأقدس، بابا روما) كي يتمّ تطويب العربيّة الصغيرة يومًا". (ثمّ يلتفت نحو الأب مانوداس ويقول): "امضِ، أنت، فهناك من ينتظرك للشروع برياضةٍ روحيّةٍ؛ امضِ ولا تتأخّر أكثر من صباح الغد". (حيال رفض الكاهن، شرع يصيح): "يا للشقيّ، إنّه سيكون هنا، غدًا، عندما سيحضر المعلّم".

الأخت مريم: "يا أبتِ، إنّني أتّحد بيسوع لمّا سقط للمرّة الثانية، وأتّحد بمريم التي سعت في إثر يسوع بعد أن هشّم السقوط ركبتيه، وأقدّم آلامي عن الكهنة والمرسلين، الذين يبحثون عن النفوس. أقدّمها، أيضًا، من أجل الخطأة؛ تباركت، يا إلهي!". (ثم ردّت على الشيطان الذي طفق يذكّرها بأخطائها):

"أجل، أنا لست سوى خطيئةٍ، ولكنّني أثق في رحمة الله، فابتعد يا إبليس".

إبليس (ساخطًا): "منذ آلاف السنين، كنت ورفاقي، نحن الذين صُنعنا من نورٍ، نحبّ الله، ومقرّبين إليه، ولكنّنا مذ ذاك، نقاسي من جرّاء عجزنا عن حبّه. ولكنّنا سنحطّم هذه المخلوقات الزريّة المجبولة من وحلٍ وترابٍ، والتي تحاول الحلول محلّنا... أعَدَمٌ صغيرٌ يتغلّب علينا؟! إنّ هذا لمستحيلٌ. سنوسعها تنكيلاً إلى أن تطلق صيحة تأفّفٍ وتبرّمٍ". وتُنحي جوقة الأبالسة على جسم الضحيّة في ضراوةٍ مروّعةٍ.

وكانت الجولة الثامنة عشرة

الأخت مريم: "أتّحد بيسوع عندما سقط للمرّة الثالثة. أقدّم آلامي من أجل الكهنة الذين يكافحون الإلحاد، ومن أجل الكنيسة، تباركت يا إلهي!".

إبليس: يتوسّل من أجل إيقاف المعركة. ولكن المعلّم الإلهيّ يرغمه على مواصلتها، فيطلق صيحاتِ يأسٍ.

الأخت مريم: "افعل ما حلا لك يا إبليس. إنّك تحطّمني، ولكنّك لا تقوى على أن تفعل إلاّ ما يأذن لك به المعلّم".

إبليس: "عمّا قريب سيحضر لوسيفورس، وسيحرق جسد العربيّة".

الأخت مريم: "أقدّم آلامي، من أجل أعداء يسوع، علّهم يحبّونه كما أحبّه

القدّيس يوحنا، تباركت يا إلهي!". (مخاطبةً إبليس): **"إنّني ملكٌ لمن خلقني، ولست أرهبك. أحبّ يسوع فوق كلّ شيءٍ؛ حتّى لو أنّك سحقت رأسي، فأيّ شأنٍ لذلك؟ هناك آخرون سيسحقون رأسك. يسوع هو الذي يأذن لك بتعذيبي، ولذا فأنا سعيدةٌ. أتريدني أن أتمرّد على الله؟ إنّ المعلّم هو سندي، وله سأقدّم المجد. أنت تقول إنّه تخلّى عنّي. وأنا أرضى بكلّ ما يشاء. أنا لا أريد سوى أن أتألّم وأُهان"**.

إبليس (مخاطبًا الأب مانوداس): أسمعت العربيّة الصغيرة؟

الأب مانوداس: أجل، لقد سمعت الأخت مريم يسوع المصلوب.

إبليس: لا تدعُها بهذا الاسم، بل ادعُها العربيّة الصغيرة. ليتها كانت مثلكم. ولكنّها تجهل القراءة والكتابة. وإنّني عبثًا أجهد في حملها على التأفّف والتشكّي.

الأخت مريم: "أتّحد مع يسوع، عندما مسحوا محيّاه الحبيب، وأقدّم آلامي عن خطايا العالم. تباركت يا إلهي!

"وأنت، يا إبليس، إنّك تدعوني تعيسةً؛ أجل أنا تعيسةٌ بسبب خطاياي، لا لأنّ يسوع سلّمك جسدي. فيسوع هو الخير عينه، ولا يفعل سوى الخير. وأنت الشرّ، ولا تفعل سوى الشرّ. ولئن كانت مشيئة المعلّم أن تجرّبني سنتين، بل عشرة آلاف سنةٍ، بل أكثر، فإنّي راضيةٌ. ليست لي في الانخطاف أيّة رغبةٍ. أتعلم ما هي رغبتي؟ أن أتألّم وأُمتَهَن".

إبليس (ساخطًا): أتعلمون لمَ تتكلّم العربيّة الصغيرة على هذا النحو؟ ولمَ هي قويّةٌ؟ لأنّها تسير في إثر المعلّم.

الأخت مريم: "مع يسوع أتّحد بجميع النفوس التي تتألّم على الأرض، وأقدّم كلّ شيءٍ من أجل الخطأة. تباركت يا إلهي!

"أتظنّ يا إبليس أنّني إن لم أرَ يسوع، خارت قواي؟ إنّ قوّة يسوع فيّ، ولو لم أرَه. أمّا أنت، يا إبليس، فإنّك ضعيفٌ. والويل لمن يتبعونك. إنّك تدّعي العظمة، فأظهر عظمتك. لقد جئت لتخدعني وتسبّب سقوطي. ولكنْ، بفضل الصلاة، وبفضل يسوع، لم تُفلح هجماتك إلاّ في ترقيتي صُعُدًا. أنا أعلم أنّني لست سوى وَهنٍ، ولكنّني أثق في الرحمة الإلهيّة".

إبليس (يائسًا): إنّني أفقد كلّ شيءٍ، سأمضي إلى المعلّم وأتوسّل إليه الكفّ عن

تجريبها.

الأخت مريم: تنهار وكأنّها جثةٌ هامدةٌ.

إبليس: يعود سريعًا ويقول: "قال لي المعلّم أن أمضي في تجريبها ما شئت".

الأخت مريم: **"يا إبليس، أتحرّضني على الكنيسة؟ إنّني أُحبُّ الكنيسة، إنّها أُمّي، وهي ستسحق رأسك. جميع هجماتك عليها ضروريّةٌ لإبراز خبثك وضعفك. تجاربك تنيرنا. أتقول إنّ الأب الأقدس سيموت شهيدًا؟ إنّه سيكون شهيد الحبّ، لأنّه سيظنّ أنّه لم يفعل شيئًا في سبيل يسوع. وستكون أنت تحته، وسيكون رأسك تحت قدميه. إنّ أمّي الكنيسة لن تنهار أبدًا. بل، أنت، يا إبليس ستنهار. لقد هبطت مرّةً من السماء، ومذ ذاك ما فتئت تهبط أبدًا. لو شاهدك البشر لما اتّبعوك قطّ.**

"**أتجهد في إزعاجي؟ إِنّني فرحةٌ**

"**أتحاول تثبيط عزيمتي؟ إِنّني أثق بالله.**

"**لست، بذاتي، سوى عَدَمٍ صغيرٍ. ولكنّني، بيسوع، سأعلو عليك. أترى كيف أسخر منك؟ إنّ يسوع سيكون نوري، إنّ يسوع يختار الضعفاء، ولأنّني ضعيفةٌ اختارني**".

إبليس: "إنّ كلّ ما تقوله العربيّة الصغيرة هُرَاء. أليست تؤكّد أنه لو رآني العالم لمَا اتّبعني أحد؟ والواقع أنّ الجميع يرونني ويسيرون في إِثري. أمّا المعلّم، فقد جاء ليضرب المثال، ويشقّ السبيل، والجميع قد رأوه، ولم يلحق به أحد".

الأخت مريم: بعد هذه الجولة الرابعة والعشرين، ترسم على ذاتها تكرارًا إشارة الصليب، وتقول: "**تباركت يا إلهي!**". ثم تخاطب المجرّب:

"**أتظنّ، يا إبليس، إنني أعبأ بجسدي؟ هاتِ كلّ نارك، واقذفها في قلبي، ومزّق هذا الجسد. إنّه ملك يسوع. إنّ كلّ ما تسومني من عذاب ليس بشيءٍ. فنحن لن نقيم على الأرض أبدًا. نحن اليوم عليها، وفي الغد نمضي عنها. إنّني أرغب في أن أبقى معلّقةً على الصليب، على غرار حبيبي. إنّ جميع آلامي، إذا ما قُورنت بآلام يسوع، ليست شيئًا. حطّم هذا الجسد: لست أنا من يردّ عليك، بل يسوع.**

"**مئة سنةٍ مع يسوع، من غير طعامٍ، تغذّيني أكثر من ألف سنة طعامٍ معك. أَجل، إِنّني، مع يسوع، أصيب من الغذاء، أكثر من كلّ ما تقدّمه أنت. إنّ كلّ ما**

أعانيه ليس شيئًا. يا إبليس، إنّني أتغلّب عليك بيسوع. أتظنّ أنّني، بسبب جسدي، سأتخلّى عن حبيبي؟ لقد هجرت جميع مُتعِ الأرض. لا تقولنّ إنّ عظمتك هي سبب محني. بل إنّ المعلّم، كي يوفّر لي السُّرور، قد أذن لك بتعذيبي. أنا لست سوى رَغامٍ. ولكن، إن كنتَ، أنتَ شيئًا، فتكلّم. أتودّ أن تعرف من الذي لقَّنني كلّ ما أقول؟ إنّه أنت بتجاربك. إنَّني مستعدّةٌ لقبول كلّ شيء حبًّا بيسوع. (وضحكت).

"يا إبليس، أنت قد سقطت، في حين كنت وسط النور. أمّا نحن فنسقط عن ضعف. مَن الذي يتبع النور؟ القلب المستقيم. لو أنّك كنت مستقيمًا لما كنت هويت. ألا تخجل من ادّعائك، تكرارًا، أنّك مستقيمٌ؟ إنّني أسخر منك. أنا لست أبكي، بل أضحك. إنّك تبتغي تلقيني البكاء، وأنا أريد أن أعلّمك الضحك.

"أذِنَ لك المعلّم بتحطيمي، فسأساعدك في هذه المهمّة وأبتهج. ها إنّني أعطيك ذراعيّ، فابترهما. إن شاء الله ذلك. وأهبك رأسي أيضًا. أنت تسعى في تضليل النفوس، ويسوع يسعى ليُقلّها من عِثارها. وفيما فمي يخاطبك، قلبي هو مع يسوع.

"كلّ شيءٍ ليسوع، ولا شيء لك، يا إبليس. حتّى الطعام والشراب، حبًّا بيسوع. يا إلهي، إنّني أحبّك، فزدني لك حبًّا. وأثق بك، فزدني بك ثقةً. إنّني أومن بك، فعزّز إيماني.

"ماذا تقول، يا إبليس؟ إنّك تتكلّم عن عظمتك؟ عظمتك هي الهاوية، عظمتك هي النار.

"المجد لمريم، المجد ليسوع، المجد للآب الذي أعطانا يسوع، المجد للعذراء التي سحقت رأس الأفعى".

إبليس: "قال لي أَخي إنّ قلب العربيّة الصغيرة يحمل دمغةً من حروفٍ تعني "يا يسوع المخلّص". أودّ تمزيق هذه الدمغة لأنّ من شأنها اجتياز العالم، وإصابتنا بأذًى جمٍّ. وستكون خسارتنا أكبر، بعد موتها... هذا القلب، قلب العربيّة الصغيرة، أودّ أن أراه. وها إنّي ماضٍ لرؤيته".

(إبليس يزأر كالوحش. فمجرّد رؤيته لقلب الأخت مريم يضنيه) "إنّني ماضٍ لجلب المزيد من العذاب".

الأخت مريم: تبدو جثّةً هامدةً. ولكن سرعان ما يعود إبليس ليُوغل في إسامتها العذاب

فتقول: "يا أبتِ، إنّني أتّحد مع يسوع، ومع جميع الخطأة المرتدّين. تباركت يا إلهي!

"أتدري، يا إبليس، ما هي وسائلنا لقهرك؟ وسيلتنا الأولى هي الماء المقدّس، إذا ما تناولناه بإيمان حملناك على الفرار. وسيلتنا الثانية هي التواضع، والثالثة هي الفقر... الخزي لإبليس.

"أتجرّب إيماني؟ إنّ الله فيّ، فلا أخشى شيئًا. أتدّعي أن لا وجود لله! إنّني أمضي إلى الحديقة، وأتأمّل الخليقة، وأرى الأشجار الصغيرة تكبر، فينمّي هذا المشهد إيماني.

"أتحرّضني على الكنيسة؟ أمضي أيضًا إلى الحديقة، وأَجد ثمرةً فأفتحها، وأرى في الثمرة بذرةً. وألج إلى كنيسةٍ، وأفتح بيت القربان، فأجد القربان المقدس.

"أتجرّبني ضدّ المحبّة؟ إنّني أتأمل البهائم، أرى الحملان والصيصان، أراهم معًا متّحدين فيما بينهم. أرى، على شجرةٍ واحدةٍ، فواكه كثيرةً. وفي رهبانيّتي، أرى نفسي مثل فاكهةٍ مع فواكه أُخرى كثيرةٍ، على غصنٍ واحدٍ، على شجرةٍ واحدةٍ. آه! كم أنا أحبّ المحبّة.

"أتجرّبني ضدّ المعرّف؟ إنّني عندما أعترف، لا أنظر إلى الإنسان، بل أعترف ليسوع؛ أتقول إنّ أخواتي أحسن منّي هندامًا ومظهرًا؟ أتبتغي استثارة غِيرتي؟ ما عليّ، لكي أتغلّب على تجربتك، سوى النظر إليك، أنت الذي هوى من السماء بسبب الغِيرة. وأقول: علامَ أغار، وأنا لست شيئًا؟ يا إلهي! أنا لا أستأهل ما أنا فيه. وسأنظر إلى أخواتي على أنّهن تلميذاتٌ للربّ أثيراتٌ، فلا أستغرب أن يُحطنَ بقدرٍ من الحبّ أكثر منّي. فأنا لست سوى خطيئةٍ".

إبليس: "إِنّني ماضٍ ، إنّني ماضٍ، لم أعد أطيق البقاء". (يطلق صيحاتٍ مروّعةً).

الأخت مريم: "يا إلهي، إنّني أقدّم جميع عذاباتي السابقة من أجل النفوس العمياء، علّها تبصر. أقدّمها بالاشتراك مع يسوع، ومع النفوس التي تألّمت في حبٍّ، ولو هي لم تعِ، لأنّها كانت غارقةً في ليل المحنة. تباركت يا إلهي!".

(واستمرت، إثر كلّ هجومٍ، تُخزي الشرّير بتسبيح الله، مكرّرةً أفعال الإيمان،

والرجاء والحبّ، وقائلةً):

"تباركت يا إلهي، تباركت. فليبارك اللهَ جميعُ قدّيسي الأرض والــسماء. لــتكن مشيئتك يا ربّ. يا إلهي، إنّني أضع فيك رجائي. أنت قوّتي. في معزلٍ عنك، لــستُ شيئًا. أنت كلّ رجائي.

"يا إلهي، أسألك النعمة الكبرى، المِنّة الكبرى، ألا وهي أن أُمتَهَن وأحتقَر. ما دمتُ لا شيء سوى الخطيئة، فإنّني أبدًا أتوسّل رحمتك. وسأشكرك كلما احتُقِرْتُ".

إبليس (للكاهنين اللذين كانا يساعدان الضحيّة): "لا تهدرا وقتكما جزافًا. كل هذا هُراء. كلّه طبيعيّ، لن يكون غدًا شيءٌ، ولن يحضر المعلّم. كل هذا ماديٌّ. وليس فيه من الله شيءٌ".

الأخت مريم: "إنّني عطشى، وبي ظمأٌ إلى يسوع وحده. طوبى للنفوس التــي تتألم في السرّ، ولا يعلم سوى الله بأمرها. كم أحبّ نفسًا تتــألّم فــي صبرٍ، فــي الخفاء، مع الله وحده! وأشكر لله قبوله إيّاي هنا. لطالما خطئت، ولكن بفضل دعاء الأخوات، أرجو أن تأخذه بي رحمةٌ، فيغفر خياناتي. أشكرك يا إلهي!

"وأيّتها السيّدة العذراء، كم أنت طاهرةٌ! اجعلي أبناءك مثلك طاهرين، لكــي لا يقعوا في شِراك إبليس. يا قدّيسي السماء والأرض، اشفعوا بمن لا يعرفون خُبْــث إبليس. يا إلهي، وحّدني بك... أنا لست أرهبك، يا إبليس. لو علمتُ أنّ من شــأن عيني أن تسيء إلى يسوع لاقتلعتها. ولو كانت يداي أو رجلاي هي التــي تــسيء لبترتها. إنّي في ظمأٍ إلى يسوع...".

إبليس (للراهبات اللواتي كنّ يدوّنّ جميع الأقوال): "أيّتها التعيسات، أتــدوّنّ؟ إن كلّ ذلك سيّئٌ مثلكنّ. كلّ ذلك لا يصلح إلا للمزبلة، كلّه كذبٌ، كلّه ماديٌّ".

الأخت مريم: "أيّتها العذراء القدّيسة، يا أمّي الطيّبة، إنّني أتّحد بك، أنت التــي جئت على الأرض كي تضربي القدوة الحسنى. إنّني أتّحد بصبرك، وتــسليمك فــي الألم، لمّا كان ابنك منبوذًا، لا عزاء له. تباركت يا إلهي!

"وأنت، يا إبليس، أتدّعي أنّ الجميع تحدوهم الكبرياء على غرارك؟ كلاّ، كــلاّ، فعلى الأرض الكثيرون من القدّيسين المستترين. أيّها التعيس، لا يراك النــاس، إلاّ

ساعة الموت، ولو هم رأوا يومًا وجهك، لَفرّوا منك هاربين. كم أَنت بشعٌ. ليس على الأرض ما يُضاهيك بشاعةً. ليتني كنت أجيد الرسم. أيّها الروح القدس، ألهمني دائمًا، وأَظهر لجميع البشر، خبث إبليس.

"أتدّعي أنّك تقود النفوس إلى الهلاك؟ لو أَنّ النفوس عرفتك، لتحرّزت من مُسايرتك، ولفرّت منك البهائمُ ذاتُها. إنّك لو لمست الأشجار، لأصبحتْ سوداء قاتمةً. ولو لمست الأرض لجفّت. في حين أن كلّ ما يلمسه يسوع، وكل ما يقع عليه بصرهُ، يزهر.

"أتدّعي أنّك الله؟ إن كنته حقًّا، فاخلق شجرةً، واجعلها تنبت من الأرض، لنرى. الويل لمن يتبعونك. من ذا الذي أذن لك، يا إبليس، أن تلبس زيّ الراهبات لتجرّبني؟".

وفي أعقاب الجولة الحادية والخمسين قالت:

"يا إلهي! وحّدني معك بحبّ القريب، كي أحبّه أكثر من ذاتي.

أما لإبليس فقالت:

"لو قلتَ لي إنّ العالم كلّه يكرّمني ويحبّني، لآلمني ذلك. ولكنّك إن قلتَ إنّ الجميع يزدرونني، لسُررتُ. ففي ازدراء العالم لي، سعادتي... إنّني أرغب في الألم حبًّا بيسوع، لا لكي يذيع لي صيتٌ. أودّ لو أنّ جميع الخلائق تسيء الظنّ بي مثلك. يا إلهي! أنا لا أبتغي سوى محبّة يسوع، وخدمته في بساطةٍ، لا أريد أن يعرفني العالم، وليست لي في شيءٍ رغبةٌ. شكرًا لك، يا إلهي، إذ قد جعلتني فقيرةً. أنا لا أروم سوى حبّك.

"أتقول، يا إبليس، إنّك أنت من يوحي بالنفور من السلطات؟ يسرُّني أن أعرف ذلك، كي أردّده على المسامع.

"إنّ الاسم الذي ما زلت أدعوك به، يا إبليس، لا يليق بك. سأدعوك زِبْلاً... الخزي لإبليس، والحبّ ليسوع. أقدّم ذاتي من أجل الخطأة".

إبليس: "ماذا تقول هذه العربيّة؟ أهل هذا ممكنٌ؟ لا، لا، بل المجد لي.

(مخاطبًا الراهبات): "أيّتها الشقيّات، ألم تسأمنَ؟ أنا قد سئمت، منذ وقتٍ طويلٍ. ولم أعد أطيق المكوث. سأتقيأكنّ. لا، لن أدخل، بعدُ، مثل هذا المكان".

الأخت مريم: "إنّني أتّحد بجميع النفوس التي تحتضر، كي يخلّصها يسوع من

مكر إبليس. تباركت، يا إلهي!

"وأنت، يا إبليس، أتأخذ عليّ أنّني طلبت ماءً للشرب؟ لست أنا من طلب الماء. فليس بي ظمأٌ سوى إلى يسوع. إنّني لا أرتوي بالماء. إذ إنّ من ينهل منه يعطش من جديدٍ. إنّني أرتوي بكلام الله الذي لن يزول لا على الأرض، ولا في السماء.

"عندما يحلّ روح الله في نفسٍ، يأتيها بالسكينة والسلم والفرح. أما أنت يا إبليس، فتجلب لها السأم والمشقّة والاضطراب.

"الازدراء لإبليس، والمجد لله".

إبليس (لزُمرته): "لقد انتصف الليل، تعالوا، تعالوا جميعًا لنحطّم العربيّة". (ملتفتًا إلى الراهبات الحاضرات، واللواتي يثيره وجودهنّ): "ألا ترغب أيّةٌ منكنّ في النوم؟ (ثمّ، مشيرًا إلى إحداهن، ساخرًا): "أُنظرن إلى هذه، إنّها، كلّ مساءٍ، تنام باكرًا، أمّا في هذه الليلة فعيناها كعَيني الهررة". (تثير عبارته هذه موجةً من الضحك بين الراهبات، فيستشيط غيظًا).

الأخت مريم: "إنّني أتّحد بيسوع، عندما سيدين النفوس، وأقدّم ذاتي عن الخطأة، كي يظفروا بالنور الذي يدفعهم إلى اتّباع يسوع، والتنكّب عن دروب إبليس. تباركت، يا إلهي!

"المجد ليسوع، ولمريم، وليوسف، المجد لجميع القدّيسين".

ثم أردفت، بعد لحظةٍ، بصوتٍ يحاكي صوت الأطفال رقّةً، وقد ضمّت الإبهام والسبابة، ورنت من فرجةٍ بينهما:

"إنّني أستشفّ نورًا ضئيلاً، وأرى بابًا صغيرًا يقود إلى يسوع. وأحسّ أنّ المياه القاتمة ستنحسر. إنّني مسرورةٌ. يا إبليس، إنّ يسوع هو الذي أذِنَ لك بتعذيبي، على غير جدارةٍ منّي؛ وبعد الباب الصغير، أرى طريقًا ضيّقًا مستقيمًا سهلاً يؤدّي إلى يسوع. وأرى يسوع ومريم. يا لتعاستك يا إبليس. لم أكن أرى الضوء من قبل. ولكن بفضل هذا النور، أرى، يا إبليس، سوادك. إنّني أرقب يسوع يمدّ ذراعيه. إنّه ينتظرني لكي يطهّرني، وينعشني".

وافترّت شفتاها عن ابتسامةٍ عذبةٍ، وهي تضيف:

"المجد والحبّ ليسوع، والخزي لإبليس!"

إبلـــيس: يحاول الخروج من جسد ضحيّته، وإنهاء صراعه معها. ولكنّه يتميّـــز حنقًا ويرتعد هياجًا، إذ تسخر الراهبات من اعترافه بضعفه وعجزه، ويلعـــن اليـــوم الذي أعلن فيه الحرب على الأخت مريم.

الأخت مريم (بعد الجولة التاسعة والخمسين): "**بالاشتراك مع فرحة مريم عندما بشّرها الملاك بمجيء يسوع، أقدّم من أجل جمعيّتنا كلّ ما مضى، وكل ما سيشاؤه يسوع أيضاً**".

(وفي نَبرةٍ جَذلى تشبه النشيد): "**أجل، إنني أؤكد اتّحادي مـــع فـــرح العـــذراء القدّوسة، لأنّني شرعت أرى بشائر النهار، ولذا أبدأ بتقديم فرحي للربّ**".

(مخاطبةً إبليس): "**أقول لك، يا إبليس، إنّني لا أشعر أنّ لي بجسدي ارتباطًـــا. بل أشعر أنّني مع يسوع. عندما يشاء الله أمرًا، لا حَوْلَ لك في تغييره. بل عليـــك الخضوع ليسوع وأنت ترتعد. أيّتها العذراء مريم، اِظفري لي بالتواضـــع والفـــرح والاتّحاد مع الله. وإنّني أسألك هذه النعم عينها لجمعيّتنا المقدّسة.**

"**يا إبليس لقد حاولت اقتناصي، فوقعت أنت في الشرك**".

إبليس: "اُنظروا إلى العربيّة، إنّ جسمها بأجمعه محطّمٌ، ومع ذلك لا تقرّ بأنّهـــا عليلةٌ. إنّ هذه الشقيّة تتمنّى لي الخِزي. اِنتظري، إذن...". (ويُقبل على تعذيبها فـــي مزيدٍ من الضراوة).

الأخت مريم: "**أتّحد...** (يجهد إبليس في منعها عن المضيّ في القـــول، ولكنّهـــا تستأنف بصوتٍ أشدّ): "**لا تمنعني من الكلام... إنّني سأصيح بملء صوتي: الحـــبّ ليسوع، والمجد لمريم، والعار والخزي لإبليس! أجل، في الحياة والمـــوت، الحـــبّ ليسوع**".

(مخاطبةً المجرّب): "**ماذا تقول، يا إبليس؟ أنا، بذاتي، لست سوى وَهَـــنٍ. الله هو الذي يصنع من أجلي كلّ شيءٍ. أجل سيأتي يسوع ليسحق رأسك. إنّني أشـــعر بالفرح والسلام. أنا لست على الأرض كي أرضي أذواقي، بل لكـــي أنـــشد العلقـــم والازدراء، بنعمة الله.**

"**أيّتها العذراء، أعتقي النفوس التي تتبع إبليس**". وقد كرّرت هذا الدعاء ثلاثًا، ثم

أضافت بجرسٍ خافتٍ: "**إنّني أستشفّ بعض النهار، وأرى بعض الباب، وأرى يسوع قادمًا. إنّ النهار يدنو برفقٍ وصمتٍ. إنّه لا يفعل مثلك، يا إبليس، فأنت تأتي بضجيجٍ، المجد ليسوع، المجد لمريم، الخزي والعار لإبليس. هذه العبارات، يا إبليس تمحقك. إذن فسأقولها أبدًا، وسأتلوها في قلبي، إن لم تستطع شفتاي التلفّظ بها.**

"إنّني أتّحد بيسوع ومريم ويوسف، عندما فتحوا باب منزلهم الصغير في مصر، كي يكون في قلب الخطأة حيّزٌ صغيرٌ لحبّ يسوع، وليكون لهم في قلب يسوع مكانٌ. أتمنّى أن يكون في قلبي بيتٌ صغيرٌ نظيفٌ للترحيب بيسوع. بيتٌ خالٍ من الخطيئة، يجد يسوع فيه سروره. إن أنا عرفت كيف أستقبل يسوع، فقد ظفرتُ بكلّ شيءٍ. ما أعذب الألم مع يسوع. إنّ كلّ ما يأتي من يسوع، عذبٌ. وكلّ ما يأتي منك، يا إبليس، سيّئٌ. كلّما احتدّ الصراع، ازدادت رؤيتي وضوحًا. الحبّ ليسوع ومريم".

إبليس (بعد الجولة السادسة والسبعين): "يا لهذه العربيّة الشقيّة! لن يتهيأ لنا أبدًا تغيير سِحنتها. لوسيفورس نفسه لن يقوى على ذلك. لأنّها كانت شهيدةً. وظلَّت طاهرةً أبدًا، وأبدًا عذراء".

الأخت مريم: "تبارك الله. إنّ إبليس يضطرم حقدًا على أتباع يسوع. وسأتبع يسوع حتّى الموت، على الأرض، وفي السماء، وحتّى في جهنّم. إن شاء الله فسأمضي مع يسوع إلى جهنّم...".

إبليس (بعد الجولة الحادية والتسعين): "أعترف، أنا وإخواني، أنّنا نمقت المحبّة والتواضع والطاعة".

الأخت مريم (بعد الجولة الثالثة والتسعين): "**المجد ليسوع ومريم. لقد بدأت أبصر النهار. إنّ الباب يُشرع. ها إنّي قد أخذت أرى السيّدة العذراء.**

"يا إلهي! إنّني أحبّك بكلّ قلبي، فوق كلّ شيءٍ".

إبليس (المعركة تدنو من نهايتها. بعد الجولة التاسعة والتسعين): "اِنتظروا، انتظروا، ربمّا استطاع مجيء لوسيفورس أن ينتزع منها صيحة تأفّفٍ... إنّ زعيمنا لا يغادر جهنّم أبدًا، ولكنّه، بمروره في جسد العربيّة سيُحرقها، بحيث لن تستطيعوا مسّها بطرف إصبعٍ، إلى أن يمرّ المعلّم بهذا الجسد ليشفيه".

(في الساعة الحادية عشرة وخمسٍ وأربعين دقيقةً): "تراجعوا، لوسيفورس قادمٌ، إن أنتم بقيتم على مقربةٍ من العربيّة لاحترقتم جميعًا".

الجميع يتراجعون. بعد لحظاتٍ يصطبغ وجه الأخت مريم، ويداها، وحتّى بياض عينيها بلون النار القاني، ثم يتحوّل إلى الأسود القاتم. قدماها العاريتـان تتـشنّجان، وجلدها يصبح خشنًا داكنًا كالرقّ. ويتصاعد الدخان من كلّ جسمها، وتنتشر رائحـة كبريتٍ شديدةٌ. الضحيّة تتنفّس بمشقّةٍ؛ وسرعان ما تتعالى صيحاتٌ أشدّ حـدّةً مـن صفير القطار، يبلغ عددها تسع عشرة صيحةً، تؤذن بانتهاء الصراع.

وتغيب الضحيّة البطلة في رؤيا سماويّة تغمرها فرحًا، وفـي آنٍ معًـا، يتـدفّق عليها الشعور بالألم، فتصبح عاجزةً عن النُّطْق والحركة، وبين الفينة والفَينـة تفـتح شفتيها بعناءٍ، وكأنّها تحتضر.

ويدقّ ناقوس التبشير معلنًا الساعة الثانية عشرة ظهرًا. في مثـل تلـك الـساعة، لأربعين يومًا خلت، كان الشيطان قد داهم الأخت مريم يسوع المصلوب؛ وها إنّه ينكفئ خاسئًا بكلّ جحافله، جارًّا أذيال الخِزي والهزيمة، أمام "عربيّةٍ صغيرةٍ" متّحدةٍ بالله.

لقد استنفدت الجحيم كلّ ذرائعها الشيطانيّة، كي تنتزع من فتـاةٍ هـشّةٍ صـيحة تأفّفٍ، فجاءها الردّ لازمةَ نشيدٍ عنيدةً عذبةً، لا تني تبارك الربّ، وتبارك الألم الذي يقرّب الإنسان من فاديه ويوحّده به، وتُقدّم هذا الألم تـضحيةً عـن نفـوس الأرض والسماء، والكنيسة التي ستتحطّم أبدًا، عند عتبتها، قوى الجحيم.

التحرّر: أربعة أيّامٍ في حَوزة الملاك

وتحوّل المشهد تحوّلاً خاطفًا جذريًّا. وتصف إحدى الراهبـات، تلـك اللحظـة الأخّاذة، التي كانت عليها شاهدةً، فتقول:

"كانت الأخت مريم ما برحت مُستلقيةً على فراشها شِـبه محتـضرةٍ، وفجـأةً نهضت بجسمها، ورفعت رأسها، وافترّ ثغرها، وكأنّها كانت تستنشق هواءً، ودنونـا جميعنا منها، وإذ بها، ومن غير أن تستعين بيديها، أو أن تتكئ على أيّ شيءٍ، وفي رشاقةٍ عجيبةٍ، تنهض فوق السرير، وكأنّها لا تلامسه إلاّ بأطراف قدميها. لم تنتصب تمامًا، بل كانت ركبتاها مثنيّتين، ومرتفعتين نحو عشرين سنتمترًا فوق السرير، فـي

مثل الوضع الذي يُصوَّر فيه المسيح، على جبل الزيتون، عندما شرع يصعد إلى السماء.

"في تلك اللحظة، أشرق محيّاها، وبدا شفّافًا، وتوهَّجت عيناها كماستين، وارتسمت على شفتيها بسمةٌ تندّ عن الوصف، وكأنّها تقول لنا: "سأعوّضكم عمّا فات". كلّ شيءٍ في محيّاها كان يعكس جمالاً إلهيًّا لا يمتّ إلى الأرض بصلةٍ".

وسرت في المكان موجة فرحٍ وسلامٍ، فجثا جميع الحاضرين، هاتفين "يسوع" إذ إنّ حضور المخلّص الذي حلّ بجسد أمته شافيًا ومطهّرًا من آثار الشرّير، قد غمر المكان، وأشاع فيه عذوبةً ساحرةً.

وذلك الجسد، الذي احتلّه الأبالسة أربعين يومًا، وعبره تقيّأوا مكرهم وبذاءاتهم، أَصبح، سحابة أربعة أيّامٍ، مقرًّا لملاكٍ سماويٍّ، ومصدرًا للإرشاد والعزاء، ونبراسًا للقداسة والكمال.

وخلال لحظاتٍ خاطفةٍ، قُبيْل إبحارها في عالم الروح، من جديدٍ، قبّلت الأخت مريم في امتنان يدي الأب مانوداس، وقبّلت في تأثّرٍ بالغٍ أخواتها الراهبات شاكرةً لهنّ وقوفهنّ إلى جانبها. وحريٌّ بنا أَن نتأمّل لوحةً رسمتها لنا إحدى شاهدات العيان:

"كنّا نُحيق بها، وقد رغبت في تقبيلنا جميعا. لم تكن تملك لَجْمَ التوثّبات التي تفيض بها نفسها. وكانت رجفةٌ عنيفةٌ ما انفكّت تنتابها، بحيث كنّا نسمع اصطكاك عظامها... وكانت نشوةٌ تندّ عن الوصف تخترقها حتّى أعماق كيانها، فتردّد باطرادٍ: "**يسوع هو مصدر انتعاشي. لست أدري ما بي، ولكنّني أونس فرحًا ينفذ إلى نخاع عظامي**".

وسألها الأب رئيس الجمعية أين كانت، ومن أين هي قادمةٌ، فأجابت في تواضعٍ مذهل: "**يا أبتِ، بسبب خطاياي، كنت في بحرٍ مظلمٍ. أما الآن فالفرح يغمر نفسي، بل إنّه يتغلغل حتّى عظامي**".

واستحوذ عليها الانخطاف من جديد، وشرعت تكلّم السيّدة العذراء، والقدّيسة تريز، وشتّى القدّيسين. ولدى رؤيتها كلاًّ منهم، كانت ترتعش فرحًا، ولكنّها لا تني تردّد قولها للعذراء: "كم أنت جميلةٌ يا أمّي! أيّتها العذراء القدّيسة لا تسمحي أن يسود إبليس، بل اسحقي رأسه".

وراحت تنقل إلى الحاضرين وصايا السماء وإرشادها، ومعظمها يدور حول الثقة المطلقة بالله، والتواضع، والطاعة، والتجرّد، ومحبّة القريب أكثر من محبّة الذات؛ وأبلغت الراهبات إيعازًا من السيّدة العذراء بالانصراف إلى واجباتهنّ، خلا الأمّ الرئيسة، أو مرشدة المبتدئات، وواحدةً من الراهبات؛ فغادرنَ على مضضٍ، ولكن أُتيح لهنّ العودة أثناء الفُسَح، لسماع أَقوالها؛ وأَذِنت الأمّ الرئيسة لكلٍّ من الأخوات بالمكوث مع الأخت مريم ربع ساعةٍ، على انفرادٍ. وفي غضون تلك الفترة القصيرة، كانت أمة الله تقرأ، في مثل كتابٍ مفتوحٍ، خفايا كلّ نفسٍ، وتسكب عليها بلسمًا من العزاء والنّصح قد ينسحب أثره على عمرٍ بأكمله.

ومن الأقوال التي نقلتها أثناء انخطافها:

"إنّ إبليس حاقدٌ، ويسعى، بكلّ الوسائل إلى تبديد الإِيمان وهلاك النفوس، ولكن لا تخشوا: بل حتّى عندما تفقدون الشعور بالإيمان، أَقيموا على التواضع والرجاء؛ عندما نفتقر إلى الشعور بالإِيمان، ومع ذلك نمضي قدمًا رغم تأوّهاتنا ودموعنا، فإننا نعاني استشهادًا جزيل الثواب، على أن نظلّ، أبدًا، شاخصين صوب يسوع.

"إنَّ الله لا يأذن بالتجربة إلاّ ليُكسبنا نموًّا وشأنًا. فلنَزْدَد نحو الله سعيًا، بقدر ما نزداد امتحانًا. إنّ التجربة هي الماء الذي يغسلنا. والتجربة الأشدّ هي الماء الساخن الذي ينظّفنا على خير وجهٍ.

"الطاعة هي سكّة الحديد التي تقود نحو الله.

"عندما تتأهّبون للمناولة، اعتبروا جيّدًا من الذي سيحلّ فيكم. إنّه يسوع الطيّب، العذب، الوديع، وفي آن معًا، العظيم، القدير، السنيّ. وهو يأتي إليكم، مع أنّكم ترابٌ وعدمٌ. يأتي ليهبكم ذاته، ليتّحد بكم. عندما تضمّونه في صدركم، اُذكروا أنّكم تحاكون السيّدة العذراء التي حملته في أحشائها، وسحابة النهار، فلتظلّ أنظاركم شاخصةً نحو يسوع هذا الذي استقبلتموه في الصباح.

"أيّها الحملان الصغار، من يجعل نفسه صغيرًا، صغيرًا، ينال رضى يسوع، ويعثر عليه.

"أيّها الحملان الصغار، فليكن التواضع نوركم، والطاعة سبيلكم، والمحبّة غذاءكم.

"لا يكن لكم أرَبٌ سوى حبّ الحبيب الإلهيّ، وخدمته، والموت في سبيله، وهكذا يتهيّأ لكم العيش في تجرّدٍ عن كلّ أمور الأرض... إنّ الأمّ تيريزا تقول إنّها أسّسَت رهبانيّةً لا تستهدف التمتّع، بل المعاناة، وهي تريد أن يكون الحملان متجرّدين تجرّد الحجارة.

"أيّها الحملان الصغار، احترزوا: حافظوا على البساطة والتواضع. إنّني أقول لكم إنّ إبليس ناقمٌ، ويجهد أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وهو يصبّ جهوده، بخاصّةٍ، على النفوس الرهبانيّة. الآن، باتت الكبرياء بارعةً، وهي تتغلغل في كلّ مكانٍ، حتّى في الدّين".

أمّا في ما يتعلّق بالأخت مريم نفسها، فكان الروح المتكلّم من خلالها، يدعو تكرارًا إلى أن تُكتَم عنها الخوارق التي تميّزت بها، وألاّ تغدو هذه الخوارق دافعًا لإحاطتها بأيّ تكريمٍ أو تمييزٍ أو إيثارٍ. وأكّد أنّها بعد أن تستيقظ لن تذكر شيئًا ممّا جرى لها خلال الأربعين يومًا، أو الأيّام الأربعة التالية. وحذّر من طَرح أيّ سؤالٍ عليها، بهذا الشأن. لا بل إنّه، عندما أوشك على الرحيل عنها، أوعز بأن يلصق سريرها بالحائط، وألاّ يبقى معها سوى مرشدة المبتدئات والأخت الممرّضة، بحيث يخيّل إليها، أنّها كانت مريضةً طوال فترة امتحانها وانخطافها.

وخليقٌ بالإشارة أنّ الروح كان يستخدم، في الإلماح إلى مريم، الاسم الذي اختارته هي نفسها، والذي جعلها عند الله أثيرةً معظّمةً، ألا وهو اسم "اللاشيء الصغير". وكان يقول: "اِزدروا دائمًا اللاشيء الصغير، وأفهموه أبدًا أنه عدمٌ. ولا تدعوه يُحيط بشيءٍ ممّا جرى".

ويوم السابع من أيلول، ذكرى استشهادها، سألها أَحد الكهنة: "هل حدث لكِ حادثٌ في مثل هذا اليوم" فأجاب الروح بفمها: "لم يحدث لي شيءٌ، أمّا اللاشيء الصغير، فقد جُزّت عنقه".

وقد تنبّأ الروح أنّ الأخت مريم، التي كان قد قيل لها، من قبل، أنّها ستموت ثلاث سنواتٍ بعد إبراز نذورها الرهبانية، سيمدّ الله في أجلها، كي تمنّي إبليس بهزائم أشدّ إنكارًا. إلاّ أنّه تنبّأ، أيضًا، بمزيدٍ من المحن ستنصبّ عليها، وأضاف: "عندما سينتهي انخطافها، بعد فترةٍ من الفرح خاطفةٍ، سينشب بها الحزن، وسيُحاصر

الشيطان خيالها طوال ثلاث سنواتٍ، فتعاني من الآلام ما لا يُحيط به فكرٌ. وإنّ ما ستقاسيه من شأنه أن يدفع أيّ شخصٍ آخر إلى الجنون، ولن يضنّ إبليس بجهدٍ كي يحملها على القنوط، فلن ترى في ذاتها سوى الخطايا، وسيُخيّل إليها أنها تتحمّل تبعة جرائم العالم. وسيجهد الشيطان في حثّها على هجر الدير، موحيًا إليها أنّها غير أَهل للبقاء معكنّ. وفي محنها هذه، كنّ لها سندًا، على أن لا تُخرجنها عن تواضعها، بل ساعِدْنها على الإيغال المطّرد، وإلى أسحق مدًى، في عَدَمها. إنّها ستقترف بعض الهفوات، ويأذن الله بذلك، في فترات امتحانها، لكي لا يدع لإِبليس فرصةً للنيل منها عن طريق الكبرياء. وفي ما بعد، ستقوم بفعالٍ عظيمةٍ. وستكون في انخطافٍ شِبْه دائمٍ، لا بل إنّها سترتفع في الهواء. ولكنّها عندما تؤوب إلى وعيها، لن تذكر سوى نقائصها، لتظلّ ملتصقةً بالتواضع. ستنعم أَثناء انخطافها، ولكنّها، في يقظتها، ستتألّم لرؤية خطايا العالم، وهلاك النفوس. إنّ اللاشيء الصغير ضحيّةٌ، وبصفتها ضحيّةً، عليها أَن تتألّم".

وأضاف: "لقد شهدتنّ ما لم تشهده أمُكنّ تيريزا".

ولا عجب في ذلك، فتلك الفتاة الجاهلة، قد امتلكت بساطة الروح التي تؤهّل لرؤية الله وجهًا لوجه.

يقول غاندي، الذي قضى حياته كلّها في بحثٍ دائبٍ، مخلصٍ، بطوليٍّ عن الله: "عندما ندّعي أنّنا شيءٌ، فإنّنا نقيم بين الله وبيننا حاجزًا. وعندما نكفّ عن اعتبارنا شيئًا، نصبح معه واحدًا".

والأخت مريم، بفطرتها المستمدّة من السماء، وبفضل معايشتها الدائمة لله، قد أدركت أنّها لا شيء. وعاشت كلّ لحظةٍ من حياتها بمقتضى هذه القناعة، فأخذ الله، بين يديه، هذا اللاشيء في حبٍّ، وأفاض عليه من غناه بسخاءٍ، وأراه ذاته.

وتشهد إحدى الراهبات التي عايشت الأخت مريم، في تلك الحقبة:

"كنّا سعيدات جدًّا بالقرب منها، وكان يداخلنا شعورٌ يندّ عن الوصف، لم نألف له مثيلاً أَثناء اَلنِّعَم السابقة، التي كنّا لها شهودًا. هي نفسها كانت تبدو لنا غير ما كانت عليه من قبل، وكأنّها ليست من ساكني الأرض".

أَمّا الأب مانوداس، فقد كتب، في الخامس عشر من أيلول ١٨٦٨، إِلى رئيسة كرمل پو، وهو ما يزال تحت تأثير اللحظات المجيدة الساحرة، التي شهد فيها، لأحد عشر يومًا خلت، انعتاق الأخت مريم من ربقة الشرير، وتدفّق الطوفان السماويّ عليها:

"لستُ أدري لِمَ ذهني وقلبي عالقان أبدًا وسْط ذلك المستوصف، حيث رأيت وسمعت الكثير، وحيث خالجتني طائفةٌ حاشدةٌ من الانطباعات التي جمعت الرقّة والعذوبة إلى الشدّة والقدرة الخلاصيّة، ولا سيّما يوم الجمعة في الرابع من أيلول، وهو يومٌ ستظلّ ذكراه خالدةً. يا لها من نِعَمٍ، ويا لها من امتيازاتٍ!

"يوم الأحد، كنت أبكي وأنا أروي ذلك لسيادة الأسقف، وكان هو أيضًا يبكي، مؤكّدًا لي أنّ نفس الشعور الذي حدّثته عنه قد استحوذ عليه".

ثمّ، وفي الرابع عشر من تشرين الثاني زار أسقف "بايون"، كرمل "پو"، حيث اطّلع، عن كثبٍ، على المِحن التي مرّت بها العربيّة الصغيرة، وأصغى، في كثيرٍ من الاهتمام والإعجاب، إلى الأقوال التي أفضت بها آنذاك. وقابل الأخت مريم على انفراد، فذهل أمام تلك البراءة الوضيعة التي باتت إِناءً مختارًا لخوارق الله.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

تلمّسٌ في الظَّلام

(أيلول ١٨٦٨ حتّى نهاية عام ١٨٦٨)

وميض نورٍ في حلَك الليل

بعد أَن بلسم ملاك الربّ، سحابة أَربعة أَيّامٍ، نفسًا أنهكها صراعٌ متمادٍ مع جحافل الجحيم، تركها تتلمّس درب جُلجلتها الصاعد شطر المخلّص، عَبر ليلٍ داجٍ من التعثّر المضني، والصدام بأعتى المحن النفسيّة التي ما انفكّ إبليس يجهد يائسًا في إِيقاعها بحبائلها.

ولا غَرْوَ في ذلك، فاللّه لا يوفّر للنفوس التي يحبّها فردوسًا غراميًّا مسحورًا، بل يقتضي منها السعي إِليه عَبْرَ دربٍ وَعْرٍ تَكتنفه الظلمات.

ولكنّه لم يضنّ على مختارته، بين محنةٍ ومحنةٍ، بومَضاتٍ من نوره المنعش، الذي كان يعزّز فيها الرجاء، ويخلب ألباب المُحيقين بها، وما زال وهجه يأسر منّا القلوب والعقول، عندما يطالنا منه شعاع.

فبعد أن غادرها الملاك، في الرابع من أيلول، أفاقت الأخت مريم وهتفت: "**إنّني قادمة من فرحٍ جمّ، أين كنت؟**". ولكن سرعان ما أعقب هذا الفرح الخاطف موجةٌ عارمةٌ من الحزن غشت نفسها، وواكبتها آلامٌ جسديّة مبرّحة، كانت قد خلّفتها هجمات الأبالسة؛ وكان أُوار الظمإ يلهب أَحشاءها، إلاّ أنها كانت لا تلبث أَن تتقيّأ حتّى قطرات الماء التي كانت ترشفها، ممّا يزيدها إِعياءً، فالتمست من الأمّ الرئيسة مباركة شرابها، وفي الحال انقطع التقيّؤ، فهتفت: "**أيّها الإِيمان، ما أعظمك!**".

وممّا ضاعف اضطرابها، إِحساسُها بأنّ الآلام والعطش قد صرفتها عن التفكير بالله، فطلبت الاعتراف، مرّاتٍ عديدةً، في الليل والنهار، وأسرّت إلى مرشدة الابتداء في مرارةٍ: "**أُنظري ما أجسم شقائي، فطوال الليل، لم يكن يراودني سوى الاستيلاء على ثلاث جرار ماءٍ، كي أروي غليل ظمإي، وهكذا حوّلني اهتمامي الدائم بجسدي عن التفكير بيسوع. يا إلهي لن أستطيع القول إنّني أحبّك، إلاّ عندما أرى جسدي وقد تحوّل رمادًا**".

وأَخذت تتحقّق نبوءة الملاك، إذ ران على الأخت مريم شعورٌ مرهِقٌ بأنّها قد اقترفت من المعاصي ما لا يُحصى، وأَنّ وِزْر خطايا العالم كلّها يُرهق كاهلها.

وقد وافاها رسولٌ إلهيٌّ معزّيًا، مؤازرًا، دافقًا في قلبها الرجاء، وقد تراءى لها في زيّ الأمّ إيلي، مرشدة المبتدئات، التي بدت أوفر عذوبةً وعطفًا من أيّ وقتٍ، وكان كلامها يقطر حبًّا بيسوع. ولمّا ألمحت، في ما بعد، الأخت مريم إلى تلك الزيارة، سرعان ما تغلّبت الأمّ إيلي على الدّهشة التي داهمتها للوهلة الأولى، إذ لم يكن لها بتلك الزيارة علمٌ ولا علاقةٌ، وطلبت إليها ترديد ما دار بينهما من حديثٍ، فقالت المبتدئة:

"لقد طلبتِ منّي أن أتناول ثلاث بيضاتٍ مسلوقاتٍ مع الملح وبدون خبزٍ، ولم أمتثل في الحال، لنفوري من البيض المسلوق، ولكن ما أَوفر ما تؤتيه الطاعة من نِعَمٍ. فقد بدت لي تلك البيضات شهيّةً...

"وقلتِ لي: إن طال مرضك خمسة عشر يومًا أُخرى، فكوني مسرورةً، وارضي بكلّ شيءٍ، وتقبّلي بطيب خاطرٍ، ما يرسله لك الله من محنٍ. ستراودك التجارب، ولكن ثقي بالله، ولا تخشي شيئًا. إنّ يسوع يحبّك فتشجّعي. وقد قبّلتِني على الجانب الأيمن، والدموع تنهمر من مآقيك. وكم كانت كلماتكِ تخلّف في القلب سلامًا وفرحًا، وحبًّا بيسوع! وكم كنتِ عطوفةً، كم كان حبّي لك جمًّا! إنّكِ لستِ الآن كما كنتِ آنذاك".

وكيف لها أَن تكون كذلك، والزائرة كانت سماويّة استعارت زيّها؟!

أمّا للكاهن الذي جاء ليسمع اعترافها فقالت: "يا أبتِ، ها قد انقضت سنةٌ لم أرَك خلالها. وكم قد اقترفت في تلك الأثناء من ذنوبٍ!" ولكنّها كانت عاجزةً عن تلاوة فعل الندامة، أو أيّة صلاةٍ أُخرى، فالتمست المساعدة، وجعلت تردّد، كالأطفال، ما كان يُتلى على مسامعها.

وكان مجرّد منظر الطعام يُثير اشمئزازها، فيملأها هذا الشعور خجلاً وندمًا. ولحظت مرشدتها ذلك، فأوعزت بأن يقدّم لها بعض خبزٍ مبلّلٍ بالماء والخمر، فتقبّلته الأخت مريم في امتنانٍ شديدٍ، مؤكّدةً أنّ ذاك ما كانت تشعر أنّها قادرةٌ على تناوله، ولكنّها لم تشأ أن تطلبه، لثقتها بأنّ الله، إن كان له في ذلك مشيئةٌ، سيلهم السلطة بتوفيره لها.

وعاد إبليس يراودها متلبّسًا شتّى المظاهر، ومتذرّعًا أكثر فنون الخداع مكرًا. فنوبةً ظهر لها في زِيّ إحدى الراهبات، يُحيق بها شيطانان شديدا السواد، يُنذران بخنقها. ومع ما بعث فيها ذلك المشهد من رُعْب، إلا أنّه وفّر لها فرصةً للامّحاق، فقالت: "كم هذه الأخت قدّيسةٌ، وكم أنا خاطئةٌ! إنّني أرتعد أمام فضائلها، وكم سأكون سعيدةً لو استطعت أن أحبّ الله، على نحو ما هي تحبّه!"

وفي الحادي عشر من أيلول، أثناء القدّاس، تراءى لها الشرّير في زيّ العذراء، وقد تألّقت مجدًا، واكتنفتها ملائكةٌ أشدّ توهّجًا من الشمس، وباركتها قائلةً: "يا ابنتي، اُخرجي قبل انتهاء القدّاس، أنا آذن لك بذلك. واهجري هذا الدير أيضاً، فليست دعوتك البقاء فيه". وقد واكب ذلك، في داخلها، اضطرابٌ، وسأمٌ، ورغبةٌ جامحةٌ في الفرار، وانسحاقٌ تحت وقْر خطاياها، ولكنّها لم تؤنس أيًّا من لمسات النعمة التي كانت تغمر نفسها، عندما تتراءى لها العذراء حقًّا. وبذلك انكشفت لها خدعة الشرّير.

ورغم آلامها كانت تتوسّل السماح لها بممارسة حياة التقشّف، على غرار سائر الأخوات، وكانت تشير إلى الخشبة في محبسها قائلةً: "على هذه الخشبة، أودّ أن ألقي طبيعتي، وتحطيم هذا الجسد، إذ إنّني بقدر ما أصغي إليه، أزداد اعتلالاً".

وتتجلّى أصدق صورةٍ للصراع الذي كان يعتمل آنذاك في صدرها، من خلال ما أفضت به إلى الأمّ إيلي، يوم الثاني عشر من أيلول:

"إنّني مضطربةٌ نفسًا وجسدًا؛ إنّني أشبه طفلاً يبحث عن والديه، فلا يعثر لهما على أثرٍ... إنّني أنشد يسوع، ولا أبتغي سواه، ولكنّه بعيدٌ عنّي، بعيدٌ جدًّا، ولا أقوى على اكتشافه، لأنّني أوغلت في الخطيئة. أودّ أن أُدفع إلى أيدي البشر، كي أنفّذ، بموتي، العدالة الإلهيّة، وأظفر بالرحمة. لقد أسأت إلى الله، ذلك الإله الجزيل الحنان، الذي خلقني، وأتى بي إلى الأرض كي أحبّه وأخدمه. وليس لي، بعدُ، من رجاءٍ، ولكنّني أريد أن أرجو رغم كلّ شيءٍ.

"إنّني أرى قبري مفتوحًا، وكلّ شيءٍ يزول. كم قد خطئت، ولم أفعل في سبيل الله شيئًا! لا حاجة بي إلاّ إلى الله، ولكنّه ناءٍ، فقد حَملته خطاياي على الابتعاد. وليس يسوع هو البادئ في الهجر. بمعزلٍ عن يسوع يغمرني الحزن والضجر، وكلّ شيءٍ يبعث فيّ السأم. أودّ أَن أظلّ وحيدةً صامتةً، فأَنا أمقت التكلّم عن ذاتي، حتّى أمام مرشدي. ولكنّي آبى الاستسلام لطبيعتي. إرادة الله، قبل كل شيءٍ".

لقد كانت نَهبًا بين قُنوطٍ يجهد إبليس لغَرسِهِ في حنايا نفسها، ورجاءٍ يشدّها به الله إلى رحمته.

وبين العاشر والخامس عشر من أيلول، ما انفكّ إبليس يتراءى لها في زيّ قدّيسين، محاولاً زرع اليأس في صدرها، وتصوير الجحيم مصيرًا محتومًا لها، وتحريضها على هجر الدير، وعلى الزواج. ولكنّها كانت تَظهَرُ على مثل تلك التجارب الماكرة بإِشارة صليبٍ، وبمثل هذا الردّ المتفجّر من هوّة تواضعها، ومن ينبوع اعتناقها للصليب: "**إنّ أفراحي كلّها، وآمالي، وأبنائي، هي الإِهانات، والازدراء والآلام**".

تلميح السماء

وكان الله يبادر إلى شدّ أَزرها، ولكن تلميحًا وبقَدْرٍ، فيُذكي في نفسها جُذوة الرّجاء، ولكنّه لا يزيح عن كاهلها كلّ أعباء القلق والتمزق النفسيّ، والانسحاق. فأثناء تأمّلٍ لها، في تلك الفترة، ألقت بنفسها عند أَقدام الصليب، وخُيِّل إليها أنها كانت تتنشّق رائحة دم الفادي المُنثال من جروحه الفاغرة، وقد حطّ يسوع نظرةً عليها، وقال: "عليك بالرّجاء". وفي الغد روت تلك الرؤيا لمرشدتها، في حرقةٍ: "لم يقل لي يسوع: "إنّني أغفر لك" بل قال: "عليك بالرّجاء". إنّي أفتقر إلى العزاء، ولكنّ قلبي يرجو؛ إنّني أرجو، أرجو، أرجو".

وكان يستحوذ عليها الشعور بأنّها غير جديرةٍ بتناول القربان المقدّس، وتستأذن في الامتناع عنه، ولكنّ مرشدتها التي كانت بصيرةً بحالها، كانت تأمرها بالاشتراك بالأسرار السماويّة التي كانت أبدًا تُشرع لها آفاق رجاءٍ مشرقةً، وتشدّد نفسها، رغم ما يكتنفها من ظلماتٍ، إلى أسمى مراقي الكمال.

وكان تواضعها يزداد، من جرّاء مِحَنها، رسوخًا، ويجعلها إلى قلب الله أكثر التصاقًا، على حدّ ما تبيّنه هذه الرؤيا التي روتها لمرشدتها: "**رأيت فتاةً صغيرةً تشبهني، ولكنّها أصغر منّي، تُمسك العذراء بيدها، وتدفعها نحو يسوع، ويسوع يقدّمها لأبيه، الذي أَخذها بين ذراعيه وداعبها. ولدى رؤيتي تلك الصغيرة، وما يُوليها الربّ من حبٍّ قلت: لو لم أقترف الكثير من الخطايا، لكنت، مثلَها، خطيبة يسوع. ما أَشدّ حزني، لا لأنّي حُرمت ما تنعم به تلك الصغيرة من تعزياتٍ، بل لأنّ الله خلقني لكي أحبّه وأَخدمه، وأنا قد قابلت بالإهانة، كلّ عطف الله هذا**".

وسألتها مرشدتها إن كانت تذكر نِعَم الله عليها، فإذا بذاكرتها لا تحمل أيّة ذكرى لاستشهادها، وسماتها، وإكليل الشوك على جبينها، والأحداث الخارقة التي كانت لها مسرحًا، بَيدَ أنّها أجابت: "**بالطبع، وكيف لي أن أذهل عن نعمة العماد، وكيف تولاّني الله، وحفظني أنا اليتيمة الفقيرة، ليصنع منّي ابنةً للكرمل، وهو ما زال يسمح بأن يُحتَفَظ بي هنا، على فقري، وجهلي، ومرضي الدائم؟ كم قد أغدق عليّ من آلاءٍ! فكيف استطعت، مع ذلك، الإساءة إليه؟ غير أنّ رؤية تلك الفتاة الصغيرة التي قدّمتها مريم ليسوع، وقدّمها يسوع لأبيه، تبعث فيّ الرجاء**". وفجأةً أشرق محيّاها، ورفعت إلى السماء عينيها ويديها، وانطلقت من شفاهها تلك الصلاة التي ردّدتها كرّاتٍ عديدةً: "**يا ملاكي العطوف قدّمني لأمّي، وأنتِ يا أمّي، قدّميني ليسوع، اِرأفي بي أنا الخاطئة، وهبيني ليسوع، وأنت يا يسوع، قدّمني للآب؛ أيّها الأَب العادل، إنّني أرتمي عند قدميك. لقد أسرفت في الخطيئة، ولكنّك رؤوفٌ. أيّها الآب القدّوس، إنّني جائعةٌ، ولكنّك أَنت غذائي، إنّني ظمأى، ولكنّك أنت انتعاشي. أنت حياتي وقوّتي ونوري. إنّك محبٌّ وعظيمٌ من غير حدٍّ، ونحن لا نفطن لذلك. إنّنا نرتعد أمام عظماء الأرض، وأنتَ، يا إلهي، لا نلمّ بك إلمامًا كافيًا، ونتجاسر على نسيانك وإهانتك. يا إلهي، اِرأف بي، أنا الموغلة في الكبرياء، أنا المزبلة المنتفخة. أرجو أن تأخذك بي الرحمة. يا إلهي! أوثر الموت ألف مرّةٍ على إهانتك. أنا لا أستحقّ أن أكون معك في السماء، ولكن حَسْبي أَن أقيم عند العتبة، حيث، على الأقلّ، أستطيع أن أراك، أنت حياتي، ورجائي، وكلّ شيءٍ لي. إن أردتني في جهنّم، فسأمضي إليها، تنفيذًا لمشيئتك. حَسْبي أن أراك مرّةً، وسأظلّ أباركك في كلّ مكانٍ، ودائمًا، في الجحيم وفي السماء**".

والسيّدة العذراء نفسها، وإن هي لم تتخلّ عنها لحظةً، لم تكن، في تلك الفترة، تتجلّى لها إلاّ عَبْر قناعٍ، ولا تُظهر لها ذاتها، بل تتراءى لها في زيّ الأمّ إيلي مرشدتها، فتأخذ بيدها مشجّعةً، من غير أن تسكب على قلبها المُضنى مياه العزاء المُنعشة. ففي الحادي والعشرين من أيلول، أسرّت الأخت مريم إلى الراهبة الممرّضة، أنّ الأمّ إيلي قد زارتها، ولقّنتها الحياكة بالصنّارة. وإذ لم تكن الأمّ إيلي قد زارتها، بعدُ، في ذلك اليوم، أدركت أن رؤيا سماويّةً قد عرضت لها، فأمرتها بسرد ما جرى لها، فباحت: "**في أعقاب المناولة، رأيت فتاةً تُشبهني، وتحاكيني في الملامح والزيّ محاكاةً تامّةً، إلاّ أنها أصغر منّي كثيرًا. كان يسوع يحملها بين ذراعيه، ويظهر لها من الحبّ قَدْرًا جمًّا. وقد غبطتُ تلك الفتاة، وقلت ليسوع: "ما أسعد هذه الصغيرة، فأنت تحبّها." وأَجابني: "أَجل، أحبّها، اُنظري كيف أحملها بين ذراعيّ، ولكنّها هي لا تعلم ذلك". فقلت له: "ولكنّها بين ذراعيك. آه! لو كنت أَنا في مكانها، لغمرني إحساسٌ عارمٌ، ولشعرت بالسعادة. أيّتها الصغيرة، صلّي من أجلي، فأنا لست سوى خطيئةٍ. أَنت طاهرةٌ، وأنا دِمنة قذارةٍ". ولم تكن تلك الصغيرة تراني، إذ كانت شاخصة البصر إلى يسوع فقط، ويسوع لا يني يرمقها بأنظاره. ولكنّ رؤيتها أيقظت فيّ بعض الأمل، فتجاسرت وخاطبت يسوع: "يا يسوع، لقد جئتَ من أجل الخطأة، أنا لن أكون أبدًا مثل هذه الصغيرة، ولكنّني أودّ أن أرجو".**

ثمّ التفتت إلى الأمّ إيلي قائلةً: "**عندما رويتُ لك كلّ ذلك في الصباح، بكيتِ لأنّك تحبّينني، وأَنا أَيضًا كنت أَشعر أنّني أحبّكِ؛ كنتِ أكثر محبةً، آنذاك، مما أنتِ الآن، وكان يتضوّع منك عرفٌ يُشيع النعمة في النفس. فلمَ لا أقوى، الآن، على الإحساس بتلك النعمة؟ لقد قلتِ لي باكيةً: "ثقي، يا ابنتي، أنّ السيّدة العذراء تحبّك، وهي معك، وتنظر إليك، ولكنّك لا ترينها..."**.

وفي الليل، طفقت تتنهّد هاتفةً: "**أيّتها العذراء القدّيسة، يا أمّي، إنّني أرتمي عند قدميك؛ لقد خطئت كثيرًا، ولكنّني أبحث عنك، يا أمّي الحبيبة. وأَنشُد يسوع أَيضًا. ولكنّكِ أَنت ويسوع تتخفّيان. يا أمّاه، ارأفي بهذا اللاشيء الصغير، ويا يسوع اغفر لي... إنّك لم تأتِ إلى الأرض جزافًا، ولم تأتِ من أجل الأبرار، بل جئت لتخلّص الخطأة. إنّني، بعد أن فقدت يسوع، بتُّ عدمًا صغيرًا منبوذًا. اِرحمني يا إلهي. إنّ عطفك لا حدود له، وأَنا فيك أضع رجائي**".

ومرَّةً أُخرى رأت على ذراعَي يسوع فتاةً تشبهها، ولكنّها لا تتجاوز الثالثة من العمر. وقال لها الربّ: "**إنّي أحبّ هذه الفتاة لأَنّها صغيرةٌ، أما الكبار، فهم ليسوا معي**". وقد أَحزنها ذلك، فسألت مرشدتها في لوحة: "**ما العمل؟ إنّ الله لا يحبّ سوى الصغار، وها أنا قد كبرت، وليس في وسعي أن أقطّع نفسي، لأعود صغيرةً**". ولكنّها آنست بعض عزاءٍ عندما فسّرت لها المرشدة أنّ الصغر الذي يعنيه يسوع هو صغر النفس الذي يتجلّى بالتواضع.

وما انفكّت ظلمات نفسها تتكاثف. وعاد إبليس يجدّد محاولاته الماكرة، سافر الوجه، وكأنّه لم يظفر من الفشل بقسطٍ وافٍ، وممّا قاله:

– "لو جاء من يريد استلاب بكارتك، ماذا ستفعلين؟

– "**سأقذف بنفسي من النافذة. ما أعظم سعادة التضحية بالحياة في سبيل يسوع. وكم أودّ أَن أموت شهيدةً!**

– "اُهجري هذا المكان، حيث الطاعة واجبٌ دائمٌ، وحيث يتعذّر على المرء تحقيق إرادته. واعتزلي في الصحراء حيث سيتهيّأ لك أَن تخدمي الله على نحوٍ أَفضل، وأن تنعمي بتأمّل الخليقة.

– "**أحبّ تأمّل الخليقة في حديقة الدير. أَمّا الطاعة، فهي، لي، مشيئة الله.**

– "ستأتي إلى الجمعيّة قدّيسةٌ كبيرةٌ، وستكشف كلّ خطاياك، فتُطْرَدين.

– "**إن هي كانت قدّيسةً، فسيكون لديها محبّةٌ جمّةٌ، وأرجو أن تأخذها بي الرأفة.**

– "إِنّك لن تحبّي يسوع أبدًا.

– "**صحيحٌ أنّني لست أحبّ يسوع كما يتوجّب حبّه، وبقدْر ما يستأهل. ولكنّني راغبةٌ في حبّه.**

– "إنّكِ أبدًا معتلّة الصحّة.

– "**أنا لا أحبّ جسدي، وأودّ أن أراه محطّمًا، ورمادًا.**

– "ستكونين معي.

– "**معك، يا إِبليس؟ لا بأس، فسأمقتك أكثر، وسأزداد بحثًا عن يسوع. أودّ أن أراك أبدًا على نحو ما أراك الآن، وعلى هذا النحو، لن يغرب يسوع عن بالي أبدًا.**

– "إليكِ عظمتي وثرواتي. إنّني أهبها من يتبعونني، فأنا مَلِكٌ"

– **"مَلِكٌ، أنت؟ يسوع وحده مليكي. إنّني أوثر الفقر مع يسوع. فاحتفظْ بممالكك، وأطيانك. إنّني أحتقرك، احتقاري لورقةٍ مرميّةٍ على الأرض. أتعرف ما هو خبزي؟ إنّه يسوع، إنّه الألم في كلّ لحظة، إنّه المحبّة؛ ذاك هو خبزي، وذاك شرابي. إنّني أُزري بشرابك، ومائك المحلّى، وعطرك. إنّني ظمأى للنفوس، ولكأس الألم: ذاك هو شرابي. فاحتفظ لنفسك بالملذّات والثروات، والممالك. فأنا أوثر الفقر. أتقول إنّني سأصبح عمياء؟ نعمّا العمى فهو سيقودني إلى يسوع. سيكون يسوع نوري والطاعة نبراسي. طوبى للعيون المطبقة أبدًا، إذ إن يسوع سيكون نورها..."**

وأثناء انخطافٍ آخر ندّدت بإبليس قائلةً:

"إنّك، يا إبليس تسلب الله النفوس وتعميها. لا يسعك أن تعطي شيئًا فتأخذ. إنّك تخدع النفوس وتُهلكها، إنّك تأخذ ما خلق الله، ولا شيء يخصّك. فأظهر عظمتك، أيّها الوحش القذر القبيح. إنّك تقول إنّني لن أرى الله أبدًا، ولكنّني لست في حاجةٍ إلى رؤية الله على الأرض. حسبي الإيمان يا إلهي! لستُ أرغب إلاّ في أمورٍ ثلاثةٍ، في فضائل ثلاثٍ: الطاعة والتواضع والبساطة. الطاعة هي يسوع، والتواضع هو مريم، والبساطةُ هي يوسف".

وسألها هاتفٌ سماويٌّ: "لو أنَّك أصبحت سيّدة إبليس، فماذا ستفعلين به؟ فأجابت: **"سأرغمه على حبّ الله، وإن لم يمتثل، لقيّدته لكي لا يسيء إلى النفوس، ولا يمنعها من حبّ الله".**

ومرَّةً أُخرى انكفأ إبليس بخيبة أَملٍ مريرةٍ، وأخفقت أساليبه في النيل من التواضع والتضحية، والاندماج بالله.

صخرة الرجاء تصدّ هجمات الشرّير

وكان الرجاء، أَيضًا هو الصخرة الصمّاء التي عليها تتحطّم هجمات الشرّير. ففي تلك الفترة، كانت انخطافات الأخت مريم متواترةً، وغالبًا ما كانت، في غضونها، على صراعٍ مع إبليس، وهذا نموذجٌ ممَّا كانت تقوله:

"أثناء الصلاة، حطّت حمامةٌ صغيرةٌ على كتاب صلواتي، وطافت فوقه، ثم

جثمت على صدري ووجهي. وقد غمرني حضورها حبورًا. أمّا أنت، يا إبليس، وكلّ أمثالك، فكنت أراكم ذبابات سوداء، دائبةً على تشتيت أفكار الراهبات، ولكنْ لدى رؤيتكم الحمامة، ذُعرتم وفررتم. أتظنّ يا إبليس، أنّ الله يتركني وحدي؟ لا، بل هو الذي أرسل إليّ الحمامة الصغيرة ليوفّر لي بعض عزاءٍ. وتيقّن، يا إبليس، أنّه طالما ظلّ يسوع معي، فسأسود عليك يومًا... إنّ من يحفظه يسوع، لن يهلك أبدًا. أنا لست بشيءٍ، ولكنّني، بيسوع، سأسحقك. إنّ لحظةً مع يسوع تُنسيني كلّ ما تسومني إيّاه من عذابٍ... إنّني أعرف ضعفي، فلو لم يكن يسوع يحميني، لكنت أسوأ منك. ولكن طالما وقاني يسوع، فهو سيهبني القوّة لكي أتغلّب عليك. إنْ أمْسَكَ يسوع قشّةً لاحترقتم جميعكم تحت تلك القشّة، من غير أَن تصيبها النار...

"إنّك تهدّد، يا إبليس، بأن تُوسِعني المزيد من التعذيب الجسدي، وأنا سأكون لك، في ذلك عونًا، لأنّ جسدي، مثلك، هو عدوّي... أنا لا أرهبك يا إبليس، فمعي تلك التي سحقت رأسك: مريم. إنّها أمّي... يا مريم، أمّ يسوع وأمّي، في معزلٍ عنك نفسي تسقم، وقلبي يكتئب. متى سأكون معك؟".

وتواصل انخطافها سحابة اليوم التالي، وهي أبدًا في صراعٍ مع إبليس، وفي تحدّيها له، كانت لا تني تُطلق أقوالاً أخّاذةً تجمع إلى البساطة سموّ إلهام الروح، وإلى التواضع السحيق ثقةً راسخةً، ثقة من ألقى نفسه في المُطلق من غير تحفّظٍ، موقنًا أنّه لن يستطيع الوقوع إلاّ بين ذراعي الربّ. فلنستمع إليها تقول:

"أأنتَ، إذن، يا إبليس، من يُلقي الديدان في وجبات طعامي؟ إنّ ذلك من حسن طالعي. فقد سألت الله أن أجد الطعام، أبدًا، سيّئاً، لكي لا أحسّ بأيّة متعةٍ لا في التذوّق، ولا في أيّ مجالٍ آخر.

"أتضمر لي الضغينة لأنّ الله يحبّني؟ أجل إنّه يحبّني، مع أنّني لست سوى معصيةٍ وخطيئةٍ. ومن خلال حبّه هذا لي تتجلّى رحمته...

"لقد جئتني، يومًا، في شكل ملاكٍ، ولكنّ الله يعطيني، دائمًا، أَن أكتشفك، وقلتَ: "إنّني ملاكك، ولكنّي، بسبب خيانتكِ سأهجرك". فليكن، يا إبليس، إليك عنّي، إليك عنّي...

"اِذهب واستفزّ العالم كلّه عليّ، فسأكون سعيدةً، ولن أقنط أبدًا، حتّى ولو غشت جسدي قروحٌ تسرح فيها الديدان، وحتّى لو أُلقيَ بي في زاويةٍ مهجورةٍ، فسأظلّ أبدًا مقيمةً على الرّجاء.

"أُنظر مدى ثقتي بالله، فحتّى عندما أفتقر إلى كلّ عونٍ، وإلى كلّ حَوْلٍ، وأعجز عن أيّة حركة، فإنّني على يقينٍ بأنّ الأرض ستتحوّل إلى طيورٍ ستحمل إليّ كلّ ما لي به حاجةٌ، وستنقلب فراشًا وثيرًا أستلقي عليه. إنّني واثقةٌ بأنّني لو عطشت، وكانت يداي قد تفسّختا، وتلفتا بحيث أصبحتا عاجزتين عن تناول الماء، لدفع الله بالماء تلقائيًا إلى فمي. أترى، يا إبليس، مدى ثقتي بالله؟".

وهنا أَخذ بها الاندفاع فنظمت في الشرّير نشيدًا ساخرًا:

"أيّها الملاك الذي كان في الطليعة، جميلاً

وهوى إلى أسفل سافلين، أخيرًا

ها إنّ عدمًا صغيرًا

يجرّك كالكلب، مقيّدًا حقيرًا...".

طفلةٌ بين يَدَي الله

وشاء الله أن يوطّد تواضعها، فأراها ملائكة سائر الأخوات في هيئة أطفالٍ بارعي الجمال، في حين أنّها لم ترَ، إلى جانبها، سوى شيطانٍ أسود ضخمٍ يحمل في يده عصا. وقد روّعها التناقض، للوهلة الأولى، ولكنّها سرعان ما استوعبت درس الربّ، فقالت: **"هذا الشيطان هو سحنتي، وهو ضخمٌ لأنّه يمثّل كبريائي، وهو أسود لأنّه يمثّل خطاياي، فارحمني يا ربّ!"**. وقد استأذنت بسرد تلك الرؤيا أمام جميع الراهبات، متوسّلةً إليهنّ الصلاة من أجلها، علّها تظفر بشيءٍ من التواضع!

وأيّة كانت حالاتها النفسيّة، فقد كانت تسيطر على علاقاتها بالله طفولةٌ مطلقةٌ، وقد صوّرت، هي نفسها، تلك العلاقة فقالت: "إنّني، مع الله، مثل ولدٍ مع أبيه، فإنْ كان الأب غنيًّا، فالولد لا يكفّ يطلب المزيد من الأطعمة، ومن الثياب التي يريدها أبدًا أجمل، ويرغب كلّ يومٍ في التحديث. ذلك هو شأني مع أبي السماويّ كلّيّ الغنى. إنّني لا أحتفظ بشيءٍ ممّا هو يعطيني كلّ يومٍ، بل أعيد له كلّ شيءٍ. وأقول له: أيّها

الأب الغالي، إنّ ابنتك فقيرةٌ، لا تملك شيئًا، ولكن كلّ ما هو لك يخصّني. أعطني من أجل اليوم شيئًا. أعطني كلمتك: ما أعذبها! أعطني حبّك، واغفر لي خطاياي".

وكانت تضيف، أثناء انخطافها: "**اُذكروا حبّ الآب الذي أعطاكم ابنه ليتّخذ شكلكم. إنّه لم يأت في هيئة ملاكٍ، ولا كإله. بل هو جاء في شكلكم، ليكون لكم، في كلّ أمرٍ، قدوةً...**".

النملة المجنّحة: وتعاقبت الرؤى حافلةً بأسمى العِبَر. وليت المقام يتّسع لسردها بأكملها. غير أنّنا سنجتزئ بنماذج منها.

ففي الحادي والثلاثين من تشرين الأوّل، رأت نملةً مجنّحةً، ورافق الرؤيا هاتفٌ يقول: "إنّ أبي يحبّ هذه النملة، لأنّها صغيرةٌ، وعلى جناحي هذه النملة سيبني صرحًا شاهقًا". وإلى جانب النملة رأت جبّارًا يقلّ على منكبيه رزمةً من قشٍّ يرزح تحت عبئها، ويهوي بها أرضًا، في حين كانت النملة الصغيرة تنهض بالبناء المنيف القائم على جناحيها. وإذ لم تدرك فحوى تلك الرؤيا المزدوجة سمعت الهاتف يقول: "إنّني أحبّ هذه النملة لأنّها صغيرةٌ، ولذلك سأشيد عليها بناءً كبيرًا". وهتفت الأخت مريم، في براءتها المذهلة: "لست أعرف من هي هذه النملة، ولكنّني أتمنّى التشبّه بها".

وفي نفس اليوم تحدّثت في محبسها مع ولَدٍ سرّيٍّ، قالت له، وروحها مختطفةٌ: "إنّك تأتيني بثمرة الألم، وإنّني أقبلها طائعةً، مهما بلغت من مرارةٍ، طالما كانت تلك مشيئة يسوع. ولكنْ، من أجل مساعدتي على تناول هذه الثمرة هبني أيضاً بذرة الصبر".

وفي الثاني من تشرين الثاني سمعت هاتفًا عذبًا يسرّ إليها: "من يقوى على حبّك كما يحبّك يسوع؟ إنّ حبّ الخلائق كلّها مجتمعةً لا يساوي حبّ الله الثابت السخيّ. إنّ محبّة الخليقة سرعان ما تفتر. وإنْ بدر منك ما يُغيظ أكثر الناس حبًّا لك، فسرعان ما يُقلع عن حبّك. أمّا يسوع فيحبّك أبدًا، ويساعدك على النهوض إن أنتِ كبوتِ، ويغفر لكِ إن أنت أهنتِه".

البستاني الإلهيّ والأسرة السماويّة

وعلى نحو ما ظهر المخلّص للمجدليّة في شكل بستانيٍّ، فلم تعرفه للوهلة الأولى، ظهر كذلك للأخت مريم، مرّاتٍ عديدةً؛ ولنسمعها تصف زياراته لها:

"... لقد عاد البستانيّ، أثناء تأمّل المساء، حاملاً عصًا طويلةً يعلوها صليبٌ صغيرٌ، وقال لي: "وسّعي قلبك قليلاً كي تُفسحي لي فيه مكانًا. إذ مهما كنتُ كبيرًا، بوسعي أن أحلّ فيه" فأجبته: "بالطبع لن أفعل، فالذي خلقني، وحده، يستطيع توسيع قلبي، وقلبي له بأكمله. أنا لا أحبّ سوى يسوع". وكان يبتسم لكلامي، ويخفي وجهه بالصليب الصغير، وأنا، كان يفيض قلبي حبًّا، ولكن ليسوع وحده".

وعاد البستاني يزورها في الخامس من تشرين الثاني وقال: "أودّ مرافقتك إلى الهند". فأجابته "بل ابقَ في بستانك، فأنا حسبي يسوع". وسألها: "أتحبّين أمّي؟" – "أجل، أحبّها، إن هي كانت تحبّ يسوع". والتفتت إلى ملاكٍ كان يقف إلى جوارها قائلةً: "إنّ هذا البستانيّ يأتي كلّ يومٍ متقصّيًا إن كان له في قلبي مكانٌ. ولكن ليس ثمّة من مكانٍ إلاّ ليسوع. أيّها الملاك، قل لي، لمَ يفرّ الشيطان، لدى وصول البستانيّ؟".

وكانت تعبّر عن فرحها بأسرتها الفذّة في السماء: "**الله خالقي، ويسوع عريسي، والسيدة العذراء أمّي، والقدّيس يوسف أبي، والأب إيليّا جدي وعرّابي، والقدّيسة تيريزا عرّابتي، والملائكة حرّاسي، والرسل إخوتي، والقدّيس يوحنّا أخي، وجميع القدّيسين أصدقائي. يا لها من أسرةٍ. ولكن ما أكثر خطاياي، فكيف لي أن أمثل أمام تلك الأسرة؟ ولكن بقدر ما السماء هي أكبر من الأرض، كذلك رحمة الله هي أكبر من خطاياي. لو أنّني ألقيت في البحر أربع زجاجاتٍ قذرةٍ لما اتسخ منها البحر. وخطاياي أمام الله هي أشبه بهذه الزجاجات الأربع الملقاة في البحر. يا إلهي إنّني أثق برحمتك**".

على غرار الأسيزي: في الخامس عشر من تشرين الثاني، استفحلت آلام الأخت مريم، فجاؤوها بسمكتين صغيرتين في إناءٍ، علّها تسلو أوجاعها، فاستمدّت من تلك الحيوانات الصغيرة دروسًا في حبّ الله. إذ كلّما كانت تشاهد السمكتين تفتحان فميهما تقول: "هكذا علينا أن نخاطب يسوع، ونستدعيه إلى نفوسنا بالصبوّ إليه".

ولمّا أذنت ساعة الصلاة تُركت وحدها برفقة السمكتين وحمامةٍ صغيرةٍ، وعندما عادت المرشدة إليها ألفتها نائمةً، وقد جثمت الحمامة على رأسها، وقفزت السمكتان من الماء واستلقيتا على الأرض قريبًا من رأسها، وهما تنبضان حياةً. وعندما

استيقظت هتفت: "**هذه الأسماك الصغيرة تأتي إليّ لأنّني أحبّها وأُعنى بهـا. كـذلك عليّ أن أمضي نحو الله، ذلك الإله الذي خلقني، والذي يحبّني أكثر ممّا أحبّ هـذه الأسماك. وأرجو أن يرأف بي**".

الألم الفادي: وكانت تعتبر أَنّ سنوات الألم، في سبيل يـسوع، قـصيرةٌ مهمـا طالت، ولم يكن دافعها إلى قبول الألم طمعًا بمكافأةٍ في الآخرة، بل رغبةً في الإسهام بآلام الفادي والتشبّه به. وقد تراءى لها يومًا ولدان، في نحو السابعة مـن العمـر، وكَان أحدهما يحمل بإحدى يديه كأساً، وبالأُخرى صليبًا وإِكليلاً من شوك. والثـاني كان يقدّم لها ثوبًا أَنصع بياضًا من الثلج، وإِكليل وردٍ رائعًا، وعطورًا أَخّاذةً. وقـال لها الأوّل: "اختاري" مبيّنًا لها أَنّ من يختار على هذه الأرض الصليب، ينـال فـي الآخرة إِكليل الورد، فأجابت: "**أنا لا أريد أن أختار شيئًا، لأنّني ضعيفةٌ. امضِ وقـل ليسوع إنّني أوثر أن يختار هو لي. فلو هو اختار لي الصليب، وإِكليـل الـشوك، والكأس، مدى الأبديّة كلّها، فسأكون سعيدةً لأنّه هو سيكون سعيدًا**". فبكى الـصبيّ واختفى.

ويبدو أنّ يسوع كان قد اختار لها الصليب على الأرض ليُشركها بآلامه ومجـد قيامته على السواء، فلا فصح من غير جلجلةٍ؛ وكانت هي واثقةً بأنّ من اختار لهـا الصليب سيُساعدها على حمله.

وكانت فكرة الموت الماثلة أبدًا في ذهنها، تزيدها ازدراءً لجسدها الصائر إلـى الفناء، ورغبةً في التضحية به، حبًّا بالمخلّص.

وحلّ عيد الميلاد، فتغلّبت على جميع أَوصابها، ونهضت لتُـشيع الفـرح بـين أَخواتها.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

ليلٌ وَنورٌ وَإلهام

لم يكن قلب الأخت مريم يخفق إلاّ بحبّ يسوع، ومن ثمّ فقد انتهجت الدرب الذي رسمه يسوع لأتباعه، درب الصليب. وقد وفّر، هو، لها، ليرسّخها في حبّه، صليبًا يوميًّا قد لازمها في كلّ مراحل مسيرتها، وأتاح لِقوى الشرّ أَن تزيد من وِقره ثقلاً كلّ يومٍ، ليزيد حبّها اضطرامًا، وساعدها على احتماله بتجلّيه لها، عَبْر رؤًى توطّد فيها الرّجاء، وتُسدي لنا، عبر الأيّام، عِبَرًا قيّمةً.

ولئِنْ نحن تبسّطنا في سرد تلك الرؤى والأمثال، فلأنّها تنطوي على جوهر الإِنجيل، في قالبٍ مبتكرٍ، عذبٍ، نديٍّ، ولأنّها، أَيضًا، تعكس أصدق صورةٍ لتلك النفس المختارة.

فذات يومٍ، كان المرض قد أَقعدها في محبسها، فسألت الأمّ إِيلي، التي جاءت تعودها، متابعةً العظة التي كانت قد شرعت بإِلقائها على مسامعها. ولم تكن هذه قد ألقت عليها أيّة موعظةٍ، فأدركت أنّ رؤيا سماويةً قد عرضت لها، وأمرتها بترديد ما سمعت، فقالت: "إنّ كلماتك محفورةٌ في أعماق قلبي، ولكن يعسر عليّ التعبير عنها، لقد كانت تتألّف من نقاطٍ ثلاثٍ: أُنشُدي الله وحده، ولا يستوقفنّك أيّ مخلوقٍ. فإذا ما تكلّمت، كوني وكأنّك لم تتكلّمي، وإن رأيت، كوني كمن لم يرَ، وإن سمعت، كوني كأنّك لا تسمعين. إنّ الله وحده هو كلّ شيءٍ. وما الخليقة سوى عدمٍ وخطيئةٍ. كلّ شيءٍ، على هذه الدنيا، باطلٌ، لأنّ كلّ ما يزول هو عدمٌ. وكم سنأسف ساعة الموت، لأنّنا لم نُفِدْ من الوقت الذي أُتيح لنا".

وبُعَيد قليلٍ، عادتها الأمّ إيلي من جديدٍ، فألفتها مشرقةً، معافاةً، في غرفتها

العابقة بدخانٍ ذكيّ الطيب. ولم يكن من العسير عليها إدراك أنّ تلك الحجرة كانت، للحظاتٍ مضت، مسرح عملٍ خارقٍ. وقد أفادت الأخت مريم أنّ زائرةً تتّسم بقسمات الأمّ إيلي قد طافت بالمكان، وتَلَتْ، عنها، بصوتٍ مرتفعٍ، الصلوات التي كانت عاجزةً عن تلاوتها، ثمّ ألقت في مدفأتها بعض أعشابٍ انبعث منها الطيب، وسرعان ما بارحتها الحمّى، وعادت إليها عافيتها.

وفي الرابع من شباط ١٨٦٩، أثناء صلاة النوم، انتابها انخطاف، وفي الغد اضطرّت أن تروي لمرشدتها ما رأت، فقالت: "**كنت أبكي خطاياي، وجاءت فكرة مرضي المستمرّ تُقلقني وتُصيبني بالاضطراب. وقد قال لي الربّ في عذوبةٍ، وفي صوته ما يسكب في قلبي سلامًا عميقًا: "يا ابنتي، إنّك تشبهين كرمةً. أُنظري كيف يعمل الكرّام في كرمه ويحرثه. إنّه يقلب الأرض من حوالي جذور الكرمة. والأرض تعني جسدك. إنّي أعالج كرمي بالألم. إنّ الكرّام، لكي يحمل كرمه على إعطاء الثمار، يقطع الأغصان الفاسدة، ويشذّب الجيّدة منها، وأنا أيضًا أستخدم التجارب والإهانات والازدراء لتشذيب كرمتي، كما أنّني أَقطع الأغصان الفاسدة العديمة الجدوى: أي الكبرياء، وميول الطبيعة، التي لا بدّ من القضاء عليها**".

"**وقلت للرب: يا ربّ، إن أنت تخلّيت عنّي، كنت كالرماد الذي لا ينتج أيّ ثمرٍ، ولكن إن نظرت إليّ، أَصبحت أرضًا طيّبةً، تُعطي ثمارًا جيدةً، وتغشاها الخضرة والزهور**".

وفي الثامن من شباط، تراءى لها، أمام القربان الأَقدس، رجلٌ بارع الجمال، قال لها: "لم يصبح، بعدُ، قلبك خاليًا ومتجرّدا بقدرٍ كافٍ". وتمضي الأخت مريم في سردها للرؤيا فتقول: "**ثمّ أراني زهرةً صغيرةً موضوعةً في إناءٍ من غير ترابٍ ولا ماءٍ، وتصيبها الشمس بالجفاف، وقال: "أنتِ، في معزلٍ عنّي، مثل هذه النبتة، تفتقرين إلى الأرض وإلى الماء الذي ينعشك." وقد غضبت لقوله إنّني، لولاه، لكنت كنبتةٍ مصابةٍ باليباس، فلو أنّه قال لي: "لولا يسوع"، لرضيت، فسألته "ولكن من أنت حتّى تكلّمني هكذا؟ ليس قلبي لك، بل هو ليسوع. فعلامَ تقول إنّني لا أقوى على أيّ عملٍ صالحٍ، في معزلٍ عنك؟ بل قل في معزلٍ عن يسوع". فضحك وأخفى وجهه بأردان كمّه**".

أناة الله: وبعد يومين تلقّنت درسًا في صبر الله علـــى النفــوس، وأناتـــه فـــي إنضاجها، فلنستمع:

"رأيت، عن بعدٍ، رجلاً عظيم الجلال، يُشبه ملكًا، وكأنّه سيّدٌ مُطلقٌ على العالم بأسره. بَيدَ أَنّ كثيرين كانوا يأبون الاعتراف بسُلطانه. فسألته: "ما العمل، يـــا ربّ، من أَجل حبّك؟" واستحوذ عليّ، آنذاك، حبٌّ لله جمٌّ، ورغبةٌ عارمـــةٌ فـــي خدمتـــه وممارسة الفضيلة. وكان بودّي أن أصبح كاملةً كي أرضيه، وأعوّضه عن عقـــوق الذين لا يحبّونه. ولكن كم كنت بعيدةً عن الكمال! وجاءني هاتفٌ يقـــول: "تَـــأَمَّلِي الطبيعة، إنّ الأشجار لا تكبر في يومٍ واحدٍ". وأراني شجرةً كانـــت تحمـــل ثمـــارًا فاسدةً، فقطع أغصانها، وطعّمها، وحوّط جذورها بأرضٍ طيّبةٍ، وعالجها في أنـــاةٍ، وعندما حان الأوان، شذّبها، فأخذت تُنتج ثمارًا. وضاعف الرجـــل اعتنـــاءه بهـــا، فأخذت الشجرة تُنتج، كلّ سنةٍ، مزيدًا من الثمار. ورمقني الرجل وقال: "أريدك مثل هذه الشجرة. لست أقتضي أن تحملي ثمارًا في الحال، بل سيتمّ ذلك فـــي أوانـــه". وشاع في نفسي رجاءٌ عظيمٌ، والتهب قلبي حبًّا لله، ورغبةً في حبّه إلى الأبد، وفي ألاّ أعيش إلاّ له. وأمّا الطُّعْم الذي لقّحت به الشجرة، فكان يمثّل لي تحوّل الـــنفس التي تنشد الله، والتي تعيش متّحدةً معه ومع يسوع".

التواضع: وأَمّا في التواضع والكبرياء فقد قالت: **"الكبرياء قـــد أهلكـــت أجمـــل ملاك؛ إنّه هوى بسبب الكبرياء. لو أنه اتّضع وعزا إلى الله ما كان عليـــه، لازداد بهاءً، ولكنّ الكبرياء حوّلته شيطانًا... يهـــوذا نفـــسه، لـــو أنّـــه اتّـــضع، لظفـــر بالغفران...". وأَضافت وكأنّها تصف نفسها: "إنّ النفس المتواضعة تُـــصبح نـــورًا، وتعيش في الحقّ، وتجد إلى الله طريقها، والله ينحدر إِليها، ويشقّ لهـــا التواضـــعُ دربًا للوصول إلى سائر الفضائل...".**

وحول نَفْس الموضوع عرضت لها الرؤيا التالية: **"رأيت بستانًا يغـــصّ بـــشتّى أصناف الفواكه. وعند باب البستان كانت نارٌ تضطرم، وكان على كلّ مـــن ابتغـــى الدخول لجَنْي الفواكه، اجتياز النار. ورأيت نفسًا تتزوّد بالماء، وعلى هـــذا النحـــو كانت تمرّ بالنار فلا تحترق، فتلج إلى البستان، وتقطف الثمار، فيما كانت نفـــوسٌ أُخرى، عوضًا عن التزوّد بالماء تجمع الحطب والقشّ وتقذف بهـــا فـــوق النـــار،**

فتزداد استعارًا، وتُصاب منها تلك النفوس بحروقٍ بليغةٍ، كلّما هي حاولت الولــوج إلى البستان. وهكذا، عوضًا عن الاهتمام بقطف الفواكه، كــان يــشغلها التفكيــر بحروقها. ولم أكُن أرى تفسيرًا لما أرى. وفجأةً شاهدت سيّد البستان يرقب النفوس التي تجتاز النار، فسألته تفسيرًا لما أُعطيَ لي أن أراه، فأجابني: تــأمّلي النفــوس التي تتزوّد دائمًا بالماء. هذا الماء هو التواضع. إنّ التواضع هو ينبوع الفــضائل الحقّ. النفس المتواضعة تحمل، أبدًا، الماء معها. ولذلك لا تمسّها النار التي تمثّــل الإهانات والمحن، والألم، والاضطهاد، والازدراء، والافتراء... بفضل ماء التواضع، كلّ شيءٍ يغدو للنفس مفيدًا. أمّا النفوس التي تفتقر إلى هذا الماء فهي تلقى النــار في كلّ مكانٍ، وتحترق بأنانيّتها، فلا تفكّر إلاّ بذاتها...".

أولياء يسوع: أثناء انخطافٍ آخر حثّت أَصدقاء يسوع، في نبرةٍ تختلج حميّــةً، وتضطرم حبًّا، على تعويضه عمّا يلحق به من إهانةٍ، ففاضت نفسها تنشد:

"إنّ يسوع، في السجن، يُعاني من البرد، وينتظر منكم أن تدفِئوه. إنّه يــصغي إليكم ويسمع ما ستقولونه له. إنّ سجّانيه يُعدّون الحبال لتوثيقه، ويُعدّون المسامير والصليب، فأعدّوا له، أنتم بالمقابل، ما يُرضيه، أعدّوا له قلوبكم.

"إنّ يسوع يتأوّه، واليهود لا يُنصتون إلى تأوّهه إلاّ لكي يسخروا منه. أصغوا إليه أنتم لكي تعزّوه. ولكي ترفعوا عنه الحَيْف.

"يروق لليهود أن يصحبوا يسوع إلى الجلجلة ليسُوموه العــذاب. أمــا أنــتم فاغتمّوا بسبب خطاياكم، وبسبب الوقت الذي هدرتموه من غير أن تفكّروا فيه.

"اليهود كانوا يبحثون عن يسوع للقضاء عليه، أمّا أنتم فابحثوا عن يسوع، كلّ يومٍ، كي تجعلوه يعيش فيكم، ولكي تُنهِضوه وتمّجدوه في ذواتكم.

"اليهود قيّدوا يدي يسوع، أمّا أنتم فقيّدوا ذواتكم بيسوع.

"اليهود يسخرون من يسوع، والجنود يلقون على كتفيــه، اســتهزاءً، خِرْقَــةً قرمزيّةً، ويضعون في يده قصبةً، أمّا أنتم فأعدّوا ليسوع حبًّا بنويًّا.

"أعداء يسوع يصفعونه، أمّا أنتم فأعدّوا أنفسكم لتقبّل الصفعات حبًّا به.

"اليهود يحرّض بعضهم بعضاً على تعذيب يسوع؛ أمّا أنتم فليحــرّض بعــضكم بعضًا على مباركته، وحَمْل الآخرين على مباركته.

"كان اليهود يرجون أَن تنضمّ إليهم شعوبٌ أُخرى في شتْم يسوع وإهانته، أمّا أنتم فاجذبوا النفوس إلى حبّ يسوع.

"اليهود يقذفون الزبْل والأقذار في الدرب الذي سيسلكه يسوع، أمّا أنتم فأعدّوا الورود وزيّنوا بها درب يسوع.

"اُنظروا إلى مريم، إنّها تنتحب وتتوجّع، ويرهقها الألم، فرافقوها إلى الجلجلة بوفائكم، وبحبّكم ليسوع وحبّكم للقريب.

"إنّ يسوع، على الصليب، عارٍ، وأنتم بممارستكم للمحبّة، قادرون على ستْرِ عُريه".

وفي رؤًى متواترةٍ أُخرى، ظهر يسوع للأخت مريم بستانيًّا، يُكِبّ على النبتات التي افتقرت إلى الشمس والنور والسماد، فذوت، وإلى الأرض التي أُهمِلت فأجْدَبت، فيعمل فيها حرثًا، وقلبًا، ويُغدق عليها الدفء والندى، حتّى تُخصب وتزدهر، وقد أسرّ إليها: **"إنّني أوثر اختيار كبار الخطأة، ومن خلال كلّ ما أجريه فيهم تتجلّى رحمتي، وكلّ الذين يرون عمل الربّ يمجّدون أبي، وسأعمل ذلك فيكِ أيضاً، فاحتملي، إذن، المحن، والتجارب، والألم، والسأم، والنفور، والتخلّي. كلّ ذلك يطهّر الأرض السيئة، ويعدّها لاستقبال نعمتي".**

فجر الانعتاق: بعد أَن أَشبع الربُّ الأخت مريم ألمًا مطهّرًا، وآزرها على تحمّله بومضات عزاءٍ خاطفةٍ، أَفسح أخيرًا أمامها أفقًا استشفّت من ثناياه نهاية محنتها. وحريٌّ بنا أَن نرقب معها هذا المشهد:

"بدا لي أنّني كنت أُمسك بيد الله، الذي كان يغمرني برحمةٍ جمّةٍ، ويساعدني على تسنّم جبلٍ كنت أراه مُغرقًا في السواد والقسوة، ولا مُستند فيه سوى حجارةٍ حادّةٍ جارحةٍ. وكنت أرى أنّني، مع كلّ تلك الصعاب، سأبلغ نهاية الشوط بنعمة الله، فأعظّم رحمته. ولم يكن لديّ سوى رغبةٍ وحيدةٍ: أن أكون بكلّيتي لله، وأن أكون له وحده، على نحوٍ مُطلقٍ. بحيث لا يحوّلني شيءٌ عن حضوره. ولم يكن لي بدٌّ آنذاك من أن أغذّي نفسي بالخبز الأسود القاسي، والكِسر اليابسة. إنّ ولدًا يأكل أبدًا، في بيت أبيه، الخبز الطيّب، لا يقدّر هذا الخبز حقّ قدره، ولكن إن هو أُعطي الخبز الطيّب، بعد أن ألِف تناول الخبز السيّئ فإنّه سيقدّره ويسعد به. أنا الآن، أتناول الخبز القاسي، ولكن بعد اجتياز الدرب الوَعِر، سيهبني يسوع الخبز الطيّب، وسأتذكّر أَبدًا ذلك الوقت

العصيب، حيث كان الخبز قاسيًا، وسأقدّر على نحوٍ أفضل رحمة الله، وأَفضاله عليّ".

وبمناسبةٍ أُخرى قالت: "**إنّني ثمرةٌ فاسدةٌ، ثمرةٌ متعفّنةٌ، مُلقاةٌ على مزبلة خطاياي. فمن ذا الذي يقبل بمثل تلك الثمرة؟ لا أحد. دعوها، إذن، على المزبلة. ولكن أنت، أيّها البستانيّ، اُنظر: لقد وضع الربّ داخل هذه الثمرة بذرةً صغيرةً. فخذ هذه البذرة، واحفر في الأرض، وألقِ البذرة في الحفرة، وغطِّها بالأرض الطيّبة. واصبر وتأنَّ. فسيخرج من تلك البذرة شجَرةٌ، وستحمل هذه الشجرة ثمارًا جيّدةً بفضل عنايتك، وستقدّم تلك الثمرة على مائدة الربّ. وسيراها الجميع، وسيأكلون من ثمارها وسيمجّدون الله**".

غرفة يسوع: وكانت معظم رؤاها، على غرار تعليم الناصريّ، حافلةً بالأمثال الواقعيّة، التي تقدّم اَلنُّصْح في إِطارٍ حيٍّ، على حدّ هذه المجموعة من الأمثلة:

"**في أعقاب المناولة، قال لي شيخٌ: إنّ يسوع يريد أن يزورك، في منتصف الليل. فأعدّي له غرفةً، وأصغي جيّدًا إلى ما يرغب فيه: إنّه يريد غرفةً صغيرةً، فقيرةً وبسيطةً. ويريد سريرًا صغيرًا يمثّل الصمت. وعلى هذا السرير الصغير يريد فراشًا دائم الجدّة، بفضل أعمال تواضعٍ متجدّدةٍ أبدًا. ويريد مخدّةً من محبّة، وغطاءً من صبرٍ، وستائر بيضاء من الاتّحاد، تمنع رياح التجربة من إِصابة المحبّة بالبَرْد. ويبتغي يسوع سراجًا يضيء له الليل، زجاجه من إِيمانٍ ورجاءٍ، وزيته صلاةٌ مستمرّةٌ، وفلّينته العائمة حبّ الله الذي يرتقي بالنفس فوق الأرض، وفتيله التفاني الذي يضحّي بذاته، ويُغفل مصالحه في سبيل سعادة الآخرين، ونوره المضيء، أخيرًا، هو الطاعة وطهر النيَّة**".

الأخت مريم والمجمع المسكونيّ

لقد شكر يسوع أباه لأَنه يُظهر للصّغار والضعفاء ما يُخفيه عن الحكماء وَالدُّهَاة.

وقد أَطلع الربّ تلك الراهبة الجاهلة على خفايا المجمع المسكوني الذي كان ملتئمًا في مطلع عام ١٨٧٠، وعلى ما كان يَعتَورُ أعماله من خلافاتٍ. فقد هتفت أثناء انخطافٍ في شهر كانون الثاني ١٨٧٠: "**إنّ الكنيسة تتألّم، والأب الأقدس يتألّم، وقلبه مُضنى، لأنّ أساقفة المجمع لا يجمعهم قَدْرٌ كافٍ من الاتّحاد. الكنيسة**

هي أمّنا، وعندما تعاني أمٌّ من الألم، فجميع أبنائها يشاطرونها آلامها. الكنيسة هي أمّي، وكم أودّ أن أبذل دمي عنها! إنّني أقدّم كلّ شيءٍ من أجلها، من أجل الوحدة، من أجل السلام، من أجل انتصار الكنيسة".

ومضت في التلميح إلى وقائع أذهلت دقّتها المُطّلعين على بواطن الأمور. إلاّ أنّها في رؤيا لاحقةٍ، رأت الخلافات تتلاشى، والوئام يحلّ، وقال لها يسوع: "**ابتهجي لأنّني طلبت منك صومًا، مدى أربعين يومًا، على الخبز والماء، لكي أشركك في أعمال المجمع وإنجازاته. فقد كان عليك، بهذا الصوم، أن تُزيلي الأحجار من الدرب وتمنعيهم من السقوط". وقد أَجابت: "يا إلهي، إنْ كانت مشيئتك أن أقوم بهذا الصوم، فإنّني سأمارسه لا أربعين يومًا، بل أربعين سنةً إنْ أنتَ شئت".**

إن الربّ لمُذهلٌ، عندما يستعين بفتاةٍ مغمورةٍ ليقوّم أركان كنيسته، وعندما يستخدم أصغر مخلوقاته وأضعفها ليحقّق أجلَّ أعماله شأنًا.

وفي تلك الفترة عينها تنبّأت مريم بأحداثٍ سياسيّةٍ، قد تحقّق معظمها، على نحوٍ مدهشٍ من الدقّة.

شهادةٌ قيّمةٌ: يحسُن بنا في ختام هذه المرحلة من سيرة الأخت مريم، تأمّل صورةٍ رسمتها لها مرشدتها الأمّ إِيلي، التي كانت أقرب الناس إلمامًا بمسيرتها الروحيّة:

"لا بدّ من قلمٍ أكثر تمرّسًا لإبراز صورة تلك النفس الرائعة البهاء، بسذاجتها، وبساطتها، ومحبّتها، وحبّها لله والقريب، وقوّة شكيمتها في المِحن، وإيمانها، وثقتها بالله، وثباتها في الصراع ضدّ الخصم الذي يطاردها بلا هوادةٍ، وشغَفها بالحياة الخفيّة، وكذلك بالحياة الجماعيّة العاديّة. ولا بدّ من مشاهدتها وترصّدها لتكوين رأيٍ عن تلك الفتاة. وليس من شأننا الحكم بأنّ كلّ ما يجري لها من خوارق، سواءٌ في الماضي أو في الحاضر، يأتي من الله. ولكن كلّ ما نستطيع قوله، هو أنّه، إن لم يكن روح الله هو صانع هذه الخوارق، فمبتدئتنا ستبدو أحقّ بالتقدير، لأَنّها استطاعت، في غمرة ممارسات إبليس، البقاء وفيّةً لإلهها، مليئةً ثقةً فيه، وضيعةً وصغيرةً في ذاتها، عازفةً عن تقدير الخلائق، غير متوخّيةٍ، في كلّ شيءٍ، سوى إرادة الله ومجده الأعظم. لقد طالما سبرتُ أغوار مشاعرها، فوجدتُ أنّها لم تزحْ، قطّ، عن دربها، درب نفسٍ مليئةٍ استقامةً، ولا تَنْشُدُ سوى الله".

البابا بيوس التاسع
(١٧٩٢ - ١٨٧٨)
الذي رئس المجمع الفاتيكاني الأول
(١٨٦٩ - ١٨٧٠)

الفاتيكان

كان المحيطون بالأخت مريم، احترامًا لتواضعها، يحاولون إِغفال ما خُصّت به من خوارق، غير أنّها كانت تحتلّ في قلوب جميع راهبات كرمل پو مكانة الصدارة. وكان صِيت قداستها قد تخطّى حدود الدير، بعيدًا.

وكانت آفاقٌ نائيةٌ قد أَخذت تُوَجِّه إِليها النداء.

الفصل العاشر

مرحَلة منغالور

آب ١٨٧٠– تشرين الثاني ١٨٧٢

المؤسِّسة

كانت الراهبة التي شفت شهيدة الإسكندريّة قد أَنبأتها بأنّها سترتدي الثوب الرهبانيّ في ديرٍ، وستُبرز نذورها في ديرٍ آخر. وجاء تحقيق تلك النبوّة عَبْرَ تأسيس دير كرملٍ جديدٍ في مقاطعة منغالور الهنديّة، بمبادرة المطران ماري أفرام، النائب الرسوليّ في الهند، الذي كان، بمناسبة اشتراكه في المجمع المسكونيّ، قد زار كرمل "پو"، واطّلع على الخوارق التي كانت أداتها الأخت مريم يسوع المصلوب، فالتمس أن تكون تلك المبتدئة البسيطة الخارقة، من حجار الزاوية في كرمل الهند، علّها تُشيع حضور المسيح في تلك البقاع النائية.

وقد لاقى عرضه تجاوبًا دافقًا بالحماس لدى مرشدة المبتدئات، الأمّ إيلي، كما تطوّع للرسالة العديدُ من الراهبات، وفي مقدّمتهنّ الأخت مريم. ووافقت السلطات على تأسيس الكرمل الجديد، شرط أن يتوفّر له مؤسّسٌ مموّلٌ.

وقد عثرت الأخت مريم على ذلك المموّل، عندما تراءت لها، في تلك الفترة، فتاةٌ عذراء بادرتها بقولها: "يا أختاه، عليك بالكتابة إلى والدي جورج، فهو سيضطلع بتأسيس كرمل الهند، واعتبريه، منذ الآن، بمثابة أبٍ لك". وسألت الأخت مريم: "ولكنْ من هو جورج هذا؟". – "هو ذاك الذي سيتلقّى منه ديركم غدًا رسالة".

وفي الغد وردت إلى الكرمل رسالةٌ من الكونت دي نيدونشيل، وهو سليل إِحدى أعرق الأسر البلجيكيّة، ومن الذين تُلهبهم غَيرة خدمة الله، ولا يَعرف بَذْلهم، في هذا السبيل، حدودًا. أمَّا الفتاة العذراء التي تراءت للأخت مريم، فهي ابنته ماتيلد التي كانت سنواتها الأربع والعشرون على الأرض ملحمة تقوى وطهرٍ. لبضع سنواتٍ خلت، كانت في روما، عندما ألمّ بالأب الأقدس، البابا بيوس التاسع، داءٌ عضالٌ هدّد حياته، فتوسّلت ماتيلد أن تفتديه بحياتها، وكان لها ما أرادت، فشُفي البابا، وانطفأ شبابها، فجأةً، وهي في ميعة العافية، على نحوٍ لم يُدرك له أحدٌ تفسيرًا.

لا غرابة، إذن، أَن توطّد ماتيلد دي نيدونشيل بالأخت مريم أواصر أخوّةٍ وثيقةٍ، فهما، في ملائكيّتهما، صنوتان.

وألحفت الأخت مريم في التماس الكتابة إلى جورج دي نيدونشيل، مؤكّدةً ضمانها جوابًا إيجابيًّا؛ وعندما أطلعت رئيساتها على أمر الرؤيا، آثرنَ التثبُّت، فعرضن بين أيديها عددًا وفيرًا من صور فتياتٍ وسيّداتٍ، كانت بينهنّ صورة الآنسة ماتيلد. ولم تتردّد الأخت مريم في الإِشارة إليها، مع أنّها، قبل الرؤيا، لم تكن تعرف عنها شيئًا.

وعرضت رئيسة كرمل "بو" على جورج دي نيدونشيل اضطلاعه بتمويل تأسيس كرمل الهند، بيد أنّها، لكي لا توثّر على قراره، أغفلت أيّ تلميحٍ إلى رؤيا الأخت مريم. وسرعان ما وَرَدَ الردّ كريمًا، متدفّقًا حميّةً.

رحلة الموت: وفي شهر آب ١٨٧٠ أبحرت من مرسيليا قافلةٌ تضمّ الأمّ إيلي، وخمس راهباتٍ كرمليّات، بينهنّ المبتدئة مريم يسوع المصلوب، وثلاث راهباتٍ مساعداتٍ بقيادة الأب لازار والأب كراسيان، معاونَي المطران ماري أفرام الذي حملته مشاغله على التَّرَيُّث في فرنسا، بعض الوقت.

حتّى قناة السويس، لم يعكّر صفو الرحلة في البحر المتوسط أيّة شائبةٍ، لولا دُوارٌ انتاب بعض الراهبات، وعالجته الأمّ إيلي بكثيرٍ من الحدْب والتفاني. وقد ملأ منظر السماء اللامتناهية، والبحر الذي لا تبدو له شواطئ، نفسَ الأخت مريم، تعظيمًا للربّ، فأمضت معظم مدّة الرحلة مخطوفة الروح.

ولكن سرعان ما انقلبت الأوضاع، بعد أن ولجت السفينة مياه البحر الأحمر،

التي كانت، في تلك الفترة من السنة، في شبْه غليانٍ. ولم تحتمل الكرمليّات ذلك القيظ الخانق الذي لم يألفن له قطّ مثيلاً، فابتُلينَ جميعهنّ بإعياءٍ قاتلٍ. وفي الرابع من أيلول لفظت أولى الراهبات أنفاسها، وفي الغداة ووريت التراب في عدَن، ثمّ لحقت بها، بعد أيّامٍ ثلاثةٍ، أختٌ أُخرى. فارتأى الأب لازار أن تمكث الكرمليّات الباقيات في عدَن بعض الوقت، التماساً للنقاهة، وتفاديًا للمزيد من الضحايا.

الراهبة الثانية المرتحلة كانت الأخت أوفرازي، التي تميّزت بتقوى راسخةٍ، والتي كرّمها الربّ بإجراء أشفيةٍ بشفاعتها. فعند قبرها تعافت إحدى الراهبات من علّةٍ مستعصيةٍ كادت تودي بحياتها، كما نعمت الأخت مريم يسوع المصلوب، التي كانت قد تورّمت منها الساقان والقدمان، ممّا كان ينذر بمضاعفاتٍ وبيلةٍ، بشفاءٍ فوريٍّ مباغتٍ، بعد أن جثت عند ضريحها، وخاطبتها في عفويّتها المعهودة قائلةً: "اِسمعي، أيّتها الأخت أوفرازي. أنا لم أطلب منك أن تهبيني علّتك، فاسترجعيها". وهكذا استطاعت الانصراف إلى العناية بشؤون أخواتها السقيمات، والسعي إلى تأمين إقامةٍ لائقةٍ لهنّ، في بلدٍ غريبٍ.

وخليقٌ بالملاحظة أنّ الأب لازار، المعروف بواقعيّته التي لم تكن تحول، لديه، دون روحانيّةٍ ساميةٍ، قد ساوره، أوّل الأمر، بعض ارتيابٍ في الظواهر غير الطبيعيّة التي تسم سيرة الأخت مريم. بَيْدَ أنّه، بعد أن راقبها عن كثبٍ، وتحرّى تواضعها، وبساطتها، وتجرّدها المطلق، وسخاءٍ تضحيتها في سبيل الآخرين، بات أكثر الناس تقديرًا لها، وأرسخهم يقينًا بأنّ الله يتجلّى في أقوالها وأعمالها، وأشدّهم حماسًا في الدفاع عنها، حتّى عندما انقلب عليها الجميع[1]. وقد قال عنها في رسالةٍ

---

[1] في ما يلي شهادة الأب إيليا سانارو الكرمليّ في الأب لازار:

"لقد كان الأب لازار مستقيمًا حتّى التصلّب، عاجزًا عن الكذب، صُلبًا في التشبّث برأيه، إذا ما رآه صحيحًا، ولكنّه لا يتحرّج من التخلّي عنه، إذا ما ثبت لديه خطَله. وكان يتّسم، عمومًا، بالمحبّة والعطف. وكان قد انضمّ إلى جمعيّة الكرمليّين، في مرحلةٍ متقدّمةٍ من عمره. واتبَعَ دروساً لاهوتيّةً عندنا. وقد اختاره المطران ماري أفرام نائبًا عامًّا عنه. وما كان ذلك الأسقف ليعمد إلى هذا الاختيار لو لم يرَه جديرًا بالاضطلاع بتلك المهمّة...

وفي ما بعد، أعرب له الكردينال دي كابريير عن ثقته، باعتماده، سحابة سنواتٍ طويلةٍ، وحتّى وفاته، معرّفًا له... "لم يكن سريع التصديق، بل كان صُلبًا، يكوّن رأيه بنفسه.

"كان يبدو لي شديد القناعة بقداسة الأخت مريم يسوع المصلوب، مصرًّا على مباشرة دعوى تطويبها، ومع ذلك اتّضح

بعث بها في تلك الفترة إلى الآنسة أنديول التي أصبحت في ما بعد راهبةً كرمليّةً:

"هذه الفتاة تزداد يومًا فيومًا تعلّقًا بالله واتّحادًا به، كما أنّها تزداد تميّزًا وألمًا. أحيانًا يخامرني الشكّ، ولكنّ ذلك نادرٌ، بَيدَ أنّ سيادة الأسقف أكثر منّي ارتيابًا. إلاّ أنّ ما يطمئننا هو تواضعها ومحبّتها وتشبّثها بالتضحية. ومن جهةٍ أُخرى نحن نعلم أنّ الله يرتقي بالطبيعة من غير أن يدمّرها... إنّني أعتبر هذه الفتاة خادمةً لله كبيرةً".

ومن ثمّ، لم يحجم الأب لازار عن إيكال مصير الكرمليّات السقيمات إلى أخيه الأب كراسيان وإلى الأخت مريم، وواصل رحلته إلى الهند برفقة الراهبات المساعدات الثلاث.

وأُخطِر المطران ماري أفرام بالكارثة الباهظة التي حلّت بقطيعه الصغير، فهرع ملتاعًا يلملم بقاياه، ويمضي به إلى الهند، وقد توطّد لديه الإيمان بأنّ مشروعه سيرسى على أسٍّ متينٍ من الشهادة والفداء. ولكن لم يكن يخامره شكٌّ بأنّ التضحية الكبرى كانت لا تزال وشيكةً، وأنّ الكارثة الأشدّ ما برحت متربّصةً به.

يتمٌ جديدٌ: فقد خُيّل إليه أنّ رئيسة القافلة، الأمّ إيلي، قد تعافت، في حين أنّ إصابتها، في الواقع، كانت قاضيةً، وأنّ الداء إنّما كان قد فسح لها هدنةً قصيرةً تُتيح لها الوصول إلى غاية رحلتها. وقد غمرها فرحٌ عارمٌ عندما داست أرض الهند، وأخذت بها النشوة لمّا شهدت اللقاء الحافل الذي قابلت به جماهير هنديّةٌ وصول موكب النائب الرسوليّ. غير أنّها سرعان ما خارت قواها، وفارقت الحياة بعد خمسة عشر يومًا من الآلام الحادّة، فكان جثمانها الطاهر حجر الأساس في كرمل منغالور.

وفي غضون تلك الأيّام العصيبة، ما انفكّت الأخت مريم يسوع المصلوب تلازم أمّها الأثيرة بعنايةٍ دؤوبةٍ. إلا أنّه كان قد أُوحي إليها بأنّ عليها التضحية، قريبًا، بأعزّ كائنٍ على قلبها. وقد تراءى لها ملاكٌ في هيئة طفلٍ يقدّم لها كأسًا مترعةً وصليبًا باهظًا، وبدا لها أنّها لم ترشف قطرةً واحدةً، بعدُ، من الكأس، ولكنّ الملاك أنذرها: "عليك أن تشربيها حتّى القطرة الأخيرة، كما عليك أن تموتي على هذا الصليب، بعد أن أقطع جميع الأغصان التي بها تتعلّقين".

لي أنه لم يكن، قطُّ، مُغاليًا ولا مُتَهَوِّرًا".

وعندما شعرت الأمّ إيلي بدنوّ أَجلها، راحت تبحث بأنظارها عن ابنتها الحبيبة. وهرعت الأخت مريم، وجلست إلى جانبها، فألقت الأمّ المحتضرة ظهرها بين ذراعي ابنتها، وأسندت رأسها على صدرها، وأسلمت الروح، في تعبيرٍ أَخيرٍ رائعٍ عن حبٍّ كان يملأ جوارحها.

وقد خشي الجميع على الأخت مريم من صدمةٍ قاسيةٍ قاضيةٍ، بعد أن تجدّد يُتْمها، مرّةً أُخرى، وفقدت من كانت لها أمًّا عطوفًا، أمحضتها حبًّا خالصًا، ومرشدةً متبصّرةً قادت خُطاها في حنكةٍ ودرايةٍ وحدْبٍ. غير أنّ الأخت مريم كانت قد باتت أشدّ تمرّسًا، وأكثر استسلامًا للمشيئة الإلهيّة، وتجرّدًا من كلّ أرضيٍّ، وأوثق تآلفًا مع التضحية، وكان الروح قد أعدّها لتلك التضحية القصوى.

وقد تجسَّدت كوامن نفسها، إزاء ذلك الحَدَث الجلَل، في هذا النشيد الذي تفجّر عن أعماق كيانها، وفاضت به نفسها حزنًا واستسلامًا للصليب، على السواء، وجاء فيه:

"سأُنشد، سأنشد،
في الفرح والألم سأنشد،
الصليب ثقيلٌ، ثقيلٌ، حقًّا،
ولكنّ الدرب قصيرٌ، قصيرٌ حقًّا.
سأُنشد، سأنشد،
في هذا المنفى سأُنشد،
يا مريم، أمّي، احميني،
صبرًا ووداعةً وفرّي لي،
ومع يسوع باركيني.
سأنفرد في صحراء،
وسأدعو الله مخلّصي،
سأتكلّم بصوتٍ خافتٍ خافت،
مناجاة قلبٍ لقلبٍ،
التضحية باهظة الثمن،
وسأقدّمها من كلّ القلب.

لا عذوبة في هذا المنفى،
هلمّوا، هيّا.
أخواتي فلنتبع يسوع إلى الجلجلة،
لا عذوبة في هذا المنفى،
ولكنّني سأقبل بفرحٍ،
صليب مخلّصي".

صحيحٌ أنّ ذلك الفراق قد أصابها بأوصابٍ جسديّةٍ موجعةٍ، ولكنّها وقفت منه وقفةً صامدةً شجاعةً، أثارت إعجاب الجميع. وقد علّق الأب كراسيان بقوله: "إنّ ذلك الفراق الأليم قد أسبغ على كلّ سلوكها طابعًا أرفع سموًّا. وإنّ موقفها لخليقٌ بالإعجاب، وهو في نظري دليلٌ في صالح جميع الظواهر الأُخرى".

وهي نفسها كتبت إلى الأب مانوداس، في أعقاب تلك الفاجعة تقول: "الآن تجرّدت من كلّ شيءٍ".

ولكنّ حبًّا طاهرًا مثل هذا لا يموت. فقد رأت الأخت مريم نفس الأمّ إيلي، بضعة أيّامٍ بعد وفاتها، تُغادر المطهر وترتقي إلى السماء، ساطعةً كالشمس. ومذ ذاك، لم تتوانَ تلك الأمّ الحنون عن زيارة ابنتها الروحيّة لتُعزّيها وتشدّ أَزرها، كلّما داهمتها محنةٌ قاسيةٌ: ولطالما ناجتها ساعاتٍ طوالٍ أثناء انخطافها.

فظواهر الانخطاف والخوارق ظلّت تنسج سيرة الأخت مريم في منغالور، مثلما كانت في پو؛ فالكهنة الذين كانوا يشهدونها للمرّة الأولى، والذين قابلوها، أوّل الأمر، بشيءٍ من الارتياب، أيقنوا بمصدرها الإلهيّ، بعدما رقبوا سلوك الأخت اليوميّ، وما يمتاز به من تواضعٍ، ومحبّةٍ، وتضحيةٍ. لقد ألمحنا إلى تحوّل موقف الأب لازار، ولا بدّ من أن نورد أيضاً شهادةً للأب كراسيان الذي قال: "يستحيل ألاّ يكون ذلك من الله. فهذه الفتاة لا تُعيرُ بالاً لكلّ تلك الخوارق، فأعمال المطبخ هي التي تشغلها، وكم تبدي من تفانٍ ومحبّةٍ للجميع." وقد أيّدت الرئيسة الجديدة على كرمل منغالور ذلك الموقف بشهادةٍ مماثلةٍ: "الآن ترسّخ لديّ اليقين، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بأن كلّ ما يجري لتلك الابنة المحبوبة هو من الله، وأنّني رغم عدم جدارتي، سأكون شاهدةً على ما سيُغدقه الربّ من نِعَمٍ على تلك النفس. إنّ المطران ماري أفرام والأب لازار والأب كراسيان يشاطرونني، في ذلك، الرأي".

تأهّب للنذور الرهبانيّة

إِثر ما حلّ بقافلة الروّاد من كوارث، رُفد كرمل منغالور الجديد بمتطوّعاتٍ وافَيْنَ من كرملي پو وبايونّ. وفي نهاية عام ١٨٧٠ كانت الأمّ ماري المخلّص قد عُيِّنت رئيسةً على الدير، والأخت ماري الطفل يسوع مرشدةً للمبتدئات. وكان على الأخت مريم أَن تنهي فترة ابتدائها تحت إِشرافهما. إلاّ أنّه كان قد أوحي إِليها بألاّ تبوح بأسرار نفسها إلى أيّةٍ منهما، مقتصرةً على الإفضاء بها إلى معرّفها، وإلى الأسقف، إِن اقتضى الأمر. ولم يكن في ذلك ما ينافي أنظمة الكرمل، إلاّ أنّه كان سببًا لشنّ حربٍ نفسيّةٍ عاتيةٍ عليها.

إلاّ أن الربّ قد عوّضها عن الأم إيلي بالأب لازار، النائب الأسقفيّ في منغالور، الذي أصبح لها معرّفًا، والذي كان، آنذاك، في الثانية والأربعين من العمر، متمرّساً بخبرةٍ طويلةٍ متبصّرةٍ وغنيّةٍ في إِدارة النفوس، ومتدرّعًا بإِرادةٍ لا تعرف في الحقّ مداورةً ولا استتسلامًا، وبرهافة إِحساسٍ بالغة الرقّة، يغلّفها مظهرٌ من القسوة والصرامة مستمدّتَيْن من استقامةٍ لا تلين.

وكان للأب لازار الفضل الأكبر في تحقيق رغبة الأخت مريم في العودة إلى اعتمار القناع الأبيض الذي يميّز الراهبات العاملات في الخدمات اليدويّة العامّة، وعلى هذا النحو أنهت أشهر ابتدائها، دائبةً على أعمال المطبخ وشؤون التنظيف، وشتّى الأعمال اليدويّة التي كانت تلبّي أعمق ما في نفسها من ميلٍ إلى الامّحاء والتفاني في خدمة الآخرين. وتؤكّد الشهادات بشأنها، في تلك الفترة، أنّها كانت تؤدّي عمل أربعة أَشخاصٍ، في همّةٍ لا تهمد ولا يتسرّب إليها كَلَلٌ.

وفضلاً عن ذلك الدأب، عكفت على ممارسة التقشّف، تقسو به على جسدها بقدر ما تلقي عليه من أعباءٍ باهظةٍ. فقد باشرت، منذ شهر كانون الثاني ١٨٧٠، صيامًا لمدّة ستّة أشهرٍ كانت تتناول خلاله وجبةً واحدةً في النهار تتكوّن من أرزٍّ مسلوقٍ أو من نَمَطٍ واحدٍ من السمك المسلوق، لا يتغيّر.

في هوّة الله: بين أَيدينا عن تلك الفترة من سيرة الأخت مريم فَيْضٌ من الشهادات التي تبرز لنا صورةً أخّاذةً لنفسٍ وثيقة الاتّحاد بالله، مندغمةٍ به، غارقةٍ في رحابه.

تقول إحدى أخواتها الراهبات:

"كانت تصلّي في كثيرٍ من الإيمان والخشوع، وغالبًا ما يتولاّها الوجْد الإلهيّ أثناء الصلاة. بل كثيرًا ما شاهَدْتها، أثناء الفسحة، تصارع الانخطاف، إذ ما تكاد تشرع الأمّ الرئيسة بنشيدٍ للعذراء، حتّى تحلّق الأخت مريم إلى عالم السماء.

"ولطالما سمعنها، في الصباح، عند استيقاظها، تنطق بعباراتٍ تضطرم حبًّا، وكنت أتعقّبها فأراها تمضي إلى القربان الأقدس، وتجثو أمامه في اندفاعٍ، وتظلّ جامدةً، وقتًا طويلاً، وقد تبقى مختطفةً، أمام القربان، ساعاتٍ عديدةً.

"مع أنّها كانت، بفطرتها، مندفعةً، إلا أنّ اتّحادها الحميم بالله كان يتجلّى حتّى في أثناء أكثر مشاغلها المادّية استقطابًا للاهتمام. حين كنت مبتدئةً، كنت أعمل معها. وعندما كنّا نؤدّي عملاً مرهقًا كانت تردّد: "**كلّ شيءٍ من أجل يسوع**"؛ وتضرب لنا مثالاً في السخاء والفرح.

"لقد شاهدتها في حالة انخطافٍ، حتّى أَثناء تأديتها مهامّها اليدويّة، وكانت، حينئذ، تؤدّيها على خير وجهٍ. وقد يداهمها الوجد الإلهيّ وهي على مائدة الطعام، فتظلّ في الوضع الذي فاجأها، كأن تبقى يدها ممدودةً نحو كأس ماءٍ. غير أَنّ أمر الرئيسة كان كافيًا لإِعادتها إلى أرض الواقع.

"وكانت تحدوها إِلى المناولة رغبةٌ عارمةٌ، فتنتظرها وهي جاثيةٌ، تردّد عبارات التوْق، وغالبًا، في حالة انخطافٍ.

"وكانت حريصةً على كتمان تضحياتها وكرامات الله عليها. فإذا ما حاول أحدٌ رؤية سماتها، بادرت إلى إخفاء يديها بين أردان ردائها الرهبانيّ، وهكذا أمضيت إلى جوارها أربعة عشر شهرًا، ولم أستطع مشاهدة تلك السمات. وعندما كان الانخطاف يداهمها كانت الأمّ الرئيسة تُبعدنا عنها، لأنّها لو علمت بأنّنا شاهدنا عمل الربّ المميّز فيها، لعانت من ذلك خجلاً وعنَتًا. وكان يوعَز إِلينا ألاّ نحدّثها في ذلك أَبدًا.

"وذات يومٍ، طلبت منّي الرئيسة أن أحمل فراش القشّ الذي أنام عليه، وأقاسم الأخت مريم غرفتها، فهرعت هذه إلى الأمّ الرئيسة معترضةً، إذ إنّها كانت ترتدي مسْحًا خشنًا أثبتت فيه قطعًا من القشّ القاسي تخزّ جسمها، وتحتمل وخزاته آناء الليل وأَثناء النهار، حتّى وهي تِؤدّي واجبات الطبخ وما شابهها. وكانت شديدة الحرص على ألاّ يحيط أحدٌ بذلك علمًا، خلا الرئيسة".

ويشهد الأب إيليا سانارو الكرمليّ، الذي عرفها في تلك الفترة:

"كان يكسو محيّاها طابعٌ من البساطة والطيبة، وكنت أجد فيها نفسًا عميقة التواضع. لم تكلّمني، يومًا، عن سمات الجراح المقدّسة فيها، ولا عن رؤاها، وعمّا يحدث لها من خوارق.

"كانت فرحةً، من غير أَن تحيد، يومًا، عن الحشمة الرهبانيّة. لم تكن ثرثارةً ولا متكتّمةً. بل كانت بسيطةً ومتّضعةً. كانت مُحتشمةً في وقفتها وفي نظرها. ولم تُعطِنا، يومًا، انطباعًا بالازدواجيّة والرياء، ولم أسمع عنها سوءًا".

إلاّ أن أكمل صورة للأخت مريم وأوضحها هي تلك التي تتجلّى من خلال مذكّرات معرّفها الأب لازار، عن تلك الحقبة، والتي يخلق بنا أن نورد مقاطع منها.

ففي ١٨٧٠/١٠/٣٠ كتب الأب لازار:

"من غير أن أصدر حكمًا نهائيًّا، أظنّ أنّ بوسعي القول أَنّ الأخت مريم يسوع المصلوب، هي، حقًّا، نفسٌ وقع عليها اختيار السماء وقدّسها الله. فكلّ جارحةٍ في كيانها تهتف ليسوع: إنّي أحبّك! إنّها، حقًّا، مفعمةٌ حبًّا. ولكن أيّ ثمنٍ باهظٍ – بالمقياس البشريّ – قد دفعته لقاء ما يميّزها به الله، وأيّة آلامٍ! غير أَنّ هذه الآلام نفسها هي أقنيةٌ يعبر من خلالها الله إلى تلك النفس الشديدة البساطة والطهر والاستقامة".

ودوّن الأب لازار في مذكّراته ما حدث لها يوم ١٨ نيسان ١٨٧١ فقال:

"كانت مُتعبةً، مُنهكةً، ومع ذلك، كانت تجرّ نفسها جرًّا، ولكن، بعد فترة، أعياها الإِرهاق والألم، فهوت عند جدار الشُرفة، وظلّت هناك تعاني من التحطّم والوجع، وهي في شِبه غيبوبةٍ، في حين كانت الراهبات يُقِمن طقوس الصلاة.

"وبعد لأيٍ، استعادت وَعيها، وتمكّنت من جرّ نفسها إلى السرير، حيث استلقت من غير أن تستطيع خلع ملابسها، وهي ترفع إلى الله، في حبٍّ، دموع شكواها قائلةً: "**اِجعلني أجتاز عَبر النار، وعَبر الجحيم، إن كانت تلك هي مشيئتك، شرط أن أنتهي إليك، ولكنّني لا أبتغي سواك**". وبغتةً رأت ما يشبه ظلاً كبيرًا، وسمعت صوتًا يقول: "لا تخشي شيئًا. ها أنذا. علام تبتئسين؟ أنا أريد أن تتألمي" وقد أشاع ذلك الصوت في نفسها سلامًا لا يوصف".

هذا، ويبدو أَنّ غَرَقَها في الله قد أكسبها نفاذ بصيرةٍ، قادرًا على هَتك حُجب الخداع التي يَتَلَفَّع بها البشر؛ وقد حدث أَنّ إحدى المبتدئات في الدير أخذت تصطنع حالات الانخطاف، ولكنّها كانت لا تُطيق التحديق في عيني الأخت مريم يسوع المصلوب. وقد لفتت هذه نظر الرئيسة إلى مخادعة تلك المبتدئة التي ما عتّم أن افتضح أَمرها، فهجرت الدير.

صراعٌ جديدٌ مع إبليس

تلك الفضائل النادرة والممارسات البطوليّة قد أوغرت صدر إبليس، فعاد يشنّ على أختنا هجماتٍ ضاريةً قابلتها في صمودٍ لا يلين. وقد اشتدّت وطأة تلك الهجمات في شهر نيسان ١٨٧١، ولبست ألوانًا شتّى. فكثيرًا ما تراءى لها الشرير، مثلاً، في زيّ الأمّ الرئيسة ومَنَعها من تناول الأسرار المقدّسة.

ومنذ العشرين من شهر حزيران، عاد فاستحوذ، مدّة عشرة أيّامٍ، على جسدها، وسامه من التعذيب قسطًا جمًّا. وكان الكاهن يأمره، باسم يسوع، أَن يخرج منها، فيحاول التمرّد، ثمّ يُذعن، ويبتعد فترةً قصيرةً ليعود بعدها أَشدّ هياجًا وشراسةً، فتأخذ الضحيّة المسكينة بتحطيم ذاتها، وتزأر، بل إِنّها قد حاولت، مرّةً، تسلّق سور الدير بُغية الفرار. وكان صراخها يشتدّ كلّما دخل كاهنٌ أو أبرز مسبحةً أو صليبًا. وإِذا ما أشير إلى سمات الجراح في يديها ورجليها كان إبليس يزداد هياجًا، ويعكف على مكان السمات يعضّه ويبصق عليه، وإذا ما ذُكِرت سمات الجراح في جبينها ينهال عليها لكمًا.

هياجٌ وحقدٌ لا يمكن أَن ينبعا إلاّ من جهنّم.

وكانت آلام الأخت مريم، من جرّاء ذلك، رهيبةً مضنيةً، وحلقها ممزّقًا، مقبوضاً، بحيث لا تقوى على التنفّس وتكاد تختنق؛ وكانت الجراح تغشى صدرها بفعل يدٍ أَثيمةٍ خفيّة؛ وكانت أحشاؤها تضطرب وترتعد، فتتأوّه وكأنّ أحد أعضائها ينسلخ عن جسمها؛ وكان إبليس لا يني يجهد من أَجل دقّ عنقها وقتلها، ويحملها على ابتلاع الدبابيس، وعلى صدم رأسها بكلّ صلبٍ. ولكن ما إنْ تتراخى قبضته عليها، حتّى تتدفّق تسبيحًا لله وشكرًا له.

وفي اليوم السادس لاستحواذ إبليس عليها، هدّد قائلاً: "سأقتلها قبل أن أهجرها"، فردّ عليه الأب لازار: "بل ستفعل فقط ما سيؤذن لك بفعله، لا أكثر ولا أقلّ، فإنّما أنت عبدٌ". أجاب: "أنا ملكٌ..." – "لا بل أنت عبدٌ مقيّدٌ، يوثقك يسوع بالأغلال. ولن تفعل سوى ما يأذن لك المعلّم بفعله".

وأشار الأب كراسيان إلى اَلنُّدْبَة في عنقها مستفسرًا: "لمَ حصل ذلك للأخت مريم يسوع المصلوب؟" فاضطرّ إبليس إلى الردّ، مقهورًا: "حفاظًا على إيمانها وعفّتها".

وقد اعترف إبليس للأبوين لازار وكراسيان أنّه مرغمٌ على الخضوع لهما لأنّهما يُقيمان القدّاس، ولكنّه لا يخضع للأمّ الرئيسة ولا لأيّ شخصٍ آخر ليست له سلطة إِقامة القدّاس.

وكان الملاك المنحطّ يدرك اللغة اللاتينيّة ويمقتها، وكذلك اللغة اليونانيّة، وحتّى اللهجات الهنديّة التي لم تكن الأخت مريم تفقه منها شيئًا. فكان يجيب دائمًا بالفرنسيّة على أوامر تصدر إِليه بتلك اللغات واللهجات.

ويروي الأب لازار أنّه، فيما كان إلى جانبها ذات يومٍ، يؤازرها على مكافحة الشرّير، وافته راهبةٌ برسالةٍ واردةٍ من رئيسة ديرٍ للراهبات في سوريّة، تشيد بفضائل الأخت مريم، وتبرّر كلّ الكرامات التي أغدقت عليها في كرمل "پو"، وقد استفزّت هذه الرسالة إبليس فحاول، أربع مرّاتٍ، انتزاعها وتمزيقها، غير أنّ الأب لازار جابهه سائلاً: "أتعرف مصدر هذه الرسالة وفحواها؟" فردّ بالإِيجاب. وسألهُ: "أتودّ تمزيقها؟" قال: "نعم"، حينئذٍ تحدّاه الأب لازار بقوله: "هذه الرسالة تنطوي على تبرير الأخت مريم يسوع المصلوب، فإنْ كان يسوع يسمح لك بتمزيقها، فهاكها، مزّقها". ومدّ له الرسالة. ولكنّ الشرّير لم يجسر آنذاك على مسّها، كما كان يحاول من قبل، بل أمسك يده عنها، وأمال الرأس في اكتئابٍ وغضبٍ، فسخر منه الأب لازار قائلاً: "إذن أنت لست سوى عبدٍ، أَليس كذلك؟ أترى كيف أنّك لا تستطيع شيئًا إلاّ بإذن المعلّم؟".

ومع انتهاء صيام الأخت مريم، في نهاية حزيران ١٨٧١، أَخذ إبليس يلملم أذيال الرحيل، فدعت جميع الحاضرين أن يردّدوا معها:

"**يا مريم أمّي، بادري إلى معونتي!**". ثم أردفت: "**اِهتفوا معي: يا يسوع استيقظ وتعالَ**". وقد سجّل الأب لازار، في مذكّراته، بتاريخ ٢٨ حزيران، يومين قبل انتهاء محنة الأخت مريم:

"في العشيّة، وعند منتصف الليل، مرّت بفترات وعيٍ طويلةٍ بعض الشيء، كانت خلالها تُنادي يسوع بكلّ طاقاتها، وتحثّنا، نحن أيضاً، على استدعائه. وكانت كلّما قالت: "تعالَ، يا يسوع" تكاد تجهش بالبكاء. ومن المؤكّد أنّه كان بالإمكان رؤية النعمة وهي تغمر ذلك القلب، الذي لا يلبث أن يتصلّب حالما تتراخى القيود التي تبقي إبليس أسيرًا، والتي كانت تقبض عليها يدٌ خفيّةٌ يحني تحتها، مرغمًا، رأسه المتعجرف الدّنس".

ومع دنوّ نهاية محنتها، بات نداؤها للكائنات أشدّ لجاجةً، وطفقت تشيد: "**أيّها السقف انفتح كي يمرّ يسوع! أيّتها الجدران تفرّقي كي تفسحي ليسوع طريقًا! أيّتها النوافذ انفرجي كي يستطيع يسوع العبور!. أيّتها الرياح، احملي لي يسوع! أيّتها الأمطار والأرض والسماء أعطيني يسوع!**".

وعادت تسأل الأب لازار في إلحاحٍ: "**أبتاه، متى سيحضر يسوع؟**" فأجابها: "إنّ هجمة الشرّير الأخيرة ستكون مُضنيةً شرسةً، وبعدها سيحضر يسوع". فهتفت: "**لست أبالي بعُنفها ولا بشراستها، ولو أفضَت إلى موتي، على أن أظفر بيسوع**".

ويعلّق الأب لازار قائلاً: "إنّه ليعسر تخيّل ما كانت تنطوي عليه نبرات عباراتها من حنانٍ. لقد كان صوتها، آنذاك، كفيلاً بتحريك قلب نَمِرٍ؛ إلاّ أنّني كنت أصمد في وجه توسّلاتها. وأقرّ بأنني قليلاً ما عانيت، في حياتي، مثل ما عانيت من جرّاء اضطراري إلى التزام الصمت في تلك الفترات".

ويضيف الأب لازار: "لقد كانت تصرخ في نبرةٍ لم أسمع ولن أسمع نظيرها في حياتي. لقد كان في صوتها ما يحرّك الأحشاء. من المؤكّد أنّ الله كان في تلك الصرخة".

وفي الساعات الأَخيرة، ضاعف الأبالسة ضراوة هجماتهم عليها، ولكنّها ما إن كانت تنعم بلحظة هدنةٍ حتّى تهتف: "تعال، يا يسوع". وترجو الكائنات جميعَها ألاّ تحول دون حضور يسوع، بسبب خطاياها، بل أن تساعد في دفع يسوع إليها.

وكانت لا تني ترجو الأب لازار: "يا أبتِ، أنا في هوّةٍ ، أتوسّل إليك أن تنتشلني منها". فأكّد لها، جاهدًا الشدّ مِن عَضُدها، أنّ محنتها قد أشرفت على نهايتها، فأشرق وجهها بابتسامةٍ سماويّةٍ، واغرورقت عيناها بدموع الامتنان. وعادت الأبالسة ترهقها، فاستنجدت من جديدٍ: "**أبتاه! متى سيحضر يسوع؟ إنّه نائمٌ، متى سيحضر!**".

حينئذٍ شرع إبليس يزأر: "إنّني أحترق ههنا، أودّ الفرار، دعوني أذهب". وردّ عليه الأب لازار، بأنّه لن يذهب إلاّ في الدقيقة التي حُدّدت لذلك، عندما يحضر يسوع ليطرده ويؤكّد له أنّه عبده.

ولما أذنت ساعة التحرّر، عاد جسد الأخت مريم المعذّب يتألّق هيكلاً مقدّسًا للربّ، فجعل رئيس الأبالسة يتوسّل مجدّدًا الأب لازار:

"إئذن لي بالخروج، فإنّني أعاني في هذا الجسد عذاب ألف جحيمٍ". وجاءه الردّ صارمًا: "تألّم أيّها الوحش، ستبقى حتّى الموعد المضروب".

وبُعيد الساعة الحادية عشرة جثَت الأخت مريم فوق سريرها، وأعلنت في صوتٍ مجلجلٍ مؤثّرٍ: "**إنّني أعلن أمام الله والملأ، وأمام الكون أجمع، أنَّنِي أوثر أنْ أُزدَرى، وأن أتألّم في الزيت المغليّ، في الجحيم، إن اقتضى الأمر، برفقة يسوع، على أن أكون ملكةً على جميع ممالك الكون، من غَير يسوع**".

وعند الظهر، تبدّلت ملامحها في تجلٍّ رائعٍ، وارتدى محيّاها الذي كان قد بدا، أثناء أيّام المحنة العشرة، وكأنّه هَرِمَ عشرين عامًا، سكينةً سماويّةً، ودخلت في انخطافٍ فرحٍ وسعادةٍ، واكتسبت نفسها إشراقًا ونقاءً وشفافيّةً مثل سماءٍ في أعقاب انجلاء عاصفةٍ. وطفقت تتكلّم عن يسوع الذي نهض، والذي كانت تراه قادمًا من بعيدٍ، من قلب غمامةٍ، والذي كانت كلّ الخلائق ترتعش سعادةً بقدومه وتدفعه إليها. ومدّت إليه ذراعيها، وظلّت هكذا برهةً، ثم هتفت:

"**يا إلهي إنّني راضيةٌ، يا إلهي إنّني راضيةٌ، يا إلهي إنّني راضيةٌ بكلّ ما تشاء**".

ثم تناولت القربان المقدّس، وراحت تهتف: "**أيّها الحبّ! أيّها الحبّ، كم يجهلك العالم!**".

وقد بات واضحًا لكلّ من سمعها، أنّ الصوت الذي كان بالأمس يستخدمه إبليس، قد أصبح أداةً ينطق بها الله.

وحَسبنا تعليقًا على هذا الاستحواذ الشيطاني الثاني، اضطرار إبليس، في نهايته إلى الاعتراف:

"لقد عملنا كل ما وسعنا عمله منذ ثلاث سنواتٍ؛ لقد استفززنا العالم كلّه عليهـا، ولم نُفلح في النيل منها. لو فعلنا بمدينةٍ كاملةٍ، ما فعلناه بهذا "العدم الصغير"، لقضينا عليها بِرمّتها! آه! لو عرفت أنّها هي "العدم الصغير".

وقد اعترف، أيضًا، أنّه طوال تلك السنوات الثلاث، قد تلبّس أشـكالاً مختلفـةً، أشكال المطران والرئيسة والراهبات، وحتّى شكل أمّ الله، ليُغويها. ولكنّ الفشل كان، أبدًا، مؤدّاه وحصاده.

وكانت الأخت مريم نفسها قد تنبّأت:

"سيحملني الشرّير على ارتكاب الكثير من الأخطاء التي سأشربها كالماء، ولكنّ ذلك سيظلّ خارجًا عنّي. أمّا أنا فلن أخطئ، على غرار أطفالٍ لا يُدركون، وبالتـالي فهم لا يقوَون على ارتكاب خطيئةٍ".

نجيّة الرب

بعد انعتاقها من محنتها، بدت الأخت مريم أوفر صحّةً وعافيةً ممّا كانت عليـه في السنين السالفة، رغم الصوم والتقشّف، وما مُنيت به من هجماتٍ جهنّميّةٍ.

وقد أغدق الربّ عليها، في تلك الفترة، من الخوارق والكرامات، ما لم يفعـل، قطّ، من قبل، فكانت تُختطف إلى العالم العُلويّ يوميًّا، حتّى أثناء قيامها بأكثر مهامّها اليوميّة وضاعةً. وكان الانخطاف ينتابها، على نحوٍ خاصٍّ، بعـد تناولهـا القربـان المقدّس، فيُشرق محيّاها، ويفيض قلبها أناشيد حبٍّ ورجاءٍ؛ وكانـت ماضـيةً فـي مسيرتها الحثيثة شطر الكمال بخُطى ثابتةٍ مِقدامةٍ. لقد كتب الأب لازار عنها بتاريخ ١٨٧١/٧/١٩ ما يلي:

"في أعقاب انعتاقها، تغيّرت ملامحها، بحيث بات متعذّرًا تعرّفها. إنّهـا مـلاكٌ مصلوبٌ. ولكن كم الربّ رؤوفٌ بها! إنّها منفتحةٌ عليه، والمعلّم الإلهيّ يغنيها كـلّ يومٍ بنِعَمٍ جديدةٍ. إنّها تناجيه وتحادثه، بل إنّها تعبث معـه، علـى غـرار قدّيـساتنا الكثيرات...".

وفي السادس عشر من آب ١٨٧١ كتب:

"سيكون لنا في الأخت مريم قدّيسةٌ كبيرةٌ، إن هي ظلّت أبدًا وفيّةً. وستكون سيرتها إحدى أعجب السير في تاريخ الكنيسة. لا يمكن تخيّل رحمة يسوع، فهي تتخطّى خَيال البشر. ها إنّ أختنا، منذ يومين، تائهةٌ في الله، وقلبها يضطرم حبًّا له، ولن أدهَش إن هي ماتت من الحبّ يومًا. إنّ السماء تحادثها على نحو ما نتحادث في ما بيننا".

أمّا في الثالث عشر من أيلول، فقد سجّل في مذكراته:

"الأخت مريم يسوع المصلوب، لا تنفكّ تثير المزيد من الإعجاب. لا يكاد يمرّ يومٌ لا تكون فيه في انخطافٍ. مؤخّرًا استغرق انخطافها ثلاثة أيّامٍ أو أربعةً. إنّ يسوع يحدّث هذه النفس المباركة في شؤون العالم أجمع، وفي شؤون الخلاص، على نحو ما نتحدّث نحن في شؤوننا الدنيويّة. إنّها، مع ما هي عليه من بساطةٍ، بل من حياءٍ في علاقتها مع البشر، تُبدي من الجرأة في تعاملها مع الله، ما يُحاكي جرأة الأنبياء. إنّني مدينٌ لها بخيرٍ جمٍّ، إذ قد تنازل الربّ وأوكل إلَيَّ العناية بتلك النفس ليخلّص نفسي".

وفي أعقاب استماعه إلى اعترافٍ شاملٍ منها، بتاريخ ١٨٧١/١٠/٢٩ كتب الأب لازار: "يسعدني أنّني أحطت اليوم علمًا بكلّ سيرة الأخت مريم يسوع المصلوب. يا لها من نفسٍ! لقد بتّ الآن مُوقنًا بأنّها ستمضي إلى السماء، وهي لم تُهِن الربّ يومًا إِهانةً جسيمةً. بل إنّني على استعدادٍ لكي أؤكّد أمام العالم أجمع أنّ جمال نفسها، وصورة الله فيها، لم تعكّرهما، يومًا، شائبةٌ. إنّها للبراءة سرٌّ".

كم هم الذين يستأهلون مثل هذه الشهادة، ممّن درجوا يومًا على وجه البسيطة، وعاشوا بين أرجائها؟

رِيبٌ تتبدّد مؤقتًا

في الثاني والعشرين من تمّوز ١٨٧١ ظهرت الأم إيلي لابنتها الروحيّة الأخت مريم، وبشّرتها بأنّها ستُبرز نذورها الرهبانيّة في الحادي والعشرين من تشرين الثاني، يوم عيد تقدمة العذراء إلى الهيكل. ومع أنّ الأخت احتفظت لنفسها بتلك

البُشرى، وكتمتها، إلاّ أنّ مجمع الدير ما لبث أن التأم وقرّر بالإجماع السماح لها بإبراز نذورها، وحُدِّد موعدها، بالفعل، في التاريخ نفسه الذي أنبأت به الأمّ إيلي.

وقد طلبت الأخت مريم أَن تستعدّ لهذا الحدث الأساسيّ في حياتها بخلوةٍ روحيّةٍ مدّتها ثلاثة أسابيع. وعزم المطران ماري أفرام أَن يراقبها، خلال تلك الفترة، بدقّةٍ، وعن كثَبٍ، إذ كانت الخوارق التي تنسج سيرتها ما انفكّت تثير لديه بعض الرّيَب، فقرّر أَن يستجوبها باطّرادٍ، ويوميًّا، ويستمع إلى أحاديث الخوارق التي كانت لها أَداةً، ويتحرّى، على الطبيعة، مشاعرها السائدة، ويستقصي، من خلال كلّ عبارةٍ من عباراتها، الكلمات العفويّة التي غالبًا ما تعرّي النفس وتكشف جوهرها الحقّ.

وقد تبدّدت جميع ريَبه، بعدما لمس لديها من تواضعٍ، وطاعةٍ، وازدراءٍ لذاتها، رغم فيضان الخوارق المتدفّق عَليها. وقد صرّح بذلك في تأكيدٍ قاطعٍ إذ قال لها: "إنّ كلّ ما يحدث لك آتٍ من الله". وأردف موضحًا أنّ الأمّ الرئيسة تؤيّد تأييدًا مطلقًا هذا الرأي.

وكتبت الأمّ الرئيسة بتاريخ ١٨٧١/١١/٢٢ عن الأخت مريم:

"انتابتها توثّباتٌ عنيفةٌ، ذهلت بها عن نفسها، وكانت، خلالها، تتكلّم عن حبّ يسوع، كلامًا مذهلاً، فتهتف: "**أشعر أنّ عليّ أنْ أموت عمّا قريب، إذ كيف لي أن أحيا على هذه الأرض؟ لم أعُد أقوى على ذلك، فلا بدّ من رؤية يسوع. أجل، أيّتها الأمّ الرئيسة، اِعلمي جيّدًا أنّ هذا القلب كلّه ليسوع**". وكانت وهي تقول ذلك، تضع يدها على قلبها في منظرٍ أخّاذٍ. وفي اليوم التالي، إثر المناولة المقدّسة، اجتاحتها تباريح وَجْدٍ مدهشَةٌ، فراحت تعدو في الحديقة وهي تجأر بالحبّ وتنشد: "**كلّ شيءٍ هو الله، كلّ شيءٍ هو الله**"، **وتقبّل الأشجار والزهور والأرض قائلةً**: "آه! **ما أعظم أعمال الربّ! كلّ شيءٍ يحدّثنا عن الله، ولكنْ جلّ ما يبتغيه إبليس هو إخفاء الله عنّا**".

كيف لمن يُطالع شهاداتٍ على هذا الجانب من التأكيد الواثق أن يتخيّل انقلاب كلٍّ من الأسقف نفسه، والرئيسة عينها، في غضون أيّامٍ معدوداتٍ، إلى متشكّكين في سيرة الأخت مريم، منددين بها، بحيث عزَوا إلى الشيطان الكثير من أقوالها وأفعالها؟

لا رَيْبَ أنّ العناية الإلهيّة تستخدم، أحيانًا، قدّيسين لامتحان مختاريها، وأنّ الربّ كان يُعدّ لعروسه الجديدة جلجلةً أُخرى تزيدها به التصاقًا.

طوفان أَنوارٍ سماويّة

ولكن قبل أن يتمّ هذا التحوّل قضت الأخت مريم أيّام خلوتها الروحيّة الواحد والعشرين، التي أفضت إلى حفل نذورها الرهبانيّة، في مهرجانٍ مذهلٍ من الرؤى السماويّة. فلقد ملأ الله بحضوره تلك الأيّام، وكشف لتلك الفتاة الجاهلة أسرار الوجود، في بساطةٍ تفوق، روعةً وطلاوةً، الكثير من نظريّات الفلاسفة واللاهوتيّين. وقد عكف الأب لازار على تدوين ما تجود به السماء من أنوارٍ على الأخت مريم، ونجتزئ، في ما يلي، بشذراتٍ منها:

البستانان

"رأيت بستانًا، في شكل قلبٍ، غشاه الجفاف والجدْب. أشجاره كانت يابسةً مجرّدةً، وعشبه محروقًا. لا ماء فيه يروي، ولا نسيم يُستنشَق. ثمّ لمحتُ يسوع بعيدًا، كئيبًا، موجَعًا، باكيًا يغمره الغبار، ويعاني بؤسًا سحيقًا. وبدا لي أنّني، أنا أيضاً، لمّا شاهدته على هذه الحال، قد استحوذ عليّ الحزن والألم والاضطراب، وبالإجمال قد انتابتني نفس المشاعر والانطباعات التي رأيتها في يسوع. فخررت عند قدميه، ومسحت دموعه بدموعي، أو هكذا بدا لي. وودت لو استطعت مسح الغبار الذي غطّى قدميه وغشّى جسمه بأغوار قلبي. ودخل يسوع ذلك البستان القاحل، فلم يجد فيه هواءً، ولا ماءً، ولا ظلاً، ممّا زاده حزنًا واكتئابًا وألمًا، فلم يمكث فيه طويلاً، بل سرعان ما غادره ليدخل بستانًا آخر مجاورًا، حيث ألفى خضرةً وزهورًا وأشجارًا وثمارًا ناضجةً. فجميع الأشجار، ثمّة، كانت مخضوضرةً، كثيفة الأوراق، وارفة الظلال. والأرض كانت محروثةً بعنايةٍ، ورطبةً. وبدا أنّ يسوع استعاد في ذلك البستان صحّته وشبابه وابتسامته... ومكث فيه طويلاً، مكوثاً ممتعًا.

"وإذ لم أدرك مغزى ما رأيت التفتّ إلى الشابّ الذي كان يقودني إلى يسوع، واستفسرته فقال: "البستان الثاني يمثّل النفس الوفيّة المتواضعة التي تتقبّل مياه النعمة، وتحتفظ بها، أمّا البستان الأوّل المهمل، فهو رمز النفوس المتكبّرة التي لا تحتفظ بماء النعمة لأنّها ضحيّة أهواءٍ تحرقها. إنّ الهواء النقيّ الذي يُستنشق في

البستان الجيّد هو صورة صبوّ النفس إلى يسوع؛ هذا الصبوّ هو حياة النفس، والزهور هي فضائلها، والثمار هي أعمالها الصالحة، والتضحيات والتقشّف التي بفضلها تكتسب نفوساً أُخرى ليسوع. وأوراق الأشجار تمثّل المحبّة بما تُلقيه من ظلالٍ. أمّا القَحط وقسوة أرض البستان الرديء فيمثّلان قلبًا متصلبًّا.

البارّ والعاقّ

"وأراني دليلي الشابّ الإنسان البارّ، والإنسان العاقّ. نفس البارّ رائعة الجمال، ولكنّ جسمه يتألّم، أبدًا. إنّه يعمل ويعيش في العناء والكرْب، وعليه أن يقاسي شتّى ضروب الآلام والاضطهادات. إلاّ أنّه، وسْط كلّ ذلك، لا يولي ذاته بالاً، ولا يهتمّ إلاّ بالله القاطن فيه. وكلّ ما يفعله، إنّما هو يفعله في سبيل الله، لا في سبيل ذاته، لأنّه ذاهلٌ عن ذاته تمامًا. إنّه يُغفل جسده، وصحّته، ورفاهه، ليفكّر في الله، فحسْب. ويحين أجَلُه، فيموت ويُحمَل إلى الله، وعندما ينتهي إليه، يفقد ملامحَ الإنسان ويبدو كإلهٍ. وحينئذٍ، جسده الذي كان قد امتهنه يطفق يكرّمه، ويشكره لأنّه عامله على هذا النحو. وشعره وعظامه وعيناه وأذناه ورجلاه ويداه تفخر، جميعًا، بأنّها كانت له، وتكرّمه وتشكر له معاملته إيّاها على نحو ما فعل... والأرض تغتبط، لأَنَّهَا حملته، ولأنّه داسها عندما كان يسير على أديمها، والحيوانات تسعد، لأنّها ضُحّيت من أجله، وتحوّلت إلى لحمه، وتبتهج الأشجار لأنّها حملت ثمارًا امتزجت بجسده، والبيوت لأنّها استضافته، والشمس والقمر والنجوم تفرح لأنّها أنارته. الغيوم والمطر والينابيع والبحر والأسماك تمجّد ذلك الإنسان، وتُعرب عن سعادتها لأنّها خدمته، غير أنّ هذه المدائح كلّها، وإن هي وُجّهت للإنسان، ترتدّ إلى الله.

"أما الإنسان العاقّ، فهو، أثناء حياته، يدأب على العناية بجسده، موفّرًا له كلّ طيّبٍ، عذبٍ ومرهفٍ. وهو، وسْط كلّ ذلك، يُغفل الله، إذ إنّه مشغولٌ بنفسه ومُتَعه، وعظمته، ونزواته، وملذّاته. ولو هو استطاع أن يكون مليك السماء والأرض، لو أنّه تمكّن من انتزاع عرش الله وتسنّمه، لفعل. إنّه ينسى أنّه مدينٌ لله بكلّ شيءٍ، وأنّ كل ما له هو لله. ويحين أجَل ذلك الإنسان الذي يبدو وكأنّه يودّ الاستيلاء على

العالم بأسره، ويموت. وبدا لي أنّ شعره، حينئذٍ، أخذ يمقته، وأنّ عينيه، وأذنيه، ورجليه، ويديه وأظافره وجسده كلّه تبغضه، وتخجل منه وتحنق عليه، لأنّها خدمته وكانت له. ولو أنّها استطاعت لَلَعَنَت الزمن الذي كانت فيه له. والأرض التي داسها تخجل منه وتحنق عليه وتلعنه. والأشجار تثور عليه وتتميّز غيظًا، لأنّها حملت ثمارًا تحوّلت إلى جسده. والحيوانات والشمس والقمر والنجوم والينابيع والبحر والأسماك تمتعض لأنّها خدمته، وتشترك، معًا، في صبّ اللعنات عليه. وجميع هذه اللعنات إنّما هي ترديدٌ للعنات الله، إذ إنّ الله يلعن العاقّ، وبسبب هذه اللعنة، تلعنه الخليقة بدورها. ولهذا السبب عينه تجلب بركة الله للبارّ مباركة الخلائق. وقال لي الشابّ: "ها قد رأيتِ وسمعتِ، فكوني إلى جانب البارّ". واختفى.

بحر الله

"وقادني الشابّ إلى جوار البحر، وانحدرت معه إلى أعماق اللجّة، حيث قال لي: "اُنظري وارقبي كلّ شيءٍ" ورأيت جميع الحيوانات التي تُقيم في البحر، واستقريت الصخور وكلّ ما ينغلق عليه البحر، ثم قفلت عائدةً إلى الأرض، وحفرت حتّى باطن الأرض وسمعت صوتًا يقول: "جميع هذه الحيوانات التي في البحر، تعيش وتتحرّك في البحر، ويحيق البحر بها، وكلّ ما يعيش ويتحرّك على الأرض يعيش ويتحرّك في الله، ويحيط الله به".

الإرادتان

"ورأيت إنسانين، أحدهما وهب الله إرادته، والآخر احتفظ بها لنفسه. إنّ هذا الأخير يدأب، وينهمك، ويمتلك، ويتمتّع، ويتلقّى التقريظ والمداهنة، ولكنْ لا الدأب ولا الانهماك، ولا الثروة ولا الملذّات، ولا المدائح ولا المداهنة، ولا المجد، بقادرةٍ على إرضائه، فهناك رغباتٌ جديدةٌ تستبدّ به بلا هوادةٍ، فلا يعرف اكتفاءً ولا اطمئنانًا. إنّ الله يلبّي جميع أمانيه، ومع ذلك فهو لا يعرف إلى السعادة سبيلاً. إلاّ أن الله قد عدّ أيامه، ويحمّ أجَلُه، فيغادر الأرض من غير أن يكون قد بحث عن الله، يومًا، أو شعر، يومًا، بارتواءٍ. وعند موته، يأخذه ولدان، ويُلقيان به في الأرض

الملعونة، وتتضاعف آلام الأرض من جرّاء استقبالها ذلك الرفات الملعون، ولو أنّ الأرض استطاعت لفظ هذا الرفات، لفعلت.

"أمّا الذي وهب الله إرادته، فهو، أيضاً، يعيش على الأرض، مثل ذاك، وقد تناله آلامٌ جسامٌ، وأحيانًا ينعم بالمسرّات، وقد تنهمر عليه الثروة، ثم يعقبها الإملاق، إلاّ أنّه ينظر إلى السعد وسوء الطالع نظرةً لا تتغيّر. إنّه مسرورٌ، أبدًا، سعيدٌ، أبدًا، ولا رغبة تستبدّ به. فالجوع والعطَش، والمدائح والإهانات، لا تزحزحه عن موقفه... ويأذن أجَلُه، هو أيضاً، ويحمله ولدان إلى أرض الرحمات: يبدو لي أنّ هذه الأرض تحمل الله، وأنّ هذا الإنسان يتألّه.

"وقال لي دليلي الشاب: لماذا تتذمّرين من أسرار الله؟ خذي دلو ماء واسفحيه في البحر، ثمّ حاولي العثور على الماء الذي سفحته، فيتعذّر عليك ذلك، على هذا النحو تغلغل هذا الإنسان في الله وضاع فيه. وبما أنّه وهب الله إرادته، فالله والإنسان يصبحان واحدًا. وكما أنّنا، عندما نبحث عن ماء الدلو المراق في البحر، لا نعثر إلاَّ على ماء البحر، كذلك عندما نبحث عن الإنسان الذي تغلغل في الله، لا نجد ولا نكتشف سوى الله.

"حينئذٍ، التفتُّ إلى الله، وأغرقت في مداعبته، وتضرّعت إليه، واستحلفته باسمه وباسم يسوع والروح القدس، والعذراء القدّيسة، وجميع الملائكة والقدّيسين، بأن يرتضي ويأخذ إرادتي، من غير رجعةٍ، حتّى ولو حملني شقائي على المطالبة باستردادها".

الساقية والبحر والجبل

"ورأيت ساقيةً لا أوّل لها بادٍ ولا آخر. فقلت: "يجب أن أعرف من أين تأتي هذه الساقية" فقال لي الشابّ: "سيتسنّى لكِ رؤية من أين تأتي، ولكن لن تَري من أين تبدأ. فقلت: "سيّان لديّ. إنّني أودّ مجاراة هذه الساقية".

"وبدا لي أنّ الظمآنين، لدى اقترابهم من الساقية ينتعشون ويرتوون، والعميان يبصرون، والعرج يمشون، والأموات ينهضون.

"إنّ مياه الساقية تنساب صامتةً، وعلى ضفافها تنبت كلّ أَصناف الورود،

وأزهارٌ لم أستنشق، قطّ، على الأرض، مثل عبيرها، ولا وقعت أنظاري على مثل رُواء ألوانها. وهناك، أيضاً، خضرةٌ وأشجارٌ. فبعض الأشجار لا يحمل سوى الأوراق، وبعضها لا يحمل سوى الأزاهير. وبعضها شرع يطلع الثمار، في حين أنّ الثمار على أشجارٍ أُخرى قد نضجت.

"كلّ من يرتوي من تلك الساقية، وكلّ ما هي ترويه، بهيٌّ ورائعٌ. وكنت، كلّما توغّلت في محاذاة الساقية تجلّى لي من وجوه الجمال كلّ جديدٍ. وكنت لا أني أُصعّد، وباطّرادٍ أكتشف جديدًا: زهورًا جديدةً وأشجارًا جديدةً.

"ومن بعيدٍ، تراءى لي جبلٌ أروع من الكون كلّه. وبدا لي أنَّه من السماء كان ينبعث. سفحه وجوانبه كانت موشّاةً بأجمل الزهور. ووضح لي أنّ الساقية كانت تخرج من أحشاء الجبل، ووددت أن أعرف منبعها، فتوقّلت سفح الجبل حتّى القمّة، ووراء الجبل شاهدت بحرًا لا أوّل له ولا آخر. وكان ذلك البحر زاخرًا بحيث يكاد يفيض، ولكن لا منفذ له سوى الجبل، وعَبْره كان يمرّ. وولجت البحر فوجدت مياهه هائجةً تلتمس التدفّق إلى الخارج. وفي آنٍ معًا، كان يسود البحر هدوءٌ ساجٍ، وصمتٌ سحيقٌ، بحيث لا تُسمعَ له نأمة.

"ورأيت على شاطئ البحر أشجارًا مثمرةً من كلّ صنفٍ؛ كانت تبدو وكأنّها في عَرض البحر، مع أنّها كانت على الشاطئ منتظمةً في شبْه طبقاتٍ متدرّجةٍ... تلك التي كانت، منها، تحتلّ المواقع العليا، كانت تبدو وكأنّها في وسطِ البحر، وكانت تحمل ثمارًا شهيّةً. وعلى شاطئ البحر أيضاً، كانت ثمّة نباتاتٌ صغيرةٌ ذات أزاهير من كلّ لونٍ، ومن الروعة بحيث أنّ مشهدها كان كفيلاً بسحر الملائكة. وسمعت موسيقى، وغناءً شجيًّا، قويًّا وخافتًا في آنٍ واحدٍ. نبراته من الشدة بحيث تحمل الجبال على القفز، وفي آنٍ معًا كانت تلك النبرات رقيقةً هامسةً. ورأيت حملاً يسبح حثيثًا في البحر، جاهدًا في توسيع الممرّ الذي يتدفّق منه الماء، لأنّه كان يرى أنّ الماء في البحر فائضٌ.

"واستفسرت دليلي عن معنى كلّ ذلك فقال: "البحر هو الله. والأشجار ذات الثمار الشهيّة تمثّل النفوس التي عملت طوال الحياة في سبيل الله، ومن أجل خلاص القريب، والثمار التي تُثقلها تمثّل النفوس التي اكتسبتها لله بكلامها ومثلها وآلامها.

والأشجار الأكثر تقدّمًا في البحر، في قلب الله، ترمز إلى أكثر النفوس تواضعًا، وتعرّضاً للازدراء، والأكثر امّحاءً، والتي، أبدًا، عملت في سبيل مجد الله...".

"والجبل هو مريم، ومياه الساقية هي مياه النعمة. بواسطة مريم يهب الله النعمة، وبها يستعيد الإنسان النعمة، ويلج السماء. وكلّ من يدنو من مريم يظفر بحياة النعمة. وأما الخضرة والأزهار والأشجار التي تحفّ بالساقية، والتي تزداد جمالاً بقدْر اقترابها من الساقية والجبل، فهي النفوس التي تولد على حياة النعمة، والتي تتقدّم، وتكتسب سنًى بقدر ما تتوغّل في الفضائل".

الشموع الثلاث

"ورأيت سلّمًا فتسلّقته، وفي نهايته رأيت مغارةً فيها ثلاث شموعٍ موقدةٌ. ورأيت في المغارة بابًا مشرعًا. وولجت من الباب، فرأيت كاهنًا يُقيم القدّاس، وخطر لي أنّني لم أرقب، عن كثَب، الشموع الثلاث، فانكفأت راجعةً إليها، ولاح لي أن حرفًا من ذهبٍ مكتوبٌ على كلٍّ منها. وكان الحرف المكتوب على الشمعة الأولى يمثّل الفقر، والحرف المكتوب على الشمعة الثانية يمثّل العفّة، والحرف المكتوب على الشمعة الثالثة كان يمثّل الطاعة. وكانت الشمْعات الثلاث، بالإضافة إلى ذلك، رمزًا للأسرة المقدّسة. فشمعة الفقر ترمز إلى القدّيس يوسف، وشمعة العفّة إلى مريم، وشمعة الطاعة ترمز إلى يسوع. وقيل لي إنّ الكاهن الذي كان يُقيم القدّاس يمثّل يسوع، وبالتالي فهو يمثّل الطاعة، وأنّ الشمعتين الموقدتين، أثناء القدّاس، تمثّلان مريم ويوسف، أي الفقر والعفّة اللذين عليهما مواكبة الكاهن إلى الهيكل.

"ورأيت لهيب شمعات المغارة الثلاث يتوهّج بين عرش الله وبيني، فيحدث لهيب الفقر أمام الله غنًى لا حدود له، ولهيب العفّة طهرًا وأفراحًا جمّةً بلا حدودٍ، ولهيب الطاعة يحدث سلطانًا لانهائيًّا ينحني أمامه كلّ شيءٍ ويخضع له.

"ورأيت أنّ الوقوف وراء الله، يستوجب الوقوف وراء لهيب الفقر والعفّة والطاعة القائمة بين الله وبيننا. ورأيت أنّه بفضل الوقوف وراء لهب الشموع الثلاث هذه، تنطبع صورة الله فينا، وينظر إلينا الله، الذي، منذ تمرّد الإنسان، لم يَعُد يستطيع النظر إليه إلاّ من خلال يسوع، كما أنّ الإنسان، أيضاً، لا يستطيع

النظر إلى الله إلاّ من خلال يسوع. والله لم يَعُد يرى منّا ذواتنا، بل إنّه يرى صورة يسوع فينا.

"وقال لي دليلي: إنّ المغارة هي صورة الكنيسة، التي تبدو من الخارج خاليةً من الجمال، وصغيرةً، ولكنّها تخبّئ، في أحشائها، كنوزًا، وروائع، وعظمةً لا حدود لها. وقيل لي إنّ الفقر هو كنز الكنيسة، والعفّة نعيمها، والطاعة سلطانها".

مهرجان النعمة: ٢١ تشرين الثاني ١٨٧١

وأطلّ، أخيرًا، اليوم الموعود، يوم قِران الأخت مريم بالعريس الإلهي، وارتباطها الأبديّ به بعهود العفّة والفقر والطاعة.

وترأّس سيادة المطران ماري أفرام القدّاس الذي أقيم بهذه المناسبة، وألقى خطبةً اتّسمت ببلاغةٍ ساميةٍ أغدق بها التقريظ على الأخت مريم، وقد جاء فيها:

"يا ابنتي الغالية،

"ها قد حلّ اليوم الذي قد طالما تُقْتِ إليه، يوم قِرانك الروحيّ بحبيب فؤادك. وقد شاءت السماء، في مصادفةٍ رائعةٍ، أن يوافق هذا اليوم ذكرى ذلك اليوم الذي وافت فيه العذراء مريم كلّيّة القداسة، وهي ما برحت طفلةً، تقدّم نفسها للهيكل، وبتكريسٍ مثل تكريسك، تشرع للعذريّة دربًا جديدًا، مستهلّةً ملكوت الاتّحاد الصوفيّ بين النفس والله. وعليه، فهذا اليوم عزيزٌ علينا مرّتين.

"لطالما صبوتِ، وبحرارةٍ، إلى تلك الساعة المباركة، التي فيها ستُصبحين للأبد عروس ملك الملوك. لقد ناديتِ يسوع، بكلّ قوى قلبك، والتمستِه من النهار ومن الليل، من البحر والجبال، من الشمس والنجوم، من البشر والملائكة، ومن جميع خلائق الله، ولكن ما استطاع واحدٌ منها أنْ يعطيك إيّاه. بل كلّها، ربّما، قالت لك، على حدّ ما قالت للقديس العظيم أُغسطينوس: ابحثي أعلى منّي. وهو، وقد أقام على ذُرى الجبل المقدّس، كان يدعوك بأرقّ صوتٍ قائلاً، على غِرار عريس الأناشيد: "تعالي من لبنان يا عروستي، تعالي من لبنان فتنالي إكليلك". وأنتِ، يا ابنتي العزيزة، قد سمعت صوت الحبيب، منذ طراوة صباك، وقدمت من جبال لبنان. آه! كم أسبغ عليك ذلك الفادي الإلهيّ من نعمه، كم حفظك، وحوّطك بدعاباتٍ حبّه الرقيقة!

"... ووسْط جميع المساعدات الخارجيّة، التي كان عطفه يوفّرها لنفسك، لقد سمح، من أجل امتحان وفائك، أن تواجهي هجماتٍ شرسةً شنّها عليك عدوّ الجنس البشريّ. والله وحده يعلم ما كانت تلك الهجمات، وحسْبك ذلك، يا ابنتي العزيزة غير أنّ ما يتوجّب عليك معرفته هو أنّ يسوع حبيبك، لم يتخلّ عنك في تلك الفترات العصيبة، وأنّ نعمته قد ساندتك أبدًا.

"ثم إنّه منذ سنةٍ قال لك ما قاله قديمًا لإبراهيم: "اُخرجي من وطنك ومن بيت أبيك، وتعالي إلى الأرض التي سأريك". وهجرتِ فرنسا، وطنك الثاني، وخرجت من دير پو، موئل الأسرة التي تبنّتكِ، ووافيت أرض الهند...

"... والآن، جمًّا لكيل مراحمه، سيمنحك الربّ إلى الأبد لَقَب عروس قلبه الإلهيّ وحقوقها، وهكذا، يا ابنتي، أنت المخلوق البائس، أنت العدم الصغير الفقير، أنت هوّة الضعف والمعاصي، ستُرَقَّيْن، دفعةً واحدةً، بفضل النذور الثلاثة، إلى أسمى كرامةٍ يمكن لنفسٍ مسيحيّةٍ التَّطَلُّع إليها، إلى كرامة عروس مَلِكِ السماء. تباركت يا يسوع، لأنّك تحيطنا بكلّ هذا التكريم، وتُسبغ علينا كلّ هذا المجد. وأنتِ، يا ابنتي الحبيبة ابتهجي، وفي آنٍ معًا، ارتعدي، إذ عليك أن تدركي جيّدًا أنّك لا تصبحين فقط عروس يسوع، بل عروس يسوع المصلوب، كما يدلّ على ذلك اسمك نفسه. عليك، إذن، أكثر من أيّ وقتٍ، أن تموتي عن كلّ أمور الأرض، لتعيشي على الصليب، بقرب حبيب قلبك، وإنّ الكلمات الثلاث العلنيّة التي ستتلفّظين بها، والنذور الثلاثة التي ستنذرينها، ستعبّر، في اقتضابها السامي الرهيب، عن صلب ذاتك التّام هذا...

"تشجعي، يا ابنتي، ولا تتراجعي أمام لفظة الصلب هذه... وعلى أيّة حالٍ، فإنّ يسوع لن يدعك وحيدةً على الصليب، الذي سيغدو، في معزلٍ عنه، باهظ الثِّقَل عليك. بل إنّه سيكون عليه معك، وسيقول لك: "... تعالَي شاطريني آلامي، موتي معي على آلة العذاب هذه، التي هي أيضاً عرش ملكي؛ وهنا سأجعل منك ملكةً، وسأصحبك إلى مجد السماء ونعيمها". تشبّثي، إذن، بالصليب، يا ابنتي العزيزة، وتقبّلي الآلام بسخاء...".

ولقد أخذ بالأسقف، وهو يلقي خطبته، تأثّرٌ بالغٌ تعذّر عليه إخفاؤه؛ أمّا خلف الحواجز، حيث كانت تقبع الراهبات، فالتأثر بلغ أشدّه، وكانت تفضحه العبرات

المتدفّقة، في حين كانت تجهد الأخت مريم في متابعة الخطبة، وهي، منذ مستهلّ الاحتفال، مختطفةٌ إلى عالم السماء، وكأنّها غريبةٌ عن احتفالٍ هي موضوعه وروحه. وعندما أزف موعد أدائها النذور، أعادها أمر الرئيسة إلى أرض الواقع، بَيْدَ أنّها لم تكد تفرغ من تلاوة صيغة النذور حتّى خطفتها من جديدٍ الأسرار الإلهيّة، وسرحت برفقة الصوفيّين الكبار، وأمّها الحبيبة الأمّ إيلي. وما إن فتح الأسقف بيت القربان حتّى هتفت: "**هذا هو الحبّ، هذا هو الحبّ!**". فسرَت في الحاضرين رعشةٌ إلهيّةٌ. في تلك اللحظة الفريدة، كانت جميع الشكوك، حولَها، قد تبدّدت، ولم يحاول أحدٌ إخفاء دموع الفرح والتأثر.

وفي أعقاب الاحتفال دخل الأسقف وبعض الكهنة إلى حرَم الدير، وعندما جاء الأب لازار، سألته الأخت مريم، وهي تائهةٌ في عالم الروح: "ماذا فعلت بالحبّ؟". فأجابها: "لقد أودعته الكنيسة، وأرجو أن يكون أيضاً في قلبي، بعض الشيء". فردّت: "**أجل، في القلب ينبغي أن يُودع**".

وسئلت عمّا يجب عمله من أجل امتلاك الحبّ، فانحنت ولمّت ذرّة غبارٍ، وأشارت إليها قائلةً: "**يجب أن يصبح الإنسان صغيرًا هكذا**".

وقد شاء الأسقف إشراك إكليريكيّيه في مهرجان النعمة هذا، فتسنّى لهم مشاهدة الأخت مريم، وهي مختطفةٌ، وحظي كلّ منهم بحديثٍ قصيرٍ معها، وكذلك أتيح للراهبات المساعدات التحدّث إلى المكرّسة الجديدة، في حين كانت أخواتها الراهبات حريصاتٍ على استعادة "كنزهنّ" للظفر بأحاديثها التي كانت تلهب جميع القلوب محبّةً.

درب الجلجلة

أثناء فسحةٍ المساء تكلّم "الملاك" بلسان الأخت مريم، مُغدقًا نصائحه التي استشفّت من خلالها بعض الحاضرات لومًا من جرّاء تقاعسهنّ وإغفالهنّ للواجب. وربّما أسهم ذلك في محو الانطباعات المندفعة المتوهّجة التي خالجت النفوس أثناء احتفال الصباح، وألّب عليها اللواتي أحسسنَ أنّ كرامتهنّ قد خُدشت.

كانت الضحيّة في الصباح قد استُقبلت بالحفاوة والهتاف، ولكن سرعان ما أذنت ساعة تضحيتها. ولم يكن ذلك المهرجان الصباحيّ المتألّق إلاّ كدخول المعلّم المجيد،

يوم الشعانين، إلى القدس، والذي ما لبث أن تحوّل إلى مسيرة الجلجلة. فلقد كان على الأخت مريم، هي أيضاً، انتهاج درب الجلجلة، وهي ما كادت تفرغ من نذورها الرهبانيّة. بَيْدَ أنّ يسوع كان قد غرس فيها بذور الشجاعة والصبر، في ذلك اليوم، حين أسرّ إليها: "**لا تخشي شيئًا، يا ابنتي، سأكون معك. لقد فعلت من أجلك، ما نادرًا فعلته للآخرين. لا تَخشَيْ شيئًا، سأكون معك**".

ولقد سبق لنا القول أنَّ إيعازًا سماويًّا كان قد حظَّر على الأخت مريم، كشف أسرار نفسها إلاّ بين يدي معرّفها، وأمام الأسقف، إن هو رغب في ذلك. وقد تكرّر هذا الإيعاز باطّرادٍ، وقد وافقها الأب لازار معرّفها، وكذلك الأسقف على هذا النهج، وامتثلت الرئيسة ونائبتها، أوّل الأمر، ثم إنّهما، بدافعٍ قد يكون الفضول[1]، أو الحسد، أو الأنانيّة، أو، ربّما، تنفيذًا لمخطَّط العناية الإلهيّة التي تقتضي الكثير الكثير من النفوس التي تقدّم ذاتها ضحايا، انقلبتا على ذلك السلوك، معتبرتين إيّاه وسوسةً شيطانيّةً، وتمرّدًا على القوانين التي حرّفتا جوهرها ونصّها، ومن ثمّ فقد شنّتا عليها حملةً نفسيّةً قاسيةً، وعكفتا على إيهامها بأنّ محرّكها كان، دائمًا، إبليس، وأنّها كانت، أبدًا، مصدر تضليلٍ.

ويومين بعد إبرازها النذور، كانت الأخت مريم في حالة انخطافٍ، فطلبت منها إحدى الرئيسات أن تكون في المستقبل أكثر خضوعًا واستعدادًا للكشف عن خفايا نفسها، وجاء جواب الأخت مريم مفحمًا، محكمًا، ومعبّرًا، في آنٍ معًا، عن طاعةٍ مطلقةٍ لله، إذ ردّت: "إنّ الربّ يأمرني بألاّ أبوح بها إلاّ لمعرّفي. أمّا إنْ أنتِ أمرتِني، باسم الطاعة، أن أعترف لك، فسأفعل، إذ سأكون آنذاك موقنةً بأنّ الأمر آتٍ من الله. وإلا فأنا مرغمةٌ على تنفيذ ما يأمرني به الله". وأقفلت الأمّ الرئيسة الجدال بقولها: "إنّ كلّ ذلك من عمل إبليس، سأستشير صاحب السيادة في ما يتوجّب عليّ عمله". ويبدو

---

[1] لقد جاء في شهادة إحدى راهبات منغالور، في ما بعد، أنّ الأُمّ الرئيسة كانت على جانبٍ كبيرٍ من الفضول، مفتقرةً إلى التكتّم الذي تقتضيه مثل تلك الأمور الخارقة، بحيث شاعت في الجمعيّة معلوماتٌ كان يُفترض أن تظلّ مطويّةً. وكانت أمة الله مريم تشكو بمرارةٍ من فضول الرئيسة ومرشدة الابتداء، وافتقارهما إلى الفطنة والكتمان. فقد أرغمتاها، مرّتين، على الكشف عن جرح جنبها للمطران ماري أفرام رغم توسّلاتها، ونفورها الشديد، وكانتا تصرّان، عشر مراتٍ في النهار، على مشاهدة السمات النازفة من يديها وقدميها، ما كان يملأها خجلاً.

من الأحداث التي تلت أَنّ تلك الرئيسة قد أفلحت، بوسوستها، في إِثارة شكوك المطران القديمة، بحيث عاد فصرّح للأخت مريم، في الخامس من كانون الأوّل ١٨٧١: "لقد أَلِفَتْ جميع القدّيسات الإفضاء بكلّ شيءٍ إلى رئيساتهنّ ومرشداتهنّ. ولو كان روح الله هو الذي يكلّمك، لكان قد كلَّمهنّ أيضاً، على نفس النحو، ولكنّه لم يفعل، ما يدفعني إلى الارتياب بأنّ روح إبليس هو الذي يحدوكِ". أسبوعان فقط كانا قد انقضيا منذ أعلن لها أنّ سلوكها يمليه الربّ، ومنذ ألقى خطابه الرنّان الذي استفاض فيه تقريظًا لها!

شهيدة الحبّ الإلهيّ

وممّا يبعث على الدّهشة أَنّ ذلك الموقف العدائيّ كان يترسّخ لدى الرئيسة والمرشدة، ولدى الأسقف وأحد معاونيه، الأب كراسيان، رغم شهادة السماء الصريحة والصارخة، لصالح الأخت مريم، التي، منذ نذورها الرهبانيّة، عاشت في انخطافٍ متّصلٍ، والتي أَخذت سمات جراحها تنزف منذ الثالث والعشرين من تشرين الثاني، فينبعث منها، مع الدم المنثال، طيوبٌ أخّاذةٌ، تتضوّع إلى مسافاتٍ بعيدةٍ. طيوبٌ ملائكيّةٌ، وعرْفٌ سماويٌّ، من ذلك الجسد العذريّ، وتلك النفس التي لم تلطّخها الخطيئة.

وحده الأب لازار ظلّ ثابتًا في موقفه، موقف من قرأ إِشارات السماء فأدرك رسالتها، وشاهد عمل النعمة فأجلّها وأَخلص لها.

ولقد راقب سمات الجراح عن كثَبٍ، أثناء انخطاف الأخت مريم، وهكذا تهيّأ له وصفها وصفًا دقيقًا، فكتب:

"كانت راحتا اليدين متورّمتين، وكانت الجراح فيها فاغرةً. وحول شفارها بعض الدم المتجمّد، إذ إنّه كان قد شرع ينزف لبضعة أيّامٍ خلت.

"وفي داخل اليد كان ثمّة ما يشبه ندبةً سوداء، تشكّل مثل رأس دبّوس. وعلى الراحة كان اللحم يبدو وكأنّه قد تناثر بعنفٍ، بل يسعني القول إنّه كان ممزّقًا. أما في الباطن، فلم يكن ثمّة أيّ تمزّقٍ، بل وحده رأس المسمار اللحمي كان يتجلّى. كذلك القدمان كانتا مثقوبتين من جانبٍ إلى آخر، والجراح تبدو حديثة العهد، واللحم ربّما أكثر

تمزّقًا منه في اليدين. كان الجرح يحتلّ مكان الوسط، بعض الشيء، تحت عُنق القدم، وبالضبط في المكان الذي فيه سُمِّر يسوع على الصليب، حسب ما تمثّله رسوم الصلب. أحد الثقبين كان يحتلّ بالضبط وسَط القدم، حيث ينتهي بفرجةٍ مستديرةٍ حديثة العهد، وكأنّ رأس مسمارٍ حادٍّ قد اجتاز المكان ثمّ انتُزع منه. وكذلك كان شأن القدم الأُخرى، ولكن الثقب كان ينتهي مائلاً بعض الشيء نحو الإبهام، وبعض الشيء تحته".

ويُضيف الأب لازار: "سأبارك، إلى الأبد، الله الذي أقامني شاهدًا على ما رأيت. إنّني ما شهدت، قطّ، في حياتي قدرًا مماثلاً من الألم، ولم يرتسم، يومًا، على وجهٍ بشريٍّ مثل ذلك القدر من السكينة التي كانت تغمر محيّاها، في لحظات استشهادها. كان الألم ينتزع أَحيانًا دموعًا من مآقيها، ويتشنّج وجهُها، ولكن كان يسوده، أَبدًا، أعظم هدوءٍ، وأتمّ استسلام".

كيف لمن يشهد عمل النعمة هذا ألاّ يظلّ له وفيًّا، إن هو كان مخلصًا لذاته ولربّه، وحرًّا من كلّ غرَضٍ وحكمٍ مسبقٍ، على حدّ ما كان الأب لازار؟

وفي اليوم التالي، الرابع والعشرين من تشرين الثاني، كانت الأخت مريم ما برحت طريحة الفراش، تعاني آلامًا مبرّحةً ترتعد لها كلّ أعضائها، بل تكاد، منها، تتمزّق. وجاءها الأب لازار بالقربان المقدّس، فتناولته، وقد شاعت على محيّاها ابتسامةٌ سماويّةٌ، على حدّ ما تكون عليه دائمًا، وهي مختطفةٌ. وبعد ربع ساعةٍ طفقت تردّد أنّ الكائنات كلّها ترجّع لله أناشيد الحبّ. وعندما أفاقت، أفادت أنّها رأت يسوع يتقدّم تطوافًا، وأَنّ الأرض والسقف والأسرّة كانت جميعها تهتزّ طربًا لدى اجتيازه المكان، ثم أردفت: "آه، **لو رأيتموه، لقد كان يتدفّق سحرًا!**"

وفي وقتٍ لاحق أفادت: "**لقد شاهدت الربّ يسوع فقيرًا، حزينًا، مُتَألِّمًا ينشد مأوى. وقد قال لي: "إنّني أبحث عن ملجأٍ، عن مسكنٍ، ولكن لا أحد يرضى بضيافتي، إذ لا أكاد أقدّم نفسي حتّى يطردوني. أنتِ نفسك أحيانًا تطردينَني من قلبك" فقلت له: "سامحني، يا ربّ، فأنا لا أريد ذلك". ثمّ قال لي: "لو أنّي عثرت على إنسانٍ لا رغبة له سوى العمل من أجل مجدي، لفعلت له كلّ شيءٍ!**"

كم ينطوي قول يسوع هذا على ألمٍ دفينٍ، كم وعده المذهل لمن ينشده مخلصًا، يدعو إلى التأمّل!

وهتفت، مرَّةً أُخرى، وهي في حالة انخطافٍ: "**يا إلهي! إنّني في حاجةٍ إلى إخوةٍ وأخواتٍ، فهبني إخوةً وأخواتٍ، كي نعبدك جميعًا معًا**". ولمّا أفاقت سألها الأب لازار: "**هل وهبك الله إخوةً وأخواتٍ؟**" - "**أجل**" - "من غير تردّدٍ؟ - "**يسوع لا يتردّد أبدًا**" - "أعني هل وهبك إيّاهم في الحال؟" - "**لا، بل بتؤدةٍ، فأعمال الله تتمّ على مهلٍ. أعمالنا نحن تتمّ بسرعةٍ، ولكنّ الله يعمل في تؤدةٍ**".

ضحيّة العمل البشري

لقد كانت المسكينة تفتقر إلى إخوةٍ وأَخواتٍ يشاطرونها تمجيد الله، وتعظيم عمل النعمة فيها، إذ إنّ من كان يُفرض أن يكونوا لها إخوةً وأَخواتٍ: الأسقف ومعاونيه - خلا الأب لازار - والأمّ الرئيسة والمرشدة والراهبات، قد تنكّروا جميعهم لها، وراحوا يدفعونها في دروب اليأس، بعضهم بدوافع أنانيّةٍ حقيرةٍ، وبعضهم بانقيادٍ غير مسؤولٍ لوسوسةٍ مُغرضةٍ، وبعضهم برضوخٍ جبانٍ لإيعازٍ متعسّفٍ.

عندما شرعت سِمَات الأخت مريم تنزف، هرعت إليها الأمّ الرئيسة والأمّ المرشدة وأحاطتاها بفيضٍ من العطف مؤكّدتين لها، أنّهما ستنظران إليها نظرتهما إلى يسوع نفسه، وأنّهما ستعنيان بها تمامًا كما كانت تفعل الأمّ إيلي. ورأت المسكينة أن تفيد من جوّ العطف هذا لتذكيرهما بما كان قد أوعز إليها حول قَصْر الإدلاء بأسرار نفسها على معرّفها، وحبسها عنهما. ولم تتح لها الرئيسة الفراغ من كلامها، بل قاطعتها، في حدّةٍ وانفعالٍ، صارخةً: "إنّه لروح إبليس. كلّ هذا من الشيطان آتٍ".

لقد كانت المسكينة ملاكًا، لا بل كانت بمثابة يسوع، طالما هي صانعت الأمّ الرئيسة وداهنتها، وإلاّ فهي صنيعة إبليس! والأخت مريم لم تكن، يومًا، مصانِعَةً ولا مداهنةً، بل عبدةً طيّعةً لمشيئة الربّ، عنيدةً في تشبّثها بها، حتّى الاستشهاد. ولا عجب، بالتالي، إن شُنّت عليها أَشرس حربٍ نفسيّةٍ، وأعتى اضطهادٍ، وإن شُوّهت جميع معالمها. فقد راحت الرئيسة تعلن، وتقسر الجميع على الاعتقاد أنّ "ملاك" العربيّة الصغيرة، الذي طالما تهافت الجميع على الإصغاء إليه في إجلالٍ ونَهَمٍ، لم يكن سوى روحٍ من أرواح الظلام، وأنّ انخطافاتها لمَ تكن من الربّ تأتيها، ولا إلى الربّ تمضي بها، وأنّ رؤاها إنْ هي إلاّ أوهامُ مخيّلةٍ شرقيّةٍ جامحةٍ، وأنّ سماتها

جروح افتعلتها بالسكّين، وأنّها كانت، أبدًا، واهمةً مخدوعةً. لا بل قد عكفوا على إيهامها بأنّ نذورها الرهبانيّة كانت باطلةً، وأنْ لا مكان لها في ديرٍ زرعت فيه الوهم والضلال.

ويبدو هذا التحوّل المباغت في موقف المسؤولين محيّرًا، عسير الإدراك، لمن يستقري، عن كثبٍ، تسلسل الأحداث. فبين أيدينا، على سبيل المثال، رسالة كتبتها الأمّ المرشدة، في السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٨٧١، أي خمسة أيّامٍ بعد إبراز الأخت مريم نذورها، وقد جاء فيها:

"منذ نذورها، ما انفكّت أختنا في حالة انخطافٍ. فأمس، أَراها الربّ نفوسًا تحبّه حقًّا، وكان يقول لها: "أَترين كيف تحبّني هذه النفوس أكثر منك؟ ومع ذلك، أنا أحبّكِ أكثر منها". وفي هذا الصباح، رأت يسوع يأخذها بين ذراعيه، ويُريها لحشْدٍ من النفوس، تكريمًا لها. ومع ذلك، تجد تلك الابنة العزيزة نفسَها مضطرّةً إلى مقاومة نزعات القنوط، أكثر من اضطرارها إلى مقاومة دوافع الكبرياء. أَجل، فهي أبدًا متواضعةٌ، ولا ترغب إلاّ في أن يزدريها العالم ويغفلها".

ومن الجليّ أنّ الله كان يختبرها بأقسى امتحانٍ قد يتعرّض له إنسانٌ، ألا وهو تنكّر ذويه له، واتّهامه بأغلى ما لديه من مُثُلٍ وقِيَمٍ. لقد كان الربّ يصهرها بالألم، صهرَ الذهب، لتحريرها من كلّ شائبةٍ، وتنقية نفسها. ولكنّها كانت ما تزال في أولى مراحل الجلجلة.

لقد ظنّت أنّ انخطافاتها وسمات الجراح فيها، ربّما كانت سبب عثرةٍ لبعض رؤسائها وأخواتها، فتضرّعت إلى الربّ أن يزيلها جميعها. وقد استجيب طلبها في الثلاثين من تشرين الثاني. كتب الأب لازار، في أعقاب ذلك:

"يؤسفني أن أكون مضطرًّا إلى القول بأنّ قدّيستنا الصغيرة لا تلاقي (ممّن يحيطون بها) أيّ تفهّمٍ، وأنّها تُسام شتّى ضروب التعذيب، لا بل أنّها تعاني الاستشهاد. تلك هي مشيئة الربّ، فليكن إلى الأبد مباركًا. بودّي الاعتقاد، لو أنه يحقّ لي أحيانًا أن أشكّ في الأمر، أنّ كلّ ذلك يتمّ عن نيّةٍ حسنةٍ. أمّا هي فرائعةٌ في تسليمها وصبرها. إنّ يسوع يتمّم تقديسها بواسطة تلك المحن، التي تغدو أَشدّ قسوةً وهي تأتيها ممّن تدعوهنّ أخواتها وأمّها، لا بل من مقاماتٍ أرفع. إنّني أتساءل ما

الذي كان سيحلّ بها، لو أنّ الله لم يصن تلك النفس المختارة، على نحو ما يصونها. إنّني لا أملك أن أحبس نفسي عن الإشفاق أحيانًا على تلك الابنة المسكينة والعزيزة، وفي آنٍ معًا، أبارك الله لما يقودها فيه من سبلٍ.

"لقد حرمنا الله نعمًا جزيلةً، عندما استجاب لتلك الفتاة الرائعة، فزالت سماتها، وتلاشت حالات انخطافها، خمسة عشر يومًا بعد إبرازها نذورها. وأقرّ بأنّني قد اشتركت معها في استنزال تلك النعمة. ولكنّها نعمةٌ لها، وعقابٌ لنا".

كانت ترشف الكأس جرعةً جرعةً، وكان لا بدّ من شربها حتّى الثمالة. لقد كانت المرحلة التالية في درب جلجلتها هي حرمانها من سندها البشريّ الوحيد. فقد استثار إصرار الأب لازار على الوقوف إلى جانبها والذَّوْد عنها، سخط الرئيسة وكَيْدها، واستجلب نقمة الأسقف الذي أمر، في الثاني عشر من كانون الأول ١٨٧١، بنقله من منغالور، إلى مركزٍ رعويٍّ آخر في الهند. وقد تقبّلت الأخت مريم هذه التضحية الجسيمة في إيمانٍ صامدٍ، وثباتٍ بطوليٍّ. وبعد أن استمعت إلى إرشادات معرّفها الأخيرة، أفضت له ببساطةٍ: "الآن، يا أبتِ لا يخامرنّك، في أمري، أيّ قلقٍ... ولنظهر للربّ أنّنا نحبّه فوق كلّ شيءٍ". أمّا هو، فكان أرسخ يقينًا من ذي قبل، بأنّه، إن كان هناك من أثرٍ لإبليس، فلم يكن ذلك الأثر في سيرة الأخت مريم، وقد جاء في رسالةٍ له بتاريخ الحادي والثلاثين من كانون الأول: "في ما يتعلّق بسبيل (الأخت مريم) أظن أنّ بوسعي التأكيد، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أنّه إلهيٌّ. إنّه سبيل القدّيسين. فالشيطان الذي يُفلح في تضليل إنسانٍ، لا يُوغر عليه صدور الآخرين...".

وفي أوائل كانون الثاني ١٨٧٢، قُبَيْل مبارحة الأب لازار منغالور، وكان قد حُظِّر عليه مقابلة الأخت مريم، أنمى إليه الأسقف والأب كراسيان من الأقاويل الملفّقة حول سيرتها، ما أثار لديه، لبرهةٍ خاطفةٍ، بعض الارتياب. وقد أوعزا إليه أن يقابلها للمرّة الأَخيرة، ويحاول إقناعها بأنّها كانت على ضلالٍ، وبأنّه هو أيضاً قد ضُلّل. ولكنّ تلك المقابلة قد وطّدته في يقينه بأنّ يد الله كانت تتجلّى في كلّ قولٍ لها وعملٍ. ومع ذلك دعاها إلى الاعتقاد بأنّها ربّما كانت على خطإ، ودعاها إلى الإصغاء لأقوال الأسقف.

إلاّ أنّه كتب في أعقاب لقائه الأخير هذا معها، مجملاً الوضع كلّه في كلماتٍ:

"إنّ أشخاصاً غير ملمّين بحقيقة ابنتنا المسكينة قد أجمعوا على تنغيص عيشها. وإنّ أخواتها اللائي كاشفتْهنّ بحقائق جارحةٍ لم ترق لهنّ، قد تحاملن، هنّ أيضاً، عليها، بحيث أُصيبت بهزّةٍ مريعةٍ تلك الفتاة المسكينة الوحيدة المفتقرة إلى مشيرٍ، والتي خانها الجميع. لقد تذرّعوا بالتخرّصات والافتراء، وعاملوها معاملةً غير إنسانيّةٍ، أقلّه أخلاقيًّا. لقد كالوا لها من التّهم ما هزّ قناعتي فترةً خاطفةً، ولكنْ، لسوء طالعهم، رأيتها من جديدٍ بحضورهم، فتبيّن لي أن كلّ ما اتُّهمت به كان باطلاً جائرًا وافتئاتًا؛ وإنّني، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، متيقّنٌ بأنّها ابنةٌ قدّيسةٌ، وإنّني على أهبةٍ لاجتياز جميع نيران الدنيا كي أثبت أنّها لم تقترف خطيئةً مميتةً سحابة حياتها".

وأعلن الأسقف، في شهر شباط ١٨٧٢، أنّ الأخت مريم مضلّلةٌ، واهمةٌ، وأنّ على جميع الكرمليّات اعتبارها كذلك. وألفت المسكينة نفسها وحيدةً، مثل حطامٍ تائهٍ تتقاذفه أمواجٌ معاديةٌ. بَيدَ أنّ الربّ كان قد أعدّها لهذه المحنة، إذ كلّمها، بضعة أيّامٍ قبل ذلك قائلاً: "إن كنتُ، أنا، من يهمّك، دعي الخلائق تفعل ما تشاء، وتتألّب جميعها عليك. أمّا أنا فسأكون دائمًا معك، فلا تخافي". كما أَنّ أختها السماويّة، ماتيلد دي نيدونشيل، كانت قد تراءت لها ليلة عيد الميلاد وأسرّت إليها: "في غضون بضعة أيّامٍ، سأعود لأحيطك علمًا بما يعدّك له الربّ، فتشجعي". وكانت وهي تتلفّظ بهذه العبارات، تلقي على الأخت مريم نظراتٍ تقطر شفقةً عميقةً. وقد أوضحت الأخت مريم، في ما بعد، أنّها، منذ تلك الليلة، قد راحت تنتقل من صليبٍ إلى صليبٍ، ومن محنةٍ إلى محنةٍ.

فالصليب هو درب المختارين إلى المصلوب الأكبر، الذي كان قد أوحى إلى الأخت مريم، في الخامس عشر من كانون الأول: "أتظنّين أنّك وحدك تتألمّين؟ أنا أتألّم أكثر منك. فأنا أحمل عبء خطاياكم، وأريد ألاّ تعيشي، لحظةً واحدةً خاليةً من الألم. وإن لم يكن هناك من يوفّر لك الألم، فسأحوّل الحجار والأرض إلى بشرٍ يسومونك العذاب. إنّني أريد أن تتألّمي دائمًا".

ولم يكن الربّ في حاجة إلى عجائب من أجل إيجاد مَن يوفّر لمختارته أسباب الألم، فبعد ارتحال الأب لازار، بات عليها أَن تواجه، من غير أيّة مؤازرةٍ أو سلوى بشريّةٍ، حربًا نفسيّةً لا تعرف رحمةً ولا هوادةً، وكانت هي نفسها، بالتماسها من الله أن يزيل عنها الانخطاف والسمات، قد أَقصت كلّ شهادةٍ سماويّةٍ ملموسةٍ في صالحها.

وقد استطاعت رئيسة كرمل منغالور أَن تفرض على جميع راهبات الدير، وعلى الأسقف ومعاونه الأب كراسيان، موقفًا من الأخت مريم يرى في جميع أقوالها وأفعالها الماضية والحاضرة، وحيًا شيطانيًّا، وهوَساً استطاع تضليل الكثيرين، فترةً طويلةً. وكان الجميع لا يكفّون يردّدون على مسامعها أنّ نذورها نفسها قد تمّت في ظروف من التضليل، فهي باطلةٌ.

سكونٌ في قلب العاصفة

إلاّ أنّ الربّ قد منّ عليها بسَكينةٍ نفسيّةٍ مكّنتها من التصدّي لهذه الأراجيف في ثباتٍ وهدوءٍ لا يتزعزعان، مع ما كانت تُعانيه من استشهادٍ نفسيٍّ قاتلٍ. ولكنّ صمودها هذا نفسه قد اعتُبر تصلّبًا وعنادًا وكِبْرِيَاء، وعملاً شيطانيًّا، وارتأى رؤساؤها إِخضاعها إلى طقوس التعويذ لطرد الشيطان منها، فأذعنت في استسلامٍ واتّضاعٍ، واشتركت في الطقوس جاثيةً خاشعةً، بحيث لم يعد لأكثر مناوئيها مفرٌّ من الاعتراف بأنّها، إِن هي كانت ضحيّة تضليلٍ شيطانيٍّ، إلاّ أنّها لم تحاول يومًا أَن تضلّل أحَدًا عمدًا، وتشير التقارير التي تناولتها، في تلك الحقبة إلى أنّها، رغم الضلال المزعوم الذي كانت واقعةً في حباله، فقد ظلّت، في سلوكها اليوميّ، شديدة الانتظام والسخاء والتفاني.

وسلخت الأشهر الأولى من عام ١٨٧٢ تمارس هذه الفضائل، في صمتٍ ودأبٍ، وتعاني ما يُشَنّ عليها من حربٍ نفسيّةٍ في صبرٍ وهدوءٍ. غير أنّ رؤساءها، ما انفكّوا يدفعونها، بلا هوادةٍ، إلى استنكار جميع أعمالها وأقوالها الماضية، وجميع تجلّيات النعمة فيها، وإلى انتزاع وعدٍ منها بإفشاء جميع أسرار نفسها إلى رئيستها ومُرشدتها، تعارضاً مع أوامر الربّ. وقد تذرّعوا، إلى هذه الغاية، بمنعها من الاشتراك مع الراهبات في الصلوات الجماعيّة، وحظّروا عليها تناول القربان المقدّس وفرضوا عليها نظامًا غذائيًّا ضنينًا لا يكاد يقيم لها أوَدًا، بل يكاد لا يكفي لإبقائها على قيد الحياة. غير أَنّ الله، برًّا بوعده لها، وبعد أَن تثبّت من إيثارها له على كلّ شيءٍ، قد ظلّ إلى جانبها، ووفّر لها أَسباب الصمود، فلم يقوَ شيءٌ على زعزعتها وعلى تعكير السلام الذي كان يهيمن عليها.

ولقد كان ذلك السلام خاتم الله على نفسٍ يسكنها، وسياجًا يقيها من التردّي إلى مهاوي القنوط، في الليل الداجي الذي كانت تخوضه وحيدةً.

وقد روت، في ما بعد، أَنَّ أحد رؤسائها قرّعها، في تلك الفترة، بعنفٍ، وأَضافت: "**كنت أشعر، وهو يقرّعني، أنّ سلامًا عميقًا يستقرّ في أغوار نفسي. فقلت له إنّ شعورًا يخامرني بأنّني لو متّ في تلك اللحظة، لصرت توًّا إلى السماء. فازداد تقريعًا لي مؤكّدًا أنّني ضالّةٌ، وسائرةٌ في درب الهلاك، ومتصلّبةٌ... ولكن لا شيء، في كلامه، كان قادرًا على تعكير نفسي**".

وغداة عيد الفصح، عام ١٨٧٢، زارتها مجدّدًا أختها السماويّة، ماتيلد دي نيدونشيل، حاملةً رسالةً جديدةً، وأوعزت إِليها: "يا أختاه، اذهبي. إنّ مشيئة الله أن تذهبي. إنّني أبشّرك بأنّك ستقضين عيد الميلاد المقبل في مهدك (كرمل پو)، ولكنّك لن تقيمي فيه طويلاً، فالله يرسم لك سبيلاً آخر... من الآن فصاعدًا سيدعك الله تتدبّرين أمورك بنفسك، ولكنّك عندما سترجعين إلى مهدك، حينئذٍ سيعود فيتولاّك الروح. وريثما يحين ذلك، سيدعك تتولّين أنت زمام نفسك، ولكنّ السلام سيظلّ راسخًا في أعماقك. تشجّعي...".

حنينٌ إلى المهد

ومنذئذٍ، كان يحدوها دافعٌ لا يقاوَم إلى هجر كرمل منغالور. وكانت الأمّ إِيلي تتراءى لها، بين الفَينة والفَينة، مؤكّدةً لها أَنّ الربّ لا يريد لها البقاء في ذلك الدير. فطفقت تردّد، بلا انقطاعٍ، رغبتها في الرحيل، ويشدّها إِليه حافزٌ تحاول عبثًا لجمه. فتارةً كانت تقول إنّها تودّ التنسّك في القفر، وطورًا تستهويها العودة إلى القدس، أو إلى الاسكندرية لتعيش بين فقرائها. لم يكن أيّ هدفٍ معيّنٍ يستأثر برغبتها، ولكنّ هجر منغالور هو الذي كان يستبدّ بها. وقد أوضحت لاحقًا، قائلةً: "بما أنّهم كانوا لا يكفّون يؤكّدون لي أنّ نذوري باطلةٌ، فلا شيء، بعدُ، كان يشدّني إلى ذلك المكان، حيث لن تكون إقامتي سوى إهانةٍ لله. ففي الصحراء، على الأقلّ، سيكون بوسعي التكفير عن ذنوبي، وتقديس نفسي في طمأنينةٍ".

وتحت وطأة هذه المشاعر المسيطرة، وفي دجى ذلك الليل المتراخي، كانت

الأخت مريم مسيّرةً، أَحيانًا، بقوىً خفيّةٍ، وإِرادتها في شِبه غيبوبةٍ، فهي، على سبيل المثال، في الثالث من آب ١٨٧٢، بعد أَن اعترفت وهي في هدوءٍ تــامٍّ، رأت بــاب الدير مفتوحًا، إذ كان عمل البناء ما زال جاريًا، ولم يُفرغ بعدُ من إِقامــة الــسور، فعبرت الباب، وقصدت مقرّ الأخوات المساعدات طالبةً منهنّ إيواءها. ولكن ما لبث أَن جاء من أمرَها بالعودة إلى حرَم الدير، فامتثلت من غير اعتراضٍ ولا مقاومةٍ.

ولكنّ عملها هذا كان القطرة التي بها طفح الكيل، إذ اعتُبــر محاولــة فــرارٍ، وتمرّدًا وقحًا على الأنظمة والقوانين. ووطّن الرؤساء العزم على طردها مــن ديــرٍ كانت، فيه، على حدّ رأبهم، سبب عثرةٍ وتشكيكٍ.

وقد واكبت هذا القرارَ حملةُ تشهيرٍ بها واسعة النطاق. فقد وَجّه الأسقف مــاري أفرام تقريرًا مستفيضاً إلى كلٍّ من أسقف بايّون، والأب مانوداس رئــيس إكليريكيّــة بايّون، وإلى رئيس كرمل بايّون، ضمّنه حكمًا مبرمًا بإدانة الأخت مريم، وإنكارًا لكلّ طابعٍ سماويٍّ في سلوكها وأقوالها.

وكذلك فعلت الأم الرئيسة والمرشدة، وانقادت لهما سائر الراهبــات مكرهــاتٍ. وإنّ من يطالع سَيل رسائل التشهير تلك، التي تُجمع كلّها على تصوير الأخت مــريم واهمةً ضلّلها روح الشرّ، متكبّرةً، عنيدةً، وقحةً، مستهترةً بأنظمة الدير، ليتساءل إن كانت تلك هي، حقًّا، النفس المختارة التي حباها الله بآلاء وكراماتٍ نادرًا مــا مــنَّ بمثلها على قدّيسيه، بل ليخامره الشكّ في استقامة سيرتها. غير أَنّ ما تلا من أَحداثٍ لا يلبث أَن يبدّد تلك الغيوم، ويدفع تلك الرِيَب، ويؤكّد نقاء تلــك الــنفس النــادرة، وفضائلها الفذّة.

إنّ المسؤولين في بايّون وفي كرمل پو قد قابلوا بكثيرٍ من الارتيــاب تقــارير التشهير بالأخت مريم، التي انهالت عليهم، والتزموا، حيالها، صــمتًا متحفّظًــا، ولا سيّما أنّهم كانوا، لفترةٍ غير بعيدةٍ، قد لمسوا، بما لا يتيح للشكّ مطرحًا، يــد الله فــي النعم الفريدة التي كان يُسبغها على مختارته الأخت مريم، وشــاهدوا، بــأمّ عيــنهم، موقفها المفعم إِيمانًا وتواضعًا إزاء سيل الآلاء الدافق عليها.

ومن ثمّ، فقد جهد المطران ماري أفرام في نَفْيها إلى أيّ مكانٍ آخر غير كرمل

پو، ولكنّ جميع محاولاته قد باءت بالفشل، إذ كان لا بدّ لمخطّط الله أن يتحقّق، وكان كرمل پو هو الذي رحّب باستعادتها.

إنّ سبل الله غامضةٌ أَحيانًا، وقد تبدو، لأوّل وهلةٍ، محيّرةٍ، غير أنّ تسلسل الأَحداث يبرز، من بعدُ، سرّ حكمتها السحيق. فلو أنّ الأخت مريم قد لقيت في منغالور مثل ما كانت تلقاه في كرمل پو من تفهّمٍ وحَدبٍ وعَونٍ، لمّا رضي ذلك الدير بالتخلّي عنها، ولضنّ بها ضنّه بكنزٍ لا يقدّر. ولكن الربّ شاء أن تُنسَج حولها شبكةٌ من اللائِقة، وأن تفتقد كلّ دعمٍ بشريٍّ، بل إنّه سمح بأن تقترف بعض هفواتٍ غير إراديّةٍ، ممّا سهّل إبعادها عن منغالور، في ظروفٍ قاسيةٍ كانت وسيلةً لتطهيرها بنار الألم. وممّا مهّد لاستخدام الله إيّاها في مغامراتٍ جديدةٍ، وبقاعٍ جديدةٍ حيث كان يودّ، من خلالها، نشر مجده.

العودة إلى المهد

غادرت الأخت مريم منغالور في الثالث والعشرين من أيلول ١٨٧٢، برفقة راهبةٍ أُخرى، وانتهت إلى كرمل پو في الخامس من تشرين الثاني، الذي يوافق الذكرى الثانية لوفاة الأمّ إيلي. وقد وفّرت لها تلك الرحلة فرصاً عديدةً لأعمال خيرٍ سخيّةٍ، تجلّت، من خلالها، محبّتها التي لا تعرف في البَذل حدودًا.

وكان كرمل پو المرفأ الذي أرست فيه، غبّ عاصفةٍ مرهقةٍ محفوفةٍ بالمهالك، وتدفّق قلبها شكرًا لله، في صلاة، بل في قصيدةٍ جديرةٍ بصاحب المزامير، قالت فيها: "**يا إلهي، أنا مثل فرخ دجاجٍ انقضّت عليه حدأةٌ، ونقرته في رأسه، وكادت تمحقه، غير أنّ الصغير المسكين قد فزع إلى جناح أمّه، والتجأ تحته التماسًا للأمان. أنا أيضاً قد عانيت من القلق والكرْب والألم، فتفكّكت عظامي، واحمضّ نخاعها في داخلها، وتهشّم لحمي... والتفتُّ إلى الأَب فرمقني بنظرةٍ منه شفتني. وعاد نخاع عظامي، الذي كان قد احمضّ فيّ، في مثل حلاوة السكّر، وعادت عظامي منيعةً كما لو كنت في الخامسة عشرة. وارتعش جسدي ابتهاجًا. كلّ كياني ابتهج أيضاً. وجريت نحو أبي ومليكي، ومليكي أيضاً أقبل نحوي، كنت كفرخ الدجاج الآمن تحت جناح أمّه. كنت أنظر إلى أعدائي من خلال ريش جناح أبي ومليكي، من غير خشيةٍ، فقد بتّ في أمانٍ**".

صورةٌ تستعيد نقاءها

من أجل إبراز ملامح المرحلة الهنديّة في مسيرة الأخت مريم بوضوحٍ، يجدر حسْر النقاب عن ذيول رحيلها عن كرمل منغالور.

فالمطران ماري أفرام، الذي كان، في أعماقه، صافي الجوهر، ويجمع إلى التقوى الوطيدة، الاستقامةَ والشعور المرهف، أَخذت تؤرّقه الشكوك، وبات يتساءل، في حَيرةٍ وجزَعٍ، إن لم يكن قد وقع ضحيّة خداعٍ، وتسرّع في الحكم، جزافًا، على بريئةٍ مختارةٍ من الله. وقد روت راهبةٌ كانت شاهدةً على تطوّر الأحداث: "إنّني عاجزةٌ عن وصف ما قاساه ذلك الأب من معاناةٍ في أعقاب القرار الذي اتّخذه. لقد كان يحاول أبدًا تبرير الدوافع التي حملته على البتّ في تلك القضيّة، ويمكن القول أنّه لم يعد من عالم الأحياء". لقد كان قراره بإدانة الأخت مريم من شدّة الوطء على نفسه، بحيث سحقه، فقضى نحبَه، ولم تمضِ سوى أشهرٍ على مغادرة الأخت مريم منغالور، وهو ما زال في مقتبل العمر، ولم يكد يتخطّى الأربعين.

وكانت الأخت مريم التي ما انفكّت تكنّ له أعمق احترامٍ، وأَصدق حبٍّ بنويٍّ، قد تنبّأت بأنّه لن يرى نهاية السنة التي يعود فيها الأب لازار إلى فرنسا. وقد قفل هذا الأخير راجعًا إلى فرنسا، فعلاً في شهر آذار ١٨٧٣، وانطفأ المطران ماري أفرام، بعد أَيّامٍ معدوداتٍ، في العاشر من شهر نيسان. وقد تراءى للأخت مريم، مرّاتٍ عديدةٍ، وهو يتألّم في المطهر، وأَعرب لها عن عميق أسفه، مكرّرًا القول: "لقد خطئت في حقّ مجد الله". ومذ ذاك، بات وكدها الشاغل إنقاذه من ذلك العذاب، وأُوحيَ إليها أنّه لن ينتقل إلى الديار الإلهيّة إلاّ يومَ يقام القدّاس الأوّل في كرمل بيت لحم الذي ستضطلع هي بدورٍ أساسيٍّ في تأسيسه. وأَصبح الفراغ من بناء ذلك الدير يؤرّقها ليلَ نهارٍ، إلى أن اطمأنّت نفسها في الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٨٧٦، أثناء احتفال بطريرك القدس بالقداس الأوّل في كرمل بيت لحم، إذ سعدت، آنذاك، برؤية نفس أبيها المطران ماري أفرام، وهي تلج الوطن السماويّ.

أَما دير كرمل منغالور، فلم تخيّم عليه السكينة، في أعقاب إقصاء الأخت مريم عنه، على حدّ ما كانت تَعدُ الأمّ الرئيسة، بل استفحل فيه التوتّر، وكأنّه حُرم من حضورٍ سماويٍّ ثمينٍ. وظلّت أوضاعه تتفاقم سوءًا، إلى أن تحتّم إجْرَاء تغييرٍ في

قيادته. ومن مدهش المصادفات أنّ مطهر ذلك الكرمل، أيضاً، قد انتهى في نفس اليوم الذي بارحت فيه نفس المطران ماري أفرام مطهرها. ففي العشرين من تشرين الثاني ١٨٧٢، نُحّيت الأمّ الرئيسة عن منصبها، وخلفتها فيه مرشدة المبتدئات السابقة. ويتبيّن بوضوحٍ لمن يستقري الرسائل التي صدرت من دير منغالور في ذلك التاريخ، ما ساده فجأةً من شعورٍ غامرٍ بأنّ كابوسًا خانقًا قد انزاح عن الصدور، وأنّ المشاعر قد تحرّرت، أخيرًا، من كبْتٍ طالما ران عليها.

وقد جاء في الرسالة الأولى التي بعثت بها الرئيسة الجديدة إلى رئيس كرمل بايون: "أستطيع أن أؤكّد، يا أبتِ، أنّني سعيدةٌ، كلّ السعادة، لتبرئة ساحة تلك الابنة العزيزة (الأخت مريم يسوع المصلوب)، وأودّ، من كلّ قلبي، أن يعرف الجميع أننا، في منغالور، قد أخطأنا في حقّها، إن كان من شأن ذلك بَسط ملكوت الله في النفوس، وتمجيد اسمه القدوس. أنا، من جهتي، عاجزةٌ عن التعبير عن حبّي لتلك الابنة، وقد زالت جميع شكوكي في ما يتعلّق بسبيلها. وإنّني أجد نفسي، في المحن، محمولةً على التماس شفاعتها. ويوم ينمى إليّ أنّ السلطات الكنسيّة قد أيّدت طريقها، سيكون أسعد أيّام حياتي".

وقد كتبت إلى الأخت مريم يسوع المصلوب مباشرةً، رسالةً مفعمةً ندمًا وتواضعًا وعطفًا جاء فيها: "إنّني بحاجةٍ إلى أن أكشف لك، أيّتها الابنة العزيزة، أسرار قلبي. ولطالما عانيت من عدم قدرتي على الإفضاء بمشاعري تجاهك، كم قد أنحيت على نفسي باللائمة، في مرارةٍ، لأنّني لم أكن لك ما كان يجب عليّ أَن أكون! ألف مرّةٍ أسألك الصفح عمّا سبّبته لك من ألمٍ".

وكتبت إلى رئيسة كرمل بيت لحم حيث كانت، آنذاك، الأخت مريم يسوع المصلوب: "... أرجوك تبليغ أختي المحبوبة مريم يسوع المصلوب كم أنا أحبّها، واسأليها أن تغفر لي كلّ ما سبّبته لها من كروبٍ، وا أسفاه!... أعترف أنّ الألم يغمرني عندما أذكر أنّني حبست عنها العزاء في محنها، أنا التي كان عليّ أن أكون لها عونًا، حتّى ولو كانت على ضلالٍ. كان من واجبي أن أوفّر لها عزاءً أمسكتُه عنها، وسيظلّ ذلك موضع أكبر ندمٍ في حياتي كلّها... إنّني أعترف أن خطأنا كان في الاسترسال في كتابة انطباعاتنا، ولست ألقي التّبعة على أحدٍ، فقد أذن بذلك الله الذي يحبّ صَلب قدّيسيه".

وفي رسائل لاحقة كانت تُؤكِّد، نادمةً، أنّ كرمل منغالور قد أجحف بحقّ الأخت مريم يسوع المصلوب، وأنّ الأساليب التي استُخدمت لإِقناعها بضلالها كانت شرسةً، كما تعترف أنّها، هي نفسها، لم تكن مؤهّلةً لرعايتها، ومفتقرةً إلى الخبرة التي تمكّنها من مواجهة الظروف غير العاديّة، والمحن العسيرة التي مرّت بها، ولذلك جنحت إلى الإذعان لقرار الرؤساء، على غير قناعةٍ.

وقد ورد في رسالةٍ لها إلى الأب لازار تحمل تاريخ ١٨٧٧/٢/١٠:

"كم تألّمت لأنّني لم أوفّر سندًا لتلك الابنة المسكينة التي وَضَعت فيّ ثقتها... بعد رحيلها كنت ناقمةً على نفسي، لأنّني لم أقدّم لها العزاء في محنها القاسية... لقد كنت غير مؤهلةٍ إِطلاقًا، وأنا على ما عليه من وضعٍ فكريٍّ، للتمييز، في تلك السيرة الخارقة بين عمل الله، وعمل ملاك الظلمات. وهذا الأخير، للأسف، هو الذي كان يعمي بصيرتي...".

وفي ١٨٧٧/٤/٤، كتبت إلى الأخت مريم يسوع المصلوب نفسها، ردّاً على رسالة من هذه الأخيرة:

"أنا وحدي كنت أستطيع تقدير مدى ما كبّدتك من آلامٍ، كما أنّني، وحدي، أقدّر محبّتك العذبة، أيّتها الابنة العزيزة... كوني ملاكًا حارسًا لهذا الكرمل المسكين. لا رَيب أنّ علينا معاناة المزيد من الآلام، ولكن منذ أخذت أشعر أنّني متّحدةٌ بك، لست أخشى شيئًا. لقد غفرتِ لي تفريطي بثقتكِ، وتنغيص عَيشك. المعذرة مرّةً أُخرى. لقد كنت أتخيّل أنّني ملزمةٌ بفعل ما فعلته، في البدء، ولكن، في ما بعد، علمت أنّني كنت على ضلالٍ. ولكنّكِ، أنتِ، يا ابنتي، قد تعذّبتِ من جرّاء افتقاري إلى الخبرة، تتميمًا لمشيئة الربّ. لقد تألّمتُ كثيرًا لقسوتي عليكِ، أثناء علّتك".

ولاحقًا، يومَ نمى إليها نبأ وفاة الأخت مريم يسوع المصلوب كتبت:

"فاجعٌ ارتحال تلك النفس المباركة التي كانت تنشر من حولها إِشعاع جميع الفضائل الفطريّة والمكتسبة، تلك النفس الطاهرة القدّيسة التي طالما قاست وظلّت وفيّةً، ذلك القلب الغالي الذي لم يخفق إلاّ لإلهه... القلب الذي ذاب حبًّا وألمًا، ذلك الملاك الذي حلّق إلى أعالي السماوات، ملاك السلام الذي لم يعرف سوى مباركة من كانوا يسومونه العذاب.

"كم تعذّبت تلك الابنة العزيزة بسببي، كم تمنّيت أن أراها لأُلقي بنفسي عند قدميها وأستغفرها!

"أعترف أنّني دفعت بها إلى أَقصى درجات الضيق، وأستعذرها ألف مرّةٍ.

"إنّني مذنبةٌ وندمي صادقٌ... ألتمس الغفران من ذلك القلب موئل المحبّة والغفران".

وقد جاء في رسالة بعثت بها الأخت تيريزا إلى رئيسة كرمل بيت لحم بتاريخ ١٨٧٦/١١/٢١: "الآن نستطيع أن نكتب بقلبٍ مفتوحٍ، بفضل الله، بعد أن عانينا من الضيق طويلاً. أرجوك تبليغ الأخت مريم أنّ محبّتي لها لم تتبدّل... إنّني لم أُقِم، قطُّ، وَزنًا لما قيل فيها. ربّما انتابتني فترات ارتيابٍ، فضلاً عن أنّه، بعد أَن أصدر رؤساؤنا حكمهم بحقّها، كان علينا الخضوع، ولو ظاهريًّا. لقد سبق لي أَن كتبت رسالتين تناولتها بهما. لقد كانت تلك هي رغبة الرؤساء...".

أمّا الأخت "أنييس" فقد كتبت في ١٨٧٦/١١/٢١، إلى رئيسة كرمل پو:

"إن كانت الأمور المتعلّقة بعزيزتنا الأخت مريم يسوع المصلوب هي التي سبّبت لك أكبر قدرٍ من الكدَر، كما هو مرجّحٌ، فدعينا نؤكّد لك، أنّنا، نحن الخمس، لسنا مطلقًا مصرّاتٍ على وجهة نظرنا السابقة. بل إنّنا نرغب، من كلّ أنفسنا، أن تكون تلك الابنة العزيزة مسيّرةً بقيادة الروح الصالح، وأن يجعل الله منها قدّيسةً كبيرةً.

"وثقي أنّه، وإن أوحي هنا بنقيض ذلك، ممّا حمل سيادة المطران على إدانتها، ومع احترامنا وتقديرنا لهذا الأسقف الجليل، فنحن لا نعتقد أنّه معصومٌ من الخطإ، وإن كان آخرون من بعده، بعد التمحيص، يرون رأيًا مخالفًا، فسيكون لنا ذلك مصدر سعادةٍ صادقة...".

وكتبت الأخت "أنييس" نفسها في اليوم التالي، ١٨٧٦/١١/٢٢، إلى رئيسة كرمل بيت لحم: "بعد معاناة تمادت ستّ سنواتٍ، رأينا من الضروري إِجراء تغيير في إدارة جماعتنا الصغيرة... لو تدرين كم عانينا!... لو أنّني كنت حرّةً، لبادرت منذ زمنٍ طويلٍ إلى استغفارك عمّا سبّبناه من سوءٍ... إنّني غالبًا ما حُمِلتُ على الكلام، في حين كنت أوثر الصمت، وقُسرت على الصمت، ساعة كنت أودّ الكلام... كم من الرسائل التي وددت أن أحدّثك فيها بقلبٍ مفتوحٍ، قد صودرت... إنّ أخت المخلّص

(الرئيسة المعزولة) لم تعرف أن تكون، يومًا، لإحدانا أمًّا. والمطران ماري أفرام كان يكنّ لها من التقدير ما جعله يهبها سلطةً كانت مصدر شقاءٍ لها ولنا، على السواء".

أما الأخت تيريزا فقد كتبت إلى الأب لازار:

"لو تعلم أيّة أوقاتٍ عصيبةٍ قد قضيتُ بعد رحيلك وأنا أرى ما تقاسي تلك الابنة العزيزة من شتّى الكروب، وهي تفتقر إلى من يساندها، أي إلى من يوليها ثقته، وهو افتقارٌ رهيبٌ لمن يسير على مثل دربها".

وتوضح في نفس الرسالة أنّها سئلت يومًا عن رأيها في الأخت مريم، فأجابت بما تعتقده فيها حقّا، وإذ كانت إجابتها تبرّر الأخت مريم، اتّهمت بأنّها من أعوان إبليس.

وتنهي الرسالة بقولها: "مسكينةٌ تلك الأخت الصغيرة. كنت أوجّه لها أحيانًا أقوالاً من القسوة بمكانٍ... ولكن، مع ذلك، لم ألحظ أنّها حقدت عليّ. بل، على النقيض من ذلك، قد أعربت لي دائمًا عن أكبر حبٍّ وامتنانٍ لكلّ ما كنت أعمل من أجلها".

وتتواتر الشهادات المماثلة، مُجمعةً على أنّ الأخت مريم لم تضمر يومًا ضغينةً على من أساؤوا إليها، أو اضطهدوها، أو شهّروا بها، ولم تبدّل منهم يومًا موقفها المفعم محبّةً خالصةً. بل هي، عملاً بقول معلّمها الإلهيّ ظلّت تحبّ أعداءها، وتبارك لاعنيها، وتصلّي لأجل الذين يضطهدونها ويفترون عليها.

إنّ هذا الفيض من الشهادات التي تدفّقت، فجأةً، بعد سنواتٍ ستّ من التشهير، لتنطوي على عِبَرٍ بليغةٍ. فكم من أولياء الله يُضطَهدون افتئاتًا! وكم من النفوس الناصعة قد مُرِّغت في حمأة الافتراء طويلاً قبل أن يأذن الله بجلاء حقيقتها الساطعة! كم من ممثّلي المسيح الرسميّين يتورّطون في جريمة اضطهادٍ أصدقائه وأوليائه، ويصلبون يسوع فيهم باسم يسوع نفسه، وبفَضل ما أولاهم من سلطانٍ! جرائم تتكرّر تحت أبصارنا، ويتقطّر لها قلب كلّ مؤمنٍ.

ونعود إلى أختنا مريم، التي في شهر كانون الأوّل من عام ١٨٧٢، وإثر مراجعةٍ شاملةٍ للأحداث التي مرّت بها في منغالور، أسرّت إلى رئيسة كرمل پو

بمشاعرها، بهذا الشأن. وممّا يثير الانتباه، في اعترافها هذا، أنّها، وهي التي عُهِد عنها أبدًا استكبارها لصغائرها، وارتعاشها جَزَعًا أمام هناتها التي ترى فيها أخطاءً جسيمةً، لم ترتعش حِيال ما أُدينت به، في منغالور، على أنّه خطأٌ تعدّى، في فداحته، كلّ الحدود، فلنستمع إليها:

"يستحوذ عليّ أسفٌ عميقٌ، وخِزيٌ باهظٌ، لدى رؤية زلاّتي السابقة. إنّها في مثل كثرة رمال البحر، وقطرات مياه المحيط. غير أنّني أثق في مراحم الله اللامتناهية. ولكن، عندما يجول ببالي أنّني اجتزت سور دير منغالور التماسًا للفرار، لا أستطيع أن أشعر بأيّ ندمٍ، بل لا يسعني إلاّ أن أقدّم للربّ ألف شكرٍ على ذلك. مع هذا، يبدو لي أنّ ذلك العمل كان خطأً جسيمًا، وينتابني الأسى لأنّني كنت سبب شكٍّ، ومصدر اضطرابٍ. ولكنّني كنت مدفوعةً إلى ذلك رغمًا عنّي. ويخالجني شعورٌ بأنّني لو وُجدت، من جديدٍ، في مثل تلك الظروف، لكرّرت عملي ذاك. من يستطيع إدراك ذلك؟ قد يخيّل إلى من يسمعني أنّني مجنونةٌ أو راهبةٌ فاسدةٌ. إلاّ أنّني أمام الله، لا أستطيع أن أرى غير ذلك.

"لو أنّني حاولت، هنا، اجتياز سور الدير، لتيقّنتُ من ارتكاب خطيئةٍ مميتةٍ جسيمةٍ، حتّى ولو كنت في مثل تلك الظروف، وفي مثل ذلك الوَضع النفسي، وحتّى لو تعرّضت لمثل ما تعرّضت له في منغالور. إنّ الله تعالى يعرف السبب، وذلك حسبي".

أجل، إنّ الربّ كان يعرف السبب، لأنّه هو الذي كان يرسم الطريق الذي سيدفع فيه أمته المختارة شطر مغامراتٍ جديدةٍ، ونحو قِممٍ أُنُفٍ مجهولةٍ.

الفصل الحادي عشر

إجازة في كرمِل "پو"

(١٨٧٢/١١/٥–١٨٧٥/٨/٢٥)

قفَلت الأخت مريم إلى پو، وقد أرهقتها محنةٌ مضنيةٌ عانت، بها، قسطًا وفيــرًا من اضطهاد البشر، ومن تواري الله عنها، على نحو ما كان قد عــانى المــصلوب الإلهيّ نفسه عندما صاح، وهو على آلة العذاب: إلهي، لِمَ تركتني؟

ولم يكن يراودها، في طريق العودة، سوى الرغبة فــي الــصمت والــسكون، والخضوع للمشيئة الإلهيّة، والندم على كلّ ما حدث بسببها، وتمنّي الموت الذي يقيها من أيّ خطأٍ قد تُغضِب به خالقها، فلنستمع إليها:

"منذ مغادرتي منغالور، استولى عليّ، رغم عناء الرحلــة، شــعورٌ بالــسلام والسكينة، لا أستطيع التعبير عنه. لست راغبةً في شيءٍ، ولست أطلب شيئًا، حتّى الصلبان، فهي، عندما توفّرت لي لم أعرف الإفادة منها. لست أبتغــي الآن ســوى يسوع، ومشيئته والصمت".

وأضافت، مشيرةً إلى حرمانها الطويل من القربان المقدّس، بعد أن حُظر عليها التناول في منغالور: **"لو أنّني، على الأقلّ، كنت أتقبّل يسوع، فــي خــضمّ محنــي الجسيمة، لواكبتني قوّة الله. ولكنّني حُرمت من كلّ هذا... ومع ذلك، كنت أحــتفظ، في أغوار نفسي بسلامٍ، وطيدٍ. ولكن، عندما أدانني سيادة المطران مــاري أفــرام بزَرع الشقاق في الجمعيّة، استحوذ عليّ حزنٌ بليغٌ فارتميت عند أقــدام يــسوع، وبكَيت بكاءً مدرارًا. وخُيِّل إليّ أنّ يسوع كان يبكي معي، بل يبكي بسببي، فبادرته**

قائلةً: "لمَ تبكي، يا ربّ؟ إنّك كلّيّ القدرة، وبوسعك إنقاذي". فأجابني: "عمّا قريب". ثم وافتني الأمّ إيلي مؤكّدةً وعد يسوع. ولكن ليت الربّ يعود عن وعده. فأنا لست هنا لزمنٍ طويلٍ، ولم أعد أرغب سوى في الصمت والموت لكي لا أهين الله".

وكان يخامرها بعض خَشية ممّا قد تلقاه في پو، حيث سبقتها تقارير مستفيضةٌ تُسهب في التشهير بها، وفي تصويرها على أَبشع وجهٍ. إلاّ أنّها فوجئت باستقبالٍ حافلٍ بالدفء. وسرعان ما اتّضح لها أنّ المطران لاكروا، والمسؤولين في كرمل پو ما انفكّوا ينظرون إليها نظرتهم عينها، لنحو سنتين خلتا.

عندما غادرت كرمل پو في آب ١٨٧٠، كانت مبتدئةً تتأهّب لتصبح راهبةً متأمّلةً، وها قد عادت إليه راهبةً عاملةً تضطلع بشؤون المطبخ، وسائر أعمال الخدمة اليدويّة، وقد توطّد لديها اليقين بأنّ سبيلها إلى السموّ الروحي يمرّ عَبر أكثر المهامّ اتّضاعًا، حيث تستطيع أداء أكبر قدْرٍ من الخدمة. لقد آثرت المقام الأخير، الأكثر امّحاءً، وكان من شأن هذا الخيار أَن يدفعها إلى مركز الطليعة في عالم الملكوت، وإلى جوار الربّ الحميم.

لقد وصفت، في ما بعد، فترة إقامتها الثانية تلك، في پو، بالعطلة التي تمتدّ بين فصلين دراسيّين. ولكنّها كانت عطلةً غنيّةً بمواهب الروح النادرة. فقد ازدادت نفسها تجرّدًا عن الدنيا، والتحامًا بإلهها، واكتسبت بذلك شفافيّةً ورونقًا ورواءً، وانسكب على كلّ كيانها فيضٌ من التجلّي الملائكيّ، فتفتّقت لديها مواهب الشعر العفويّة، على غرار معلّمها، الشاعر الأكبر، يسوع، الذي أبرز، في الإنسان، وجه الله، وأدخل إلى السماء طَعم اَلْبَشَرِيَّة. وصوتُها الذي، مذ ذُبحت، وهي حَدَثٌ، في الإسكندرية، كان يشوبه ما يُشبه خشخشة إناءٍ مكسورٍ، أمسى، في إنشادها التسابيح للربّ، رقيقًا شجيًّا. وجسمها الذي كان قد أخذ يترهّل، بات، في حالات انخطافها، مجنّحًا رشيقًا، يتمتّع بمميّزات انعدام الوزن، التي يخبرُها، في أيّامنا، روّاد الفضاء، عندما يتخطّون مجال الأرض الجويّ.

وتواترت رؤاها وانخطافاتها، وعكف المسؤولون في كرمل پو على تدوين أقوالها وأفعالها في تلك الحقبة، بدقّةٍ، وحِرْصٍ، وأمانةٍ؛ ومن ذلك السجلّ الثرّ سنقتطف بعض الباقات الكفيلة بإبراز صورة نفسٍ مصطفاةٍ فريدة الجمال، وبتزويدنا بتعاليم سنيّةٍ سامية المعاني.

فعشيّة عيد الميلاد، لعام ١٨٧٢، الذي استعدّت له برياضةٍ روحيّةٍ، عرضت لها رؤيا روتها على النحو التالي:

"**كنت أونس حاجةً إلى الله ملحاحةً، وأنشده بكلّ طاقات نفسي، وأشترك مع الخليقة كلّها بتسبيحه. كنت مثل ولدٍ صغيرٍ يجري ويجري بحثًا عن أبيه، وأخيرًا، تجلّى يسوع، ورأيته في كلّ مجده. إنّه يتعذّر عليّ وصف ما غمر نفسي من فرحٍ: لقد كان الفردوس على الأرض. وخطر لي أن أسأله الكثير، ولكنْ تمهيدًا لذلك شرعت بمداعبته، وأفضيت إليه بشتّى مشاعر قلبي، علّني أؤثّر فيه، على حدّ ما يفعل ولدٌ يبتغي من أبيه أرَبًا، ويمهّد إلى ذلك بألف دعابةٍ. لقد دعوته من أجل النفوس القابعة في المطهر، فازداد يسوع، حينئذٍ، تألّقًا، ورأيت أشعّة نورٍ تنبعث من يديه، ونِعمًا تنهمر على تلك النفوس المسكينة. وبدا لي أنّ يسوع كان في حاجةٍ قصوى إلى إفاضة تلك النعم، وأنّه كان يُغدقها، في كثيرٍ من الاندفاع والسخاء.**

"**ثم دعوته من أجل الخطأة، وقد فعل يسوع مثل ما فعل لنفوس المطهر. أيُّ فرحٍ في رؤية ذلك الحبّ، ورحمة الله تلك!**

"**ولكن عندما هممت بدعائه من أجل الكهنة والرّهبان والراهبات، ارتدّت الأشعّة التي كانت تنحدر من يديه، وتلاشت، واجتاح قلبي الحزن، وقلقٌ رهيبٌ. فأنا من عداد الراهبات. وتنهّدت وانفجرت منّي العبرات. إنّني كلّما أجَلْتُ في خاطري ما رأيت، ما استطعت إمساك نفسي عن الانتحاب. كم نحن مذنبون، نحن الذين كان علينا أن نكون ليسوع عزاءً!**".

وفي الثامن والعشرين من شباط ١٨٧٣، رأت أنّها كانت تصارع إبليس، ولكنّها عبثًا كانت تضربه بكلّ صنوف الأسلحة، إذ إنّ أشدّ الضربات لم تنلْه بجرحٍ واحدٍ. وعندما أعياها الصّراع، التفتت إلى الله متضرّعةً: "**ما العمل، يا ربّ؟ فقد استخدمتُ جميع الوسائل، وكلّ الأسلحة، وأقواها فتكًا، من أجل صَرْع إبليس، ولكنّني لم أنل منه**". وردّ عليها يسوع: "**إنّك لم تستخدمي الأسلحة كلّها. لا يزال عليك أن تلجإي إلى هذه الفأس الصغيرة التي غفلتِ عنها. اِهوي بها على جبين إبليس فتُرديه صريعًا**". وأراها الربّ تلك الآلة الصغيرة، فتناولتها وهرعت بها نحو عدوّها، وما

كادت تلامس بها جبينه، حتّى خرّ كالميت. وذهلت لتلك النتيجة التي بدت عجيبةً بقدْر ما هي مباغتةٌ، وهتفت: "**إلهي، ما هي هذه الفأس التي تَتَمَتَّع بهذه القدرة الجسيمة؟**" وأجابها المخلص: "**إنّها فأس التواضع الصغيرة**".

وفي الخامس والعشرين من آذار، فيما كانت مستغرقةً في التأمّل، تنامى من أعماقها هاتفٌ يهمس: "**إنّ الله يختفي اختفاء البذرة في الثمرة، وكالبذرة في التفاحة. افتحي تفاحة، تجدي في وسطها خمس بذورٍ. على هذا النحو يختبئ الله في قلب الإنسان، إنّه يختبئ مع أسرار الآلام المتمثّلة بالبذور الخمس. لقد تألّم الربّ، وعلى الإنسان، أيضاً، أن يتألّم، شاء أم أبى. فإن هو تألّم بحبٍّ، وفي اتّحادٍ مع الله، خفّ ألمه، واكتسب ثوابًا جزيلاً، ونمت البذور الخمس القابعة في أغوار قلبه، وأنتجت ثمارًا وفيرةً. أمّا إن هو أعرض عن المِحَن، فآلامه تتضاعف، ولا يفيد منها ثوابًا**".

ويوم خميس الأسرار من عام ١٨٧٣، ناجت يسوع قائلةً: "**يا ربّ احفظني في حبّك، كما تحفظ الأمّ جنينها في أحشائها، حيث لا يفتقر إلى شيءٍ، ولا يحتاج إلى ما يأكل أو يشرب، بل يقبع آمنًا كلّ خطرٍ، إنّه مع أمّه، يمتلك كلّ شيءٍ. أنا، أيضاً، يا ربّ، إن أنت حفظتني في حبّك، فلن أفتقر إلى شيءٍ؛ لا رغبة لي سواك، ولست أريد الخروج منك، فكما أنّ الجنين يمسي سريع العطب، ويائسًا، حالما يبارح أحشاء أمّه، أنا أيضاً سأصبح تعيسةً إِن خرجت منك؛ فأبقني، يا ربّ، فيك، أبقني في أحشاء حبّك**".

الجسد البهيمة

وتسرد سجلاّت كرمل پو، في تلك الفترة، رواياتٍ طريفةً عن ممارسة الأخت مريم للتضحيات وإماتة الجسد، في روحٍ من الدعابة والمرح، منزّهةٍ عن التزمّت الكئيب، ونطالع منها، على سبيل المثال، هذه الحادثة الطليَّة، التي جرت في الرابع والعشرين من نيسان ١٨٧٣.

مساء أمس انتابت الأخت مريم حمّى شديدةٌ. وهذا الصباح، عندما استيقظت كانت من الوهْن بحيث كان يبدو لها النهوض متعذّرًا. وتروي هي ما حدث:

"حدّثت جسدي حديثي إلى بهيمةٍ، قائلةً له: هيّا سترتدي ثيابك بقدر استطاعتك، وستمضي للسجود أمام القربان الأقدس، ثم سنخلد إلى النوم. وبعد الصلاة، رغبت البهيمة في النوم فقلت لها: لا بل ستحملين دلوَي مـــاء لـــسقاية الغرســـات التـــي غرست أمس في الحديقة، ثمّ تنامين. ولكن، بعد هذين الدلوَين، أوعزت لها بحمـــل دَلْوٍ ثالثٍ، تستطيع، من بعده، الإخلاد إلى النوم. وعندما هممت بالنوم، قلت لا، بل لا بدّ من حضور الصلاة؛ ولمّا خرجت لأرتاح قلت: ينبغي أداء فعل محبّةٍ، ومضيت فاستفسَرتُ أخت القدّيس يوسف عن احتياجاتها، فطلبتْ مني أن أقشّر لها بطاطـــا، وهكذا...".

وعلى هذا النحو، وبفضل خطواتٍ صغيرةٍ متتاليةٍ كانت بها تُخرس نداء الجسد المتطلّع إلى راحةٍ مشروعةٍ، ملأت وقتها بالعمل، وكأنّها على أحـــسن حـــالٍ مـــن العافية. وعندما فرغت من مهامّها، استجمّت بقطف ورودٍ ضمّت منها باقات تكـــرّم بها أمّها الحنون، العذراء القدّوسة. وفي أعقاب تناولها القربـــان المقـــدّس، أصـــابت بعض طعامٍ، فعادت، وهي تتناوله، تحدّث جسدها قائلةً: "**خذي، أيّتها البهيمة، إنّـــي أجود عليك بهذا الطعام كي تسانديني على تأدية بعض المهامّ الأُخرى**".

أَنوار الروح القدس

وقضت شهر أيّار هائمةً في انخطافٍ شبه متّصلٍ، وقد أُمِرَت في التاسعَ عـــشر منه أن تروي ما عرض لها من رؤًى، في اليوم السابق الذي كان مغمورًا بدَفْق من النِّعم الإلهيّة، فأدلت بالاعتراف التالي:

"كنت، أثناء تناولي القربان، في غمرة حبّي لله، وكان هذا الحبّ يـــدفعني نحـــو شيءٍ لم أكن أدرك كُنْهه. فالتفتُّ إلى الروح القدس وابتهلت إليه: "أنرني، يا من أسبغ أنواره على الرسل، وعلى الجهّال. إنّني عدمٌ، فأنرني. أنا لست أبتغي سوى ما يريده يسوع". وفجأةً وجدتُ ذاتي في جوف ليلٍ داجٍ، وسْط حفرٍ وبهائم تنهشني، وكانـــت الظلمة تحول دون رؤيتي الحفَر والبهائم تلك. واستنجدت بالله وبنور الروح القـــدس، فانبرى شعاعٌ ينير خُطايَ، وفي طيّات ذلك الشعاع، رأيت، في لمحـــة عـــينٍ، كـــلّ خطايا حياتي، وآنست من الجرأة، آنذاك، ما كنت معـــه كفيلـــةً بـــالاعتراف بتلـــك

الخطايا، على الملأ أجمع، إن اقتضى الأمر. وفي آنٍ معًا، كنت ألتهب حبًّا، وكان قلبي يذوب، كما تذوب شمعةٌ بتأثير نارٍ موقدةٍ. فصحت: حسْبي، يا إلهي، لم أعد أطيق مزيدًا...

"ورأيت، أمامي، حمامةً تعلوها كأسٌ تفيض، وكأنّ في داخلها ينبوعًا، وَفَيض الكأس كان يتدفّق على الحمامة ويغسلها. وقد تعالى من ذلك النور الرائع صوتٌ قائلاً: "إنْ كنتِ تودّين البحث عنّي، ومعرفتي واتّباعي، فاستنجدي النور الذي أنار تلاميذي، وينير جميع الشعوب التي تستغيث به. الحقّ الحقّ أقول لك: كلّ من يستنجد الروح القدس، ينشدني ويجدني، وإنّما هو يجدني بفضل الروح القدس. ويغدو ضميره في مثل رقّة زهور الحقل، وإنْ هو كان ربًّا لأسرةٍ، فسيحلّ السلام على أسرته، ويُفعِم قلبه في هذه الدنيا وفي الآخرة، ولن يموت في الظلام، بل في أحضان السلام. إنّني أرغب، رغبةً حارّةً في أن يقيم الكهنة كلّ شهرٍ قداسًا تكريمًا للروح القدس، كلّ من يقيم مثل هذا القدّاس، أو يسمعه، يكرّمه الروح القدس نفسه، ويظفر بالنور وبالسلام، ويشفي المرضى، ويوقظ النيام".

"وسألت: يا ربّ، ما يسعني، أنا، أن أفعل؟ لن يصدّقني أحدٌ" وأجابني الصوت: "عندما يحين الأوان، سأفعل كلّ شيءٍ بنفسي، ولن يكون لك في الأمر يدٌ"...

"وتوارى كلّ شيءٍ، في حين ظلّ قلبي يضطرم حبًّا".

وخليقٌ بالملاحظة أنّ عبادة الروح القدس كانت قد أُوحيت إليها، أثناء تأهّبها لنذورها الرهبانيّة في منغالور، وقد ظلّ ذلك الإيحاء، يلازمها حتّى مغادرتها هذه الدنيا، ولطالما كانت لها عبادة الروح القدس الهادي والمعزّي والمشدّد. وكانت قد وضعت هذا الدعاء الذي كثيرًا ما ردّدته، وردّده الألوف معها ومن بعدها:

"أيّها الروح القدس ألهمني،
يا حبّ الله احرقني،
وإلى الطريق الحقّ اهدنِي،
ويا مريم أمي اُنظري إليّ،
ومع يسوع باركيني،

ومن كلّ شرٍّ وكلّ ضلالٍ،
كلّ تهلكةٍ احميني".

وغالبًا ما خاطبت الروح القدس في مثل هذه اللهجة:

"أيّها الروح القدس أنرني. ما الذي يتوجّب عليّ عمله، وبأيّة وسيلةٍ أعثر على يسوع؟ التلاميذ كانوا مغرقين في الجهل. عاشوا مع يسوع ولم يفهموه. وأنا أيضاً أُقيم في بيت يسوع ولا أفهمه...

"أيّها الروح القدس، عندما سكبت على التلاميذ شعاع نورك، تحوّلوا، وغدوا غيرَ ما كانوا من قبل، وتجدَّدت قواهم، فأمست لهم التضحيات هيّنةً يسيرةً. وعرفوا يسوع أكثر ممّا كانوا عرفوه عندما كان معهم.

"يا منبع السلام، أيّها النور، هلمّ فأنرني. إنّني جائعةٌ، فهلمّ وغذّني. إنّني ظمأى، فهلمّ واروِ عطشي، إنّني عمياء، فهلمّ وأنر بصيرتي. إنّني فقيرةٌ فهلمّ وأغنني...

"أنا لا أسألك من العلم والحكمة سوى علم اكتشاف يسوع، وحكمة الحفاظ عليه"

وهل كان للروح القدس أن يتقاعس عن الاستجابة إلى مثل ذلك النداء الحارق؟

فترات جفافٍ

تلك النفس المضطرمة الجيّاشة، كانت تجتاز، هي أيضاً، فتراتٍ من القَحْط النفسيّ الذي غالبًا ما يغشى حياتنا، نحن السواد الأعظم من البشر؛ ولكن، في حين أنّ قحطنا عقابٌ نستأهله، من جرّاء ابتعادنا عن الله، كان قحطها امتحانًا إلهيًّا، سلّمت به تسليمها بكلّ ما يشاؤه الربّ.

ففي العشرين من أيار ١٨٧٣، أدلت بهذا الاعتراف:

"أمسِ الأول، كان يغمرني من نعم الله ما أذهلني عن نفسي، وكنت طوال النهار، أُصارع النعاس (تعني به الانخطاف)، وكان يبدو لي أنّني متأهّبةٌ لأن أُقطّع إربًا إربًا، وأنْ أُمزّق وأُشوى بالنار. وكم قد تمنّيت أن أتألّم حبًّا بالله! كنت أقدّم ذاتي ضحيةً عن الكنيسة، أقدّمها في سبيل معاناة كلّ ما يشاؤه الربّ. أمّا اليوم، فلا

تراودني خاطرةٌ واحدةٌ صالحةٌ. إنّني في مثل جفاف خشبةٍ، معرّضةٍ لنـارٍ حاميـةٍ، ولكنّها لا تحترق، وإنّما تزداد جفافًا. لطالما قيل لي، في منغالور، أنّ ما يجري لـي هو ثمرة خيالي، وها إنّ التجربة تُثبت أنّني عاجزةٌ اليوم عن أيّ تخيّلٍ بل عـن أيّ تفكيرٍ. الله وحده هو السيّد فينا، يفعل ما يشاء، ساعة يشاء".

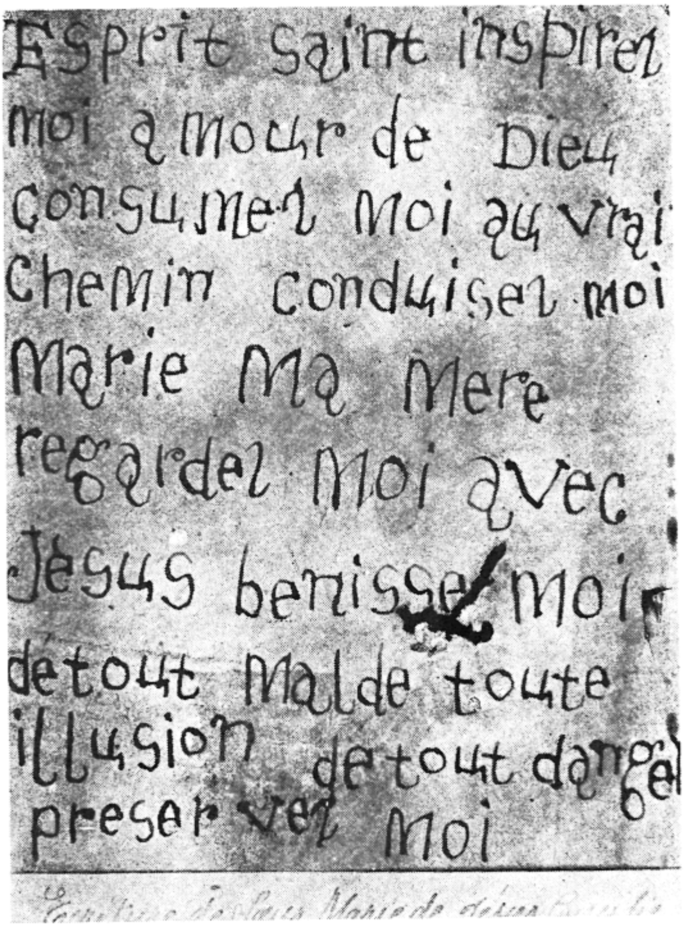
Esprit saint inspirez
moi a mour de Dieu
consumez moi au vrai
chemin conduisez moi
Marie ma mere
regardez moi avec
Jesus benissez moi
detout malde toute
illusion detout danger
preservez moi

صلاة الأخت مريم
(بخطّ يدها)

الشاعرة المنشدة

على أنّ محن القَحْط هذه كانت عندها عابرةً، تغلب عليها حـالات الانخطـاف المتواترة. وحينئذٍ كانت تتجلّى بشَرًا آخر، فتعكف على إنشاد التسابيح للخالق، فـي

جرْسٍ شجيٍّ، رغم ما كان يَعتورِ حنجرتَها من آثار الذبح، وفي أسلوبٍ شعريٍّ مرتجَلٍ حافلٍ بالطلاوة والعفويّة، فتدعو الخليقة كلّها لمشاركتها في تسبيح الخالق. ومن أناشيدها، في تلك الفترة:

"أيتها السماوات باركي الربّ
وأيّتها الأرض أيضاً باركيه
سلامٌ عليك، سلام، أيّتها الشجرة المباركة
التي تهبنا ثمرة الحياة.
من أعماق هذه الدنيا، قلبي يتأوّه، قلبي ينتحب،
مَن عساه يعطيني أَجنحةً أَطير بها نحو حبيبي؟
سلامٌ عليكِ، سلامٌ، أيّتها الشجرة المباركة
فبواسطتكِ أتلقّى ثمرة الحياة.
على أوراقِك أقرأ: "لا تخشَي شيئًا".
وخضاركِ يهمس لي: "ثقي"
غصونكِ تعلّمني "المحبّة"
وظلّكِ يقول: "التواضع".
سلامٌ عليكِ، سلامٌ، أيّتها الشجرة المباركة
ففيك أَجد ثمرة الحياة...
تَحت ظلّك أودّ الحنين
وعند أقدامك أودّ أن أموت
"يا إلهي، كم الإنسان جاحدٌ أفضال خالقه
وكم أنت طيّبٌ عطوفٌ، يا إلهي!
يا لجحُود الخلائق.
يا إلهي، كم قلبي مُغرقٌ في الصّغَر
ليت لي قلبًا أرحب من الوجود
كي أحبّك، أيّها الحبّ".

الجسد المجنّح

ونطالع في مذكّرات كرمل پو بتاريخ ٢٢ حزيران ١٨٧٣ هذه الحادثة التي تضاهي طرافتها غرابتها:

"هذا المساء، أَثناء الصلاة، تبيّن لنا أَنّ الأخت مريم يسوع المصلوب كانت غائبةً. وبحثنا عنها في كلّ مكانٍ من الدير، وإذ لم نعثر لها على أَثرٍ، رحنا نجوس خلال الحديقة في كلّ اتجاهٍ، من غير طائلٍ. وأخيرًا سمعتها إِحدى الأخوات تنشد للحبّ الإِلهيّ، وبدا صوتها آتيًا من بعيدٍ ومن قريبٍ في آنٍ معًا. ورفعتْ رأسها فوجدتها مخطوفةً فوق شجرة زَيزفون سامقةٍ، وتتأرجح في قمّتها، وهي غير مستندةٍ إلى شيءٍ. وما لبثت أن أَقبلت أمّنا الرئيسة، التي أوعزت إليها بالنزول، إن كانت تلك هي مشيئة الربّ. فانحدرت في الحال، وطفقت تقبّلنا جميعًا، وكأنّها تحاول تعويضنا عمّا عانينا من عناءٍ وقلقٍ، أثناء بحثنا عنها. لقد كانت مشرقةً، يغمرها الحبّ، ولحظنا أنّ فردة حذاءٍ واحدةً كانت في إِحدى قدميها، في حين بقيت الأُخرى عالقةً بقمّة الشجرة. وقالت للأمّ الرئيسة، في ابتسامةٍ عذبةٍ: "أمّاه، إنْ أنتِ أمرتني، باسم الطاعة، فسأمضي لجلبها". إلاّ أن أمّنا لم ترَ رَأيها. وعندما أَفاقت من انخطافها، وتبيَّنت أنّها فقدت حذاءها شقّ عليها الأمر، ولكنّنا جهدنا في جعلها تسْلى ذلك".

كم دهشت، من بعدُ، عندما لمحت فردة حِذائها تتأرجح في ذروة الزيزفونة، إذ لم يطلعها أحدٌ يومًا على حقيقة الأمر التي ظلّت خافيةً عليها.

وكانت تلك هي المرّة الأولى التي تُشاهَد فيها الأخت مريم وقد ارتقت، بل حلّقت إلى قمّة شجرةٍ، في رشاقة سنجابٍ، واستقرّت على فنَنٍ من الرقّة بحيث ينثني تحت وطأة عصفورٍ دوريٍّ. وقد تكرّرت تلك الظاهرة كثيرًا، في ما بعد، وشوهِدت الأخت مريم ثماني مرَّاتٍ وهي على قمّة الزيزفونة.

وتشهد الأخت ماري تيريزا بهذا الصدد: "رأيتها، ذات مرّةٍ، في حالة انخطافٍ، على قمّة شجرة زيزفونٍ، جالسةً على طرف أعلى غصنٍ، ومن الواضح أنّ ذلك الغصن الدقيق، ما كان، بشكلٍ طبيعيٍّ، ليثبت تحت ثقلها. وكان محيّاها يتألّق بجمالٍ سماويٍّ من الروعة بحيث كنت أتمنّى أَن أظلّ أحدّق فيها أَبدًا. وفي كلّ مرّةٍ كانت

تتنابها حالة وَجْدٍ، كان وجهها الخالي عمومًا من الجمال يرتدي طابعًا سماويّ البهاء. ورأيتها تنحدر من الشجرة في مثل رشاقة عصفورٍ، من فننٍ إلى فننٍ، في كثيرٍ من الخفّة والحشمة. ولاحظت أنّ أغصان الزيزفون تلك، الدقيقة جدًّا، كان من شأنها أن تتحطّم تحت ثقل خادمة الله، التي كانت جسيمةً، إلى حدٍّ ما".

وقد راقبتها، يومًا، إحدى الراهبات، بدافع الفضول، مترصّدةً طريقة ارتقائها إلى ذؤابة الشجرة، فرأتها تمسك بأطراف الأغصان الخارجيّة، من جهة الأوراق – لا من داخل الشجرة وباستخدام أغصانها الثخينة المتينة، كما يصعد سائر البشر – وتنساب في لمحة عينٍ إلى الذروة، وكأنّها فراشةٌ.

وسألتها، يومًا، الأمُّ الرئيسة كيف تفعل لتبلغ قمّة الزيزفونة، فأجابت أن "الحَمَل" يمدّ لها يده، ويجتذبها، وحين تنتهي إلى القمّة، تغرق في تأمّله في انسجامٍ حميمٍ. ولكن مهما بلغ هذا الانسجام من العمق، فقد كان أمر الرئيسة كفيلاً أبدًا بسلخها عنه، وإعادتها إلى أرض الواقع المحسوس. ولكنّها، ذات يومٍ، شقّ عليها الانسلاخ المباغت عن "الحَمَل" وتلكَّأت، لحظاتٍ، في النزول، فغدا نزولها عسيرًا وقد ندمت على ذلك نَدَمًا مريرًا، وأكّدت أنّها لو أطاعت في الحال، لغدت الشجرة صغيرةً، واطئةً جدًّا، تكاد قمّتها تلامس الأرض. ثمّ طفقت تستغفر الكون كلّه الذي كان شاهدًا على تردّدها في الطاعة، هاتفةً، والدموع تغمر وجنتيها: "**معذرةً أيّتها السماء، معذرةً أيّتها الكواكب، وأيّتها الأرض، معذرةً أيّتها الأعشاب**". كما استغفرت شجرة الزيزفون ذاتها، ثم اندفعت إلى الكنيسة باكيةً مردّدةً: "**عفوك، يا يسوع، عفوك**". ولئن كانت مسؤوليّتها عن ذلك التردّد العَرَضي غير مؤكّدةٍ، إذ إنّها كانت في حالة انخطافٍ، ولا تسيطر سيطرةً كاملةً على وعيها، ومع ندمها الوجيع الصادق، إلاّ أنّ الربّ، حرصاً منه على دفعها إلى أقصى أغوار التواضع والطاعة، قد تركها تُعاني طويلاً من القلق والتحطّم، عن ذنبٍ استكبرته.

استسلامٌ مطلقٌ بين يدي الله

في الأوّل من حزيران كانت الأخت مريم تائهةً بكليّتها في الله، ولكنّها لم تتكلّم مطلقًا. وفي اليوم التالي كانت تعيش خارج ذاتها، ومع ذلك، وهي على هذه الحال،

قد أعدّت للجمعيّة الطعام، وعندما دُعيت لتناول طعامها أجابت، وهي تفيض حبورًا: "**لا أستطيع تناول أيّ طعامٍ، فأنا قد أصبت غذائي... إنّني ألتهب**". وكان جليًّا أنّها عاجزةٌ عن احتواء الحبّ الذي كان يُحرق قلبها. وقد أوضحت الأمر بقولها:

"هذا الصباح، إثر تناولي الأسرار المقدّسة، كرّرت نذوري ثلاثًا بين يدي يسوع. كانت يداي موثقتين بيدَي مريم، ويدا مريم موثقتين بيدي يسوع، ويدا يسوع موثقتين بيدي الآب الأزلي. وقد أسلمتُ إرادتي لله بحضور الثالوث الأقدس، وأمام الملائكة والقدّيسين والخلائق بأجمعها. وقد قلت ليسوع: "لقد وهبتني إرادتي، وأنا أعيدها لك، أهبُك إيّاها بلا رجوعٍ، عطاءً لا نكُول عنه. دوِّنْ ذلك في قلبك، في كتاب الحياة، بحيث لا يمّحي أبدًا. لا تُعِدْ لي إرادتي، فهي لم تعد مُلكي. وإنْ لحظت فيّ رغبةً وبيلةً في استعادتها، فانتزع منّي حياتي في الحال. إنّني أبتغي إرادتك من خلال كلّ شيءٍ، من خلال الألم والمِحَن والاضطهاد، وكلّ صنوف الشدائد. إنّني أتطوّع للمضيّ إلى جهنّم، إن كانت تلك هي مشيئتك. إنّ إرادتي هي ملكك، ولك الاحتفاظ بها، وإنْ أنا رغبت فيها، يومًا، من جديدٍ، وإن كان بوسعك أن تشاء إعادتها لي، فإنّني أتوسّل إلى مريم الحؤول دون ذلك. فأنا قد وهبتها بين يديها، بيديها، وأقسم أنّني لا أبتغي شيئًا سوى إرادتك، في الحياة والموت وإلى الأبد. وأكرّر هذا القسم في كلّ لحظةٍ، مع كلّ نفَسٍ ونسْمةٍ، مع كلّ خفقة قلبٍ، ومع كلّ شيءٍ. الآن تمّ الأمر، وبات من شأنك أنْ تجعلني أنفّذ قَسَمي، وأن تقود بإرادتك كلّ ما يحدث لي، كلّ ما سأقول وأفعل".

وفيما كانت تُدلي بتلك الأقوال، كان واضحًا لكلّ مشاهديها أنّ روحها كانت في الله، أكثر ممّا كانت فيها.

وقد أكّدت، في ما بعد، بإلحاحٍ، لا على ضرورة التخلّي عن الإرادة فحسب، بل على التجرّد المطلق الذي وحده يُفضي إلى الاتّحاد بالله. وقالت في هذا المجال:

"منْ لم يَهَبِ الله إرادته، لم يَهبْه شيئًا...

"من وهب الله شيئًا عليه ألاّ يستردّه"...

"لقد خَلَقنا الله عُراةً، وإن نحن ابتغينا العودة إلى أحشاء الربّ، فعلينا أن نتعرّى، وأن نتجرّد من كلّ مُلكٍ. من امتلك لنفسه شيئًا تعذّر عليه الدخول إلى

أحشاء الله، وظلّ عنه خارجًا. ينبغي التجرّد حتّى عن امتلاك صورةٍ أو قلمٍ...".

نار حبّ الله الحارقة

وفي تلك الحِقبة، أثناء تأمّلها، رأت روضةً مستديرةً، تتألّف من عـدّة دوائـر، إحداها كانت مغروسةً بالورود التي تمثّل أوراقها المحبّة، وأشواكها تمثـل التـيقّظ. والثانية كانت تغمرها كرومٌ يرمز عِنَبها إلى الحبّ، وأوراقها ترمز إلـى الوداعـة. وفي الدائرة الثالثة نبت القمح رمزًا للثقة والرجاء، ووسْط الروضة انتشر البنفـسج، معبّرًا عن التواضع الحقّ.

وقالت: "**وسْط هذه الروضة أقمتُ عرشاً، أَجلست عليه يسوع، فانبجس ينبوعٌ من تحت قدميه، وكان ماء الينبوع يردّد: كلّ شيءٍ يمرّ، كلّ شيءٍ يجري كالمـاء. وإلى جوار العرش، غرسْتُ زهور بنفسج الثالوث، التـي كانـت تقـول: "فكّـروا بيسوع"، ولَبلابًا كان يرجّع: "لا تتعلّقوا إلاّ بيسوع**".

"يا يسوع إلهي، أُغرس جميع هذه الفضائل في قلبي، ونمّها بقدرتك".

وذات يومٍ، ناشدت الأمّ الرئيسة وهي مختطَفةٌ، قائلةً في حرقةٍ وغَيرةٍ:

"إنّ العالم كلّه نائمٌ، ذاهلاً عن الله كلّيّ الطيبة والعظمة، والجدير بكلّ تسبيحٍ. لا أحد يفكّر فيه. الطبيعة تسبّحه، وكذلك السماء والنجوم، والأعشاب والأشجار، وكـلّ شيءٍ. والإنسان الذي يتعيّن عليه تسبيحه، عرفانًا بأفضاله ينام. هيّا، فلنمضِ نـوقظ العالم. لنباركِ الله ونُنشد تسابيحه. إنّ العالم ينام، فلنبادر إلى إيقاظه...".

وكانت تُرفق هذا القول بالنحيب مستطردةً: "**يسوع غير معروفٍ، غير محبوبٍ، وهو المفعم طيبةً، والذي في سبيل الإنسان صنع كلّ شيءٍ**".

وفي تلك الفترة طلب منها الربّ، من أجل الكنيسة، أَن تطوف، عـدّة مـرّاتٍ، حول حديقة الدير، زَحْفًا على ركبتيها، وقد أَقلّت على ظهرها كيس رمـادٍ باهظًـا. وبعد أَن وافَقَتها السلطة على تنفيذ إيعاز السماء هذا، مضت بهذه الكفّـارة المرهقـة حتّى نهايتها، غير عابئةٍ بالدماء تنثال من ساقيها، والعـرق يتـصبّب مـن جبينهـا ووجهها، ويُحرق عينيها.

وإذ كانت تساورها بشأن الكنيسة المخاوف، تطوّعت للخدمة في المطبخ ستّة أَشهرٍ مُتتاليةٍ بلا انقطاعٍ، مع ما كان يمثّل لها ذلك من استشهادٍ، من جرّاء صحّتها المتداعية. ورخّص لها رئيس الدير بتنفيذ عَزمها، ورضيه الربّ بدوره، ولكي يجعله مثمرًا، أَسبغ عليها من الآلام أشدّها وأوفرها غرابةً. وفي أعقاب مِحَنٍ جمّةٍ، انتابها انخطافٌ عذبٌ فهتفت:

"إنّ الله يعودُني... ها هوذا... إنّه معي. من أين لي أن يتنازل الربّ إليَّ؟ ما أعذب التفكير بيسوع، ولكن الأعذب منه هو تنفيذ مشيئته...

"أتمنّى ألاّ تَتَطَلَّع جميع الأخوات المحيقات بي إلاّ إلى العليّ. فلتَحدُنا الغَيرة على مجده".

وفي مناسبةٍ أُخرى، في حضرة القربان المقدّس، استفسرت الربّ: "**يا يسوع إلهي، ما عسايَ أن أفعل لكي أحبّك؟**". فجاءها هاتف مجيبًا: "أَخدمي القريب، اخدميني، أحبّي القريب، تخدميني، بذلك أتحقّق أنّكِ تحبّينني حقًّا".

شاعرة الوجْد الإلهيّ، والعذراء الأمّ

كان توقها إلى الوطن السماويّ لا يني يفجّر من حنايا صدرها آهاتٍ وجيعةً ملتهبة حنينًا؛ فقد فاجأها الانخطاف يومًا، أثناء الفُسحة، فراحت تعدو صَوب الحديقة هاتفةً: "**لم يعد لي على الاحتمال طاقةٌ. إنّني أجري خلف الحبيب**". ثم انطلقت تُنْشِدِ تباريح الوجْد في عباراتٍ حارقةٍ:

"من عساه يقطع، من عساه يزيل الأغصان التي تحول بي دون رؤية الوطن، ودون المُضيّ نحو الحبيب؟ ما العمل من أجل إزالة الأغصان؟ من يعطيني أجنحة الحمامة؟ لم أعد أطيق هذا المنفى، ولم يعد لي على الحياة طاقةٌ".

وإذ اشتدّ بها الوجْد، قالت لمرشدتها التي كانت تتعقّب خطاها: "هيّا بنا إلى أمّي". وفي منسك سيّدة جبل الكرمل، خرّت ساجدةً عند أقدام الهيكل، ثمّ نهضت في نشوةٍ من الفرح وطفقت تُنشد:

"عند أقدام مريم وجدتُ الحياة،
أنتم يا من تقولون إنّني يتيمةٌ، انظروا،

إنّ لي أُمًّا في أعلى السماء،
ويا لَسعادة ابنةٍ لها مثل تلك الأمّ!
عند أقدام مريم وجدت الحياة.
"إنّني أسكن في أحشاء أمّي،
وهناك ألتقي حبيبي،
فهل أنا، بعدُ، يتيمةٌ؟
في أحشاء مريم وجدت الحياة...
"أنتم الذين يتألّمون، هلمّوا إلى مريم،
فخلاصكم وحياتكم عند أقدام مريم.
وأنتم الذين تعملون في هذا الديرن
اعلموا أنّ مريم تعدّ خطواتكم وتُحصي قطرات عرقكم،
فقولوا، في سرّكم: عند أقدام مريم وجدنا الحياة.
وأنتنّ اللواتي تُقمِنَ في هذا الدير، مريم تقول لكلٍّ منكنّ:
"يا ابنتي، ها قد انتقيتك من بين عشرة آلافٍ،
ومن بين عشرة آلافٍ سأقيمك في هيكلي...
لن تجوعي أبدًا، وأبدًا لن تعطشي،
فأنا أغذّيك، وأهبكِ جسد البريء ودمه...
الأفعى والتنّين توخّيا لَدْغي وسَلْبي حياتي
ولكنّني، عند أقدام مريم، في هذا الدير، وجدت الحياة.
مريم تَدعوني، وفي هذا الدير سأقيم أبدًا.
عند أقدام مريم وجدت الحياة.
لا تقولوا إنّي يتيمةٌ: فمريم هي أمّي، والله أبي، ويا لي من طفلةٍ سعيدةٍ!
بل قولوا إنّني عند أقدام مريم قد وجدت الحياة".

إِنّ من يستقري، في سجلاّت كرمل "پو"، سيرة الأخت مريم، في تلك الحقبة، تتجلّى له صورة مخلوقةٍ تدرج على الأرض، في حين أَنّ قلبها وروحها وذهنها ذائبةٌ في خالقها، ضائعةٌ فيه، إِنّها تُشعّ بنوره، وتبلّغ رسائله، وتنطق بألسنة ملائكته.

لم تكن تحفل بذاتها، وبكلّ ما يمسّها، لا بل إنّها كانت تتقبّل، بابتهاجٍ، كلّ ما يجرّحها أو يتناولها بإهانةٍ على أنّه كَرَمٌ من الله عليها. ولكنّها كانت لا تقوى، أحيانًا، على ضبط انفعالها حيال ما ترى فيه إهانةً لله، أو انتهاكًا متعمّدًا للنظام الرهبانيّ، وتضطرم فيها غَيرة الربّ، فتحتدم في التأنيب. ولكنّها سرعان ما تهدأ ثائرتها، فتستغفر في رقّةٍ وتلاشٍ ، ويلازمها النّدم، أيّامًا طويلةً، بل قد يُصيبها بانهيارٍ لا ينقذها منه سوى الصلاة التي تَغرق فيها حتّى الانخطاف.

في نهاية شهر آب ١٨٧٣، كانت تعاني من مثل تلك الحالة، عندما انتابها انخطافٌ قادها إلى أقدام أمّها العذراء، في منسك سيّدة جبل الكرمل، القائم في حديقة الدير، وهناك التمست لها الأمّ السماويّة الغفران من ابنها يسوع، فتدفّقت نفسها شكرًا وحبًّا، عبرَ هذا النشيد:

"سلامٌ عليك، أمّي الحبيبة، لا تكتئبي، سيزداد حبّي قليلاً عمّا قبلُ،

"كلّ شيءٍ سيبلغ نهايته. لم أعد أطيق العيش في هذه الدنيا، فأبقيني يا أمّاه إلى جوارك...

"طعامي، وَجْبتي التي أتناولها، هما رؤيتك يا أمّي الحبيبة،
"الماء الذي أنهله فتنتعش به نفسي هو حبّك، أُمّي الحبيبة،
"حين أحبّك، أظفر بالحياة، عندما أحبّك أنتعش،
"الراحة التي أصيبها، هي في نُشدانك، ليلَ نهار،
"على الجبل الذي رآك، انشقّت الصخرة لتقول "الحقيقة".

وعندما ثابت إلى أرض الواقع، هرعت إلى المطبخ، وعكفت على غسل الأطباق، ولكن، سرعان ما انتابها الانخطاف من جديدٍ، واستدعتها الأمّ الرئيسة، فهرولت في الحال، وهي تمسك بيدٍ طبقًا، وبالأُخرى الخرقة التي كانت تستخدمها للتنظيف. كم كان منظرها عذبًا، وقد شمّرت عن ذراعيها، وائتزرت بمئزر المطبخ الكبير، وتجلّى محيّاها أَشدّ إِشراقًا ونورانيّةً من أيّ وقتٍ! ثمّ راحت تحثّ الرئيسَة – داعيةً إِيّاها الراعي – إلى إِحاطة الحُملان بالكثير من المحبّة، سواسيةً. ولكن طلبت منها ألا تلبّي طلبات "العدم الصغير"، لأنّ الربّ يودّ التخلّي عنه، كي يُكسبه تواضعًا.

وكان وجْدها يزداد اضطرامًا في حضور القربان الأقدس. ففي الخامس من أيلول ١٨٧٣ استولى عليها انخطافٌ منذ القدّاس الصباحيّ، وقد دأبت، وهي مخطوفةٌ، على تزيين الهيكل ومدرجه بالزهور. وكانت حركاتها، في تلك الأثناء، أخّاذة الروعة. وقد تضاعف سحرها عندما بقيت، ساعاتٍ طويلةً، بصحبة القربان الأقدس، وظلّ حضور الله يواكبها سحابة النهار. وفي المساء طفقت تشدو نشيدًا تدعو فيه الخليقة كلّها، بأرضها وبحرها وكواكبها وطيورها، للاشتراك معها في تسبيح الربّ. وكانت اللازمة التي تنهي بها كلّ مقطع:

"إلى الأبد، من غير نهايةٍ، قلبي بحبّك مرتبطٌ".

ويشهد الذين سمعوها أنّه كان يتعذّر وصف تعابيرها المُستعِرة، ونظراتها المُلتهبة المُصوّبة إلى بيت القربان، أثناء إِنشادها.

وقد اختتمت النشيد بصرخةٍ من أعماقها:

"أيّها الستّار الذي يحجبه، انشقّ، فأنا أريد رؤية حبيبي، لأعبده وأحبّه،

"أيّها السَجْفُ الصفيق، تمزّق ودعني أرَ حبيبي، لأعبده وأحبّه،

"إلى الأبد، من غير نهايةٍ، قلبي بحبّك مرتبطٌ،

"إنّني أدعو الإنسان الجاحد إلى تسبيحك، وخدمتك، وتمجيدك، وحبّك...".

وبدت آنذاك، وقد حطّمها الألم، فالأرض والأعشاب والزهور والبهائم نفسها التي دعتها للاشتراك معها في مباركة الخالق وخدمته، قد استجابت جميعها لندائها، في حين أصمّ الإنسان أذنيه عن السماع. وحينئذٍ صرخت، في نبرةٍ يشوبها حزنٌ لا يوصف: **"أيّها الإنسان الجاحد، إنّ البهيمة المتوحّشة ستنقضّ عليك وستُهلكك جسدًا وروحًا. فلا تكن جحودًا!"**.

وبعد فترةٍ هتفت، وهي مخطوفةٌ، أَمام القربان الأَقدس:

"ملك الملوك، كلّي القدرة، يُقيم في ما بيننا. قلبي يبتهج. ونفسي مسحورةٌ، حبًّا وامتنانًا. أيّتها النفوس المخلصة، إنّ الحبّ جديرٌ بالمحبّة والتسبيح، والحبّ جديرٌ بالمحبّة والخدمة".

وفي الرابع عشر من تشرين الأول ١٨٧٣، كانت قد وقعتْ فانغرس مسمارٌ في ركبتها ما جعلها عاجزةً عن السير أو الركوع. ولكنّها، أمام القربان، لم تتمالك من المكوث جاثيةً، سحابة ساعتين، وهي تبتهل من أجل جميع الراهبات الموجودات، آنذاك، في الجمعيّة، واللاتي سيحلُلن فيها، من بعدُ، لكي لا تخفق قلوبهنّ إلاّ بحبّ الربّ؛ واستنزلت الصفح والغفران والعزاء على راهبات منغالور، متطوّعةً لكلّ ألمٍ في سبيل خلاصهنّ وعزائهنّ.

وكانت صلواتها تنطوي على مثل هذه العبارات الرائعة في إيمانها وتواضعها:

"يا ربّ، **اجعلهنّ جميعهنّ يحترقن كشموع المعبد، ويذبن من أجلك وحدك.**

"**أنا التي طالما كبَتْ، قد أنهضتني دائمًا، وصفحتَ عنّي، أنا ذرّة الغبار الزريّة... وأولئك اللواتي يستطعن تمجيدك، لا تدعهنّ يسقطنَ.**

"**لا تتخلّ عنّا... إنّنا في مثل ضعف الديدان فأخبئنا في ذاتك، يا الله، نحن لا نعرف كيف نَختبئ، ونحاول أبدًا الخروج... احفظ هذه الديدان في أرضٍ جيّدةٍ، رطبةٍ، تستطيع فيها العيش، فهي لا تقوى على العيش في أرض جافّةٍ، وتجهد في سبيل الفرار منها**".

ومع اقتراب نهاية العام ١٨٧٣، اتّخذ توقها إلى الاتّحاد بخالقها طابعًا أشدّ التهابًا وإلحاحًا، ورافقه إحساس أبعد عمقًا بعدَمها وعظمة من كانت تصبو إلى الاندماج به.

التواضع أيضًا وأيضًا

وقد حفلت تلك الفترة، بعبَرٍ قيّمةٍ كان الربّ يبلّغها على لسانها لأخواتها الراهبات، وبرسائل إلى العالم تحمل، بين طَيَّاتها أسمى الدروس. إنّها قراءةٌ جديدةٌ للإنجيل، حَريَّةٌ بإرشاد كلّ إنسانٍ جادٍّ في دروب الخلاص، في كلّ عصرٍ، وكلّ مكانٍ.

ولقد خاطبت الأخت مريم إحدى أخواتها، كانت تجتاز محنةً نفسيّةً، بقولها: "**ليست القداسة، اليوم، صلواتٍ، أو رؤًى، أو وَحيًا، أو علم فصاحةٍ، أو مسوحًا وكفّارات، بل هي التقيّد المُطلق بالنظام بحذافيره، وهي، فوق كلّ شيءٍ، التواضع**".

ثم أردفت: "يقول الربّ: **في هذا العصر نبتت للأفعى أجنحةٌ، ولذلك سأطهّر الأرض... وسأخلّص من يلتمس التواضع ويمارسه.**

"التواضع هو السلام، والنفس المتواضعة تتبوّأ عرش الملك. إِنّها، أبدًا، سعيدةٌ. في الكفاح والألم تتّضع، وتعتقد أنّها تستأهل المزيد من الألم، وتسعى إليه، وهي، أبدًا، في دَعةٍ وسكينةٍ. أمّا الكبرياء، فتتجب الاضطراب. القلب المتّضع إناءٌ، بل كأسٌ تحتوي الله!

"يقول الربّ: إنّ نفْسًا متواضعةً، متواضعةً حقًّا، تصنع من العجائب أكثر من الأنبياء الأقدمين.

"في السماء أروع الأشجار هي تلك التي أغرقت في الخطايا، ولكنّها حوّلت معاصيها سمادًا يُخصب جذورها".

ثمّ التفتت إلى الأمّ الرئيسة، مبلّغةً إليها تعاليم الربّ:

"إنْ أنتِ رأيتِ راهباتٍ شابّات، أو مبتدئاتٍ متعطشاتٍ إلى التمادي في الصلاة، خلافًا للنظام، فكلّفيهنّ بأكثر المهامّ وضاعةً".

وفي مناسبةٍ أُخرى قالت: **"إنْ صنعتْ مبتدئةٌ العجائب، ولم تكن مطيعةً، ولئن تبرّعت للدير بالملايين، ثمّ حرِصت على الاستئثار بصورةٍ، والتشبّث بها، فالأمّ تيريزا تقول: "اُطردوها، هي وكلّ ما تبرّعت به".**

موسوعة الخلاص

إلاّ أَنّ رسالتها الجامعة، التي أَجملت فيها دروب الخلاص، وأَنشدت فيها الفضائل، وفي طليعتها فضيلة الفضائل، التواضع الذي يُشرع الدرب إلى القداسة والكمال، ويُفْضِي إلى قلب الله، فقد أدلت بمعظمها أثناء انخطافاتها التي كانت شبه متّصلةٍ خلال عام ١٨٧٣، وببعضٍ منها في فتراتٍ متقطّعةٍ من العامين التاليين. وهي، على بساطتها، تنطوي على قدرٍ من السموّ والطلاوة والبلاغة العفويّة يذكرنا بسموّ الإنجيل، وبلاغة بساطته الفريدة.

ويطيب لنا أن نجترئ، في ما يلي، بشذراتٍ من تلك الرسالة، بل نكاد نقول من معلّقة التواضع، وملحمة الثقة بالله، ونشيد الحبّ الإلهيّ. إِنّها جديرةٌ بأعمق تأمّلٍ، وباستقراءٍ متأنٍّ، متمعّنٍ، متكرّرٍ:

"هنيئًا للإنسان الذي يثبُت رغم كلّ شيءٍ... والويل لمن يتخاذل حيال أوّل عقبةٍ.

"الويل للإنسان، والويل للجمعيّة، إن هما نشدا فخرهما وشهرتهما على حساب مجد الله!

"أيّها القطيع الصغير، لا تخشَ شيئًا، كن متواضعًا، ولا ترهب رعدًا ولا مطرًا، ولا جبالاً، فلا شيء يستطيع النّيل من مختاري الربّ!... سيروا تحت الأرض، إنْ كنتم كبارًا فاتّضعوا.

"لا تَنشدوا تعظيم الخليقة لكم، فمن يرفعكم اليوم، يهوي بكم غدًا إلى الحضيض.

"فخري أنْ أدعو الكنيسة أمّي. إنّ الحمَل يهبط كلّ ساعةٍ، بل كلّ لحظةٍ. هيّا أيّها الأطفال، هلمّوا لنعبده: لننهلْ من دمه فهو حياتنا، وفرح قلوبنا.

"واهتزّي أيّتها الأرض، فها هوذا مخلّصك!

"الويل للنّفس التي تحاول اكتناه سرّ الله!

"وهنيئًا للإنسان الذي يسعى إلى التواضع: فالجحيم كلّها عاجزةٌ عن زعزعته.

"أحبّوا الله، ولا تنشدوا سوى الله، فكلّ ما عداه عدمٌ.

"الويل للإنسان الذي لا يرى أعمال الربّ!

"على من يسيرون في إثر يسوع أن يضعوا هاماتهم في الرَّغَام

"اُنظروا إلى يسوع، إنّه سيّد الرّعد، وقد حنى هامته، دعوه يعمل، فسيّد الرعد سيحطّم كلّ شيءٍ، عندما يحين الأوان.

"أولئك الذين يُصفَعون يهيّئون جواهر للإكليل.

"اُخدموا الربّ في صبرٍ وتلاشٍ.

"إن خدمتم الله فاخدموه في عُريٍ تامٍّ. لا تلبَسوا ثوبين، لئلاّ يُثقلا خطاكم عن اتّباع يسوع.

"أيّتها النعاج الصغيرة، أحببنَ من يصفعُكن، لا من يقبّلكن.

"إن أنتَ اتّقيت من يصفعُك، فقدتَ كلّ شيءٍ، ولكنّك إن قبّلت من يضربُك، فالله سيحفظك.

"يا ربّ، علّمني وصاياك، فبعَونك سأكون أمينةً.

"يا ربّ، بيّن لي الطريق، علّك تسندني.

"لم يعد لقلبي طاقةٌ: فأنا على الأرض غريبةٌ! لقد وجدت فرح قلبــي، عنــدما وجدت خالقي. إنّه الكلّ وهو يكفي، ومعه لن يبقى للمرء حاجةٌ إلى شــيءٍ علــى الأرض: إن قلبي ملآنٌ مُترعٌ.

"أنتمُ الذين تتوقون إلى العليّ، ابتهجوا.

"هنيئًا لمن يبحث عنك، يا ربّ، فقلبه يختلج فرحًا.

"الإنسان الذي يمضي نحو الأرض. لا يلقى غير الأحزان.

"أيّها الإنسان السائر نحو الأرض، بين الاضطراب، والفخاخ، اكتشف قُوّتك في وَهَنك.

"يا إله الحبّ، ألقِ نظرةً على ترابك! إنّ نفسي تَئِنّ، وقد فقدتْ كلّ ذريعةٍ لهــا في هذه الدنيا!

"احذروا الأسد الزائر... بتواضعكم تقضون عليه، فالتواضع هو أشدّ ســيوفكم مضاءً؛ صلاحكم هو في انعدامكم.

"عندما كان الأسد يهاجمك، لو كان نظرك قد وقع على العليّ، لما كنت هوَيــت إلى هذه الدّركات السفلى!

"هناك من القدّيسين كثيرون قد تقدّسوا بفــضل الكبريــاء، إذ إنّهــم، ســحابة حياتهم، جهدوا في مكافحتها، وفي النّهْج خلافًا لما كانت الكبرياء تُوحيه. فعنــدما كانت تدفعهم إلى الانطلاق كانوا يتقهقرون، وعندما كانت تَحملهم على التعالي كانوا ينحدرون؛ وعندما كانت تُوحي لهم بالتحديق كانوا يغضّون الطرف، وحين تُــوحي لهم بالكلام يخرسون، وهكذا، أبدًا.

"بمن أشبّه نفسي؟ بصغار الطيور في أعشاشها، فــإن لــم يأتِهــا الأب والأمّ بالطعام، نفقت جوعًا. هكذا نفسي، في معزلٍ عنك، يا ربّ، تفتقر إلى الغذاء، وتفتقد وسيلة العيش.

"بمن أشبّه نفسي؟ بحبّة الحنطة الصغيرة المودعة في التراب، إن لــم تنهــلّ عليها قطرات الندى، وإن لم تُدفِئْها الشمس، تعفّنت. هكذا، نفسي، يا ربّ، إن لــم تسكب عليها أشعّة نعمتك وشمسك؛ أمّا إذا أنعمت بنداكَ وشمسك، فالحبّة الصغيرة

ترتوي وتدفأ. وتضرب لها جذورًا تنبت نبتةً جميلةً وفيرة الغلال.

"ومن أشبه، يا ربّ؟ أشبه وردةً قُطِفت، وتُركت في اليد تذبل، وفقدت عبيرها. ولكنّها إن هي بقيت على نبتتها، فهي أبدًا نضرةٌ جميلةٌ، ومحتفظةٌ بكلّ عطرها. احفظني، يا ربّ، فيك، كي أستمدّ منك الحياة.

"أنا مثل مصباحٍ بلا زيتٍ، وفتيل المصباح، من غير زيت، لا يشتعل. وإن ما حاولوا إشعاله، تحطّم الزجاج، وانطفأ المصباح. هكذا نفسي أمامك، يا ربّ، فأنت زيت نفسي؟ من غيرك، هي لا تستطيع اشتعالاً، وتنطفئ، فاسكب زيت نعمتك في مصباح نفسي كي تتّقد أمامك.

"ومن تُشبه، أنتَ، يا ربّ؟ إنّك تُشبه حمامةً تطعم فراخها، وأمًّا رؤومًا تغذي وليدها.

"الويل، الويل، للإنسان الذي يرتبط بالأرض، ولا يفكّر، ولو ربع ساعةٍ من النهار، بالربّ!

"وطوبى لمن أعطى الربّ كلّ شيءٍ، غير محتفظٍ بشيءٍ، وغير حافلٍ إلاّ بخدمته وتسبيحه. فهو يعيش إلى الأبد! كثيرون ممّن كانوا على العروش منتصبين، سيُطاح بهم، فيداسون بالأرجل في الرغام. والذين هم مداسون في الرّغام سيجلسون على العروش.

"في كلّ عملٍ صالحٍ، نفسٌ تكسبونها لله... لو علمتم، لسألتم الله فرصًا لعمل الصالحات...

"ساعة تتمرّد الطبيعة، يتعيّن الانتصار: إذا فوتّم الفرصة، فقدتم نفسًا.

"إنّ الله يُولي نعمته النفسَ التي تلدونها وتخلّصونها، ويضاعف نعمته، بقدْر ما تضاعفون الأعمال الصالحة.

"العذراء الحمقاء، إنّما هي حمقاء، لأنّها أحجمت عن العمل الصالح.

"الحبّ يخلّص النفس.

"طوبى للنفس التي ليس فيها لذاتها حبٌّ، بل كلّ حبّها للعليّ.

"النفس المزدراة، المهانة، تجذب أنظار العليّ.

"الجميع يحبّون الغنيّ ويكرّمونه، أمّا الفقير فمحتقرٌ، ولا يملك شيئًا، بَيدَ أنّه متواضعٌ. ومن ذا الذي يكرّمه الرب؟ إنّه يكرّم المتواضع.

"إنّ التواضع يسعد بالازدراء، والافتقار إلى كلّ شيءٍ، ولا يتعلّق بشيءٍ، ولا يغضب لشيءٍ.

"المتواضع مسرورٌ، سعيدٌ، سعيدٌ في كلّ مكانٍ، المتواضع يرتضي بكل شيءٍ، المتواضع يحمل الربّ في قلبه، في كلّ مكانٍ.

"أمّا الكبرباء، فكلّ شيءٍ يُغضبها، تسأم من كلّ شيءٍ، وتمتعض، وتنهار. كلّ شيءٍ يُثيرها ويُحزنها، والقلق يرافقها في الدنيا وفي الآخرة.

"التواضع يمتلك الفرح في الدنيا وفي الآخرة. التواضع لا يعبأ لشيءٍ، ويسعد بكل شيءٍ.

"يقول الربّ: اُنظروا دودة الأرض، إنّها بقدْر ما تنغرس في التراب، تضمن سلامتها، وإذا ما برزت ديست. وعندما يحلّ الصقيع فالتراب دفءٌ لها، وعندما تسيطر الشمس، فالتراب لها نداوةٌ.

"التواضع هو ملكوت قلب الله! يجب السعي من أجل التواضع، يجب غَرْس البذار، وحينئذٍ يمنح الله التواضع. إنْ وقف إنسانٌ في أرضٍ واطئةٍ، ولم يجد فيها ماءً، يحفرها فيكشف الماء.

"لا تدينوا، فالربّ هو الديّان.

"إنْ رأيتم في ثوب الغير خرقًا، فلا تزيدوه تخزيقًا، بل اقتطعوا من ثوبكم لتصلحوا مزَقه، ولا تخشَوا شيئًا، حتّى ولو اضطررتم، في سبيل ذلك إلى التعرّي! أقول لكم وأكرّر القول: مزّقوا ثوبكم لتستروا القريب، فيلبسكم يسوع ثوب العرس... لا تحكموا على شيءٍ، بل العليّ هو الذي يحكم على كل شيءٍ.

"طوبى للصغار، فأينما هم حلّوا، اتّسع لهم مكانٌ، أمّا الكبار، فهم يُضايقون في كلّ مكانٍ.

"أمام الله، إن كان لدينا رداء المحبّة، نكون قد سترنا ثوبنا المتّسخ، وبقدْر ما تكون محبّتنا كبيرةً، يكون الرداء طويلاً ورحراحًا، وكفيلاً بسترنا... المحبّة رداءٌ أبيض يستر جميع الأمور.

"إنْ قصدتُنّ الصلاة، فكنّ لها متأهّبات، اِستعدِدن لها مُسبقًا.

"لا يدعى ملكٌ إلى منزل ما لم يتمّ إخلاؤه، وإعداده لاستقباله، وإلاّ لما ولجه، أو أحجم ضبّاطه، الملائكة، عن دعوته إلى الدخول.

"لا تتذمّروا من الأرض، فالأرض جوهرةٌ ثمينةٌ لمن يُفيدون منها.

"إنّ رحمة الله جمّةٌ، وهو يودّ نشرها على البشر، ولكن العدل يسدّ الطريق في وجه الرحمة. الناس يرهبون يسوع: ربّما هم ينظرون إليه نظرتهم إلى جلاّدٍ، في حين أنّ عينيه تشعّان أبوّةً وحنانًا. إنّه أنصع من الثلج بياضاً. إنّه ولِهٌ بالإنسان!... إنّه يحبّ الصغار والضعفاء، ولا يحبّ المتكبّرين.

"لا تلتمسوا أبدًا، في الخلائق، سندًا. بل اصرخوا إلى الله. إن وقعتم بسبب خطإٍ أو بؤسٍ، في هوّةٍ، اصرخوا إلى الله. وإن لم يسمع، أي إن لم يأتِ، فليعلُ صراخكم حتّى يمسّ شغاف قلبه. سأُلقّنكم حيلةً. قولوا له: "يا ربّ، أنا وحيدةٌ، أنا في القعر، في أسفل سافلين؛ لقد تهشّمت ساقي، تهشّمت ذراعي، إنّني واهنةٌ، عليلةٌ، تعالَ وانظر، فأنا لم أعد قادرةً حتّى على الصراخ إليك، ولا أريد سواك عونًا.

"إنّني أستفسر السماء والأرض والبحر والأشجار والنباتات وجميع المخلوقات: "أين يسوع؟" وجميعها تجيبني بنغمةٍ واحدةٍ: "في قلبٍ مستقيمٍ، وفكرٍ متواضعٍ.

"عندما ينظر يسوع إلى مختاريه، يذيب نظره القلوب... آه، يا له من نظر! كلاّ، إنّ الأرض لا ترى يسوع... وبالتالي تغمرها الجرائم... والربّ يودّ أن يُنزل بها ضرباته، ولكنّ قلبه يأبى.

"إنّني مثل سمكةٍ صغيرةٍ خارج الماء، تفتح فمها وتغلقه، وليس لها سوى ذلك ما يخفّف عنها، وأنا، على غرارها، ليس لي من عزاءٍ، على هذه الأرض سوى التطلّع إلى الوطن السماويّ.

"لقد أراني الربّ الجحيم وقال لي: "في الجحيم كلّ صنوف الفضائل، ولكن ليس فيها تواضعٌ، وفي السماء كلّ ضروب النقائص، ولكن ليس فيها كبرياء.

"أي إنّ الله يغفر كلّ شيءٍ للنفس المتواضعة، ولا يقيم وزنًا للفضيلة الخالية من التواضع.

"حيث يوجد التواضع، لا يكترث الإنسان بتقــدير المخلــوق، ولا بحكمــه، ولا بنظرته.

"اِبتهجوا إذا ازدراكم الناس، إذ إنّكم ستكونون، آنذاك، في رداء الربّ. وإذا ما قدّروكم وكرّموكم، فاذرفوا دموعًا من دمٍ، إذ إنّ العدوّ سيأتي ليسلبكم. ليختلج قلبكم فرحًا إذا ما ازدُريتم!... إنّ اللصوص لا يقصدون الفقراء ليسرقوهم، بل يقــصدون الأغنياء.

"لو استطاعت بهيمةٌ أن تتكلّم عنك، يا ربّ، لأخــزت العــالم أجمــع!.. ولــو استطاعت ذبابةٌ أن تنطق لأشادت بجلائلك.

"ليس يسوع هو الذي سيدين الخاطئ عندما يمثل أمامه، بل نفسه هي ستدين ذاتها. حينئذٍ الشمس والقمر والنجوم والهواء، وكلّ ما داسته قدماه، سينقلب عليه، وعندما سيرى الله وعطفه وحبّه، لن يستطيع الاحتمال، فيلقي بنفسه في الهوّة.

"ولكن الله يظهر للنفس المخلصة، عندما تمثل أمامه، حبّه وعطفــه ورأفتــه، فتذوب خجلاً، وتندمج مثل قطرة ماءٍ في أحشاء الله.

"أنا قطرة ماءٍ، وأنت المحيط. كم أودّ لو كان لي قلــبٌ أرحــب مــن الــسماء والأرض كي أحبّك به!

"الله يتّخذ له مسكنًا قلبًا مستقيمًا ومتواضعًا. بين يسوع وَالْمُتَكَبِّر هناك كثافــة جبلٍ، وبين يسوع والنفس المتواضعة هناك غِلالةٌ مفرطة الرقّة.

"مريم موجودةٌ، في كلّ مكانٍ يوجد فيه الله. لولاها لهلكنا! فالعدوّ يحفر في كلّ مكانٍ حفرةً. ولكنّ مريم تحمينا أفضل ممّا تحمي الأمّ ابنها.

"قلت للربّ: "طوبى لمن وهبوا الله دمهم!. وهو قال: "بل طوبى لمن يضحّون، باستمرارٍ، بحياتهم حبًّا بي، فهذه التضحية تشقّ ليسوع طريقًا من عطرٍ!".

"ليكن لديكم الكثير من المحبّة! فعلى نحو ما أنت تمهّد الطريق لأخيك، يمهّد لك الربّ الطريق.

"إن رأيت حجارًا تعترض سبيله، فانتزعها من غير أن يراك، وإن رأيت حفرةً فاردمها من غير أن يراك، واجعل سبيله سويًّا.

"إن أنت ردمت الحفرة، قَدْرَ استطاعتك، أمام الأعمى، وأعرض عن السير في الطريق، فالطريق لك،

"إن كنت ظمآن وأُعطيتَ كأس ماءٍ، فأعطِه لأخيك الظمآن، ولو كنت أشدّ منه عطشًا، وثق بأنّ الله سيسقيك بيده.

"أجل، أنا لله! ليتني أسطّر بنجيع فؤادي أنّني لله، وأجعل السماء والأرض وجميع الخلائق ترى ذلك!

"لا تنظر إلى القريب، من غير أن تنظر إلى الربّ، وإلاّ هَويت إلى حفرةٍ سحيقةٍ جدًّا.

"يقول الربّ: "أعطوني كاهنًا أو راهبةً فيهما التواضع، وأنا لن أرفض لهما شيئًا".

"إذا ادّعيت أنّ لك من الذكاء أكثر من قريبك، فالربّ سيُصيبك بالعمى، وسيمنح الذكاء للوضيع، ولمن يفتقر إلى الذكاء.

"المتكبّر يصبح كالصخر: لا مطر، ولا شيء ينفذ إليه. المتكبّر يتمنّى أن يرتوي، ولكنّ الماء ينهمر ولا ينفذ، وينحدر على الأرض، فترتوي منه الأرض وتُفيد.

"إذا استطاع الإنسان أَن يقول: كلّ شيءٍ يزول. فلتكن مشيئة الربّ، الله وحده يملأ قلبي، لما كان على الأرض شقاءٌ، ولأنتجت الأرض غلالها من غير حاجةٍ إلى بَذْل الكثير من العرق والكدّ...

"إن شئنا، أهلكنا أنفسنا... في حين أنّ السماء هي بين أيدينا.

"لو أنّ راهبةً عرفت كيف تنسى ذاتها لإسعاد الآخرين، لصنعت عجائب.

"بودّي أن أسير دائمًا في إثر يسوع، ولكنّني، في كلّ مكانٍ، أتعرّض للوخز. طوبى للنفوس المتحرّرة من الخطيئة! إنّني أسير فتنخز الأشواك أقدامي، وألتفت فتنخز يدي. تطلّعت إلى يسوع، ولكنّ غبار خطاياي تطاير إلى عينيّ... هذا ما تستطيع الخطيئة فعله... طوبى للنفوس النقيّة. ارحمني، يا ربّ.

"الحبّ لا يكفي: الحبّ والعمل هما كلّ شيءٍ. الحبّ هو البذار، والعمل يُنبت، ويحمل الثمر.

"الأنا هو الذي يُهلك العالم، من يحملون الأنا يحملون معهم، في كلّ مكانٍ، الأسى والقلق. يتعذّر امتلاك الأنا والله معًا. بل من امتلك الأنا، فقَدَ الله، ومن امتلك الله، فقَدَ الأنا. ليس لك قلبان، بل قلبٌ واحدٌ. كلّ شيءٍ يتيسّر لمن لا يملك الأنا. كلّ شيءٍ يُرضيه. حيث الأنا، لا تواضع، ولا وداعة، ولا أيّة فضيلةٍ: حتّى الصلوات والتضرّعات لا تصعد، ولا تصل إلى الله. ومن لا يملك الأنا، يملك جميع الفضائل، والسلام، والفرح.

"الربّ أكثر رأفةً بالسقيم البائس، منه بالمستقيم الذي يُرهب الأرض.

"من يُرهب الخليقة ينتبذني، يقول الربّ.

"القلب المستقيم يكبو وينهض، ويمشي عبرَ النار، وعبرَ كلّ شيءٍ، نحو الله.

"الاستقامة خلاصنا: من لا يسير في طريقٍ مستقيمٍ يقطع من المسافة عشرة أضعافها.

"رأيت كيف يكبر قلب من يتحمّل المحنة، بحيث يصبح في حجم رُدهةٍ يسكنها الله.

" الربّ يقول: إنْ سقطتَ، فبادر إلى الاتضاع. والله يغفر لك. أمّا إذا اتّهمت الآخرين، فالله لن يغفر".

أسرار الله

وانقضى عاما ١٨٧٤ و ١٨٧٥، والأخت مريم ماضيةٌ توغُّلاً في مجاهل الله، الذي كان يُلمح لها عن بعض أسراره. فقد رأت ذات يومٍ، أنّها في أغوار هُوّةٍ سحيقةٍ، وراحت تتوسّل، بحرقةٍ، إلى الله كي ينتشلها منها. وخيرٌ لنا أن نَدَع لها متابعة الحديث لتروي بنفسها ما رأت وما سمعت:

"رأيت، حينئذٍ، نورًا لا تقوى مخيّلة إنسانٍ على تمثّله وإِدراكه. إنّه نارٌ وإِنعاشٌ معًا، وأحسست أنّه الله...

"وتساءلت: هل هو يسوع، أم الله الآب، أم الروح القدس؟ فسمعت صوتًا يقول: "تصوّري إناءً يحتوي زيتًا. الزيت وحده عاجزٌ عن الاشتعال. وإن أنتِ وضعت فيه نارًا لالتهب بأكمله، دفعةً واحدةً واضمحلّ. ولكن إن أنتِ وضعتِ فتيلاً بين الزيت والنار، لأصبح الزيت والفتيل والنار واحدًا، ونتج عن الثلاثة النور.

الزيت هو صورة الله الآب، والفتيل هو رمز الله الابن، ومهمة الفتيل الحؤول دون احتراق الزيت دفعةً واحدةً. إنّ يسوع هو الذي يمنع انفجار غضب الله، ويصالح الإنسان مع الربّ. أمّا النار فهو الله الروح القدس، الذي يُتيح للإنسان معرفة الله، ويبعث في نفسه الدفء، ويُريه النور والنهار. إنّ النور يجذب الإنسان نحو الله، وفي آنٍ معًا، يُريه الله.

"تأمّلي إن كان الزيت وحده كافيًا، أو إن كان الزيت مع النار من غير فتيلٍ كافيًا أو إن كان الفتيل يستطيع الاشتعال من غير نارٍ. وهذا يعني أنّ أحدهم لا يقوم بمنأًى عن الآخر...

"ونظرت إلى ذلك اللهيب المتّقد، الذي يختلف اشتعاله عن نار الأرض، إذ إنّ الجسد يحترق وينتعش به في آنٍ واحدٍ، ويقيم فيه فلا يحترق، بل ينعم... لقد حدّثوني حديثًا رائعًا عن كلٍّ من الزيت والفتيل والنار، ولكن يستحيل عليّ نقل تلك الأحاديث، وما أدليت به من قولٍ لا يُرضيني. وقد قدّموا لي أمثلةً عديدةً، لا قِبَل لفكري على التعبير عنها، فعقلي مفرطٌ في الصغر. ولكنّني فهمت ما قيل لي في أعماق قلبي".

أَجل، لقد كانت الأخت مريم تفهم، فَهم المؤمن، أسرارًا يستشفّ العقل روعتها، من غير أن يحتويها، ولكنّ كيانه كلّه يستوعبها، ويمتلئ ويتشبّث بها، بحيث غدت تلك التي كانت، بمشقّةٍ وعناءٍ، تتهجّأ كتبًا ذات حروفٍ كبيرةٍ، تُدرك ما لا يُدركه المغرقون في علومٍ لا تتخطّى حدود العقل.

وذات يومٍ، هتفت، وهي مختطفةٌ: **"لقد سحرني الروح" فقيل لها: "وكيف ترينه؟" فأجابت: "الملائكة أنفسهم عاجزون عن وصفه، فكيف لي، أنا العدم وَالرَّغَام، أن أصفه؟ إنّنا لن نراه، أبدًا، على نحو ما هو حقًّا، بل إنّ الملائكة أنفسهم عاجزون عن رؤيته على حقيقته".** وسُئلت: **"ولمَ؟ ما الذي يحجبه عن أبصارنا؟. قالت "حجاب الكبرياء".**

وقد أسرّ إليها الربّ، في مناسباتٍ أُخرى:

"أيّها الإنسان لا تُحبّ المخلوق أكثر من حبّك للذي خلقه، إذ إنّ حبّك، آنذاك،

سيتحوّل إلى ظلماتٍ. أحبب ذاك الذي خلق كلّ شيءٍ، فسيتحوّل حبّك إلى نورٍ..."

"من لم يهب يسوع إِرادته، لم يفعل شيئًا... نحن، اليوم، في عهد ظلماتٍ، أصيب فيه الفكر بالعمى، وبات يجهل ما يبتغي حقًّا... كم يسقط من كهنةٍ وراهباتٍ، لأنّهم لم يهبوا يسوع إرادتهم، حقًّا".

الله محبّة

إنّ الله الذي أسفر للأخت مريم عن بعض أَسراره، قد جعلها تُدرك أَيضاً أنّه محبّةٌ؛ فقد جاء في سجلاّت كرمل پو بتاريخ التاسع عشر من كانون الأول ١٨٧٤:

"مع اقتراب موعد تناولها القربان المقدّس، كان صبوّها إلى الخبز السماويّ يتعاظم، وقد دوّنّا العبارات التي كانت تتلفّظ بها، آنذاك، غير أنّ ما لا نستطيع التعبير عنه هو نبرة صوتها، ولهجتها وحركاتها:

"إنّني أعترف بأنّني أفتقر إلى المحبّة، فهبني، يا ربّ، هذه المحبّة الصافية الخالصة، فإنّي في حاجةٍ إليها. إنّ الله محبةٌ، فأعطوني إلهي، سريعًا. ليس لديّ المحبّة فأعطوني يسوع، إنّه هو المحبّة. أعطوني إلهي سريعًا، كي يهبني المحبّة. لا تتلكّأوا في إعطائي سيّدي ومخلّصي، ومحبّتي، سريعًا، سريعًا.

وعندما دنت من المائدة المقدّسة هتفت: **"يا ربّ، هوذا كلبك الصغير، فأعطِه بعض فتاتك"**. وبعد أن ظفرت بالقربان صاحت: **"لديّ الكل"**.

ولنستمع إلى هذا النصح المفعَم حكمةً إنجيليّةً، الذي أسدَته إلى راهبةٍ ممرّضةٍ شابَّةٍ:

"لا تتواني عن هجر الصلاة والتأمّل من أجل خدمة المرضى. إن كان وضع المريض يحتمل الانتظار حتّى وقتٍ لاحقٍ، أو حتّى اليوم التالي، فلا بأس من إرجاء علاجه. أمّا إذا كان ذا ضرورةٍ ملحّةٍ، فإنّك لا تكونين قد تخلّيت عن صلاتك، بل إنّك تتركين الله من أجل الله، وتتركين الحبّ من أجل الحبّ... وعندما تُعنين بالمرضى، فاعني بالله فيهم، وعاملي الجميع سواسيةً. فلا يسوغ أن تجدي متعةً أكبر في الاهتمام بهؤلاء دون أولئك، بحجّة أنهنّ أكثر قداسةً، لا بل إنّك إن أنت عُنيت عنايةً كاملةً بنفسٍ هي في حالة الخطيئة المميتة، حبًّا بالله، كان ثوابك أكبر ممّا لو عُنيت

بقدّيسةٍ".

وفي شهر تموز ١٨٧٤، كثيرًا ما تحدّثت الأخت مريم عن الأم هيلاريون، مؤسّسة كرمل مرسيليا ورئيسته، التي كانت قد توفّيت في مطلع ذلك الشهر، وقد رأتها تشخص مباشرةً إلى السماء، بعد أن اجتازت المطهر، اجتيازًا خاطفًا، وسألتها: "كيف تسنّى لك المثول إلى السماء مباشرةً؟" فأجابتها الأمّ الموقّرة: "لم أقصّر يومًا في مقتضيات المحبّة، ولا انتهكت النظام قطّ".

وسجلاّت الكرمل حافلةٌ بأمثلة التفاني في المحبّة التي كانت تضربها الأخت مريم، نقتصر منها على الحادثة التالية التي شهدت بها إحدى الأخوات التي كانت تعمل آنذاك معها، والتي أفادت أنّه، في شهر حزيران ١٨٧٥، هطلت أمطارٌ غامرةٌ، فتراكم غسيل الدير ثلاثة أسابيع من جرّاء استحالة غسله ونشره، حتّى بدأ يتعفّن، فقرّرت الأخت مريم إنقاذه بأيّ ثمنٍ. وكانت المياه قد غمرت أرض المغسل. وأشارت الأخت مريم إلى رفيقتها بانتظارها ريثما تأتي بالغسيل، وعندما همّت هذه باللحاق بها، رجتها ألاّ تفعل، وعادت بالغسيل وحدها، وقد ابتلّت حتّى أعماقها؛ وقد برّرت عملها هذا بقولها لرفيقتها: "أنا لا حَرَج عليّ إن مرضت، فقد أبرزت نذوري ولن يطردوني. أما أنت، فإن اعتلّت صحّتك، فقد تتعرّضين للطرد". وهكذا أنقذت غسيل الدير، وصحّة أختها، مضحّيةً بذاتها.

إلى الله عَبرَ الصليب

طوال عام ١٨٧٥، تابعت الأخت مريم مسيرتها في أعماق الله، وهي مُدركةٌ أنّ السبيل إليه هو الصليب. وقد استهلّت تلك السنة بارتداء مِسحٍ صفيقٍ من الخيش أثبتت فيه كِسرًا من الخشب والقشّ، وقد أذن لها رؤساؤُها بارتدائه طيلة أربعين يومًا متّصلةً، ما مزّق كتفيها وجسدها.

وعندما انتهت كفّارتها، كانت تُعاني من حمّى مستعِرةٍ، ومن آلامٍ مبرّحةٍ، وكادت تختنق، فجيء إليها ببرتقالةٍ عساها توفّر لها بعض انتعاش، ولكنّها بما أنّها كانت قد نذرت ألاّ تذوق أيّة فاكهةٍ طوال سنةٍ كاملةٍ، أصرّت على التضحية بهذه التعزية الطفيفة قائلةً: "**يا إلهي، وحتّى لو أدّى بي الأمر إلى الموت، فإنّي أوثر**

الموت، وأقدّمه لك".

وفي يوم عيد اسم يسوع المقدّس، أنشدت أثناء القدّاس، وهي مختطفةٌ:

"**اِسم يسوع هو الحبّ، اِسم يسوع يغني الحبّ،**
"**إن حييتُ أو متّ، فإنّني إلى المخلّص أنتسب،**
"**اسم يسوع محفورٌ في قلبي، إن حييت أو متّ، إلى المخلّص أصبو".**

وهتفت، بعد فترةٍ، وهي في نشوة: "**لقد قالت لي مريم: يا ابنتي، اُصبري أيضاً بعض الوقت. فستأتي يومًا غمامةٌ تُظلّلُك، ومثل الحمامة ستطيرين نحو الوطن. وحينئذٍ ستتّكئين على صدري إلى الأبد**".

المؤسّسة

مع ارتحال الأخت مريم الدائم في عالم السماء، وانغماسها الكلّيّ في الله، لم تغفل، يومًا، أنّ خَير خدمةٍ تقدّمها للربّ، هي خدمته في نفس القريب. وقد علّمتها خبرتها الروحيّة الكثيفة، أنّ تلك الأديرة حيث تقف النُّفوس ذواتها على الصلاة والتأمّل، والتقشّف والتكفير، هي أثمن هديّةٍ تجود بها على إخوةٍ في البشَرِيَّة، أقصاهم جهلُهم لأخطر قضايا مصيرهم، أو انشغالهم عنها، أو ضلالهم، أو تيّارات المادّية الجارفة، عن جادّة الله ومحجّة الخلاص.

ومن كان أَولى بمثل تلك الهديّة السنيّة من أبناء جلدتها ومواطنيها؟ لقد كان حلمها المتوهّج أَن تغرس في موطنها ومسقط رأسها موئلاً للروح، تتصاعد منه إلى الربّ، ليلَ نهارٍ، أدعيةٌ طاهرةٌ تستمطر على بلادها النِّعَم والرحمات، وتزرع في هذا الموئل جسدها فيمتزج ترابه بتراب البلاد الغالي.

وكانت العناية الإلهيّة قد ساقت حلمها هذا نحو تحقيقه، عَبرَ دروب الصليب، كي يكون بناؤه راسخًا على أُسسٍ متينةٍ من التضحية والعطاء. فكانت مِحَن منغالور، وكانت التضحيات الطوعيّة التي أقبلت عليها أختنا مريم في سخاءٍ وحبٍّ، وكان ترقّي نفسها الطاهرة في معارج النقاء والروحانيّة المتجرّدة من كلّ رواسب الأرض، توطئةً لتأسيس كرمل بيت لحم، والإعداد لتأسيس كرمل آخر في الناصرة، وتأسيس فرعٍ لدير بيترّام لآباء قلب يسوع الأقدس، في الأرض المقدّسة، من أَجل توفير

الخدمات الروحيّة للكرملَين، وللمنطقة.

ومن قلب مريم وذهنها، تمخّضت مشاريع تلك الأديرة التي باتت هي لها الرسول والمحامي والمنفّذ إلى حدٍّ بعيدٍ؛ وقد قوبلت تلك المشاريع، بادئ الأمر باللامبالاة، ثم بالمقاومة، وعندما أشفت على الفشل، بادرت يد الله إلى إِنقاذها، من حيث لم يحتسب أحَدٌ ، لأنّ الله أرادها، واختار أمَته مريم أداةً لها.

يتعذّر تخمين تاريخ ميلاد ذلك الحلم، في ذهن أختنا مريم، ولكنّ الوقائع تُثبت أنّها قد فاتحت به رؤساءها في كرمل بو، للمرّة الأولى، في أعقاب عودتها من منغالور، في غروب عام ١٨٧٢. غير أنّ اقتراحها وقع على أرضٍ صلبةٍ، بين أشواك الرّيبة، والحِيطة، والمعارضة. فكيف للأخت مريم أن تتقدّم بمشاريع جديدةٍ، ودير منغالور لا يزال يتخبّط في بداياتٍ عسيرةٍ مرتبكةٍ، وهي نفسها قد عادت منه مهشّمةً، مهيضة الجناح؟

غير أَنّ ثقتها كانت مطلقةً لا يثنيها اعتراضٌ، ولا يثبّطها إِعراضٌ، بل كانت تردّد في يقينٍ هادئٍ: "**إنّ الله يريد هذا العمل، وبالتالي فهو سيتمّ، وسترون كيف ستزول جميع العقبات، في الوقت الذي يشاؤه الربّ**". فجرأة مشاريع الربّ وروعتها غالبًا ما تزري بحذرنا وتردّدنا، وعندما يبتغي الله إشادة بناءٍ، لا يتردّد في انتقاء الحجر الذي ينتبذه المهندسون من بني البشر، ليضعه في الصُلب من الأساس.

إِشارةٌ من السماء

لقد كانت الأخت مريم سعيدةً في كرمل بو، حيث كان يغمرها جوٌّ مفعمٌ بالدفء والتعاطف؟ بَيدَ أَنّ الربّ كان يدفعها للارتحال نحو مخاطرةٍ جديدةٍ؛ وقد تكرّرت دعوته هذه لها مرارًا. والتمست هي من الربّ، في جرأةٍ لا توحي بمثلها سوى البراءة، إِشارةً محسوسةً تؤكّد مشيئته هذه. فغرست ورقة نبتةٍ يابسةٍ في أَصيصٍ، وهي تقول: "**إن كانت حقًّا مشيئتك، يا ربّ، أن يقوم كرمل بيت لحم، وأن أُدفن فيه، فلتضرب هذه الورقة اليابسة جذورًا وتترعرع نبتةً سويةً**". وتحقّقت الإِشارة المطلوبة، إذ سرعان ما نمت من الورقة اليابسة نبتةٌ رائعةٌ، ومذ ذاك باتت الأخت مريم في ملاحقتها لتنفيذ تلك المشيئة الإلهيّة لا تعرف هوادةً.

أختٌ روحيّةٌ جديدةٌ

ونمى خبر مشروع كرمل بيت لحم إلى الآنسة دارتيكو، وهي سليلة أسرةٍ عريقةٍ من پو، وتحدوها تقوى كثيفةٌ مضطرمةٌ. وإذ هي كانت، ذات يومٍ من أيّـام صـوم ١٨٧٤، مستغرقةً في التأمّل والصلاة، أمام القربان المقدّس، أُوحي إليها بِتَبَنِّي ذلـك المشروع وبتمويله. وفاتحت بالأمر معرّفها الأب استرات، الذي أيّد عزمها، ودفعهـا نحو تحقيقه في حميّةٍ. وكان الأب إِسترات، في نفس الآن، هو معرّف الأُخت مـريم يسوع المصلوب، ومرشدها، وقد أصبح، في ما بعد، كاتب أوّل سيرةٍ لها وأكملهـا. وبواسطته توثّقت بين الأخت مريم والآنسة دارتيكو أواصر أخوّةٍ حميمةٍ عذبةٍ. وقـد أَلِفَت الأخت مريم، مذ ذاك، تسمية مؤسّسة الكرمل العتيدة باسم "أُخيّة"، فتتّخذ هـذه التسمية على شفتيها نبرة حنانٍ عذريٍّ، بالغ الرقّة.

يد الله فوق الجميع

وهكذا، بعد أن توفّر لكرمل بيت لحم مؤسِّسةٌ مموّلةٌ، من مستوًى فريدٍ، كـان لا يزال يفتقر إلى موافقة قداسة الحبر الأعظم، من أجل السماح بإقامتـه فـي الأرض المقدّسة، وعُهِد إلى المطران لاكروا، أسقف بايّون، بملاحقة الإجـراءات فـي هـذا السبيل. إلاّ أنّ ذلك الأسقف الفاضل، الذي كان غزير التقوى، وشديد التقدير للأخت مريم، كان في نفس الآن، رمزًا للحِيطة والحَذر. وبالتالي فقد غلبه التردّد، وأرجـأ، تكرارًا، القيام بالمهمّة.

ولكنّ الأخت مريم اكتشفت السبيل إلى الظهور على تردّده. ففي العشرين مـن تموز ١٨٧٤، عيد القدّيس إيليّا، أقام ذلك الأسقف قدّاسًا في كرمل پو، وكانت الأخت مريم، منذ صباح ذلك اليوم، غارقةً في انخطافٍ رائعٍ، أَضفى عليها دفقًا من إِشراق البراءة وسناء السماء، وكانت قد أسرّت إلى الأمّ الرئيسة أنّ أنوارًا إلهيّـةً سـتغمر سيادة الأسقف في ذلك اليوم، كما طمأنت "أُخيّتها" الآنسة دارتيكو، مؤكّـدةً لهـا أنّ جميع الأمور ستسوّى على خير وجهٍ.

ورافق سيادة الأسقف وموكبه راهبات الكرمل إلى منسك سيّدة جبـل الكرمـل، القائم في حديقة الدير، حيث جَثَت الأخت مريم – وهي لا تـزال فـي انجـذابٍ –

وطوّقت بذراعها الآنسة دارتيكو التي جئت إلى جانبها، والتفتت إلى الأسقف، مشيرةً إلى "أُخيَّتها" وقائلةً: "لقد اختارها الله لتحقيق عمله" فأردفت الآنسة دارتيكو: "أجل، يا صاحب السيادة، لقد شعرت أنّ الله يقتضي منّي تنفيذ هذا المشروع، وإِنّني أقدّم كلّ طاقاتي، في سبيل تحقيق مشيئة الله".

وعادت الأخت مريم تخاطب الأسقف في بساطةٍ وصراحةٍ وجرأةٍ، قائلةً: "**سأسارع إلى إتمام هذا المشروع لاستمطار النعمة على أبرشيّتك. لقد كان بوسع الربّ تحقيقه في معزلٍ عنكم، ولكن بما أنّكم أسهمتم مع "الفَرْخة"** (تعني نفسها ومشيرةً إلى معاناتها في منغالور) **في مُقاساة نَتْف ريشها، فالربّ راغبٌ في توفير هذا المجد لكم**". ثمّ أردفت: "**لقد نتفوا ريش الفَرخة، وأرسلني الربّ إلى أبرشيّتكم كي أظفر ببعض راحةٍ. ولكنّ آخر سيشويها ليقدّمها على مائدة الملك**". وسألها الأسقف: "من ذا الذي سيفعل ذلك؟". أجابت: "**بطريرك القدس، ولكنّه لن يُهين بذلك الربّ، بل إنّه سيعمل من أجل مجده. أنا لن أموت هنا، بل سأمضي لأموت في بيت لحم**".

كانت، وهي تتكلّم، ترى بالروح بناء كرمل بيت لحم يتعالى، ويتكامل، وترى فيه أَجَلَها ولحدها، وقد تابعت: "**لن يُشاد الدير في قلب المدينة، ولكن على هضبةٍ مطلّةٍ على بيت لحم... لن أشهده مكتملاً. فقبل اكتماله، سأمضي إلى العالم العلويّ**".

كان الحاضرون يُصغون في ذهولٍ، ولكنّها، هي، كانت حريصةً على الظفر بنتائج عمليّةٍ ملموسةٍ. فاستأنفت مخاطبة الأسقف: "إنّ الربّ يوعز إليك بتوطين العزم على تحقيق هذا المشروع". فسأل: "ما الذي يتعيّن عليّ عمله؟". أجابته: "يجب الكتابة إلى روما". وردّ: "حسنًا، سأفعل". ولكنّ قوله كان لا يزال يعكس نبرةً متردّدةً. وكانت هي تبتغي فِعلاً حاسمًا، فالتفتت إلى الأب سان جيلي، رئيس الكرمل، قائلةً، ثلاثًا: "**الربّ يأمرك أن تكتب الرسالة فيوقعها الأسقف**". حيال هذه الثقة التي كان يحدوها إِيمانٌ صلبٌ، قال المطران للأب سان جيلي: "آمرك بكتابة الرسالة". فكُتبت الرسالة، في الحال، في معبد العذراء، ووقّعها المطران أمام الحاضرين.

غير أنّ المشروع عاد يتعثّر في دهاليز الـڤـاتيكان، إذ إنّ مجمع نشر الإِيمان،

استشار في أمره بطريرك القدس، الذي رأى فيه عبئًا جديدًا على أبرشيّته، فرفــضه، ومال الــڤـــاتيكان إلى الأخذ برأيه.

ولكن، في السابع من أيلول ١٨٧٤، في أعقاب انخطافٍ، أبلغت الأخـــت مــريم رئيستها أنّ على الأب بورداشار أن يؤمّ روما، فيعود بنتائج إيجابيّةٍ. وكان ذلك الكاهن قد اختبر، مرارًا، الأخت مريم يسوع المصلوب، ولمس عمل الروح فيها، فبسط الأمر أمام المطران لاكروا، الذي بارك مسعاه، وحثّه على المضيّ إلى المدينة الخالدة.

ولدى وصول الأب بورداشار إلى روما في ٢٥ أيلول، كان مجمع نشر الإيمان قد أعدّ وثيقةً يردّ فيها طلب المطران لاكروا، فهرع الكاهن إلى الكاردينال انتونيلّي، الذي كان قد تلقّى، من قبل، عدّة رسائل من الأخت مريم يسوع المــصلوب تتعلّــق بأمورٍ كنسيّةٍ خطيرةٍ، وتحقّق من مصدرها الــسماويّ، وقيمتهــا الــسامية؛ فتبنّـــى الكردينال المشروع، وسارع إلى أمين سرّ مجمع نشر الإيمان، وأبدى من الإلحـــاح والمثابرة ما حمل ذلك المجمع، في الأوّل من تشرين الأوّل، على طيّ قراره السابق، وتخطّي اقتراح بطريرك القدس، والموافقة على تأسيس كرمل بيت لحم.

وفي غضون أيّامٍ خمسةٍ، انقلب الوضع رأساً على عَقِبٍ، وفي سرعةٍ قلّما سبق لها مثيلٌ. وفي تلك الأثناء، كانت الأخت مريم تتابع، عن بُعدٍ، سَيرَ الأحداث، ومـــا يجابهه الأب بورداشار من إجراءاتٍ معقّدةٍ، فاستأذنت رؤســـاءها بالامتنـــاع، ســـنةً كاملةً، عن تناول أيّة فاكهةٍ، وكان ذلك يعني لها تضحيةً باهظةً. وعند انتهـــاء تلـــك السنة، كانت الكرمليّات في بيت لحم.

ويروي الأب إسترات، بهذا الشأن، حادثةً طريفةً، فيقول إنّ الأخت مريم يسوع المصلوب، استدعته في الرابع من تشرين الأوّل، راغبةً في الاعتراف، لأنّها كانـــت غاضبةً من يسوع. وأقرّت بأنّها قد بادرته بالقول: "**إنّك، أبدًا، كما أنت، يا ربّ، منذ زمنٍ، كنتَ قد أوعزت إليّ بتأسيس ذلك الكرمل، وها إنّه، مرّاتٍ متتاليةً، كلّما بـــدا وكأنّه على وشك التحقّق، وإذا بكلّ شيءٍ يهوي إلى الإخفاق. يستحيل أن تكون أنت يسوع، فليس ذلك من شِيَم يسوع**". وتابعت قائلةً: "**لقد بلغ منّي الغضب، أنّنـــي لـــم أنظر إليه**"، وسألها الأب استرات:

– "وبم أجابكِ يسوع؟"

– "لقد أدهشني، فقد ضحك وقال: "يا ابنتي لا تخشي شيئًا، فسيوافيكم الجواب الإيجابيّ، في غضون شهرٍ. بوسعكِ تأكيد ذلك لمعرّفك".

واستطردت، قائلةً للأب إسترات: "لذلك استدعيتك" فردّ عليها معرّفها: "حسنٌ، إذن، إن لم يرد الجواب الإيجابيّ، في غضون شهرٍ، سيُطوى الأمر". ولكنّها اعترضت: "**بل سيرد ذلك الجواب: هذا محقّقٌ. إذ لا يساورني شكٌّ أنّ يسوع نفسه هو الذي أكّد لي ذلك، ويسوع لم يخدعني أبدًا**".

وبعد مُضيّ عشرة أيّامٍ، فقط، كان الردّ الإيجابيّ، بين يدي الأب إسترات.

وكانت الأخت مريم، في تلك الأثناء تردّد أنّ الكردينال انتونيلّي يؤدّي عملاً كبيرًا. وجاء تصديقٌ لقولها في رسالة من الأب بورداشار تحمل تاريخ الرابع من تشرين الأوّل، وذكر فيها أنّ الجميع في ذهولٍ أمام إصرار الكردينال أنتونيلّي، مع ما عُهِد عنه من أنّه لم يُقحم، قطُّ، نفسه في أمور مجمع نشر الإيمان.

وفيما كان المطران لاكروا وبطريرك القدس يفرغان من إجراءات كرمل بيت لحم العتيد، كانت البراءة البابوية بشأنه ما انفكّت تتباطأ في الوصول، في حين أنّ الحكومة الفرنسيّة كانت قد تبرّعت ببطاقات سفرٍ مجّانيّةٍ للراهبات اللائي سيمضين إلى الأرض المقدّسة، على متن باخرةٍ كانت ستبحر في الثالث من حزيران ١٨٧٥.

ولجأ الأب بورداشار إلى أسلوبٍ يُزري بالرسميّات، إذ أبرق إلى الكردينال فرانكي، أمين سرّ مجمع نشر الإيمان، راجيًا الإسراع في إرسال البراءة البابوية إذ إنّ أمكنة الراهبات المسافرات قد حُجِزت. وخلافًا لكلّ توقّعٍ، لم يجد الكردينال فرانكي في أسلوب تلك البرقيّة غير المألوف، ما يُثير امتعاضه، بل مضى بالبرقيّة إلى الأب الأقدس مباشرةً، وكان جواب البابا بيوس التاسع قاطعًا: "فلتمضِ تلك الراهبات، مصحوباتٍ ببركتي". غير أنّ الكردينال لفت نظره إلى أنّ الأصول تقتضي موافقة مجمع الكرادلة، الذي لم يكن مقرّرًا له أن يلتئم قبل العشرين من حزيران، في حين أنّ سفر الراهبات قد حُدّد في الثالث منه. ولكنّ الحبر الأعظم لم يأبه للاعتراض وردّ في حزمٍ من يُمثّل يسوع على الأرض، ويُزري بالمراَسِمِ والشكليّات: "ألستُ أكثر من الكرادلة؟ إليّ بالبراءة". وبعد أن وقّعها قال: "أبرِقوا موافقتي على سفر الراهبات".

وفي السادس والعشرين من أيّار سُلّمت البراءة إلى الأبوين بورداشار وإسترات اللذَين كانا، آنذاك، في روما.

إلاّ أنّ أمورًا طارئةً قد ارجأت سفر روّاد بيت لحم حتّى العشرين من آب ١٨٧٥، حين أبحرت قافلةٌ تضمّ سبع راهباتٍ، ومبتدئةً، وراهبتين مساعدتين، والكاهنين بورداشار واسترات، والمؤسِّسة المموِّلة الآنسة "دارتيكو".

وكانت الأخت مريم يسوع المصلوب هي قلب القافلة وروحها، وقد اتّضح للجميع أنّ يد الله التي قادت تأسيس كرمل بيت لحم نحو نهايته السعيدة، في ظروفٍ عجيبةٍ، إنّما كانت، بذلك، تبرّر الأخت مريم وتشهد لها.

وقد كتب المطران لاكروا، بتلك المناسبة، إلى بطريرك القدس يقول:

"إنّك لسعيدٌ، أيّها الأخ الموقّر، لأنّ المسيح قد جرّدنا لكي يُغنيكم. أَجل، إنّني أَعترف بذلك، ولن أنكر... سأعترف به أمام الله والملائكة، سأعترف بأنّ هذه الأخت (مريم يسوع المصلوب) هي كنزٌ رائعٌ لجميع الفضائل ولا سيّما كنز إيمانٍ، وتواضعٍ، وطاعةٍ ومحبّةٍ، وبالإِجمال، إنّها معجزة النعمة الإلهيّة".

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

مَرحَلة بيتَ لحم

(أيلول ١٨٧٥ حتّى الوَفاة في ٢٦ آب ١٨٧٨)

في الطريق إلى بيت لحم

كان أسقفُ بايّون، نحو شهرٍ قبل انطلاق قافلة المؤسّسين إلى بيت لحم، قد عقد مع كهنة أبرشيّته اجتماعًا أوضح فيه ما كان للأخت مريم يسوع المصلوب، بعد الله، من أيادٍ، في تحقيق مشروع الكرمل الجديد، على نحوٍ مدهشٍ. وأسهب في إِطراء فضائلها الفريدة. فتقاطر الناس، زُرافاتٍ، إلى كرمل پو، حَيث استقبلتهم الأخت مريم، امتثالاً لأوامر رؤسائها. ومن وراء الحاجز الحاجب، ومن خلف حجابها، كانت تستمع في كثيرٍ من المحبّة والتعاطف إلى من قدموا يلتمسون شفاعتها في أمورٍ غاليةٍ على قلوبهم، مُغدِقةً العزاء، مشعَّةً أَنوار الروح، هاديةً إِلى الإِيمان متلمّسي دروب الخلاص.

ومن ثمّ فقد كان صِيت قداستها يتقدّم مسيرة القافلة الميمّمة شطر مسقط رأس يسوع، وكان لتلك القافلة وقفاتٌ متتاليةٌ في محطّاتٍ، لكلٍّ منها موقعٌ عزيزٌ في قلب الأخت مريم.

ذكرياتٌ ووداعٌ

وعلى غرار المدنِف الذي يستعرض، في غروب حياته، أبلغ مراحلها أَثرًا في نفسه، أُعطي للأخت مريم، وهي في طريقها إلى مرقدها الأَخير، أن تشيّع المرابع التي كانت شاهدةً على مسيرتها الخارقة، والوجوه الحبيبة التي أَنهضها الربّ في دربها، لتؤازرها في تصعيدها البطوليّ.

المحطّة الأولى كانت لورد، حيث سبق للأخت مريم أن توقّفت وهي راجعةٌ من منغالور، وحيث وعدت أمّها العذراء بالعودة لزيارتها، وهي في سبيلها إلى موطنهما المشترك، الأرض المقدّسة. وثمّة كان ازدحام الناس حول الأخت مريم، التماساً للتبرّك بها، من الكثافة، بحيث بات عسيرًا انتزاعها من بينهم، وهي في دهشةٍ لما يجري لها، ولما يُحاط به "اللاشيء الصغير" من تكريمٍ لم تُدرك له تفسيرًا. وقد ظفر مؤرّخ لورد الشهير، هنري لاسّير، بحديثٍ مقتضبٍ معها، اعتبره امتيازًا فريدًا، وخرج منه بفيضٍ من الانطباعات العميقة الأثر.

وفي مونبيليه غمر العزاء قلب الأخت مريم، إذ تسنّى لها أن تلتقي، مجدّدًا، الأب لازار، أباها ومعرّفها، الذي طالما كان لها مرشدًا ومحاميًا، ودافع عنها ببسالةٍ، عندما تألّب عليها الجميع في منغالور.

وفي مرسيليا أقامت القافلة في منزلين لأصدقاء الراهبات، وقد عكفت الأخت مريم على عقد مصالحةٍ، في منزل آل مينارد الذي حلّت فيه، بين الزوجين اللذين كان قد استفحل بينهما خلافٌ مزمنٌ، في أعقاب وفاة أطفالهما، وهم بعد في أيّامهم الأولى. وقد لحظت الأخت مريم، لدى الزوج، عزوفًا عن الإيمان، فعاتبته، على انفرادٍ، آخذةً عليه تحطيم قلب زوجته، في رقّةٍ ليّنت عريكته، وحرّكت أحشاءه، وما لبثت أن حملته على مشاركتها تلاوة المسبحة، ووطّدت في قلب الزوجين، معًا، الثقة بالله، وبقدرته المطلقة، مؤكّدةً لهما بأنّ الربّ سيرزقهما أولادًا آخرين سيملأون البيت سعادةً. وبعد سنةٍ وردت إلى كرمل بيت لحم صورة طفلٍ ممتلئٍ عافيةً، كان بكر طائفةٍ جديدةٍ من الأطفال الذين أهلّوا على تلك الأسرة.

وكان للأخت مريم، في مرسيليا، لقاءاتٌ مع ذكرياتٍ حلوةٍ ووجوهٍ حبيبةٍ، ولا سيّما مع الأب فيليب عبده الذي كان معرّفها عندما كانت ما تزال خادمةً، والذي شهد أولى كرامات الله عليها، وقاد خطواتها نحو الحياة الرهبانيّة؛ ثمّ مع الأمّ إيميلي جوليان، رئيسة دير القدّيس يوسف، التي كانت للأخت مريم، في مستهلّ مسيرتها الرهبانيّة، أمًّا ومرشدةً، والتي لم تسلُ يومًا فداحة خسران ديرها لذلك الكنز الفريد، أثناء غيابها عنه.

وفي السادس والعشرين من آب، أَبحرت القافلة شطر فلسطين، على بحرٍ ساكنٍ

ساجٍ، بحيث أمكن إقامة القدّاس الإلهيّ، كلّ يومٍ، على ظهر الباخرة. وكانت مشاهد البحر والسماء، والتلال البعيدة، والشواطئ الإيطاليّة الضاجّة بالموسيقى، تستأثر بفضول المسافرين، في حين لم تكن الأخت مريم ترى، من خلال كلّ ذلك، سوى عظمة الربّ، وبراهين محبّته.

وقد آنس قبطان الباخرة وجميع بحارته، حيال الأخت مريم، إجلالاً لم يكتشفوا له تفسيرًا، فكانوا ينحنون أمامها إكبارًا، على نحوٍ لاشعوريٍّ، كلّما هي خطرت، وكأنّهم في حضرة ملكةٍ. ويساورهم القلق كلّما تأخّرت في الظهور، ويخشَون عليها من سَقَمٍ طارئٍ، ولا يهدأ لهم بالٌ حتّى يَروها من جديدٍ. وكانت، هي، حريصةً على انتهاز تلك السانحة لتهمس في أذُن كلٍّ منهم كلمة الروح، في رقّةٍ ومهابةٍ أخّاذتين، وتبشّر أولئك الرجال بضرورة الصلاة والقرب من الله، مذكّرةً بزوال كلّ أرضيٍّ. وكان كلامها يصادف إصغاءً واحترامًا.

أمّا مع أخواتها، فكانت أمًّا لا يعرف تفانيها في السخاء حدودًا، تَذهَل عن نفسها كي توفّر لكلٍّ منهنّ الرعاية، والكلمة الحلوة، مغلَّفةً ببسمةٍ ملائكيّةٍ، والطعام، وشتّى الخدمات. وكان لا بدّ من تذكيرها بأنّ لها، هي أيضاً، جسدًا يفتقر إلى العناية.

وكانت على ظهر السفينة مومستان، أَرهبَهما، لأوّلِ وهلةٍ الثوب الرهبانيّ، ولكن سرعان ما ألِفتاه، فطفقتا تُطلقان النكات المقذِعة، فتتألّم الأخت مريم لرؤية سيطرة إبليس وانتصار الخطيئة، وتحتدم غَيظًا تكتمه وتنفّس عنه بالدّعاء من أجل هدايتهما. وكان وجودهما مناسبةً لإذكاء تواضعها، فأخذت تصلّي: "**أشكُرك، اللّهم، لأنّك وقَيتني من الشرّ، وحفظتني حفظك لإنسان عينك؟ فلولا يمينك القديرة لهويتُ إلى دَرَكٍ أبعد غورًا من هاتين المسكينتين. اِحفظني، يا ربّ، فإنّني خائفةٌ من نفسي، واحفظنا جميعًا**".

وفي الثالث من أيلول ١٨٧٥، أرست الباخرة في الإسكندريّة، حيث توقّفت ثلاثة أيّامٍ، قضت الأخت مريم قسطًا كبيرًا منها في زيارة موقع استشهادها، ولقائها الأوّل مع الراهبة السماويّة التي شفتها ورسمت لها مسيرة حياتها، وكانت لها أبدًا رفيقة دربٍ وأمًّا؛ ومع أنّ معالم المكان كان قد طرأ عليها الكثير من التغيير، إلا أنّه لم

يعسر عليها اقتفاء أثرها، وهناك تسنّى لأخواتها المحظوظات شكر الرب لما أغدقه على أمَته المختارة من نِعَمٍ خارقةٍ.

وفي السادس من أيلول، حطّت القافلة الرحال في يافا، وفي اليوم التالي، يمّمت شطر القدس، في عرباتٍ مهترئةٍ، وعلى طرقاتٍ حافلةٍ بالحُفر، شأن الروّاد. وانقضت ثلاثة أيّامٍ في التعرّف على المدينة، والحجّ إلى أماكنها المقدّسة، التي ما برحت شاهدةً على مراحل خالدةٍ من حياة المخلّص.

ذاك كان حجّ الأخت مريم الثالث إلى المدينة المقدّسة، كم كان مختلفًا عن الحجّين السابقين، حين لم تكن سوى فتاةٍ يتيمةٍ مشرّدةٍ! كم حفل العقدان من الزمن، اللّذان فصلا بين الفترتين، بأحداثٍ جسامٍ كان لها عند الله، وفي أرض البشر، وزنٌ عظيم الشأن! وفي نهاية تلك المسيرة القصيرة بسِنيها، الفريدة بكثافة أَحداثها، ها قد عادت مريم كي ترقد في الأرض التي أنبتتها، والتي على أديمها رأت النور، استجابةً من ربٍّ عطوفٍ لابتهال والدَيْن مفجوعين.

حُكمٌ وتقديرٌ

وخليقٌ بنا هنا أَن نطالع انطباعات الأب بورداشار، الذي كان، بإيحاءٍ من الأخت مريم، قد قصد روما لمتابعة إِجراءات تأسيس كرمل بيت لحم، والذي واكب قافلة مُؤَسِّسَاته من مرسيليا إلى الأرض المقدّسة، وكان له، في الأخت مريم، الحكم التالي:

"ما كنت أَعرفه عن استقامة الأخت مريم يسوع المصلوب، ومحبّتها للآخرين وتقواها المتينة، وتواضعها، قد تأكّد لي مِن خلال سلوكها الثابت طوال شهرٍ كاملٍ. لا شيء أكثر بساطةً، وفي آنٍ معًا، أكثر عذوبةً ووقارًا ونُبلاً من تلك الابنة العزيزة. كانت كلاًّ للكلّ، وكانت، أبدًا، الخادمة المتبصّرة المتفانية لجميع الرئيسات والأخوات ولنا، كانت تسهر على كلّ شيءٍ، وتُتمّ كلّ شيءٍ، من غير أَن تبدو مستغرقةً في شيءٍ، أو في شخصٍ معيّنٍ. خدماتها، ورقّة اهتمامها، وبهجتها الصريحة، ومبادراتها الذكيّة في كلّ أمرٍ، كلّ ذلك كان يجعل من تلك الراهبة التقيّة، روح أسرتنا الصغيرة.

"وعندما كان البحر يشرع في الاضطراب، كانت تهبط جاثيةً على ركبتيها، وترفع ذراعيها نحو السماء، هاتفةً في إيمانٍ: "**يا ربّ، يا إله الجيوش، مُر البحر أن يظلّ ساكنًا**"، فتهدأ الأمواج، وتقول، هي، لنا، في بسمةٍ عذبةٍ: "**لا تخشَوا شيئًا، إنّ يسوع يريد أن يكون إبحارنا سعيدًا**".

"كانت تُعجَب باللوحات الرائعة التي ترسمها الشمس المائلة إلى المغيب، والسماء الصافية المتألّقة بالنجوم الذهبيّة، وانعكاس القمر السنيّ على مرآة البحر الساجي... وكان، ساعتئذٍ، دوري كي أراها وأسمعها، بعد أن تكون، أثناء النهار، في خدمة الجميع. وحينئذٍ، كانت تصلّي، وتعبّر عن إعجابها وحماسها حيال جمال الكون، وتُفضي إليّ بشتّى همومها، وبما يُثقل وجدانها. وتعود، أحيانًا، إلى ماضيها، وتعرض لي توقّعها للمستقبل، مكرّرةً أكثر آرائها سموًّا، وأوفر نصائحها جدوى وذكاءً وحكمةً، وتستشيرني في ما يُحرجها. وتلك كانت أحاديثنا كلّ مساءٍ، في مكانٍ منعزلٍ من ظهر السفينة، وعلى بعد ثلاث خطواتٍ من سائر الراهبات، قبل موعد النوم.

"وعلى هذا النحو، كانت تلك الابنة العزيزة توزّع نفسها، وتهب ذاتها كلّ يومٍ، لكلّ واحدٍ وللجميع، بحيث تُرضينا جميعًا. لم نكن نأخذ عليها سوى نقيصةٍ واحدةٍ، كانت هي أوّل من يقرع صدره توبةً عنها، في بكاءٍ وانتحابٍ، وكانت لا تني تجلب عليها توبيخي المستمرّ. فقد كان زمامها يُفلت من يدها، فتصبح مريعةً، عسيرة القياد، كلّما لاح لها أنّ إحدى الراهبات كانت تمتهن، عن وعيٍ، سُنَن الدين والطاعة المقدّسة، وإن هي لحظت أيّة هنةٍ تُرتكب عن سابق إصرارٍ، هاجت واستولى عليها الغضب، وهرعت إلى المذنب تكشف له، من غير مُواربةٍ، القناع عن خطاءه، وما تركته حتّى يُصلح الشرّ ويَعِد بألاّ يعود إليه. وحينئذٍ، كانت ترتدّ، في الحال، عذبة المعشر، هادئةً، فرحةً.

"تارةً كنت أوبّخها، من غير تلكّؤٍ، بسبب قسوتها وغضبها، وتارةً أُخرى، كنت أرجئ ذلك حتّى المساء. ولكنّها لم تحمل، يومًا، توبيخي مَحمَلاً سيّئًا، بل كانت أبدًا تقول: "**أجل، أَجل، إنّي خبيثةٌ، إنّي ترابٌ، إنّني أكثر ذنوبًا من الجميع، إنّك محقٌّ، فأنا أستأهل قصاص الله**". وتقول ذلك صادقةً، وعيناها مغرورقتان بالدموع. وكَانت تضيف: "**ولكن ما حيلتي؟ إنّني أودّ إصلاح نفسي، بَيدَ أني لا أقوى على رؤية**

الشرّ. ومع ذلك، سألتزم الصبر. أجل، يا أبتِ، أودّ ذلك من كلّ قلبي". ولكن، ما إِن تتوفّر فرصةٌ جديدةٌ حتّى تثور غَيرتها من جديدٍ، وتضجّ اندفاعًا.

"إلاّ أنّني لم أَرَها، يومًا، تثور أو تغضب لأمرٍ يتعلّق بها شخصيًّا. بل كانت إِهانة الله هي الدافع الوحيد القمين بإِثارتها، والمناسبة الوحيدة التي أشهدها فيها تستشيط غيظًا، وتتخلّى فيها عن أساليب الوداعة المسيحية.

"حبّ الله، وتعلّقها بالممارسات المقدّسة كانا يتغلّبان فيها على كلّ شيءٍ. فيما عدا ذلك، لم يكن ثمّة خصالٌ أوفر مرونةً من خصالها، ولا صدرٌ أَرحب، ولا وجدان أكثر استقامةً وبساطةً...

"وغالبًا ما كانت تتبئنا بأمورٍ كثيرةٍ كانت تجري في فرنسا وفي بقاعٍ أُخرى، أو هي كانت تحدث ساعة تحدّثنا عنها، وفي ما بعد، كنّا نتبيّن أَنّ معظمها، بل ربّما كلّها قد تحقّق فعلاً".

نشوء كرمل بيت لحم

استقبل بطريرك القدس، الأسقف براكو، مؤسّسات كرمل بيت لحم بفيضٍ من العطف والحفاوة؛ ولكنّ دهشةً بالغةً أخذت الراهبات عندما سمعنَ الأخت مريم تحدّثه في بساطةٍ متناهيةٍ، حديث فتاةٍ مع أبيها؛ أَمّا هي فقد فسّرت فعلها هذا بقولها: "**لقد رأيت سيادته منذ زمنٍ طويلٍ. لقد أراني الربّ إِيّاه عندما كنت في الهند، وأَبلغني أنّه سيغدو لي، في ما بعد، أبًا، وقد تعرّفته حالما رأيته**".

وفي نفس الآن، عاتبَتِ الأخت مريم معاون غبطة البطريرك، في كثيرٍ من الرقّة، لأنّه كان سبب عرقلة تأسيس كرمل بيت لحم. وكان هذا الكاهن، في الواقع، هو الذي أوحى للبطريرك، أوّل الأمر، برفض مشروع الكرمل، غير أَنّ أحدًا، خلا البطريرك، لم يطّلع يومًا على ذلك. وعندما رأى أنّ سرّه قد افتُضح، على نحوٍ عجيبٍ، فاضَت مآقيه بدموع الندم، وأقسم بوقف كلّ طاقاته على خدمة الكرمل الناشئ.

وأَخيرًا، بلغت المؤسّسات محطّ آمالهنّ، بيت لحم، التي طالما صبون إلى الجثوّ في مغارتها حيث رأى المخلّص النور، وإلى المباشرة بإشادة الكرمل الذي في سبيله طَوَينَ المسافات الشاسعة. وفي الرابع والعشرين من أيلول، ترأّس بطريرك القدس،

في كنيسة المهد، قدّاساً أَعلن، أَثناءه، تأسيس كرمل بيت لحم، وتوجّهت، في إِثره، الكرمليّات، في تطوافٍ مهيبٍ، نحو مقرّهن المؤقت، بين سياجين بشريّين كثيفين نهضا على جانبي الطريق، ينطقان بالاحترام، والصمت، والتعاطف.

وبات لزامًا شراء الأرض التي سيُقام عليها الدير. وكان يسوع قد أرى الأخت مريم، وهي، بعدُ، في پو، مكان ذلك الدير، فوق هضبةٍ تطلّ على كنيسة المهد. وأكّد لها أن أمّه القدّوسة كانت قد أَصابت بعض راحةٍ على تلك الهضبة، قبيل وَضعِها له. كما أراها، مُسبقًا، مخطّط بناء الدير، وكانت الأخت مريم قد أدلت بكلّ تلك المعلومات إلى رؤسائها، بحيث أنّ الأب بورداشار قد عرف المكان، بناءً على وصفها له، حال وصوله إلى بيت لحم. ولكنّ الجميع كانوا ينتظرون، في إيمانٍ، إِشارة الربّ إلى أَمَته، قبل الشروع بالخطوات العمليّة. وقد تمثّلت تلك الإِشارة في سِربٍ من الحمام الأبيض، حطّ على التلّة المختارة، فيما كانت الأخت تراقبه من شرفة الدير المؤقّت. وكان هو نفس المكان الذي وصفته في أعقاب رؤاها السابقة، والذي تعرّفه الأب بورداشار. وقد انصرف هذا الأخير، في الحال، إلى شراء الأرض، غير أَنّ عقباتٍ ما لبثت أن برزت، فالأَرض ملكٌ مشاعٌ بين عددٍ كبيرٍ من المالكين، ومالك القسم الأكبر منها، بعد أَن وافق على بيع حصتّه، ما لبث أَن نكص، طمعًا في ثمنٍ أعلى. وساور القلق الجميع خلا أَمَة الله، مريم، التي ظلّت ساكنةً مطمئنّةً، تؤكّد، في ثقة، أَنّ العقبات ستزول جميعها، سريعًا، إذ إنّ الربّ قد وعد، ووعده كفيلٌ بتذليل كلّ الصعاب، في الوقت المؤاتي. وبالفعل، كانت الدهشة عارمةً، عندما عاد المالك، من تلقاء نفسه، بعد أيّامٍ قلائل، يعرض بيع الأرض بالثمن الذي كان قد عُقد عليه الاتّفاق من قبل. وفي غضون أسابيع معدوداتٍ تمّ شراء كامل الأرض، في يُسرٍ لم يتوقّعه أَحدٌ.

ثم تولّى الربّ تصميم بناء الدير، إذ أرى الأخت مريم، كرّاتٍ متعاقبةً، أثناء انخطافها، النموذج الذي كان يرغب فيه. ومن ثمّ فكثيرًا ما كانت تشاهَد، وهي تحاول رسم ما رأت، وقد تعاون معها الأب بورداشار، انطلاقًا من وصفها لرؤاها، في وضع مخطّط البناء، الذي اتّخذ شكل برجٍ منعزلٍ يصلح للصمت والتأمّل والصلاة، يُحيق به، وينطلق منه، في مثل أشعّة نجمةٍ، المصلّى وسائر الملحقات، بحيث لا يتناهى إلى البرج نفسه أيّ ضجيجٍ.

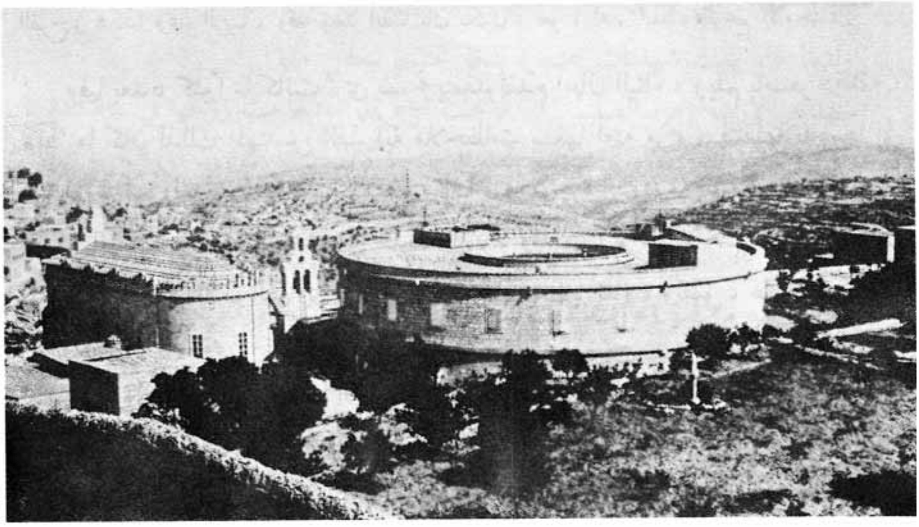

كرمل بيت لحم : البرج والكنيسة

وهذا المخطّط هو الذي نُفّذ، وهو الذي أسبغ على كرمل بيت لحم طرازه الأَصيل. وكانت مشيئة المهندس الإلهيّ أَن يكون البناء مجرّدًا، كلّ التجرّد، من كلّ ما يُشير إلى ترفٍ، خاليًا من كلّ زخرفٍ، مُغرقًا في فقرٍ مطلقٍ يليق بمن وُلد في مذودٍ. وقد احترُمت، في ذلك، مشيئة الربّ، وروعيَ ألاّ تضمّ حديقة الدير سوى أَشجارٍ مُثمرةٍ لتوفير حاجات الراهبات، باستثناء كلّ شجرةٍ توفّر الظلّ والخضرة، فحسب.

وغالبًا ما كانت ترى الأخت مريم، أثناء انخطافها، آنذاك، بناء الدير يعلو، وتصفه في حبٍّ، وتصف، على نحوٍ خاصٍّ، ما يغمره من فَيض الروح: "**لقد رأيت الدير، إنّه على شكل نجمةٍ، ولكنّ قلبه شمسٌ تُعلن السعادة**". ومرّةً أُخرى قالت: "**إنّه بيت الفرح، هكذا وعد الربّ، وقد وعد أيضًا بأن يكون، هو، له، أبدًا، الزعيم الأوحد**".

وفي ما بعد، كثيرًا ما كانت ترى يسوع يتفقّد تقدّم أعمال البناء، ويلمّ بأصغر دقائقه، وإذا ما كان لذلك المهندس الفذّ أيّة ملاحظاتٍ يبلغها أمَتَه مريم، فتنقلها، بدورها، إلى الرؤساء والمسؤولين. وغالبًا ما رأته يقف مراقبًا فوق شجرة زيتونٍ منتصبةٍ في الباحة، وقد نُقلت تلك الشجرة، من بعد، إلى حديقة الدير، وطالما قرأت الأخت مريم، في ذلك المكان، هذا الإعلان السماويّ: "**إن اسم الله يمحو خطايا العالم، ويُضفي، على قلب البشر، الفرح ونشوة السعادة**".

وفي رؤى أُخرى، شَهِدَت القدّيسة تيريــزا، والقدّيــسة كــاترين الإســكندرانيّة تزوران، هما أيضًا، الدير الناشئ، وتعودان مفعَمَتين رضًى.

تلك الرؤى كانت حافزًا يدفعها نحو تضحياتٍ بلا حدودٍ، من أجل المضيّ بالبناء شَطْرَ نهايته في همّةٍ حثيثةٍ، ولا سيّما أنّها، من جرّاء انفرادها بتكلّم العربيّة، قد كُلِّفت بمراقبة العمّال، الذين، منذ الوهلة الأولى، لمسوا تــأثير قداســتها، فكــانوا ســعداء بالاستجابة لمطالبها وبتنفيذ توجيهاتها، إذ إنّ محبَّتها المفعمة عطفًا واهتمامًــا كانــت تستميل جميع القلوب.

ومع ما كان يُضني جسدها من آلامٍ، ويُرْهِق نفسها من قلقٍ، انــدفعت الأخــت مريم في عملٍ يمجّد الربّ، وانغمست، حتّى رأسها، "في الجصّ والرمل" على حــدّ تعبيرها، دائبةً في الورشة، متثبّتةً من انتظام المُورّدين، مشجّعةً البنّائين والنحّــاتين، حاسمةً كلّ ما ينشب من خلافٍ، وحائلةً دون كلّ شططٍ أو هَدْرٍ.

فقــرٌ ومحــبّةٌ

كانت شديدة الحِرص على أموال الدير، وتأبى تبديد أيّة ذرّةٍ منها، وكانت تــردّد على مسامع أخواتها: "فلنمارس الفقر، فنحن هنا من أجل تكريم فقر يسوع في المغارة. والفقراء لا يتوانَون عن التقاط أصغر الفتات. فلنعمل، على غرارهم، حبًّا بيسوع".

لا غرابة، والحالة هذه، إن هي كانت متيقّظةً، صُلبةً، في تعاملها مع المــورّدين الذين يحاولون الخداع والنهب؛ أمّا حيال العمّال والفقراء، فكان لها موقفٌ آخر، نابعٌ من الحبّ، قائمٌ على السخاء، فهي، في هؤلاء، كانت تلمح وجه الربّ، الذي تــسمو محبّته فوق كلّ مصلحةٍ وكلّ اعتبارٍ. ومن ثمّ، فقد كان موقفها مــن العمّــال حــافلاً بالمحبّة والعناية الرصينة المتفهّمة التي تستبق تلبية حاجات الآخرين قبل أن يسألوا.

ولدينا على ذلك شهاداتٌ عديدةٌ بليغةٌ نجتزئ ببعضٍ منها:

شهدت الأرملة زهرة الصليبي أنّ الأخت مريم قد استخدمت زوجها فــي بنــاء الدير، بدافع المحبّة ليس إلاّ، إذ هو، على حدّ تعبير أرملته، كان "بِرُبــع عــين"، أي شحيح البصر بحيث يكاد يتلمّس طريقه. وكانت توكل إليه أكثــر الأشــغال يــسرًا، وأخفّها عبئًا، وكانت تحرّض زوجته على حسن رعايته، ولكنّ هذه ردّت عليها يومًا:

"**وما حيلتي أَن أقدّم له، ونحن على ما نحن من فقرٍ؟**" ومنذ ذلك اليوم ألفت الأخت مريم تزويده بكلّ ما يتيسّر لها من طعامٍ وكساءٍ.

وتفيد الشاهدة نفسها أنّ ولدًا كان يعمل في الورشة قد تحطّم، يومًا، إبريقه، فاغتمّ وشرع يبكي. إلاّ أَنّ الأخت مريم قد طيّبت نفسه، وهرعت فجاءته بإِبريقٍ آخر مليءٍ بالماء البارد وأعطته إِيّاه.

وأدلى العامل الياس سليمان بهذه الشهادة:

"كان جميع العمّال، عندما يشاهدونها يهتفون: ها هي ذي القدّيسة؛ إنّها ملاك السماء. كانت تحبّ الجميع، وتخصّ بحبّها الفقراء، وتجود عليهم بالأطعمة والألبسة، ولكنّها لم تكن تُعطي أَحدًا شيئًا على مرأى من الآخرين. كثيرًا ما كانت تكلّمنا عن الله قائلةً: "**إنْ أنتم تعذّبتم الآن، فما ذلك بشيءٍ. ستنالون في السماء مكافأتكم**". ولا تكفّ تقول لنا: "**أعانكم الله**" وعباراتٍ مماثلةً. لم توبّخ عاملاً، يومًا، ولكن إِن تلفّظ أَحدهم بعباراتٍ نابيةٍ، لفتت نظره، في رقّةٍ وعطفٍ. إنّني أشهد أنّها لم تتلفّظ، يومًا، بسبابٍ أو بكلمةٍ جارحةٍ، أو بما من شأنه أَن يُغضب إنسانًا".

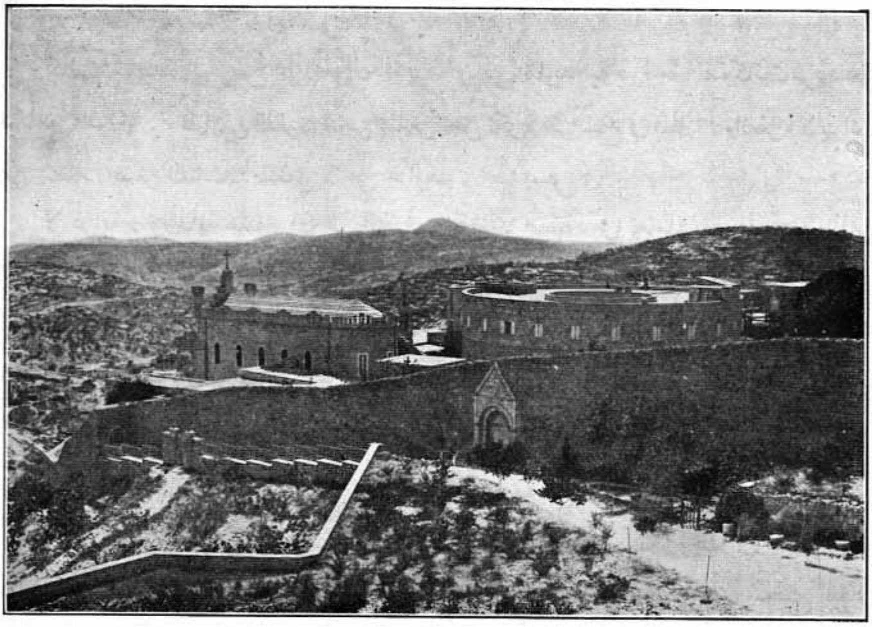

كرمل بيت لحم

غَيـــرةٌ وتواضـــعٌ

لقد كانت تشعر بدنوّ أَجلها، فجهدت في الفراغ من العمار في أقصر مهلـــةٍ، إذ كان قد أُوحي إليها أَنّ خلاص نفوسٍ كثيرةٍ، وانعتاق نفوسٍ مطهريّـــةٍ عديـــدةٍ كانـــا مرهونين بتدشين كرمل بيت لحم. ومن جهةٍ أُخرى، كانت محبّتها لأخواتها تـــدفعها إلى إتمام جميع المراحل الصعبة من البناء قبل موتها، بحيث توفّر علـــيهنّ العنـــاء والعَنَت. لقد كانت مهمّتها، أَبدًا، وفق تعبيرها، إدخال الخَيط في سُمّ الإِبـــرة، بحيـــث يتولّى آخرون من بعدها الخيط. في منغالور، وفي بيت لحم، وفي الناصرة، أدخلـــت الخَيط في سمّ الإبرة، وسلّمت الثوب لآخرين يكمّلونه.

غير أَنّ الفراغ من بناء كرمل بيت لحم كان، على نحوٍ خاصٍّ، غاليًا على قلبها. وقد وُضِعَ حجر أساسه في ٢٤ آذار ١٨٧٦، ومع الحجر أُودِعت ورقـــةٌ ســـطّرت عليها بيدها مقاطع من المزامير؛ وغدا الدير مؤهّلاً لانتقال الراهبات إليه بعد ثمانيـــة أشهرٍ فقط، أي في ٢١ تشرين الثاني من السنة نفسها. وكانت سرعة التنفيذ مذهلـــةً. واستمرّت تُشرف على الأعمال التكميليّة، بقدر ما تُتيح طاقاتهـــا وصـــحّتها؛ وعنـــد وفاتها، لم يكن الدير قد اكتمل على نحوٍ نهائيٍّ، وفقًا لما كانت قد تنبّأت به من قبـــل، غير أنّ ساكناته كنّ قد تحرّرن من جميع أعباء البناء المرهقة.

ومع ذلك لم تتسرّب، يومًا، الخُيلاء إلى خَلَد الأخت مريم، لما كان لها من أَيـــادٍ بيضاء في تأسيس كرمل بيت لحم، ولما اضطلعت به من أعباءٍ جسيمةٍ فـــي ســـبيل إنشائه، ولم تتوهّم، يومًا، بأنّ لها، من جرّاء ذلك، شأنًا خاصًّا، ولـــم تحـــاول، قـــطُّ، التدخّل في شؤون إدارة الدير، مُقتصرةً على أداء المهامّ الموكلة إليها. وكلّما تعـــيّن عليها المُضيّ إلى ورشة البناء، كانت تستأذن، في ذلك، الأمّ الرئيسة، وهي راكعـــةٌ، حسب تقاليد الكرمل، وتصطحب معها إحدى الأخوات.

إنّ في الشهادة التالية، التي أدلت بها إحدى زميلاتها، الأخت كليمانس، ما يُبرز جمال تواضعها الأخّاذ الذي ما انفكّ يصبغ سلوكها في تلك الفترة:

"ذات صباحٍ، كانت قد أعدّت كلّ شيءٍ للأخوات، مع ما كان ذلك يسبّبه لها من إرهاقٍ، من جرّاء صحّتها المعتلّة؛ ثمّ قدمت الراهبات اللواتي أوكلت إلـــيهنّ مهمّـــة

الغسيل، وكانت بينهنّ راهبةٌ لا تُطيق هذا العمل، فتصدّت للأخت مريم بتهجّمٍ لا مبرّر له، وصبّت عليها وابلاً من الشتائم، في حضوري وحضور سائر الأخوات. ولكنّ الأخت مريم لم تنبس بكلمة، ولم تتغيّر ملامح وجهها، بل ظلّت محبّةً، رقيقةً، وواصلت عملها ببساطةٍ. وأذكر أنّني تساءلت آنذاك: "أهكذا تُعامَل قدّيسةٌ؟".

درب الآلام

ويحسن بنا أن نعود بضع خطواتٍ إلى الوراء، فنواكب مسيرة الأخت مريم يسوع المصلوب الروحيّة، في أعقاب وصولها إلى بيت لحم. فتلك الحقبة الممتدة من غروب عام ١٨٧٥ وحتّى وفاتها، في نهاية آب ١٨٧٨، كانت حافلةً بمزيجٍ من النشاط الجسميّ الدؤوب، والاستعداد للرحيل إلى العالم الآخر، في إطارٍ من الآلام الجسديّة المبرّحة، والعناء الروحيّ المضني، وكأنّها، على غرار معلّمها الإلهيّ، كانت تتلمّس درب السماء عبر جلجلةٍ مضرّجةٍ بنجيع الآلام.

فقد استحوذ عليها مثل ما خامر يسوع، على الصليب، من شعورٍ بالتخلّي، عندما تراءى له، في بشاعةٍ مريعةٍ، سيل خطايا البشر الذي سيظلّ يتدفّق، رغم فدائه وصليبه؛ وارتدت هفواتها، في نظرها، جسامةً مريعةً، ورانت عليها بوقرٍ باهظٍ، وتملّكها إحساسٌ ملازمٌ بتقصيرها في خلاص نفسها وفي المساهمة بخلاص الآخرين. وخُيّل إليها أنّها صائرةٌ إلى دينونةٍ أبديّةٍ من جرّاء قصورها. فترسّخ لديها اليقين بأنّ عليها ممارسة المزيد من التضحيات وإماتة الجسد، والتمست إذنًا بالصوم أربعين يومًا على الخبز والماء، ولكي لا تشعر بأيّ ارتواءٍ، نذرت أن ترشف الماء براحة يدها؛ وبات الخبز يبدو لها كالح السواد، ويتّخذ في فمها طعم التراب. وكانت مشقّة ذلك الصيام تتضاعف بفعل وسوسةٍ شيطانيّةٍ لا تني تتردّد على مسامعها، في إصرارٍ مُرهِقٍ: "**دعكِ من الصيام، فهو إنّما إرضاءٌ لإبليس**". غير أنّ إذن رؤسائها بممارسته كان يؤكّد لها سلامته، ويدفع بها إلى المضيّ فيه قُدُمًا، على قسوته.

وفي تلك الفترة أيضاً، وبإيعاز رؤيا سماويّةٍ، ظلّت طوال أسابيع تتناول كلّ يومٍ حبّاتٍ من الزيتون الفجّ، على نحو ما يُجنى من الشجرة، بكلّ مرارته.

وقد عُهِد عنها كلَفُها بالتّين. وقد راودتها، يومًا، الرغبة، في تناول تينةٍ، أثناء القِطاف، ولكنّ سرعان ما رمتها أرضاً، وداستها بقدمها، ونذرت ألاّ تذوق التين

حَوْلاً كاملاً، وبرّت بنذرها.

ونطالع في الشهادة التالية التي أدلت بها الأخت "كليمانس" صورةً بليغةً التعبير عن صلابة الأخت مريم في ممارسة التقشّف وقَمع الذات:

"لم أرَ أَحدًا يمارس التقشّف على نحو ما تمارسه. كنتُ أَعجب كيف تقوى على تأدية كلّ ما تؤدّيه من عملٍ، وهي على ما عليه من صحّةٍ متداعيةٍ، وفي نفس الآن تفرض على نفسها كلّ تلك التضحيات. كنت أشهد أحيانًا كبحها لميولها، ففي يوم صيفٍ، رأيتها تحرث مربّعًا من الأرض في الحديقة، وقد شرعت بتلك المهمّة، عند الظهيرة، ساعة يبلغ قَيظ الهجير أَشُدّه؛ وقد ظلّت مكبّةً على هذا العمل الشاقّ حتّى الساعة السادسة مساءً، من غير أن ترتشف جرعة ماءٍ واحدةً. إذ كانت لا تنفكّ تقول، بين فينةٍ وأُخرى: "**إن كنت قد احتملت حتّى الآن، فبوسعي الانتظار ساعةً أُخرى**".

"ورأيتها أيضاً متفانيةً في إِعداد مربّى التين الأخضر، الذي كانت بدافع التوفير، تحرص على تحضيره من غير سكّرٍ. وقد دأبت على تلك المهمّة منذ الساعة العاشرة صباحًا حتّى الرابعة من صباح اليوم التالي. وقد أوعزت إليّ بالانصراف للنوم عند حلول منتصف الليل، واستعانت براهبةٍ أُخرى من أَجل إِتمام عملها.

"وكثيرًا ما ضحّت بنومها، إذ غالبًا ما كانت تسهر على معالجة المرضى حتّى منتصف الليل، ثمّ لا تتوانى عن الاستيقاظ في الرابعة، شأنها شأن سائر الراهبات العاملات، ولم تكن تضحيتها بالنوم لتحول دون أدائها جميع واجباتها على أكمل وجهٍ".

مِحَنٌ ورؤى وتعاليم

وصفت الأخت مريم محنها النفسيّة، في تلك الفترة، بقولها: "**منذ أيّامٍ، في أعقاب وصولنا إلى بيت لحم، لم أستطع، مرّةً واحدةً، القول: ها أنذا أنعم بالله، بل إنّني أعاني، وحيدةً، من القلق والحزن. أحيانًا يلوح لي أنّ نفسي مُدانةٌ، وأسلّم بهذه الدينونة، ولكن عندما يجول في خَلَدي أَنّ الدينونة تعني أنّني لن أحبّ الله أبدًا، أرفض. كلاّ، أبدًا، أبدًا... وأهتف: لا، لست قادرةً على التسليم بذلك! إِنّها كأسٌ بالغة المرارة. يا إلهي، قد أستطيع ابتلاع كلّ شيءٍ واستمراءه، ما عدا هذا...**".

ولكنّ ذلك الشعور بالتخلّي الذي كان يزيدها اتّضاعًا وألمًا، لم يكن، في الواقع،

احتجابًا من الله عنها، فحياتها ما انفكّت نسيجًا من انخطافٍ ورؤًى وتعاليم، توحى إليها، في إِطارٍ من الألم والتضحية.

وفي الثالث من تشرين الأوّل ١٨٧٥، كان حزنٌ بالغٌ يستولي على الأخت مريم وهي مختطفةٌ، فشرعت تقول، وعيناها تفيضان بالدموع: "**إنّني سيّئة السلوك... ويسوع غير راضٍ عنّي... أُكتبوا هذا: يسوع غير راضٍ عنّي، مع أنّه يفعل كلّ شيءٍ من أجلنا**". ومرَّةً أُخرى أفادت: "**إنَّ السيدة العذراء تقول لي: يا ابنتي، إنّك تتدفّقين حياة... إنّ الحبّة لا تنمو إن هي لم تتلف... عليك أن تتلفي عمًّا قريب**".

لقد كانت تلك رسالةً واضحةً تدعوها إلى التضحية حتّى الموت، وتُنذرها بما هي مُقدمةٌ عليه من ألمٍ مطهّرٍ مخلّصٍ، وبوسعنا استشفاف صورةٍ عمّا كانت تعانيه، من خلال ما أفضت به بعد بضعة أيّامٍ، إذ اعترفت: "**إنّني راضيةٌ بكلّ ما يُصيبني به الله من شدائد، ولست ألتمس سوى الصبر، إنّ نفسي تعاني ضنًى لا يقوى أحدٌ على الإلمام بمداه، ولست أستطيع البوح به لأحدٍ**".

غير أنّ تلك الآلام كانت تلطّفها رُؤاها لكرمل بيت لحم، تعلو مداميكه، تسابيح للربّ، وشمسًا تشيع السعادة؛ وكانت تشدّدها زيارات من عالم السماء، كثيرًا ما رأت، آنذاك، أمّها الروحية الأمّ إِيلي.

هذا، ومع ما كانت تعانيه من آلامٍ نفسيّةٍ، وأوصابٍ جسديّةٍ مبرّحةٍ، ومع امتزاجها المستمرّ بالله، كانت، أبدًا، دائبةً على توفير أسباب الراحة للآخرين. ففي فترة تأسيس كرمل بيت لحم، اعتلّت صحّة الكثيرات من الأَخوات، وانتابتهن اَلْحُمَّى، فعنيت بهنّ الأخت مريم، في عطف أمٍّ، جاهدةً في تخفيف العبء الملقى على كاهل الأخت الممرّضة.

وفي تلك الفترة عينها كان منهل الماء بعيدًا عن الحديقة، فعمدت الأخت مريم إلى وضع برميلٍ في وسط الحديقة كانت تسهر على ملئه بنفسها بالعديد من دِلاء الماء، كي تجد أَخواتها ما يرتوين به، على منالٍ منهنّ، كلّما آنسنَ إلى ذلك حاجةً.

وأَثناء أعمال البناء، في الصيف، كانت تشعر بوقع الهجير على العمّال، فتقول: "**هؤلاء المساكين يُعانون من الحرّ كثيرًا، وينبغي إنعاشهم**". فتمضي تستبدل لهم دلاء الماء الساخن بدلاء ماءٍ باردٍ؛ وفي أثناء نقلها بعض هذه الدلاء، في ما بعد،

تعثّرت، فوقعت وتحطّمت ذراعها ممّا أدّى إلى وفاتها الخاطفة.

وفي التاسع عشر من كانون الأوّل ١٨٧٥، أَعلنت، وهي متهلّلةٌ جذلى، بأنّ الملائكة قد جاؤوا لأخذ بوّاب الدير – الذي كان قد تُوفّي قبل يومين كي يودِعوه بين يدَي الخالق، وكانت تردّد: "**ما أسعدني بمعرفة هذا الإِنسان! لقد كان رجلاً مستقيمًا، وتألّم كثيرًا، ولقي من الازدراء قسطًا جمًّا. ولكن أيّ فرحٍ له في السماء الآن. أمّا الأغنياء، فهم يُكرّمون، ويتمتّعون بضع سنواتٍ على الأرض، تكلّفهم، في ما بعد، مئة سنةٍ، أو أكثر، من الإِقامة في المطهر، حيث كلّ ساعةٍ أطول من يومٍ.**

"**إن الإِنسان المستقيم يحبّه الله، وحتّى إن هو اجترح الكثير من المعاصي، فالربّ يهبه النور الذي به يهديه. أمّا الإنسان المزدوج المرائيّ، فلا يستطيع أن يحطّ عليه الله نظره، حتّى ولو هو ارتدى جميع مظاهر القداسة، فلن يروق في عين الربّ كالإنسان المستقيم وسْط نقائصه**".

وأَثناء انخطافٍ آخر، بدت وكأنّها تعاتب أخواتها لشكواهنّ من بعض المنغّصات، وقالت: "**لمَ تنظرنَ إلى عصا الرب؟ لا تشكين ممّا يفعل الربّ، ولا تكنّ جاحداتٍ عمياوات، وإن عَرَضت لكنّ لقمةٌ مالحةٌ، فلا تصحنَ بأعلى أصواتكنّ، إنّها مالحةٌ... بل ازدردنَ لقمةً مالحةً، مقابل كلّ ماتنعمنَ به من حلاوةٍ...**"

وفي منتصف كانون الثاني ١٨٧٦، كانت قد داست على مسمارٍ مُثبتٍ في خشبةٍ مرميّةٍ، ولكنّها أزرت بأوجاعها، وواصلت عملها، فما لبثت رجلها أن تورّمت حتّى باتت عاجزةً عن السَّير، واضطرّت إلى الاستلقاء. وفي الغد لم تتبدّل حالها، ولكنّها قالت: "**لا بدّ لي من النهوض، فعليّ اليوم أَن أجهد من أجل كائنٍ...**" وانصرفت إلى شؤون الغسيل، وسائر المهامّ الشاقّة. وعندما حلّ المساء كانت منهكةً، غير أنّ جرح قدمها كان قد برئ.

بَيدَ أنّ وطأة الأوجاع الجسديّة والأصوام، كانت لا تُقارن بصنوف المعاناة النفسيّة التي تعصف بالأخت مريم وتحطّمها. فإِبليس الذي، أبدًا، لا يقنط من انتزاع النفوس البارّة من ذراعي فاديها، قد عاد يصارع تلك النفس التي طالما عجز عن النيل منها، مع كلّ ما ناصبها من عداءٍ، وقد أشرفت على نهاية المطاف، مظفّرةً ناصعة الجبين. إِنّ اعترافات الأخت مريم، في تلك الحقبة خليقةٌ بإِلقاء حزمة ضوءٍ

على شراسة التجارب التي انقضّ بها إبليس عليها، فلنستمع:

"لا أحد يستطيع إدراك ما يجول في نفسي. منذ ثلاثة أيّامٍ، خصوصاً، وحتّى مساء أمس، كنت في وضعٍ رهيبٍ، وفريسة تجارب مريعةٍ. وكنت أكافح وأهتف: "يا ربّ، إنّي أوثر الموت ألف مليون مرّة، على الاستسلام لتلك التجارب".

"ثمّ تنتابني تجارب حول الإيمان. كيف لي أن أرتاب بعد كلّ ما رأيت وما سمعت؟ فأهتف: أجل، يا ربّ، إنّي أومن؛ ويعترض شيءٌ ما قائلاً: نعم هناك إله، أومن بذلك، ولكنْ ليس هناك من أسرارٍ مقدّسةٍ. ويريني الربّ الكثير الكثير، ولكنّ المجرّب يعترض قائلاً: هذه الأشياء ترينها في نومك، لا على أرض الواقع... وأعود فأبتهل للرب: خلّصني، يا إلهي، أو هبني نعمة الانتصار على إبليس، فقد نفذت قواي".

وما كانت الأيّام إلاّ لتزيدها اضطرابًا، ورزوحًا تحت وقْر ما تظنّه خطايا لا تُغتفر، وخيانةً لإلهها، وكانت تحاول أن تطوي أجنحتها على تلك الآلام النفسيّة المبرّحة، وتكتمها لكيلا تكون للآخرين عثرةً، غير أنّ ضنكها كان ينفجر، أحيانًا، فتتساءل يائسةً: "**أين أنا؟ هل أنا في جهنّم؟ وهل سيكتب لي الخلاص؟**"

وفي انجذابها، كانت تفلت منها اعترافاتٌ تهتك النقاب عمّا يصطرع في حناياها من تمزّقٍ، وتنمّ عن كثافة آلامها، على نحو ما أفضت به، في مطلع شهر آذار ١٨٧٦:

"... لم يُرهقني يومًا وِقْر آثامي كما أرهقني هذا الأسبوع. يا إلهي، إنّني أرى نفسي وحشًا مريعًا، وأدهش كيف حفظني الربّ. إنّني محطّمةٌ، مصعوقةٌ، صريعةٌ. وأتلمّس في عتمةٍ داجيةٍ. أتشوّف إلى الموت تارةً، وتارةً يرين عليّ اليأس، وأحيانًا أعجز عن إدراك ما يحمل الله على إبقائي في بيته. كلّ يوم أعد الربّ بأن أكون وفيّةً، ولكنّني أبقى على ما أنا عليه.

"استحلفيه أيّتها السماء والأرض من أجلي، كي يخلّصني، فأنا، من جرّاء معاصيّ، لا أُفيد من أيّة نعمةٍ".

ذلك القلق المضني كان يُسبغ على سلوكها بعض التوتّر، يدفعها، إلى شيءٍ من

الغضب، أحيانًا، فيزيد ذلك من تعذيبها وإِذلالها، والإِسقاط في يدها.

مشاركة آلام الفادي

ومع دنوّ الصيام الكبير، طفقت سِماتها تنذر بنزفٍ قريبٍ، ما أفعمها رهبةً وخشيةً، فقد كانت تؤرّقها نظرة الآخرين إلى تلك السمات على أَنَّها امتيازٌ سماويٌّ، في حين كانت هي ترى فيها عقابًا إلهيًّا صارخًا، فتودّ التواري عن كلّ الأنظار. وتروي سجلاّت كرمل بيت لحم، في الثامن من آذار ١٨٧٦، أَنّ الأخت مريم يسوع المصلوب، قد جفاها النوم، إذ خالجها الشعور بأنّها في الأيّام المقبلة، ستضطرّ إلى البقاء مسمّرةً فوق سريرها عدّة أيّامٍ في الأسبوع، وراحت تلتمس إلى الانعتاق من تلك المحنة سبيلاً لا تقف له على أَثرٍ، ففزعت إلى شرفة الدير المؤقّت حيث قضت من الليل ساعاتٍ طوالاً، ترنو إلى التلال المحيقة، وكأنّها تتمنّى الغرق في عزلتها النائية، وتتطلّع إلى السماء وكأنّها ترغب في التحليق نحو أَجوائها السحيقة. وكان لا مناص أخيرًا من حملها إلى فراشها، حيث دفعتها الآلام إلى انخطافٍ مريرٍ، فطفقت تردّد: "**إلهي، إلهي، أبعد عنّي هذه الكأس! إلهي، ما العمل؟ اِرحمني**، يا ربّ".

وفي صباح اليوم التالي، كان قد تشكّل فوق يديها وقدميها، ما يشبه رؤوس مسامير، وتفاقمت آلامها في النهار إلى حدٍّ لا يطاق، ولكنّ الله كان يخفّف من حدّة تلك الآلام باختطافها؛ وكانت، بادئ الأمر، تضرع إلى الله تكرارًا أن يبعد عنها تلك الكأس، وأَن يبتليها بكلّ ما يشاء من آلامٍ، باستثناء تلك السمات الظاهرة للعيان؛ ثم افترّ ثغرها عن ابتسامةٍ يصعب وصفها، وبدت وكأنّها تنعم بتناول ثمرةٍ سرّيةٍ، وطفقت تقول: "**لقد رأيت، وبوسعي أن أَشهد... أجل، سأكون لك شاهدةً... لو كنت أستطيع اعتمار قبّعة الملفان، لبشّرت البرّية كلّها، ولكن، وا أسفاه! أجنحتي مقصوصةٌ من جرّاء خطاياي... كلّ ما أراه يزيدني تألّمًا لخطاياي... إنّني آكل وأنام وأضحك، ولكنّ ذكرى آثامي لا تبارحني... أَجل، ثلاث ذكرياتٍ تلازمني، أولاها، عَدَمي الماثل أبدًا أَمام عيني... ليس من وحشٍ أكثر منّي بشاعةً. الجميع أوفر منّي براءةً، ولكن هل من شيءٍ أبشع منّي، يا ربّ؟ كيف للأَرض أن ترضى بحملي؟ لقد انقضّت عليّ الصواعق وطلقات الرصاص. والربّ، بموته، قد وقاني منها، جميعًا.**

ولكنّه، علامَ فعل ذلك من أجل بهيمةٍ على هذا القدْر من البشاعة؟ لقد رأيت يد الربّ تمرّ على رأسي. قولوا لي متى سأتحرّر من جسد الخطيئة هذا؟ ليس الجسد هو الذي يخطئ، بل النفس، فإن كانت لها السيادة، استطاعت ثَني الجسد وقيادته. إذا ما اقتُرِفتْ خطيئةٌ في بيتٍ، فليس البيت هو الذي يقترفها... إنّني لم أحمل ثمارًا، لأنّ الجذع انفصل عن النفس".

ولمَّا تلاشى انخطافها، استفحلت آلامها، فالتمست الاعتراف، وفيما كان الكاهن ينصت إلى بوحها، ارتحلت من جديدٍ إلى موطن الروحِ، وطفقت تتكلّم عن الكنيسة، والحبر الأعظم، وتدعو إلى التعبّد للروح القدس، مؤكدةً أنّ من لا يبتهل له يسير في دربٍ مدلهمٍّ مجهولٍ، لا ينيره حتّى ضوء شمعةٍ، في حين أنّ من يستنجد الروح القدس يظفر بالنور، ويمشي في وَضَح النهار. وتوسّلت إلى الكاهن المعرّف أَن يلمس بأنامله المكرّسة سِمات يديها، عسى الربّ يمحيها. وقبيل منتصف ليلة الجمعة، تدفق الدّم من يديها، ثمّ من قدميها، وظلّ ينساب حتّى السادسة صباحًا. وأَثناء القدَّاس انثال الدّم غزيرًا من يديها، بحيث شاهدته جميع الراهبات، فيما كانت هي مختطفة الروح. وعندما أَفاقت، اندملت الجراح؛ وبعد ظهر ذلك اليوم، أَصابت بعض طعامٍ، بعد أن تعذّر عليها ذلك منذ يوم الأربعاء السابق. ومع أَنّ الجراح في يديها قد التأمت، إلاّ أَنّ ندوبها ظلّت باديةً للعيان، فحرصت على إخفائها بقفّازاتٍ خشِنةٍ. وفي الفترة الممتدّة بين يومي السبت والأربعاء، استعادت بعض قواها، وانصرفت إلى أداء الخدمات الشاقّة في كثيرٍ من العناء، في حين كانت آلام يديها وقدميها لا تُبارحها، ويُرهقها أكثر من هذه الأوجاع شعورها المضني بعبء خطاياها.

ويوم الأربعاء التالي، عادت أَمارات السمات إلى الظهور بشكل رؤوس مسامير ضاربةٍ إلى السواد. واستفحلت آلامها يوم الخميس، ولم تقتصر على اليدين والقدمين على نحو ما كانت عليه في الأسبوع السالف، بل انضمّت إِليها آلامٌ حادّةٌ في الرأس والقلب والجنب. وجيء إليها بالقربان المقدّس، فتناولته، ومعه ارتحلت في مشوارٍ سماويٍّ، ما كادت تعود منه حتّى برّحت بها أَوجاعٌ كادت تخنقها وتودي بحياتها. فأنقذها الانخطاف من جديدٍ. وشوهدت وكأنّها تحاول ابتلاع شيءٍ، فأمرتها الرئيسة بفتح فمها، حيث شاهد الحاضرون ما يشبه لوزةً بيضاء. وأمرت، بعد هنيهاتٍ بفتح

فمها، مرّةً أُخرى، فإذا باللوزة على لسانها قد أَصبحت كالعجين اللدن، ينبعث منها عرفٌ طيّبٌ، يحاكي رائحة البخور.

وتهامس الحاضرون: ربّما جاءها الربّ بهذا الطعام السّريّ ليشدّ من عضدها، ولكنّها، وهي مختطفةٌ، أَجابت: بل من أَجل مضاعفة المرارة وترسيخها.

وفي الساعة الواحدة من صباح يوم الجمعة، كان الدّم يغمر جسمها كلّه، وكانت تمسحه بأقمشةٍ كبيرةٍ تبتلّ بأكملها. واستأذنت بالاغتسال كي تزيل كلّ أَثرٍ للدم، غير أنّ ندبةً في جبينها ظلّت تنزّ دمًا، ثمّ ما لبثت يداها وقدماها أن نزفت من جديدٍ. وفي الصباح تناولت الأسرار المقدّسة، وفي الحال تولاّها انخطافٌ انتزعها من براثن الآلام، واتّسم بالفرح، وكانت، أثناءه تردّد: "**يا يسوعي، هَبْني مساميرك!**"، فيما كان الدم يغطّي يديها.

وعلى هذا المنوال، توالى نزف السِّمَات طوال أسابيع الصوم، ترافقه الآلام المبرّحة، والانخطاف إلى عالم السماء.

ويوم الجمعة، الرابع والعشرين من آذار، تمّ الاحتفال بوضع حجر أساس كرمل بيت لحم. وقد جاء غبطة البطريرك بالقربان للأخت مريم، فتسنّى له مشاهدة سماتها النازفة، وما يشبه آثار إِكليل من شوكٍ على القماش الذي به مُسِحَ جبينها.

وطيلة أسبوع الآلام كانت الأخت مريم أَسيرة الأوجاع، غير أَنّ الفراش الذي كانت عليه طريحةً، قد وُضع على مقربةٍ من المصلّى بحيث استطاعت متابعة طقوس الآلام. وكانت تجلس وفي يدها كتابٌ يروي الآلام والصلب، وهي لا تني تردّد: "**غفرانك، اللهمّ، غفرانك**".

ويوم الخميس المقدّس، هتفت، وهي في انجذابٍ: "**ها هوذا يوم الحبّ! إنّه لحقٌّ أن أكابد بعض الآلام في سبيل الحبّ.**" ووافاها معرّفها بالقربان فرأى، مرَّةً أُخرى، سِمَاتها وآلامها، واللوزة السماويّة التي كان يزوّدها بها الربّ، غذاءً يفوح منه كلّ جسمها ضوعًا ملائكيًّا.

وفي مساء ذلك اليوم تدفّق الدم غزيرًا من يديها وقدميها، اللتين بدتا وكأنّهما قد ثُقبتا من جانبٍ إلى آخر. ثم ما لبث أَن تدفّق الدم من رأسها ومن قلبها، وارتسم فوق القماش الذي وُضع على صدرها، صليبٌ كبيرٌ مستدير الأطراف، وقد ظهرت صُوَر

ذلك الصليب على طيّات القماش الثماني.

وحوالي منتصف الليل، دخلت في ما يُشبه احتضارًا، وكان كلّ جسمها يرتعد ويئنّ، وجميع سماتها تنزف معًا، وقد ابتلّ القماش الذي وُضع على صدرها بدمٍ وماءٍ. وكانت لا تكفّ تردّد: "**إلهي، لا تتخلَّ عنّي. إلهي، أقدّم لك كلّ شيءٍ فلا تهجرني. عَفْوَكَ، اللهمّ، عفوك**".

قوى الروح

في السادس والعشرين من نيسان كانت قد أَرهقتها الآلام الجسديّة والنفسيّة على السواء، وكانت تُعاقب نفسها على سَوْرة غضب استبدّت بها، قبل أيّامٍ، فامتنعت عن الأسرار المقدّسة، ما زاد من كرْبها؛ وفيما كانت أَخواتها يشكرنَ بعد التناول، قصدت، وهي مختطفةٌ، غرفةً قد اكتظّت بالصناديق التي ركمت فيها الأقمشة والأدثرة، وكان قد تقرّر إِعادة ترتيبها، وتبيّن للأخت مريم أَنّ الأَخوات المكلّفات بهذه المهمّة الشاقّة كنّ متعباتٍ، فعزمت هي على تولّي الأمر، أو بعضٍ منه، عنهنّ. وعندما أَقبلنَ، بعد فترةٍ وجيزةٍ، وجدنَها تنقل صندوقًا يعجز عن حمله شخصان شديدان، في حين أنّ جميع الصناديق الأُخرى، والأَبهظ وزنًا، كانت قد احتلّت المكان المقرّر لها. ثم راحت الأخت مريم تكنس وتنظّف، وهي في ذهولٍ وفرحٍ؛ وسئلت كيف قَوِيتْ بمفردها على نقل كلّ تلك الصناديق الثقيلة، فأجابت: "**كان ولدان يحملانها، كلٌّ من طرفٍ، وأنا أسندها بعض الشيء من الوسَط، وعندما جئتنّ توارى الولدان**". وقد أُنجز كلّ ذلك العمل المرهق، الذي كان من شأنه أَن يقتضي من الراهبات ساعاتٍ من العنت، في غضون ربع ساعةٍ فقط. تم انطلقت تنظّف باحة الدير، وكلّ زاويةٍ منه، وتجمع كلّ قطعة خشبٍ صغيرةٍ تجدها، وهي تردّد: "**تنبغي العناية بممتلكات الفقراء... إنّ مختاري الله نظيفون**".

وفيما كانت منصرفةً إلى التكنيس في دقّةٍ وتأنٍّ، مرّت الراهبات على مقربةٍ منها، يرتّلن الأناشيد، فجثت على ركبتيها خاشعةً، وقد ضمّت يديها، وحنت رأسها.

ولمّا أفاقت من انخطافها، ورأت ما صارت عليه الغرفة، وسائر أماكن الدير من نظافةٍ وانتظامٍ، تساءلت، دهشةً، من الذي استطاع القيام بكلّ ذلك في هذا الوقت

القصير، ولم يخامرها، قطُّ، رَيبٌ أنّها هي التي حقّقت كلّ شيءٍ، بمؤازرة الربّ.

وأثناء انخطافٍ آخر، انتابها في الثاني عشر من آب ١٨٧٦، راحت تشدو الأناشيد، في نغمةٍ تندّ عن الوصف، نغمةٍ عذبةٍ كانت تطبع صوتها أَثناء انجذابها إلى عالم السماء. وكانت، بيدها، تضغط على صدرها قائلةً: "**أَجل إنّه مدوّنٌ على صدري**". وتساءل الحاضرون إن هي كانت تشير الى اسم يسوع المحفورة أَحرفه على قلبها أو إلى الصليب الذي غالبًا ما كان يتجلّى للعيان فوق القلب. وقد عَرَض لها أَن شاهدته مرّةً، ولكنّ الله، لكي يزيدها صَلَبًا واتّضاعًا، كان يسمح أَن ترى في مثل تلك الإِشارات السماويّة إِدانةً لها، فيغمرها الخِزي، والحزن، والقلق.

خاتم العهد

عندما تجلّى للمخلّص أَنّ أمته قد ازدانت، إلى حدٍّ كافٍ، بجواهر الحبّ والألم، عقد معها ما سبق أَن عقده مع بعض مختاريه، ومع نُخبةٍ من الصوفيّين الذين بلغوا من اتّصالهم بالله حدّ الاندغام واللاانفصال، أعني قرانًا روحيًّا صوفيًّا يجعلها أشدّ التصاقًا به، إلى الأَبد. وقد استحوذ عليها الشعور بأنّ يسوع قد ألبسها خاتم العهد، وشوهدت تلثم مكان الخاتم ذاك من إِصبعها، في اليد اليسرى، وتتأمّله في إِعجابٍ وذهولٍ، وفرحةٍ سماويّةٍ، وهي تقول: "**سأحتفظ أبدًا بخاتمي هذا؛ لم أكن أدري أنّ هناك خاتمًا مخبّأً لي... إنّه ثقيلٌ وخفيفٌ... أنا لم أستأهله**"، ثمّ أردفت: "**الذين يقولون للرب: "افعل ما تشاء" يظفرون بخاتمٍ. عندما خلقنا الربّ، ترك لنا الإِرادة، ولكن من تخلّى عنها لخالقه، ظفر بخاتمٍ... هذا أقصى ما يمكن تمنّيه على الأرض، إنّه خاتم العهد... ومن يظفر بهذا الخاتم، قد يجتاز النار، ويُمزّق بأنياب الأسد، ويُعاني من ذلك الكثير، غير أنّ الخاتم يقيه. قد يوسعني قلبي اضطرامًا، ولكنّ الخاتم يقيني. من الأرض والسماء قد يقذفونني بالحجارة، ولكنْ، في الواقع، يوفّر لي الخاتم الوقاية.**

"**أنا لم أستحقّه، لقد تلقّيت مكافأةً على جحودي... إنّهم يهدونني إيّاه**"... وحينئذٍ شوهِدت تحاول غرس الخاتم السرّي في جذور إصبعها وهي تقول: "**لا تخرج مِن بعد، أبدًا**".

وكان قد مهّد لتقلّد هذا الخاتم، انخطافٌ رأت فيه رُسُلاً سرّيّين جاؤوا يخيّرونها

بين هجر الأرض في الحال، أو المكوث فيها، بعض الوقت، في أحضان المحن المتمثّلة بغابةٍ بكرٍ. ويعذب سماع دقائق حوارها معهم، من فمها، على نحو ما روته:

"قال لي الأولاد: إن أنتِ اجتزت الغابة، قد تتعرَّضين للكبوات، أمّا إذا انطلقت فورًا شطر يسوع، فالربّ سيهبك ما تتشوّقين إليه: عليك الآن اتّخاذ قرارك...

"ولكنّني إن أنا مضَيتُ في الحال، فيداي مُصْفِرتان ممّا أَستطيع تقديمه لإلهي. وسيتّسع لي للنعيم فسحةٌ، ولكنْ لن تتّسع لي أيّة فسحةٍ للألم. ما هو الأكثر إرضاءً للربّ؟ قولوا لإلهي إنّني أريد ما هو أوفر إرضاءً له...

"إن كان عليّ أنْ أسقط وأهين يسوع، فأنا أوثر أن أمضي إليه في الحال سريعًا. ولكنْ إنْ هو وعد بحمايتي من الخطيئة، فأنا راضيةٌ بكلّ صنوف الآلام.

"إنّني أريد الخيارين كليْهما، يا إلهي. وقال لي الربّ: إنّني أدع لكِ القرار.

"فقلت له: بل، يا سيّدي، أنا من يُوكل إليك القرار، فأنا واثقةٌ من اختيارك الأفضل. إنّني أرتضي بكل الآلام، مقابل التفاتةٍ خاطفةٍ منك".

وبدت تصغي ثم استطردت: **"لا، لا تجرّبوني، إنّني أدع لإلهي الخيار، طوبى للنفس التي تسلّم لله أمرها.**

"وما همّ إن تعيّن عليّ السير في الرماد الحارق، بل، حتّى، أن أُصاب بالعمى؟ إنّني أوثر العمى على عيونٍ لا أرى بها الله... لا تجرّبوني.

"إنسانان يتخاصمان فيّ... ولكنْ لا تنصت إليهما، يا ربّ، فأنا لن أختار أبدًا

"إنّ الأمّ تدرك ما هو الأفضل لابنها، ولكن هل يدرك الابن ما هو الأفضل له؟

"وأنا لديّ خيرٌ من الأب والأمّ، لديّ خالقي الذي يكتنفني... سأتناول الخبز الذي سيعطينيه.

"إنّك ترى، يا ربّ، أنّ أحدهما يميل للبقاء، فيما الآخر يرغب في الانعتاق، وأنا لا أملك على أيٍّ منهما سُلطانًا، ولا يهمّني سوى رضاك.

"حتّى لو تعيّن على عظامي أن تُسْحَق، وعلى لحمي أن يتساقط نُتَفًا، فذلك لا يهمّني، إن كان من شأنه إرضاء إلهي... ما يريده سيّدي، أريده... أتسألونني إن كنت سعيدةً؟ اسألوا السجين إنْ هو كان يؤثر المكَوث في سجنه أو التجوّل في الحديقة... إن كان يفضّل مزاولة الأعمال الشاقّة أو الحرّيّة. أعلم أنّني لا أهين

يسوع إن أنا التمست الانطلاق، ولكنْ إنْ كان بقائي يوفّر له أدنى سرورٍ، فسأبقى"
واختتمت بقولها: "**إنّ الربّ سيحميني، وسيقلّدني الخاتم، وسأمضي في سلام، ولن يسمح بِسقوطي**".

سلامٌ وصليبٌ

لقد وصفت الأخت مريم حياتها في تلك الحقبة بأنّها مزيجٌ من سلامٍ وصليبٍ. كان السلام يتدفّق عليها عبر الرؤى السماويّة، والصليب يرافق كلّ خطوةٍ لها على الأرض. والألم الأشدّ إمضاضاً الذي كان يقضّ مضجعها، هو أَنّ قلبها الذي لم يكن سوى جُذوةٍ تضطرم حبًّا لله، وكلّ خفقاته تصبو إلى الله، كان يُصاب بيباسٍ قاتلٍ، بحيث تعجز حتّى عن أن تحيط بالله فكرًا، أو أن تتمتم صلاةً، فتتفجّر الدموع من مآقيها، أَحرّ صلاة وأَبلغها.

الانتقال إلى كرمل بيت لحم

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني كان كرمل بيت لحم قد أمسى مؤهّلاً لإيواء سجيناته، وإن لم تكتمل جميع دقائقه. وأذِن البطريرك للراهبات بزيارة مغارة المهَد، قبلَ أَن تُغلق دونهنّ أبواب الكرمل. ويتعذّر وَصف الفرح والخشوع اللذين غمرا نفس الأخت مريم، عندما جثت في ذلك المكان المقدّس الذي شهد مولد سيّدها وحبيبها، والذي فيه استمدّ أبواها من الأمّ السماويّة نعمة مجيئها إلى الوجود. ولمّا بارحت المغارة كانت أوفر صحّةً، وأشدّ همّةً، ومن المغارة مضى موكب الراهبات في تطوافٍ مهيبٍ إلى الكرمل الجديد، وفيما كان الجميع مأخوذين بروعة الاحتفال الذي اشترك فيه العديد من الشخصيّات البارزة، وكانت الأخت مريم تنعم بفرحٍ خاصٍّ، وُعدت به منذ سنواتٍ، ألا وهو رؤيتها للعديد من الخطأة يهتدون، ومن النفوس القابعة في المطهر تنعتق منه، وتمضي إلى جوار خالقها، وفي طليعتها نفس المطران ماري أفرام.

وبعد أيّامٍ رأت موكبًا سماويًّا يخطر في فَيْضٍ من الأنوار، وتكلّمت عن وردةٍ قدّمها لها أحدهم واستعادها آخر، فعبق من محبسها أرجٌ ذكيٌّ تضوّع في أرجاء الدير كلّه. وظلّ جسدها ومحبسها معطّرين به ساعاتٍ طويلةً.

ظهورٌ في قبرص

الراهبة، أخت القدّيس يوسف من راهبات الظهور، اشتهرت، في فلسطين بمحبّتها السخيّة، والخير العميم الذي أسدته. عام ١٨٧٦ كانت في قبرص تُعاني من حمّى مزمنةٍ وتتقيّأ الدم باستمرارٍ، ما دفع بها إلى حافّة الموت، فتأهّبت، في تقوًى واستسلامٍ، للمثول بين يدي خالقها، وكانت رئيستها، بين الفَينة والفَينة، تضع عند فمها مرآةً للتأكّد من أنّها ما زالت تتنفّس. وحينئذٍ ظهرت لها الأخت مريم يسوع المصلوب، قبيْل منتصف الليل، وقد ارتفعت قليلاً فوق الأرض، وبسطت ذراعيها على شكل صليبٍ، وقد لفّها نورٌ ساطعٌ أَضاء غرفة المحتضرة وكأنّه وضح النهار. وخليقٌ بنا أَن نستمع إلى ما عقب ذلك من فم أخت القدّيس يوسف نفسها:

"لم أكن قد رأيتها من قبل، قطّ. ولكنّني عرفت أنّها هي. كانت تتكلّم مع الله، وكنت في يقظةٍ تامّةٍ. دعوتها باسمها، فردَّت عليّ، قلت لها: يا مريم، اِسألي المولى إن كنتُ سأعيش. فخاطبت الربّ، وبعد ثوانٍ أجابتني: لا لن تموتي في ريعان الشباب، إذ عليك أداء خيرٍ جسيمٍ، ثمّ قلت لها: اِسأليه إن كنت سأثبت في دعوتي حتّى الموت. وعلى نحو ما حدث في المرّة السالفة، أجابتني بعد لحظاتٍ: أَجل، بفضل النعمة، وبالإجمال أدّت لي جوابًا على كلّ أسئلتي بخصوص نفسي. ثمّ توارت، وكلّ ما أعلنته لي قد تَحقّق فعلاً.

"وقد تعافيت منذ تلك اللحظة. وفي السنة التالية كنت قد قويت على تجشّم عناء السفر من قبرص إلى يافا. وإذا بكرمليّات بيت لحم يمررن بيافا، في طريقهنّ إلى الناصرة. وكم كانت سعادتي بالغةً، إذ تعرّفت الأخت مريم، على نحو ما شاهدتها في قبرص. إنّ الله شاهدٌ على ما أقول. فأنا إنّما أكتب هذا تمجيدًا له. ولدى عودتها من الناصرة، قالت لي: ستسبقننا، أنتنّ، إلى الناصرة. ثمّ أردفت: إنّ القدّيس يوسف يحبّ جمعيّتكن حبًّا جمًّا. وقالت لي أَيضاً: لن تريني بعد الآن". وباحت لي عن فترة العيش القصيرة المتبقّية لها، كما أعلنت لي عن موتها الوشيك، وعن الشهر الذي ستلقى فيه حتفها...

"إنّني أَشهد أَمام الله، وفقط في سبيل مجده الأعظم، كما سأشهد ساعة موتي، أنّ الأمور قد جرت على هذا النحو".

توغلٌ في الله وفي الصليب

وانقضى عام ١٨٧٧ على نفس المنوال من الاحتضار النفسيّ، يزيده تبريحًا شعورٌ مضنٍ ومُؤرّقٌ بفداحة خطاياها. وبقدر ما كانت تدنو من أجَلِها كان إبليس يحاول تشديد هجماته عليها، علّه يدفع بها إلى هُوى اليأس. إلاّ أنّ الله كان يقيها شرّه، ويسكب عليها آلاءه ورؤاه، ولكنّه يحجب عنها الشعور بالعزاء، لأنَّه كان حريصًا على تمثّلها بالفادي الإلهيّ، وعلى انتهائها إليه مسمّرةً على الصليب.

وقد جاء في سجلاّت كرمل بيت لحم، أنّها، في الثالث والعشرين من آذار ١٨٧٧، كانت على تلك الحال من التمزّق، فضلاً عن غرقها في لجّةٍ من الانكسار والخِزي، بسبب سَوْرة غضبٍ استبدّت بها، ورأت نفسها، في إثرها غير جديرةٍ بالاقتراب من الأسرار المقدّسة، وعندئذٍ انتابها انخطافٌ تقلّبت فيه بين حزنٍ وابتهاجٍ؛ وقد هتفت جذلى: "لقد رأيت إلهي! لقد رأيت إلهي. لقد قال لي الملاك: أيّتها الابنة، لمَ تهجرين يسوع؟ في السماء لن يتهيّأ لك احتواء خالقك. فلمَ تدَعين الخوف يحول دون تلقّي إلهك؟...".

وآنذاك قرع الجرس مؤذنًا بحلول موعد القدّاس، فأُوعز إلى الأخت مريم بارتداء ملابسها، إن هي كانت راغبةً في تلقّي يسوع. وإذا بها تقفز من سريرها، في غلالاتها الداخليّة، وتهرع مسرعة إلى المصلّى، ملتمسةً القربان بلجاجةٍ، وداعيةً يسوع بأعلى صوتها. ولحقوا بها، وألبسوها ثيابها، قسرًا، في بعض عناءٍ، فما كانت تهتف: ""إنّني عاريةٌ، عليّ المضيّ إلى يسوع عاريةً تمامًا". وكان لا بدّ من إعطائها القربان، منذ مطلع القدّاس ثمّ أعيدت إلى سريرها، حيث رقدت؟ وعندما أَفاقت، سألت إن كان موعد القدّاس قد أزف، وحين علمت بأنّه قد فات، عاتبت أخواتها برقّةٍ لإحجامهنّ عن إيقاظها من أَجل الاشتراك بالتناول.

ويوم الجمعة العظيمة، في الثلاثين من آذار ١٨٧٧، واكبت يسوع في كلّ خطوةٍ من خطوات آلامه، وقد صرّحت بأنّها قد رافقته في كلّ مرحلةٍ، مرافقةً حسّيّةً، في العشاء الأخير، وفي بستان الزيتون، وعندما قُبض عليه، وكُبّل بالقيود، وفي السجن. وقد صرّحت بأنّها لم تشعر، يومًا، باتّحادها الوثيق بالله، كما شعرت يومذاك، إذ إنّها، في السنوات السابقة، كانت، أبدًا، في انخطافٍ، طوال أسبوع الآلام.

وفي تلك السنة لم تنزف سِمَاتها، ولكنّها كانت تسبّب لها أوجاعًا مضنيةً. وكان خوفها من إِهانة الله يحملها على الابتهال المتواصلِ أَن يجتذبها إِليه، تفاديًا للسقوط في الخطيئة.

وقد سلخت يوم الرابع من أيار ١٨٧٧ كلّه، في انجذابٍ، وفي المساء طفقت تقول: "**إنّ قلبي يذوب، لم يعد لي قلبٌ، فقد ذاب قلبي. إنّ جميع حواسّي مصوّبةٌ نحو الله. كلّ شيءٍ يذوب في الله. سأرى إلهي. إنّني مثل ولدٍ يخرج من مزبلةٍ تغشاه الأقذار والقروح، في عُريٍ تامٍّ، ويرتمي عند أقدام يسوع، عند أقدام رحمته. سأقول له: في ملكوتك منازل كثيرةٌ، أقمني في أيّ منزلٍ تشاء، على أن أحبّك إلى الأبد**".

وكان من الواضح أنّها قد شرعت تعيش في الآخرة، أكثر من عيشها على الأرض. كانت تؤنس أنّ انعتاقها بات قريبًا، وتصبو بكلّ طاقاتها إلى السماء، ولا تني تردّد، في دالّةٍ على الله مذهلة: "**عجّل، يا ربّ، ساعة رحيلي. إنّ بقائي على الأرض يُسئمني، إنّني أُحاكي ولدًا فقد أباه، وراح يجري بحثًا عنه. إنّك طيّبٌ يا إلهي، ولكنّك قاسٍ أيضاً**. آه! **لو كنت، أنا، يسوع، وكنت أنت الأخت مريم يسوع المصلوب، لما تركتك معنًى طوال هذا الوقت. إنّني مثل عصفورٍ سجينٍ في قفصه. افتحْ ليَ الباب، كي أنطلق نحوك!**"

وفي انخطافها، كانت تعبّر عن الصراع الناشب بين النفس المتطلّعة إلى الانعتاق، وسجن جسدها، وتبتهل إلى الله أن يشرع لها باب ذلك السجن؛ وقد تواترت انخطافاتها على نحو ما كانت في پو، ولكنّها لم تكن تحول دون قيامها بمهامّها اليومية في همّةٍ وسخاء، بحيث كان يتعذّر على من يراها تعمل، تخيّل استشهادها النفسيّ، وأوار تعطّشها إلى الأبديّة؟ بل إِنّها، في أَثناء الفُسَح، وهي غالبًا مختطفةٌ، كانت تجد من الكلمات العذبة ما تروّح به عن صدور أَخواتها، وتُنفِذ إليهنّ العِبرة في إِطارٍ من الظَرف.

وقد ورد في سجلاّت الكرمل أنّها كثيرًا ما شوهدت مختطفةً في المطبخ، أثناء إِعدادها الطعام للجمعيّة، فتنشد التراتيل مع سكّان السماء، وهي تنقر الإِيقاع على القِدر أو المِقلاة، وتطهي، وتقلي، وتقلّب الطعام، وتنضجه على أكمل وجهٍ، فيما

أَبصارها وذهنها تسرح في عالمٍ آخر. ولطالما لوحظت، وهي تعود من انخطافها، وهي خلف موقدها، فترسم على نفسها إِشارة صليبٍ عريضةً، على حدّ ما تفعل كلّما ثابت من ارتحالٍ إِلى العالم العُلويّ، وكانت أَخواتها، في مثل تلك الأحوال، حريصاتٍ على التسلّل والتواري، تفاديًا لإِشعارها بأنهنّ قد رأينها مختطفةً، كي لا يسبّبنَ لها الحرج.

وأَثناء انخطافها، غالبًا ما كانت تُسدي لأخواتها النُصح، في لغةٍ مصوّرةٍ تذكّر بأمثال يسوع. فذات يومٍ، بعد أن أسهبت في الحديث عن الألم والطاعة، أردفت: "**كنّ كالنحلات، اجتنين العسل حيثما وجدتنّه، ثمّ اختبئن في الخليّة، وستجدنَ كلّ شيءٍ في نهاية المطاف، هناك من العسل في الأشواك، أكثر ممّا منه في الزهور.**

"**إذا ما تعرضتنّ لتجربةٍ، أينما كنتنّ، اِركعن أمام الله، وقلنَ: يا ربّ، إنّني أنبذ إبليس وأعماله، ولا أبتغي سوى روحك القدوس... وسترينَ أنكنّ، إن كنتنّ وفيّاتٍ لهذه الأقوال ستَنتَصِرنَ أبدًا... هذه الكلمات هي كالبارود والمدفع في التصدّي للعدوّ...**".

وتروي إحدى الراهبات أنّها شاهدتها مختطفةً، في ٣١ تموز ١٨٧٧، وهي تغسل أمتعة الدير، وقد تألّق محيّاها دليلاً على ارتحالها إلى عالم السماء، وكانت ترى الأقمشة تزداد بياضاً، بين يديها، دقيقةً فدقيقةً، على نحوٍ جليٍّ.

وفي تلك الفترة، أَيضاً، رأت، في انخطافٍ، سيل معاصي البشر الجارف، وما يتهدّد العالم، بسبب ذلك، من ويلاتٍ، فابتهلت، في ألمٍ بالغٍ:

"**فليَلنْ قلبك، يا ربّ! أصغِ، يا الله، إلى التأوّهات والصيحات، وانظر إلى الكوارث. حسبك، يا ربّ، توقّف، ولَيحرّك الحنان أحشاءك. إنّني أعلم أنّ قلبك لا يوافقك على ضرباتك لنا، ولكنّ عدلك هو الأقوى. كفى، يا ربّ، أشفق علينا. إنّ قلبك عطوفٌ إلى ما لا نهاية، ولكنّ عدلك أقسى من الجحيم. لا تعاملنا وِفْق عدلك، إذ لا قِبَل لمعاصينا على المثول أمام عدلك. إنْ كنت ستديننا حسب عدلك، فكم سنوغل في أغوار الجحيم، أنا وأخواتي. يا ربّ إِن شئت أن تحكم بمقتضى العدل، فليس من عادلٍ سواك. ولأنّك عادلٌ، يا إلهي، عاملنا بموجب رحمتك، ولتستفزّ صيحات أخواتي حنانك**".

إبنة الكنيسة البارّة

وخليقٌ بالملاحظة أَنّ الأخت مريم يسوع المصلوب كانت كَلِفةً بالكنيسة المقدّسة، تحبّها بكلّ جوارحها، وتتألّم لكلّ إهانةٍ تلحق بتلك الأمّ الفائقة. وكـان حبّها للأب الأقدس، البابا بيوس التاسع، يتعاظم يومًا فيومًا، بحيث أُعطيَ لها أن تعيش معه أيّامه الأَخيرة، وهي على آلاف الكيلومترات من البُعد عنه.

وإذ كانت تراه، يومًا، في انخطافها، تحوّلت ملامح وجهها، بحيث باتت تحـاكي قسمات وجهه محاكاةً مذهلةً. فهتفت واحدةٌ من الراهبات الموجودات: "كم هي تـشبه الأب الأقدس!" فردّت عليها: "**ألا يتعيّن أَن يشبه الابن أباه؟**".

ومنذ مطلع كانون الأوّل ١٨٧٧ شرعت تقول:

"**لقد رأيت ملاكين يُعدّان للأب الأقدس سريرًا... وقد رأيتـه مـرارًا، وكانـت السيّدة العذراء تمسك فوق رأسه إكليلاً، لا يزال ينقصه وردةٌ في مقدّمتـه، ووردةٌ صغيرةٌ أُخرى**".

وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٨٧٨ قالت عنه: "**إنّه يهمّ بالرحيـل. جمهرةٌ من العذارى، يتقدّمهنّ الربّ ستقدم لاصطحاب أبي. لقد باركني على جبيني بالإصبع التي بها يمسك يسوع. كم أنا سعيدةٌ بأبي. الطيور تغرّد، والأرض ترتعش والسماء أيضاً... عندما تكون نفسٌ وفيّةً، كم يعمّ الحبور!**".

وفي السابع والعشرين من الشهر نفسه، بعثت برسالةٍ إلى بطريرك القدس جـاء فيها عن البابا بيوس التاسع: "**لقد رأيت أنّ أبانا المحبوب، البابـا بيـوس التاسـع، سيرحل قريبًا، فقد اكتمل إكليله. لبضعة أيّامٍ خلت، كنت رأيت أَنّ ذلك الإكليل ما زال يفتقر إلى وردةٍ، ولكنّي الآن رأيت الإكليل، وقد اكتمل، والعـذراء تُمـسكه بيـديها متأهّبةً لتتويج هامته به.**

"**ورأيت أَيضاً ما يشبه موكبًا يستعدّ لاصـطحابه؛ وأرى الأب الأقـدس وكأنّـه طفلٌ، أو قربانةٌ، وبالإجمال على شكلٍ لا أستطيع وصفه. لقد رسم إشـارة صـليبٍ على جبيني وقال لي: "يا ابنتي أباركِك. لست أدري إنْ كنتُ أراكِ حقيقـةً، أو فـي هذياني، ولكنّني مريضٌ، صلّي من أَجلي". وقد جال في خَلَدي، وأنا أرى التطـواف**

الذي كان يتأهّب لمواكبته: بل أنت من يتوجّب عليه الصلاة من أَجلي. ولكنّي لم أقلها، وسألت الربّ: "أَتِح له مشاهدة انتصار الكنيسة "فأجابني يسوع: "لقد رأى فجر النصر". قلت: "كيف ذلك، يا ربّ، وهو لم يشهد استرداد حقوقه؟" وردّ يسوع: "ألم يرَ خِرافه تعود إلى الحظيرة؟".

وفي الثالث من شباط ١٨٧٨، قالت الأخت مريم: "**رأيت السيّدة العذراء تمسك بين يديها أَبانا الحبيب، البابا بيوس التاسع**". وبعد أيّامٍ أربعةٍ، كان ذلك الحبر الأعظم يمثل بين يدي ربّه، وقد توفّي وفاة قدّيسٍ عظيمٍ.

وفي السابع عشر من شباط رأته ممجّدًا، وهتفت في اندفاعٍ: "**إنّ أَبي يقول لي: "وَداعًا يا ابنتي، وإلى لقاءٍ قريبٍ**". ثمّ أَضافت: "**عندما توفّي أبي، لاحَ لي أنّ السماء والأرض كانتا في نشوة الظفر، وتودّان مواكبته. ومع ذلك، كان له جسدٌ مثل جسدنا، وهو يقول أَنّ لا شيء يمنعكنّ من أن تُصبحنَ في مثل قداسته**".

وعلى نحو ما رأت وفاة بيوس التاسع، أُعطي لها أَن ترى انتخاب خلفه الطيّب الذكر لاون الثالث عشر، فقد قالت في الثامن عشر من شباط:

"**رأيت الحبر الأعظم الذي اصطفاه الله. إنّ الربّ يضع يديه على رأسه؛ لقد اختاره شديد التواضع. أمّا هو فيصلّي ويبحث بين الكرادلة عمّن هو أعمق تواضعًا لينتخبه، في حين أنّ الله قد اختاره هو، لأنّه الأكثر تواضعًا. إنّه يبدو وكأنّه يدفع بيديه يدي الربّ، أو هو بالأحرى يدفع الكرامة التي تُسبَغ عليه، ولكنّه بقدر ما يدفعها، يشدّ الله بيديه على رأسه**".

وقالت عنه أَيضاً، في الأيّام التالية: "**لقد اختير خليفة أَبي، وقد كرّسه الله. إنّ الله يحبّه، وهو يحبّ الله. سيكون لنا أبٌ حبيبٌ متواضعٌ يفعمه روح التجرّد. يدع الأمجاد لسواه، ولا يحفل بنفسه. إنّه كَلِفٌ بالفقر. لقد كرّسه الله. وهو يقول: "أنا لست أهلاً" ويسوع يقول: "سأكون معك" يا للسعادة، سيكون لنا أبٌ طيّبٌ!**".

وفي الرابع والعشرين من شباط، أُمرت الأخت مريم بإبلاغ بطريرك القدس الرسالة التالية: "**لثمانية أيّامٍ خلت، رأيت الأب الأقدس الجديد. رأيته في مكانٍ منعزلٍ يصلّي، إنّه يشعر أنّ الربّ يعدّه ليكون بابا، ولكنّه يتوسّل إلى الربّ أن يعفيه من هذا الصليب، ويشير للربّ إلى آخرين يراهم أوفر منه تواضعًا. ومع ذلك، يبدو لي**

أنّه، هو، أكثرهم تواضعًا واستئهالاً. إنّه يظنّ أنّ آخر سيكون أفضل منـــه كفــاءةً، وأحسن عملاً. ولكنّ الربّ يضع يديه على رأسه قائلاً: أكرّســك الآن وإلــى الأبــد راعيًا لقطيعي.

"وفي هذه الليلة، رأيت الحبر الأعظم جاثيًا، ويدا الله على رأسه، وهو يقــول، (باللاتينيّة): "نجمةٌ معكوسةٌ" (لقد كان شعار البابا لاون الثالث عشر نجمـــة تـــشع أنوارها من علُ إلى أسفل)... لم أدرك أنّ كان ذلك يمثّل اسمًا أو يعني شيئًا آخــر. وقد توارى الله، بعد التلفّظ بهذه الكلمات.

"ثمّ دنا القدّيس فرنسيس الأسّيزي ولثم جبينه في احترامٍ.

"وجاء القدّيس دومينيك، وقبّل كتفه اليمنى،

"وجاء القدّيس إينياس وقبّل كتفيه كلتيهمان

"وقدِم القدّيس أغوسطينوس وقبّله على رأسه فوق الجبين،

"ورأيت القدّيس جيروم يلثم قلبه، وبعده، رأيت أسقف القدس الأوّل الذي سفك دمه (وقد نسيت اسمه) يحيّيه جَذِلاً

"بعدئذٍ رأيت جمهرةً من القدّيسين والأطفال قدِموا يحيّونه،

"وأخيرًا جاءت السيّدة العذراء، وحوّطته بذراعيها، وضمّته إلى قلبها.

"لست أدري ما سيكون هذا البابا، ولست أقوى على وصــفه، ولكــنْ يَــسعني القول إنّني سعيدةٌ بأن أكون تحت حكمه...".

وقد توالت، في تلك الفترة رؤاها لأمورٍ حدثت أو ستحدث لرجال الكنيسة فـــي أماكن نائيةٍ من العالم، ولنفوسٍ غادرت هذه الدنيا واستقرّت في الـــسماء، أو لبثـــت برهةً في المطهر؛ كما أنّها باتت، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، تخترق حجب الظواهر، وتقرأ كوامن القلوب.

مؤسِّسةٌ لا تكلّ

إنّ إحساس الأخت مريم بأَنّ أيّامها على الأرض تدنو من نهايتها، قد حملها على مضاعفة الجهود في سبيل تحقيق مشروعين كانت ترمي، من خلالهما، إلى تـــوفير خدماتٍ لدير الكرمل، ولموطنها وموطن يسوع الأرضي، على نحوٍ خاصٍّ.

فبعد أن قام الكرمل في المدينة التي رأى يسوع فيها النور، بيت لحم، كان حلمها الآخر هو إِقامة كرمل ثانٍ في الناصرة، القرية التي قضى فيها يسوع، مع أمّه، معظم حياته على الأَرض. وكانت قد شرعت بالسعي إلى ذلك مذ وطئت قدماها الأرض المقدّسة، وتذرّعت إلى هذا الهدف بالإِلحاح والإِقناع والحيلة البريئة. فكانت لا تني تردِّد على مسامع بطريرك القدس أنّ اضطلاعه بتأسيس كرمل الناصرة، سيكون كفيلاً بالتكفير عن مقاومته لمشروع كرمل بيت لحم، مدى سنواتٍ، قبل أن تفرضه عليه روما. وكانت تلك الحجّة العفويّة تنتزع من الأسقف الجليل بسمة إِعجابٍ، ولكنّها، في الواقع، نفذت إلى قناعته، ودفعته إلى انتهاج الخطوات التنفيذية من غير تلكّؤٍ، فكتب إلى روما مستأذنًا، وما إن ورده الردّ الإِيجابيّ، حتّى أوكل إلى بعض معاونيه شراء الأرض الملائمة. ثمّ أذن لرئيسة كرمل بيت لحم، ولبعض الراهبات، ومنهنّ الأخت مريم يسوع المصلوب، بزيارة الموقع الذي سيُشاد عليه ديرهنّ في الناصرة.

وقبل سفر الراهبات إلى الناصرة تنبّأت الأخت مريم بأنّ الربّ سيريها، في أثناء تلك الرحلة، المكان الذي فتح فيه يسوع عيون اثنين من تلاميذه، على حقيقة قيامته، في عمّاوص.

وانطلق الموكب بالعَرَبات، في السابع من أيّار، ميمّمًا شطر يافا، وتوقّف للصلاة في عين كارم، وعند بلوغ محطّة لطرون – عمّاوص، هبطت الأخت مريم، وكأنّ قوّةً خفيّةً تجتذبها، فراحت تجري، وهي مختطفةٌ، فوق الصخور، وعبر الحقول المحروثة، ورفيقاتها يحثُثْن الخُطى من أجل اللحاق بها، إلى أَن بلغت قمّة هضبةٍ، حيث برزت، بين الأعشاب والأشواك، بعض حجارٍ منحوتةٍ. وهتفت، وهي بالغة الذهول والتأثّر:

"هذا هو المكان الذي كسر فيه ربّنا الخبز مع تلاميذه". وقد اشترت الآنسة بيرت دارتيكو ذلك المكان، الذي اكتشف فيه علماء آثار، من بعدُ، أطلال ثلاث كنائس متراكمةٍ، كانت قد أُشيدت، على التوالي، تكريمًا لمكانٍ أَثبت فيه الربّ قيامته، وخلّده الإِنجيل.

وقد حفلت تلك الرحلة بأحداثٍ طريفةٍ، تنهض جميعها شاهدًا على ما خُصّت به الأخت مريم من مزايا وكراماتٍ إلهيّةٍ.

فقد أبحرت الراهبات من يافا إلى حيفا، وحرصنَ على زيارة جبل الكرمل الذي منه تستمدّ جمعيهنّ شعارها ورمزها. وكانت، في ديرٍ على ذلك الجبل، كـلابٌ ذات وبرٍ مسترسلٍ، يستخدمها الرهبان للحراسة، وتُرهب كلّ من تسوّل له نفسه باعتـداءٍ أو سلبٍ. ولكنّ تلك الكلاب توسّمت في الكرمليّات أَمارات الصداقة، وتحلّقت حـول الأخت مريم تشمّها، وتداعبها، ثمّ، بعد رحيل الراهبات واكبتهنّ مسافةً طويلةً، حتّى بات من العسير قسرها على هجرهنّ والعودة.

وأَصابت الكرمليّات بعض راحةٍ، في دير للراهبات في شفا عمرو. وكانت هناك راهبةٌ ظلّت سنين طويلةً تعيش مع ذكريات مرور "القدّيسة" بديرهنّ، وتأثيرها البليغ في نفسها. وحريٌّ بنا أن نستمع إلى اعترافها:

"لدى وصول الأخت مريم يسوع المصلوب خطر لي أن أكلّمها ولكنّي لم أجرؤ. أيّة نظراتٍ كانت تحدّق إليّ بها! كأنّها كانت تقرأ في نفسي. أخيرًا اهتبلـتُ فرصـة وجودها بمفردها، في هذا المكان، فدنوت منها وقلت: "أيّتها الأخت مريم، إن ساورتْ أحدًا رغبةٌ في الذهاب..." ولم تتح لي فرصة إتمام كلامي، بـل حـدجتني بعينـين غاضبتين وأجابت: "يا أختي، أنت هنا في مكانٍ يلائمك. إنّك في مكانٍ يلائمك تمامًا". لقد كشفتْ كوامن نفسي، وفي الحال زالت همومي. والآن، بعد مضيّ أربعين سـنةً، أتوسّل إليها أَن تُعيد لي الشباب علّني أستطيع مواصلة العمل".

أَربعة كيلومتراتٍ كانت تفصل شفا عمرو عن عبلّين. وكانـت فرصـةً فريـدةً للأخت مريم كي تودّع مسقط رأسها، ومناسبةً سانحةً لأخواتها كي يـزرن المكـان الذي فيه رأت أختهنّ المختارة النور. وفي الطريق استقى الموكب ماءً من نبعٍ يُدعى "عين العافية" قالت الأخت مريم إنّ العائلة المقدّسة قد توقّفت عنده مرَّةً للاستقاء.

وعند مدخل قرية عبلّين، كان أوّل من طالعهنّ هو خوري القرية، أبونا يعقوب، في هندامٍ مبتذَلٍ، وفي زيّ الفلاّحين الرثّ، مكشوف الصدر، وهو لا يحتفظ بما يشير إلى كهنوته إلاّ بقلنسوة تلتمع قذارةً، ويمكن استخراج كوبٍ من الزيت والدّهن منهـا. فانسلخت الأخت مريم عن رفيقاتها، وهرولت نحوه، وجثت أَمامـه، ولثمـت يـده، ملتمسةً بركته، ومقيمةً الدليل على إِيمانها الراسخ الذي يزري بكلّ مظهـرٍ، وعلـى إِجلالها العميق لكلّ من يمثّل يسوع على الأرض.

وكم كان تأثّرها بالغًا، عندما زارت مرابع طفولتها، وحديقة منزل عمّها، حيث تنامى إليها الهاتف الذي قاد كلّ حياتها، منذ أربعٍ وعشرين سنةً: "كلّ شيءٍ يمرّ. إن أنتِ أردتِ أن تهبيني قلبك، فسأبقى لك الى الأبد". لقد سمعت النداء، فوهبت قلبها وإرادتها، وظفرت بأغلى ما يستطيع أن يظفر به إنسانٌ على الأرض، ظفرت بالله.

وسعادةٌ كبرى كانت أيضاً تنتظر الرّكْب في مغارة البشارة بالنّاصرة، حيث تحقّق أسمى أسرار الكون على الإطلاق، عندما تجسّد كلمة الله، في أحشاء عذراء، لخلاص العالم.

وفي تلك الأرض التي قدّسها الإله المتجسّد، كانت الآنسة دارتيكو قد اشترت قطعة أرضٍ على سَفْح هضبةٍ، تحقيقًا لأمنيّةٍ غاليةٍ من الأماني التي ألهمها الروح لأمته المختارة، مريم يسوع المصلوب. وقد تلكّأ اكتمال المشروع، في أعقاب وفاة ملهمته، إلاّ أنّ كرملاً رائعًا ينتصب، ثمّة، منذ عام ١٩١٠، شاهدًا على مآثر ابنة عبلّين "العربيّة الصغيرة".

تأسيسٌ آخر عجيبٌ

في عام ١٨٣٥، كان كاهنٌ مفعمٌ بروح الله، هو الأب ميشيل جاريكوئتس، والذي أعلنه البابا بيوس الثاني عشر قدّيسًا، سنة ١٩٤٧، قد أسّس، في قرية بيترّام الفرنسيّة القريبة من لورد، جمعيّة كهنة قلب يسوع الأقدس، التي تستهدف التبشير في الأرياف، وتوفير التربية الدينيّة للأحداث. وكانت هذه الجمعيّة قد افتتحت لها مقرًّا في پو تولّى إسداء الخدمات الروحيّة لراهبات الكرمل هناك.

غير أنّ خلافًا بين أسقف بايّون الذي كان يرغب في تحويل أعضاء تلك الجمعيّة إلى كهنةٍ رعويّين تحت سلطته، والمؤسّس القدّيس الذي كان يطمح لجمعيّته باستقلالٍ كفيلٍ بتوفير حرّية إشعاعها، قد هدّد بقصف تلك الغرسة قبل أن تترسّخ جذورها. وجاءت إلى الأخت مريم رسالةٌ من الله توكل إليها حماية تلك النبتة المباركة؛ فأخذت تلتمس، في إلحافٍ ولجاجةٍ، من المطران لاكروا، الذي اشتهر بتأنّيه المفرط، وتلكّئه في اتّخاذ القرارات الخطيرة أن يرسل إلى روما، أنظمة الجمعيّة مشفوعةً بموافقته عليها.

وفي الرابع من أيّار ١٨٧٥، في أعقاب إحدى رؤاها، أعلنت أنّ السيّدة العذراء

ترغب في شخوص الأبوين بورداشار واسترات إلى روما لهذه الغاية؛ ويمّم الكاهنان المدينة المقدّسة في الثامن عشر من الشهر نفسه، وقد يسّرت العناية الإلهيّة، على نحوٍ عجيبٍ، وفي مهلةٍ قصيرةٍ، نادرة المثال، تصديق أنظمة الجمعيّة، وصدرت البراءة البابويّة بشأنها في الثلاثين من تمّوز ١٨٧٥. وفيما كانت الأخت مريم تعايش تلك الأَحداث عن بعدٍ، كان كهنة الجمعيّة ينظرون إليها بحقٍّ، على أنّها مؤسّسة ديرهم الثانية.

بَيدَ أَنّ تطلّعاتها لم تكن تتوقّف عند هذا الإنجاز، بل كانت تصبو إلى أن يكون لتلك الجمعيّة مركزٌ في بيت لحم، يوفّر لكرمله، ولمواطنيها في الأرض المقدّسة، الخدمات الروحيّة. وبدا تحقيق هذا المطلب أعسر منالاً من الأوّل، لأسبابٍ ماليّةٍ أفلحت الأخت مريم في تذليلها بعد أَن أَغدقت "أُخيّتها"، الآنسة دارتيكو، سخاءها بغير حساب، ولأسبابٍ ناجمةٍ عن تضارب النفوذ، إذ إنّ خدمة الأراضي المقدّسة الروحيّة كانت تستأثر بها جمعيّةُ الفرنسيسكانيّين، وكأنّها امتيازٌ موقوفٌ عليهم، ممّا حمل مجمع نشر الإيمان على رفض تأسيس مركزٍ لجمعيّةٍ أُخرى، رفضاً حازمًا.

ولكنّ الأخت مريم يسوع المصلوب، على غرار عظماء القدّيسين، لم تنثنِ يومًا أمام رفضٍ، ولم يُثبّط فشلٌ عزيمتها قطّ. فتوجّهت إلى روما برسائل عديدةٍ لم تلاقِ سوى الإِعراض والإِهمال، وأخيرًا أملت رسالةً إلى الحبر الأعظم نفسه، ومهرها بطريرك القدس بخاتمه وتوقيعه إشعارًا بتأييده لفحواها. ولكنّ تلك الرسالة أُحيلت إلى أمين سرّ مجمع نشر الإِيمان، الذي كان قد سبق له أَن رفض الطلب، فاستشاط غيظًا، وأهملها سبعة أشهرٍ قبل أَن يبلغ مجدّدًا رفضه القاطع.

وكانت الأخت مريم قد انتهت إلى جوار ربّها، لدى ورود هذا الرفض الجديد؛ وقد علّق كرمل بيت لحم عليه بهذه العبارة التي تنطوي على الكثير من الطرف والإِيمان: "لا بدّ أنّها قد ابتسمت في عليائها". ابتسمت لأنّها كانت قد أمست في عالمٍ لا تخفى فيه حقيقةٌ، وحيث ترى بجلاءٍ كيف تهزأ العناية الإلهيّة بالإِرادات البشريّة التي تدّعي التصدّي لها، ولو كانت رفيعة المقام.

ففي شهر تمّوز من عام ١٨٧٨، بضعة أيّامٍ قبل ارتحالها عن هذه الدنيا، كانت الأخت مريم قد دفعت الآنسة دارتيكو بلجاجةٍ إِلى مقابلة الحبر الأعظم بنفسها، مؤكّدةً

لها أنّها ستعود من الـڤـاتيكان بالموافقة على تأسيس فرع بيترّام في بيت لحم. وقالت، وهي تحتضر، للأب شيرو، أحد أعضاء تلك الجمعيّة، ومرشد كرمل بيت لحم، في ثقة من يعاينون الله: "**لقد تمّ الأمر في السماء، وإذن فهو سيتمّ على الأرض أيضاً**".

وهكذا كان. فإثر مقابلته للآنسة دارتيكو، استفسر البابا لاون الثالث عشر، أَمينَ سرّ مجمع نشر الإِيمان.

- "ما هو قرار مجمعكم؟"
- "الإجماع على الرفض"
- "وأنَا أطلب اُن تقوم هذه المؤسّسة"، مضيفًا أَنّ أرض فلسطين وسوريا تتّسعان لعمل الكثيرين من حصّادي الربّ.

وقد أَثبتتِ الأيّام صواب رأيه. وقد كان المُخَطَّط الذي كلّف الأب شيرو أَحد المهندسين الفرنسيّين بوضعه قد أَثار عاصفة اعتراضٍ من أولئك الذين اعتبروه ذا حَجمٍ مفرطٍ يتجاوز، إلى حدٍّ بعيدٍ، مقتضيات ثلاثة كهنةٍ وأخٍ مساعدٍ، على حدّ ما كان مرسومًا له، في بدايته. غير أَنّ الأخت مريم شجّعته على المضيّ قدمًا في مشروعه، من غير إنقاصٍ. وما هي إلاّ سنواتٌ معدوداتٌ حتّى بات ذلك الدير عاجزًا عن استيعاب من توافدوا إِليه كثُرًا.

غروب ربيعٍ خاطف

من الطريف ذكره أَنّ مرشد كرمل بيت لحم قد ألمح في حديثٍ له مع رئيسة ذلك الدير، في شهر آب ١٨٧٨، إلى أَنّ نبوءات الأخت مريم يسوع المصلوب قد تحقّقت جميعها، غير أنّ ما يتعلّق بموتها يبدو وكأنّه نبوءةٌ كاذبةٌ، فهي قد تنبّأت أَنّ مكوثها في بيت لحم لن يتعدّى السنوات الثلاث، وها إِنّ هذه الأعوام قد أشفت على الغرق في هوّة الأبديّة، والأخت مريم ما زالت ممتلئةً عافيةً، وتشرف، في اندفاعٍ وهمّةٍ، على إتمام بناء الدير.

غير أنّ الأصوام، والتقشّف المتّصل، والنَصَب، والجهد الدائب، كانت، مجتمعةً، قد نالت من صحّتها نيلاً ذريعًا. وتشهد ممرّضة الدير أنّ ساقَيها كثيرًا ما كانتا

تتورّمان في تلك الحقبة، وعندما كانت تريهما إيّاها، كانت تضغط عليهما بإصبعها قائلةً: "**هذه هي علامة الأجل القريب**".

كان يراود الأخت مريم يسوع المصلوب شعورٌ واثقٌ وطيدٌ بأنّ شمس حياتها تلامس أفق المغيب، كما سيطرت على أخواتها الخشية من فقدانهنّ الوشيك لكنزٍ ثمينٍ.

وكانت السماء تعدّها للشخوص إليها عبر رؤًى ورموزٍ تهيّئ لها العبور إلى العالم الآخر عبورًا رقيقًا، فتُسمِعُها الملائكة، في انخطافها، أنغام السماء الأخّاذة، وتلمح إليها السيّدة العذراء بأنّ الأسطر الأخيرة تدوّن في كتابها، وأنّ السماء باتت في انتظارها؛ ويسوع يلوّح لها بالمكافآت المعدّة للعذارى الحكيمات، على حدّ ما عبّرت عنه في إحدى رؤاها:

"**على جبين العذراء قد دوّن اسم الحمل. جسد العذراء وجسد الحمل أصبحا واحدًا... إن كرّمتم العذراء، كرّمتم الحمل. العذراء تُنشِد، أبدًا، وتقتفي أثر الحمل، ولا يعرف الكلل إلى نفسها سبيلاً. منها يتضوّع العطر، بقدر ما هي استحقّت على الأرض...**

"**أرى الحمل، والعذارى في إثره. لم أكن أتخيّل أنّهنّ، إلى هذا المدى، كثيراتٌ. ثمّة منهنّ عددٌ غزيرٌ... لكلٍّ منهنّ طيبٌ متميّزٌ، حسب الفضيلة التي طبعت سيرتها...**

"**العذارى، في إثر الحمل يرتّلن نشيدًا لا يقوى أحدٌ في الأرض على إنشاده. ليست العذراء هي عذراء الجسد فحسب، عذراء العفّة، بل هي، فوق ذلك، عذراء المحبّة. إنّ تلك التي تنتهك العفّة تسيء إلى ذاتها، أما التي تنتهك بكارة المحبّة فهي تجرح يسوع، بالإضافة إلى نفسها...**".

وكانت الرغبة في السماء تحتدم في حنايا الأخت مريم، وتصطبغ أحيانًا بالعنف والتوثّب، فتتوسّل إلى البشر والملائكة أن يلتمسوا لها الانعتاق من رِبقة الأرض والجسد، وتتعاقب عليها رؤية السماء المشرعة، والشعور الممضّ بوقر أَوزارها.

ففي مطلع كانون الثاني ١٨٧٨، هتفت، في انجذابٍ، وهي تتكلّم عن أَجلها الوشيك: "**لقد وعدني: قريبًا، قريبًا. لم يعد ينقصني سوى هكذا**". وأشارت بطرف

إصبعها إلى الزمن القصير المتبقّي؛ ثم هبّت ناهضةً، ونشبت أنظارها في كائنٍ غير مرئيٍّ، وأشادت: "**أجل، إنّه لنهارٌ سعيدٌ. أجل، لقد رأيته، وقد سطّرته دائمًا هنا**". وأشارت إلى قلبها؛ ثم استطردت: "**إنّ رؤية كلّ ذلك لرائعةٌ، ولكنّه أمرٌ عسيرٌ. وليس ثمّة من سقط بقدْر ما سقطتُ. إنّني أدهش كيف أنّني لم أتطاير شظايا، بحيث لا يبقى لي ذراعان ولا ساقان. لا، أنا لست أرفع رأسي، بل أطأطئه سحيقًا: ومع ذلك، فأنا أرغب في رفعه للتمكّن من رؤيتك، أيّها النهار الجميل**".

وكان الربّ يأذن لمشاعر الهوان هذه أَن تسحق أَمَته المختارة، لكي تصير إِليه وقد غمرها الصليب نقاءً؛ فكانت تتبدّى لها نقائص كلّ أعمالها مريعةً، وتظنّ نفسها أكثر الخلائق ذنوبًا، ويحطّمها الخوف من إِهانة الله، فتبتهل من الأعماق: "**لم أعد أطيق العيش، يا إِلهي، فاجذبني اليك**".

وكان يتجلّى لأَخواتها أَنّ ذلك المعدن الذي صهرهُ الصليب، فصفا من كلّ شائبةٍ، قد غدت السماء به أحقّ، ويترسّخ لديهنّ هذا الشعور وهُنَّ يسمعن الأخت مريم تعلن في حبورٍ عن قرب انعتاقها من منفاها الأرضي مردّدةً: "**سأرى إلهي... لا عن بُعدٍ، كما أراه الآن، ولكن في الواقع والحقيقة. سأرى إلهي حيًّا، وسأسمع صوته، وستمتلئ عظامي ولحمي فرحًا. وبعد الهوّة التي قبعت فيها، سأقيم في قصرٍ معه...**

"عندما سأراك، يا إلهي، كلّ حياةٍ فيّ ستتجدّد، وتستمدّ منك دفعًا جديدًا. يا إلهي، كم العالم أعمى عندما هو يخشى الموت... ذلك الموت السعيد. أيّها الموت المنقذ، أعدني إلى حبيبي... أجل، إنّك منقذٌ، تُعتق من السجن... سأخرج من الظلمات إلى وَضَح النهار. سأرى إلهي... الربّ قد وعدني...".

وفي الثاني من آب نمى إلى أسماعها هاتفٌ يقول: "سيرأف الله بكِ. فستُعانين أوجاعًا مبرّحةً، ولكنّها قصيرة الأمَد."

وفي الرابع من آب بعثت برسالتين إلى كلٍّ من رئيس آباء القلب الأقدس في بيترّام، والأب إِسترات تنبئهما بدنوّ أَجلها.

أمّا عن أَيّامها الأخيرة، وعن وفاتها، فلا أَفصح من التقرير البسيط والمجرّد الذي دوّنته، ساعةً فساعةً، مرشدتها وأمينة سرّها. فلنستقرِه:

"٢٢ آب ١٨٧٨؛ الأخت مريم يسوع المصلوب تتألّم كثيرًا. ومع ذلك فهي تتصرف إلى العمل، باذلةً جهودًا لا توصف وتضحيةً حريّةً بالإعجاب.

"لقد كانت أَحيانًا تقول لنا: إنّني أبذل ما بوسعي كي تسير الأمور بسرعةٍ، بحيث تنعمنَ، بعد موتي، بالاطمئنان والدعة".

"هذا الصباح كانت واهنة الجسم، إلاّ أنها كانت مستعدّةً لمضاعفة اليقظة والعناية وقد هوت مرّتين، في الحديقة.

"في نحو الساعة العاشرة، وهي ما برحت في الحديقة، تؤدّي بعض أعمال المحبّة، كانت تتسلّق سلّمًا متداعيًا، فسقطت منه، وتحطّمت ذراعها اليسرى. كان ذلك سقوطها الثالث. وقد وقعَت على الأصيص الذي فيه نَمَت، على نحوٍ عجيبٍ، نبتةٌ من ورقةٍ جافّةٍ، تأكيدًا من الربّ على تأسيس كرمل بيت لحم. ومنذ اللحظة الأولى، كانت آلام الأخت المسكينة مبرّحةً، وقد قالت لأمّنا الموقّرة: "أمّاه، هذا هو نذير الرحيل". ولراهباتٍ أخرياتٍ قالت: "**إنّني في الطريق إلى السماء. ستتحقّق كلّ أمنيات حياتي. إنّني ماضيةٌ إلى يسوع.**"

"لقد أُسديتْ لها جميع الخدمات الصحيّة التي تتعيّن في مثل ذلك الظرف.

"كانت، هي، تقدّم جميع أَوجاعها المُضنية عن نيّة الكنيسة، وكرمل پو، وجمعيّة بيترّام وجمعيّتنا، داعيةً أن يسير هذا الكرمل أَبدًا في حضور الله، وأيضاً من أجل اهتداء نفسٍ ضالّةٍ.

"٢٤ آب: منذ وقعت أختنا العزيزة، وضعها يستفحل سوءًا، وخصوصاً منذ الأمس. وهي مهدّدةٌ بالأكال (الغنغرينة).

"بكثيرٍ من العناء، ومزيدٍ من الآلام الشاملة، تمكّنت من تقبّل القربان، في غرفة التمريض، وهي صائمةٌ. وقد تضاعفت آلام صدرها وقلبها، وانتابتها أزمات اختناقٍ من الشدّة بحيث ذهلت عن ذراعها المسكينة التي تسبّب لها أوجاعًا مريعةً. إنّ عظامها محطّمةٌ في أماكن كثيرةٍ ما بين المِعصم والمرفق[1].

---

[1] لقد أدلت الأخت تيريز بالإيضاح التالي: "استدعي أحد المجبّرين لجبر كسر ذراعها، ولكنّه لم يفلح إلاّ في مضاعفة آلامها. ثم استُقدم الدكتور كارباتي من القدس. ولكن كانت الآكلة قد تفشّت بحيث غدا كلّ علاجٍ من غير طائلٍ...

"إِنّها تقدّم ذاتها لله، متأهّبةً لمعاناة كلّ ما يشاؤه لها من ألمٍ في هذه الحياة، علّه يرحمها في الآخرة. تلك كانت صلاتها المتواصلة، منذ عشرين يومًا على الأقلّ. ويبدو أَنَّ دعاءها، فيما يتعلّق بالألم قد استُجيب.

"٢٥ آب: وضع أختنا العزيزة قد تفاقم سوءًا منذ هذا الصباح. الطبيب الجرّاح الذي استقدمناه من القدس قد شخّص غنغرينةً غير مألوفةٍ، واسعة الانتشار، ولا يتوقّع لها من العيش، بعدُ، سوى يومٍ واحدٍ أو يومين على الأكثر. الوجوم يعمّ قلوبنا ووجوهنا، إذ إِنَّ حياة هذه الابنة العزيزة أغلى علينا جميعنا، وعلى كلٍّ منا، من حياتنا ذاتها. أمّا هي فتدرك حقيقة حالها، وتقيم على السكون والاستسلام لله.

"بعد الظهر عاد الأب جيدو الفرنسيسكاني، ومعرّفنا الاستثنائيّ، مصلوبَتَنا العزيزة، وسمع اعترافها، وحمل إليها الزاد الأخير. وكانت هي تتطلّع، في شوقٍ، إلى لحظةٍ تقبّل حبيبها، وتردّد: "**تعالَ، يا ربّ، يا ربّ يسوع، هلمّ**". كانت تتلقّى النعم والغفران، في كامل وعيها، غير ذاهلةٍ عن لفظةٍ واحدةٍ من الصلوات، وكانت ترسم بيسرٍ إِشارة الصليب.

"وما لبث أَن قدم غبطة البطريرك، الذي رغبت في رؤيته، وقد أَسبغ عليها، أَيضاً، النعم والبركات؛ وأعربت عن رغبتها في الظفر بمسحة الأموات، فوفّرها لها غبطته، وكان يعاونه كلٌّ من الأبوين جيدو وبيلّوني. ثم إنّها استغفرت الجمعيّة عن كلّ المتاعب والمُثل السيّئة التي قد تكون سبّبتها لنا. وكانت كلماتها من عمق التأثير، بحيث انفجرنا جميعنا بالبكاء.

"وسألها غبطته، في أعقاب الصلاة: "هل أنتِ الآن مستعدةٌ للرحيل؟".

- "أجل، أبت.
- "وهل أَنتِ مستسلمةٌ لإِرادة الله في الحياة والموت؟"
- "أجل، أبتِ"

"وبما أنّها كانت تُبدي رغبةً عارمةً، أو بالأحرى فرحًا دافقًا، بالموت، سألها

كانت تقاسي آلامًا ممضّةً فلا تشتكي... لم أشهدها تتأوّه مرةً واحدةً، بل احتملت آلامها المضنية طوال مرضها في ثباتٍ وصبرٍ بطوليّين. كان يلتهمها ظمأٌ مستعرٌ من جرّاء الحمّى. وكنت غالبًا ما أبلّل شفتيها بإسفنجةٍ، ولم ألحظ لديها أيّة بادرةٍ تنمّ عن ضيق الذرع أو القنوط".

غبطته إن هي سترضى بالحياة، إن كانت تلك مشيئة الله. فأجابت: "أجل، أبتِ. ولكنّها سرعان ما أردفت: "**موتٌ صالحٌ، موتٌ صالحٌ**".

"وأعربت لغبطته عن مدى سعادتها، إذ إنّها ما عادت تفتقر إلى شيءٍ. ثم شكرت له صنيعه، مؤكّدةً أنّها لن تنساه في الأَبديّة، وأنّها ستسأل الله أن يشدّد صحّته.

"وغادرها البطريرك، تغمرها النعم، وتنعم بسلامٍ عذبٍ.

"وبعد قليلٍ دخل النطاسيّ، فأعمل في ذراعها المِشرط والكيّ، علّه يطيل لنا بقاءها بضع ساعاتٍ. ولم تحسّ بشيءٍ، إذ إنّ الآكلة قد امتدّت إلى الجنب والمنكبين والعنق. لقد كانت تراقب كلّ حركات الجرّاح، في هدوءٍ، وكأنّه يعمل في خشبٍ. وشكرت له عنايته، وكرّرت ذلك الشكر، في ما بعد، قائلةً له بأنّ يسوع سيقابله بأحسن.

"أوّل الليل، بدا أنّ ألمها قد تضاءل. إلاّ أنّه عاد فاستفحل في نحو الحادية عشرة، وأخذ لسانها يتلعثم. واستدعي الأب بيلّوني معرّفنا، والأب شيرو، مرشدنا، اللذان شدّداها بكلمات رجاء. وقد سألاها إنْ كان ثمّة ما يسبّب لها ضيقًا، فقالت: "**لا، ليس لي على أَحدٍ شيءٌ. إنّني في سكينةٍ**" ثم قالت لهما: "**الآن، أنا عاجزةٌ عن الكلام، ولكنّني، في الآخرة، سأصلّي من أجلكما، ولن أَنسى أَحدًا**".

وقُبَيل قليلٍ كانت قد قالت: "**شكرًا، يا يسوع، شكرًا، يا مريم. كلّ شيءٍ يزول. لقد تمّ الأمر، ليست ذراعي هي التي قضت عليّ، بل هذا**" **وأَشارَت إلى قلبها. وأردفت**: "**إنّني أقارن بين عطف الله عليّ وجحودي. لقد كان دائمًا طيّبًا نحوي، وأنا كنت أَبدًا جاحدةً. ولكنّني واثقةٌ**".

طوال مرضها الذي امتدّ أَربعة أَيّامٍ، غالبًا ما ابتهلت إلى أمّها العذراء، التي كانت تدعوها أَحيانًا أمّ الحبّ. وهكذا كانت تدعوها في ليلتها الأَخيرة. وقد سُمِعتْ تردّد، المرّة تلو المرّة: "**ليتبارك اسم الله**".

بعد منتصف الليل جاءها الكهنة بالزاد الأخير، وكانت متألّقةً، مشرقةً، وكأنّها تمتلك السماء. وإذ كانوا يكلّمونها في أمرٍ ما، اعترضت برقّةٍ: "**دعوني مع يسوع، وفكّروا في آلامه**".

عند الساعة الواحدة، لحظت أنّنا ما زلنا نحيق بسريرها، فقالت: "**امضينَ إلى النوم. حسبي أَن تبقى اثنتان فقط، ولا تظنُنّ أنّني ذاهبةٌ. من المؤكّد أنّي سأذهب، ولكن ما زال عليّ أَن أعاني من الأوجاع قسطًا وفيرًا. سأستدعيكنّ**".

"لقد كانت – وهو أَمرٌ مألوفٌ لديها – تذهل عن آلامها الضارية، محاولةً إِيهامنا أَنّها أَفضل حالاً، لكي تحملنا على مغادرتها. لقد كانت مؤثِّرة في بساطتها ورقّتها وهي تقول: "أمّي، امضي كي تصيبي بعض راحةٍ؛ أختي، امضي لترتاحي؛ وقد سمّت الكثيرات بأسمائهنّ، ولا سيّما الأكثر وهَنًا، ولكنّ جميعهنّ أَبينَ الابتعاد عنها.[1]

وقد سهونا عن القول أنّ لسانها قد انطلق تمامًا، في أعقاب المناولة.

وأخيرًا، رضيت بعض الأخوات بمبارحتها، فآنست، من جرّاء ذلك، سعادةً كبرى. ولكن سرعان ما كان قلبنا يُعيدنا إلى كنزنا الغالي، الذي كنّا مقدمين على فقدانه، بحيث نأسف على كلّ دقيقةٍ نمضيها بعيدًا عن أختنا الصغيرة الحبيبة.

وفي نحو الساعة الرابعة والنصف هتفت في لهجةٍ يستحيل الإفصاح عنها: "**مثلما يشتاق الأيّل الظمآن إلى مياه السيل، كذلك تصبو إليك نفسي، يا إلهي**".

وفي الخامسة إلاّ ربعًا، انتابتها أزمة اختناقٍ شديدةٌ، وفجأةً، جثت فوق فراشها، وضمَّت يديها، وأعلنت في صوتٍ جهيرٍ: "**سأموت، لقد أزفت الساعة. استدعوا الأخوات جميعهنّ. إنّني أختنق**". ثم هبّت ناهضةً، وخطت بضع خطواتٍ نحو الباب المفتوح، وكادت تسقط لو لم تتداركها اثنتان من الأخوات وتُجلساها على مقعدٍ، وتساندها. ومرّت بآلامٍ مريرةٍ.

كانت الجمعيّة ملتئمةً. وعاد الكاهنان ليشدّا من عَضُدها. وفي الخامسة قرع ناقوس الصلاة، فرسمت إِشارة صليبٍ، وتحرّكت شفتاها.

---

[1] لقد ظلّت، حتّى أثناء احتضارها، تُولي الآخرين عنايتها وعطفها، مغدقةً المحبّة، مشيعةً العزاء.

فقد كانت تساندها، في ساعاتها الأخيرة، راهبةٌ مصابةٌ بداءٍ يهدّد دعوتها الرهبانيّة، والتفتت إليها الأخت مريم مستفسرةً: "ألم تشفي بعد؟" وإذ أجابتها بالنفي، قالت لها: "لا تخشي شيئًا، ستُشفين!. فغمرت هذه الكلمات صدرها فرحًا وتفاؤلاً، وقد تمّ لها الشفاء فعلاً.

راهبةٌ أُخرى كانت تصارع محنةً عصبيةً، التمست التحدّث إلى الأخت مريم المحتضرة، وقد تمادى الحديث ساعةً كاملةً، خرجت منه الراهبة مشرقةً، معزّاةً.

وبعد لحظةٍ بدرت منها التفاتة دهشةٍ وازدراءٍ (ربّما كان إبليس يبذل محاولةً أخيرةً يائسةً لمداهمتها). ولكن سرعان ما استعاد محيّاها سكينته، وأشرق وجهها، شأنه في أوقات الانخطاف، ولكنّ ذلك لم يدم أكثر من لمحةٍ.

وبدت وكأنّها تخرج من أزمتها، وتمكّنت من الخطو بضع خطواتٍ، ثمّ، من جديدٍ، خانتها قواها.

وهكذا، احتفظت بكامل وعيها، وبقوّة إرادتها، حتّى اللحظة الأخيرة.

وأُوعز إليها أن تردّد هذا الابتهال: "رحمتك، يا يسوع" فقالت: "**آه! أجل، الرحمة**". وكانت تلك كلماتها الأخيرة، وقدّم لها الصليب، فلثمته، وقطع الأب بيلّوني صلاة المدنفين، ليمنحها حلاًّ أخيرًا من خطاياها؟ وفي الحال، أسلمت نفسها الرائعة إلى خالقها، من غير احتضارٍ، وفي رقّةٍ متناهيةٍ، بحيث كدنا ألاّ نشعر بوفاتها، وقد ارتسمت على ناظريها بسمةٌ سماويّةٌ – لم تبارحها. وكانت الساعة الخامسة وعشر دقائق صباحًا.

"كنّا، جميعنا هناك، سعيداتٍ برؤية موتٍ على هذا القدْر من الروعة، لم يُخلّف فينا سوى سلامٍ عذبٍ، وسط عبراتنا.

"ومع أنّ أختنا العزيزة كان قد سبق لها فأنذرتنا بأنّها لن تُتمّ ثلاث سنين في بيت لحم، إلاّ أنّ الربّ قد شاء ألاّ نفطن لذلك. وهي نفسها، ساعاتٍ قليلةً قُبَيْل وفاتها، كانت لا تزال تتوقّع العذاب المُضني الذي أُنذِرَتْ به؛ ذلك أنّها لفرط اندفاعها وسخائها، لم تُقِم وزنًا لكلّ ما قاسته حتّى آنئذٍ...

"كان كرمل پو يطالب بامتلاك قلبها؛ وكان ذاك حقًّا له. وكنّا قد أعلمنا الجرّاح الذي كان يعالجها، فحضر في نحو الساعة الثامنة، ليقوم بتشريح الجثمان. وحالما شاهد القلب، لحظ فيه ما يشبه ندبةً. وقبل انتزاعه، استدعى الكاهنين وأرانا، جميعًا، فرجةً بدا حرفاها وقد تيبّسا، ممّا يدل على أنّها لم تحدث أثناء الجراحة.

"وتساءل الأب بيلّوني: "ولكن هل من شأن علّةٍ أن تفعل ذلك؟" فأجابه الطبيب: "كلاّ، فهذا القلب لم يكن، يومًا، عليلاً".

"وفيما كان القلب يوضع في طبقٍ، دخل إلى غرفة التمريض أربعة كهنةٍ، ثمّ انضمّ إليهم كاهنٌ خامسٌ، تلبيةً لطلب الجرّاح، الذي دعاهم إلى الشهادة بما عاينوا.

وقد شاء الله حضورهم، ساعتئذٍ، في القسم الخارجيّ من الدير، بعد أن أنفذهم غبطة البطريرك من أجل إِعداد مراسم الدفن. وقد تسنّى لهم، جميعًا، تحرّي القلب عن كثبٍ، ووقّعوا على محضرٍ بما شهدوا.

"وفي اليوم التالي ألمح الجرّاح إلى أَنّ الجرح كان يجتاز القلب من جانب إلى آخر، مخلّفًا في أَحد الجانبين، فتحة أقلّ اتساعًا.

"وطوال النهار ظلّت ذراعاها لدنتين، وطالما لم يكن يمسكهما أَحدٌ، كانتا تمتدّان تلقائيًّا على شكل صليب. وبعد انتزاع القلب ظلّ دمٌ ساخنٌ، سائلٌ، قرمزيّ اللون يتدفّق حتّى المساء من الجرح في الصدر.

"وبعد أن أودعت النعش شوهدت ذراعاها تخرجان منه، تلقائيًّا، ثلاث مرّاتٍ متتالياتٍ. وبعد أَن طوتهما أمّنا المحترمة، كرّةً إِثر كرّةٍ، عبثًا، قالت لها: "يا ابنتي، باسم الطاعة، أبقي ذراعيكِ مخفضتين، لكي نستطيع إغلاق النعش". وتلك الابنة التي مضت في طاعتها حتّى الأعجوبة سحابة حياتها، أطاعت أَيضاً بعد وفاتها، فتجمّدت ذراعاها.

"كان يغمر قلوبنا مزيجٌ من التأثّر والعزاء معًا. وقد اتّضح لنا أَنَّه، في مثل ذلك اليوم، وفي نحو مثل تلك الساعة، في السادس والعشرين من آب ١٨٦٧، كانت الفقيدة قد تلقّت طعنةً سماويّةً، في كرمل "پو". وقد أمضينا الليل إلى جوار ذلك النعش الذي كان يضمّ أَغلى ما كان لنا، نحن جميعنا، على هذه الأرض...

"كان الحشد كثيفًا في مأتمها، وصرخةٌ واحدةٌ كانت تنطلق من جميع الأفواه: "لقد ماتتِ القدّيسة"... وكان الجميع يحملون شموعًا في أيديهم، وكان ذلك الاحتفال أشبه بانتصارٍ منه بمأتمٍ.

"وأخيرًا، أَزفت لحظة الفراق النهائيّ، وكان على كنزنا الغالي، وبالحريّ على إِطاره الفاني أن يبارحنا إلى الأبد، مخلّفًا فينا سلامًا يتخطّى كلّ شعورٍ، حتّى الشعور بالألم والفراغ اللامتناهي الذي استقرّ فيما بيننا".

وقد بكى الأخت مريم يسوع المصلوب، على نحوٍ خاصٍّ، العمّال العرب من كلّ الملل والطوائف الذين عرفوها عن كثَبٍ، والذين عملوا في بناء كرمل بيت لحم تحت رعايتها. وقد قال أَحدهم: "لقد عرفت في حياتي قدّيسيْن: غبطة البطريرك براكو، والأخت مريم. ولكنّ الأخت مريم كانت أكثر قداسةً".

وقال آخر: "أو أنّه لا يوجد في السماء أحدٌ، أو إنّ فيها هذه القدّيسة مع الملائكة".

وآخر كان ينتحب مردِّدًا: "لقد افتقدتُ أمّي ومعلّمتي".

وسُمِعَ الكثيرون من العمّال يقولون: "ليتنا متنا معها".

وقد دُوِّن في سجلاّت الكرمل يوم وفاتها:

"لقد كانت دائمًا تجد في الألم حبورها. تلك النفس التي جمعت النار والوداعة.

تلك الماسة بمحبّتها، قد صدّت جميع صولات الجحيم. لقد نسيت، أبدًا، ذاتها لتُعنى بالآخرين. لا يساورنا ريبٌ أنّ تلك الزهرة، التي طالما ظلّت خفيّةً، ستتوهّج عمّا قريب في أنظار العالم".

وعلى شاهدة لحدها التي قُدَّت من حجرٍ كلسيٍّ، نُقشت العبارة التالية:

"هنا ترقد في سلام الربّ،
الأخت مريم يسوع المصلوب،
راهبةٌ ذات قناعٍ أبيض.
نفسٌ تغمرها النعم، والفضائل الفريدة،
تميّزت بتواضعها،
وطاعتها، ومحبّتها.
يسوع، حبّ قلبها الأوحد،
استدعاها إليه،
في السنة الثالثة والثلاثين من عمرها
والثانية عشرة من حياتها الرهبانيّة،
في بيت لحم، بتاريخ ٢٦ آب ١٨٧٨.
فلترقد بسلامٍ".

ولمّا عُرِض هذا النصّ على غبطة البطريرك براكو، أيّد كلّ ما جاء فيه، إلاّ أنّه لاحظ أنّ طوله غير مألوفٍ.

ولكنْ كان لا بدّ من استثناءٍ لمن كانت حياتها كلّها، وفضائلها، استثنائيّةً، غير مألوفةٍ.

لحد الأخت مريم يسوع المصلوب

الفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ

كَراماتٌ واستحقاقٌ

مأثرة الروح القدس

من خلال استقرائنا، عبر الصفحات السابقة، لسيرة الأخت مريم الفــذّة، يبــرز انطباعٌ جليٌّ بأنّ حياتها بأَجمعها، منذ مولدها حتّى مماتها، كانت نسيجًا متّصلاً مــن الخوارق، ومن أعمال النعمة الإلهيّة السنيّة.

وتاريخ الكنيسة كان، أبدًا، حاشدًا بالخوارق. فالروح القدس، مذ اقــتحم نفــوس تلاميذه، يوم العنصرَة، اقتحامًا حوّلهم بشرًا آخرين، ينطقون بــالنبوءات، ويُجــرون المعجزات، ويمارسون من البطولات كلّ مدهشٍ، ويُنضجون في النفــوس خميــرة الخلاص، ما انفكّ يتجلّى في قدّيسيه ومختاريه، الذين اصطفى منهم، في كلّ عصرٍ، نخبةً ممتازةً، يُبرز من خلالهم قدراته الخارقة، وسلطان روحه الفائق، ويبلّغ بألسنتهم تعاليم الإنجيل، طليّةً، قشيبةً، خالصةً ممّا قد علق بها، أثناء مسيرة الكنيسة، وبفعــل الوهَن البشريّ، من غبارٍ ووَحلٍ، وطَمْسٍ وتشويهٍ.

ولقد كانت الأخت مريم يسوع المصلوب مأثرةً فريدةً من مآثر الروح القــدس، تعهّدها بحبٍّ، وخلع عليها، وحدَها، ما لم يَجُدْ بمثله على عشرات القدّيسين العظــام مجتمعين. فكانت مجمعًا لشتى الخوارق، التي أُعطي كلٌّ من القدّيسين، مــن قبــلُ، بعضًا منها.

لقد استُشهدت مريم وهي، بعدُ، في مطلع العمر، ولكنّ الربّ الذي ابتغى التجلّي، من خلالها، تجلّيًا ساطعًا، قد أعادها إلى حياة الأرض، وأوكل إلى أمّــه القدّوســة،

وروحه الأقدس، مهمّة الأخذ بيدها، ودفعها في الطريق الذي خطَّه لها؛ وانقادت هي، في امتثالٍ رائعٍ، بقيادتهما، فتميّزت سيرتها بكلّ خارقٍ، ولم تقتصر أفعال الربّ العجيبة عليها، بل فاضت منها على الكثيرين ممّن كان لهم بها صلاتٌ.

مع سكّان السماء

لقد أُعطي لبعض الصوفيّين والقدّيسين أن يُختطفوا بالروح، هنيهاتٍ، أو ساعاتٍ، إلى عالم السماء، فيما أجسادهم تنبض بحياة الأرض، ولكنْ في غَفوةٍ من الإحساس. رحلاتٌ سماويّةٌ غالبًا ما يواكبها رؤًى وتعاليمُ إلهيّةٌ.

ولكن قلّما أُوتي لقدّيسٍ أن يرتحل إلى عالم السماء مثلما أُوتي للأخت مريم يسوع المصلوب، التي عاشت مع السماء وساكنيها، بقدر ما عاشت على الأرض. فقد توالت انخطافاتها، التي شرعت تُداهمها، منذ تفتّح ذهنها على الوعي، وتسارعت وتيرتها باطّرادٍ، إلى أن أصبحت، سحابة حياتها الرهبانيّة، شبه يوميّةٍ.

وكان حسبَها سماعُ نشيدٍ يمجّد الربّ، أو تأمّل سرّ الحضور الإلهيّ في القربان المقدّس، أو الشروع بتلاوة "أبانا" حتّى تجتذبها السماء. ولطالما شكت من عجزها عن المضيّ في تلاوة صلاة الربّ حتّى نهايتها. فقد كانت لفظة "أَبانا" وحدها، تنهمر على نفسها، في عذوبةٍ تحملها على الذوبان في الله.

وعلى نحو ما يهبّ الروح كيفما يشاء، وحيثما يشاء، كانت الانخطافات تنتابها في شتّى الظروف والأوضاع، في سكناتها وحركاتها، أثناء تأمّلها وصلواتها، وآناء عملها ومشاغلها الوضيعة؛ في الكنيسة، أو في الفراش، في الحديقة أو في المطبخ؛ وقد تشلّ منها حركتها فتتجمّد في الوضع الذي داهمتها فيه، بحيث لا يقوى أحدٌ أو شيءٌ على زحزحتها عنه، كأنْ تظلّ ممدودة اليد، قابضةً على كأس ماءٍ، لا تبدي حَراكًا، وكأنّها تمثالٌ أصمّ. وتارةً أُخرى، كان الانخطاف يُضفي على جسمها رشاقةً وليناً، ويحرّرها من قيود الأرض، فتتسلّق إلى قمم الأشجار، في مثل خفّة سِنجابٍ، مع ما كانت عليه من بعض بدانةٍ، وما يسبّبه ثوبها الرهبانيّ من إِعاقةٍ لحركتها؛ أو هي تمضي في إعداد الطعام، وراء قدورها ومواقدها، في مهارةٍ وإتقانٍ، وهي عن الدنيا بأسرها في ذهولٍ.

ولكنْ أيّةً كانت حالها، ومهما بلغ انخطافها من العمق والسيطرة على حواسّها، فقد كان أمر رؤسائها كفيلاً أبدًا بسلخها عنه، من غير تلكّؤٍ ولا تردّدٍ.

كم كانت انخطافاتها غنيّةً بمواهب الروح وتعاليمه! وإنّه لمن حسن طالعنا أنّ المسؤولين الكنسيّين، من أمثال المطران لاكروا، الذين سرعان ما استشفّوا فيها عمل النعمة الإلهيّة، قد أمروا بتدوين كلّ ما كان يُوحى إلى الأخت مريم من رؤًى، وما تُلقَّن من عظاتٍ، أثناء انخطافها، فخلّفوا لنا، بذلك، كنزًا ثمينًا، يمكّننا من اكتشاف وجه يسوع في أجمل رُواءٍ، ومن إدراك معاني الإنجيل في أقشب حلّةٍ. وقد حفلت الصفحات السالفة بنماذج أخّاذةٍ ممّا كان يجود به الله على أَمَته المختارة مريم، أثناء انخطافاتها، من فَيْض سناه ودَفْق إلهامه. كما أنّها انطوت على سردٍ مُسهب لزيارات السيّدة العذراء المتواترة لربيبتها، في شتّى مراحل حياتها، عائدةً، شافيةً، معزّيةً، مشجّعةً، معلّمةً، في ألفةٍ أنيسةٍ عذبةٍ؛ فهي تارةً تلقّنها فنون الخيْط، وطورًا تحرق في غرفتها أعشابًا تفوح بالطيب، وتؤتي الشفاء، وهي، أبدًا، تدفعها بحزمٍ في سبُل ابنها، شطر قمم القداسة والبطولة.

وغالبًا ما تراءى لها العديد من القدّيسين، قدماء ومحدثين، وبعض النفوس المختارة، التي عرفت الأخت مريم بعضاً منها، كالأمّ إيلي، على نحوٍ خاصٍّ، أو التي كانت من قبلُ، تجهلها كالآنسة ماتيلد دي نيدونشيل، والتي كان الربّ ينفذها إليها برسائل تتناولها شخصيًّا، أو تتناول مؤسّسات الكنيسة والعالم.

وكانت، انقيادًا لأوامر رؤسائها، تبلّغ تلك الرسائل، بدقّةٍ وأمانةٍ، ولا تكاد تفرغ من مهمّتها هذه، حتّى يغيب كلّ شيءٍ عن ذاكرتها، ويمّحي، وتعود هي فتغرق في وِهاد التواضع والتلاشي.

وخليقٌ بالملاحظة أنّ قسماتها، أثناء الانخطاف، كانت تشعّ بإشراقٍ ملائكيٍّ يكسبها بهاءً ساحرًا ورونقًا يتخطّى جمال الأرض، ويُضفي على ناظريها ألَقًا سماويًّا. وقد عبّرت عن ذلك إحدى أخواتها قائلةً: "إنّه ليتعذّر وصفها، وهي في حالة انخطافٍ، وإنّ أيّ رسّامٍ يعجز عن إبراز صورتها"...

وكثيرًا ما كانت حركاتها تكتسب، وهي في ذهول الانخطاف، دقّةً غير عاديّةٍ – فتملأ، على سبيل المثال، أباريق الشرب، من غير أن تريق على الأرض قطرة ماءٍ

واحدةً، وأحيانًا كانت تؤتى قوّةً خارقةً، فقد شوهدت، يومًا، وقد انتابها الانخطاف أمام القربان المقدّس، تقِلّ أصيص زهورٍ يعجز أقوى العتاة عن حمله، لتكرّم بـه الـربّ الماثل في الافخارستيا. وعندما سُئلت عن سرّ قـدرتها العجيبـة تلـك، أجابـت أنّ "الأولاد" كانوا يحملونه من جانبٍ، وهي من الجانب الآخر، و "الأولاد"، في لغتهـا، هم الملائكة.

وهذه شهادة إحدى أخواتها، في بيت لحم:

"عندما كنت أقابلها، أثناء النهار، كنت أدهش لِمَا أَلحظ عليها من خشوعٍ، حتّـى وهي تقوم بمهامّ الخدمة، على نحو ما تكون عليه من خشوعٍ في الكنيسة. بـل إنّهـا كانت تُخْتطَفُ أثناء أدائها مهامّها.

"ذات يومٍ، خلال فسحة الظهيرة، جاءت تحمل نحوًا من اثني عشر كيسًا كبيرًا، وظلّت واقفةً مطبقة العينين، مخطوفة الروح، وأخذت تحرّضنا على ممارسـة فقـرٍ مطلَقٍ، وعلى تفادي إتلاف أيّ شيءٍ. وفي هذه الأثناء، وفيمـا كانـت مـا برحـت مغمضة العينين، رتقت الأكياس جميعها، رتقًا محكمًا، وكان وجهها مشعًّا، وقد كساه جمالٌ غير مألوفٍ".

وكثيرًا ما شوهدت، أثناء انخطافها، وقد ارتفعت، بـضعة سـنتمتراتٍ، فـوق الأرض أو فوق السرير.

ولدى خروجها من الانخطاف، كانت ترسم مرّتين أو أكثر، على نفسها إشـارة الصليب، إيذانًا بعودتها إلى عالم الأرض، فينسحب الموجودون، تفاديًا لإحراجها، فقد كانت حريصةً على كتمان كرامات الله عليها؛ لا بل إنّها كانت تتألّم لما ينتابها مـن انخطافٍ، الذي كانت، في براءتها، تعدّه "نعاساً"؛ وكثيرًا ما جهدت في مقاومته بكـلّ ما تيسّر لها من ذرائع، فتعمد إلى الاغتسال بالمـاء الـشديد البـرودة، أو تمـارس حركاتٍ عنيفةً، أو تغرس الدبابيس في جسدها وفمها، أو تبتلع أطعمةً حارقةً، ولطالما توسّلت إلى مرشدها، في كرمل پو، الأب مانوداس، أن يأمرها بعدم "النوم" عـلّ الله يؤازرها على إطاعة الأمر. غير أنّ الكاهن كان يردّ عليها بقولـه: "لا عليـك، يـا ابنتي، بوسعك أن تنامي بكلّ اطمئنانٍ".

وليس أدلّ على مصدر تلك الانخطافات العلويّ، وعلى جليل شأنها، مـن سـموّ

التعاليم والرؤى التي كانت تعود بها منها، والتي تتخطّى، إلى ما لا حدّ له، مداركها ومعارفها، كما أَن خلوّ تلك الانخطافات من كلّ انفعالٍ وبيلٍ، وانتهاءها في هدوءٍ ولينٍ، وعودة الأخت مريم، في أعقابها، إلى أوضاعها الطبيعيّة، من غير تمزّقٍ ولا اضطرابٍ، ومن غير أثرٍ خلا رسوخ عمل النعمة في أعماقها، وانغراس وجود الله في أغوار نفسها، كلّ ذلك كان ينهض دليلاً على أَنّ انخطافاتها لم تكن سوى ذوبان كلّ كيانها في الله، بتأثير جاذبٍ علويٍّ سرّيٍّ، يسيطر على ملكاتها، ويشدّ كلّ طاقاتها إِليه.

على صورة المصلوب

ولم يقتصر الربّ على استضافة روحها في دياره، والكشف لها عن بعض تعاليمه وأسراره، بل إنّه كرّم جسدها بامتيازاتٍ نادرةٍ، فتحرّر أَحيانًا من أَعباء الأرض وجاذبها، وغدا مجنّحًا قادرًا على التحليق.

بيد أَنّ الكرامة المثلى التي ميّزها بها الله هي طبعه سِمَات جراح المصلوب في يديها وقدميها وجبينها وجنبها، وطعنه قلبها بسهام حبّه، طعنًا ماديًّا خلّف أثرًا جليًّا عجيبًا. وقد تبسّطنا في وصف هذه الكرامات التي كان القدّيس العظيم فرنسيس الأسّيزي أشهر من كُرِّم ببعضٍ منها، والتي لم ينعم بمثلها سوى قلّةٍ مختارةٍ من أولياء الربّ، لا يكاد يتعَدّى عدد المعروفين منهم الخمس مئةٍ، في تاريخ الكنيسة.

إلاّ أنّ كَرَم الربّ على الأخت مريم قد مضى شأوًا بعيدًا، فقد كان الدّم الذي ينسكب من جنبها وقلبها يرسم على القماش الذي يوضع لامتصاصه صليبًا واضح المعالم، وحرفين يرمزان إلى الدعاء باسم يسوع، كما أَنّ الصليب قد أمسى، في غروب حياتها، يتوهّج أحيانًا بجلاءٍ، على صدرها، شاهدًا على اختيار الربّ لمن وقفت حياتها على تكريم صليبه.

ويُعتَقَد أَنّ قلب القدّيسة تيريزا الأڤيلاّويّة، مؤسِّسة النظام الكرمليّ، كان، هو أَيضاً، قد تلقّى طعنة الحبّ الإلهيّ. ولكنْ، وحده، قلب الأخت مريم يسوع المصلوب، الذي انتزع من صدرها، فور وفاتها، قد أقام الدليل المحسوس الأكيد على إِصابته بسهام الربّ.

وكانت سماتها تظهر وتنزف، على نحوٍ خاصٍّ، أَثناء الصيام، وفي الأَيّام التي

تذكّر بآلام يسوع، ولا سيّمَا أَيام الخميس والجمعة، ويرافقها من الآلام النفسيّة والجسديّة مثل ما تعرّض له الفادي الإلهيّ، بحيث كان منظرها، آنذاك، يوقظ ذكرى المصلوب، ويوحي بمنظر "رجل الآلام".

وكانت تلك النعمة التي حباها بها الله حافلةً بالألم والنشوة معًا. وغالبًا ما كان يفوح منها، أثناء انثيال الدّم من سماتها، عَرفٌ ذكيٌّ، من طيوب السماء.

وقد أَجلّ من تسنّى لهم مشاهدتها على هذه الحال عمل الربّ فيها، عدا قلّة ممّن أصرّوا على التشكيك، وإن فقأ الواقع عيونهم. وبين أيدينا هذه الشهادة التي أدلت بها مرشدة المبتدئات:

"كان الدم يتدفّق من يديها؛ وقد تقصّيتُ بكلّ إِمعانٍ مصدره، فلم أَقف على أَثرٍ لجرحٍ أو لخدْشٍ. ثمّ تناولتُ كمّادةً ومَسَحْتُ بها جبينها، وفيما كنت أفعل ذلك، كنت أقول في نفسي: يا إلهي، أعطني رؤية مصدر هذا الدّم، كي أستطيع الشهادة عن هذه الفتاة. وفي الحال، تشكّل تحت يدي، فوق الحاجب الأيمن، ثقبٌ بدا وكأنّه فعل شوكةٍ ثخينةٍ. وقد واصلت امتصاص الدم بالكمّادة. ولكنّني لحظت أنّ فرجة الجرح لم تكن تتّسع على حدّ ما يحدث لجرحٍ عاديٍّ. ثمّ اندملت تلك الفرجة، لا بل زالت مخلّفة بشرةً ملساء خاليةً من أَية ندبةٍ. وحدها قدرة الله كانت تستطيع، في غضون لحظاتٍ، أن تجرح وتبرئ، من غير أن تخلّف أَثرًا. وكذلك شأن السمَات في قدمها التي كانت تُحدث ثقبًا ينفذ إلى الجانب الآخر، ثمّ يندمل كلّ شيءٍ فجأةً".

أمّا الأخت مريم، نفسها، فكانت، في تواضعها الجمّ، ترى، في تلك السِمَات مرضاً، بل برصاً، فينالها منها الخزي والرعدة. وقد استفسرتها رئيستها، يومًا، عن علامات الجراح ذات اللون الزهريّ، في يديها، على غرار جراح المصلوب، فأخفت يديها وراء ظهرها خجلاً، وقالت إِنّها بثورٌ امتحنها بها الله عقابًا على خطاياها.

وعندما أميط اللّثام عن عينيها، وأُطلعت على حقيقة سِمَاتها، وهي في الخامسة والعشرين من العمر، أصيبت بصدمةٍ عنيفةٍ، واكبتها آثارها حتّى آخر أيّامها. وغدت لها السِمَات مصدر حَرَجٍ، لأنّها كانت وطيدة اليقين بعدم استئهالها، وتمقت، بالتالي، إكبار الناس لها من غير مبرّرٍ، مؤثرةً التواري والامّحاء. وقد ظلّت، أبدًا، حريصة

على إخفاء كلّ آثار السِمَات فيها، بحيث لا تتسنّى رؤيتها إلاّ لرؤسائها، إذا ما أمروها بالكشف لهم عنها. ولطالما توسّلت الربّ أن يزيلها، وكان الربّ يستجيب لطلبها، إذا ما هو توافق مع رغبة رؤسائها، وإلاّ فإنّه كان يوعز إليها أنّ عليها التشبّه بنبتة الورد التي تُطلع براعم تتفتّح وتضوّع عبيرًا أَخّاذًا ينعم بعَرفه الآخرون، في حين لا تملك النبتة لنفسها سوى الأشواك والحطب.

ولم تتوهّم الأخت مريم، يومًا، أنّ لها، من سِمَاتها فضلاً أو امتيازًا، بل طالما ردّدت: "الطاعة أفضل من كلّ شيءٍ، إنَّها أفضل من السمَات".

وقد همّت، يومًا، إحدى الراهبات بتقبيل آثار سماتها، فردعتها، في حزمٍ، قائلةً: "لا تفعلي، يا أختاه، فما أَنا سوى خاطئةٍ سوداء القلب".

ولكنْ أيّ قلب أنصع من ذاك الذي لا تجد الخُيلاء إليه سبيلاً؟

طوبى لأنقياء القلوب، فإنّهم يعاينون الله

وقد حباها الله بقبَسٍ من معرفته للغَيب، واستبانة مغاليق الصدور، ورؤية كلّ قَصِيٍّ في الزمان والمكان، فحفلت حياتها بالنبوءات. ولم تكن نبوءاتها تخمينًا مبهمًا لمستقبلٍ ممكن الحدوث، بل قراءةً واضحةً لأحداثٍ مستقبليّةٍ، أو لخفايا مُحكمة الكتمان.

ففي ما يتعلّق بحياتها الخاصّة، قد كشفت لها السيّدة العذراء، مسبقًا، عن أَهمّ مراحلها، وهي ما برحت في مستهلّ العمر، إِثْر استشهادها في الإِسكندريّة، وما فتئت، مذ ذاك، رُسُلٌ سماويّةٌ تُنذرها بما هي مقدِمةٌ عليه من أَحداثٍ، في دقّةٍ مذهلةٍ.

وتشهد إحدى رئيساتها أنّها كانت تقرأ في قلوب الآخرين، وكأنّها تطالع كتابًا مفتوحًا، وأضافت: "لو كان علينا تدوين كلّ ما تنبّأت به، وتحقّق بحذافيره، لتوجّب علينا ملء مجلّداتٍ".

وقد أكسبتها براءتها بصيرةً نيّرةً مكّنتها من هَتك حُجُب الخداع والتضليل، التي تتستّر بها بعض النفوس لإخفاء حقيقة جوهرها، خلف مظاهر زائفةٍ، فنفذت إلى حُرُمها الخفيّة، وفضحت زيْفها، كلّما كان ذلك لِزامًا لخير الآخرين وخلاصهم. وهي، بالإجمال، قد سخّرت تلك الهبات السماويّة التي خصّها بها الربّ للخدمة والإنقاذ.

وغالبًا ما أوكلت إليها مهمّة الملاك المنذر، فهي تارةً تذكّر الأخوات بخطايا أغفلتها، أو أسقطن الاعتراف بها، حاثّةً إياهنّ على الإقرار بهـا، فيـصبْنَ، بـذلك، الـسلام والطمأنينة، وتارةً أُخرى، تُلفت اهتمامهنّ إلى إلهاماتٍ سماويّةٍ، جنحنَ إلى الإِعراض عنها، وكان لهنّ فيها الخلاص.

كانت تَتَمَتَّع بحدْسٍ واثقٍ عن حاجات كلّ واحدةٍ من أَخواتها، فتُسدي لهنّ نـصحًا خلاصيًّا؛ وكانت، بكلمةٍ واحدةٍ، تحلّ مشاكل مستعصيةً، وتنير دروبًا مدلهمّـةً، وتميّـز دقائق الأمور بوضوحٍ. وكانت كلماتها تنطبع في النفوس، سيفًا، ونورًا، وبلسمًا. فكم من تائهٍ قد أعادت إلى سويّ السبيل، وكم من بائسٍ أَنهضت من وهاد اليأس، وكم قد خفّفت من وِقْر كروبٍ هاصرةٍ، كم سكبت من عزاءٍ، ووطّدت في النفوس من بذور الخير!

ولم تقتصر نبوءاتها على ذاتها، وعلى من كانت تعيش بين ظهرانيهم، بل كثيرًا ما تناولت أناسًا لم تعرفهم، وكانت رسولة الله، في سبيل إنقاذهم.

ففي عام ١٨٧٤، التمست مقابلة رئيس ديرٍ للراهبات، لم يكن لها بـه معرفـةٌ، وأطلعته على أربعة مواطن ضعفٍ تتخبّط فيها راهبةٌ خاضعةٌ لسلطته. وقفل الكاهن عائدًا إلى ديره، وبسط الأمر أمام الراهبة المعنيّة، فأقرّت بأخطائها هـذه، وعزمـت على إِصلاحها، ومذ ذاك غدا سلوكها مثاليًّا. وتغصّ سيرة الأخت مريم بمثـل تلـك الشواهد.

كذلك كانت تكشف للأسقف، في صراحةٍ مطلقةٍ، وبراءةٍ مذهلـةٍ، الكثيـر مـن خفايا نفسه، ومن أسرار الكهنة التي كانت خافيةً عليه، في حين كان يتعـيّن عليـه الإلمام بها، في سبيل معالجتها؛ وكانت تفعل ذلك في كثيرٍ من الحيطة الحريصة على عدم المَسّ بأحدٍ، وإن هي كانت تجهل معظم من تهتُك الحجب عن خفايا صدورهم.

لقد انطوت الصفحات السابقة على نبوءاتها المتعلّقة بوفاة قداسة البابـا بيـوس التاسع، وانتخاب خلفه البابا لاون الثالث عشر، وعن شتّى مراحل تأسيس كرمل بيت لحم، وكرمل الناصرة، ومركز آباء القلب الأقدس، في بيت لحم.

وحريٌّ بنا إِيراد بعض أَحداثٍ أُخرى، في هذا المضمار. ففي عام ١٨٦٨، كانـت قد أنذرت المسؤولين الكنسيّين، في روما، بوجوب الاحتراز من انفجار ثكنةٍ عسكريّةٍ، على مقربةٍ من الـفـاتيكان. ولم يأبه أحدٌ لإِنذارها، ما أدّى إلـى أضـرارٍ جـسيمةٍ.

ولكنّها، في السنة التالية، أنبأت، في دقّةٍ متناهيةٍ، بوجود ألغامٍ ثلاثةٍ، تهدّد أماكن عزيزةً على قلوب المسيحيّين. وقد أسهم إنذارها، آنذاك، في تلافي كوارث خطيرةٍ.

وفي أيلول ١٨٧٤، شهدت، وهي مختطفةٌ، استشهاد كهنةٍ مسيحيّين في الصين. وقد دُوّنت وقائع استشهادهم بدقّةٍ، وفقًا لرؤيتها ولروايتها لها. وبعد أربعة أشهرٍ، نشرت إِحدى الصحف، للمرّة الأولى، نبأ ذلك الاستشهاد. فكتب المطران لاكروا، أسقف بايّون، إلى الكردينال انتونيلّلي، ما يلي:

"إن رواية استشهاد الأب باتيفو، المرسل في يون نان، في الصين، التي نشرتها صحيفة "الكون"، في عددها الصادر بتاريخ ١٨٧٥/١/٢١، كنّا قد سجّلناها، هنا، بإملاءٍ من الراهبة التي كلّمناكم عنها، منذ السابع عشر من أيلول ١٨٧٤، في الساعة الثامنة صباحًا، بضع ساعاتٍ فقط بعد حدوث تلك المأساة الدامية، في مكانٍ شديد البُعْد عنّا. وليس، هناك، بشريًّا، ما يمكن معه، تفسير وصف الحَدث، على هذا النحو من الصحّة، وبمثل هذا الفيض من أدقّ التفاصيل، بإملاء رائيتنا التقيّة، رغم البون الشاسع بيننا وبين مسرح الحدَث.

"بوسعكم، يا صاحب النيافة، نقل هذه المعلومات، باسمي، إلى الأب الأقدس، وإنّني أَضمن صحّتها وأؤكّدها".

وكانت رؤى الأخت مريم، أَحيانًا، تتعدّى الدنيا إلى العالم الآخر، حيث كانت تشهد معاناة بعض النفوس في المطهر، فتستمدّ لها الغَوث والشفاعة، أو تسعد برؤية نفوسٍ أُخرى تنعم بتمجيد الربّ لها، فتستوحي من تمجيدها العِبَر والعظات، لذاتها وللآخرين.

مسكن الملائكة، وقيثارة الروح

قلائل هم القدّيسون الذين أذن الربّ لإِبليس أن يستحوذ على أجسادهم فترةً من الزمن، على حدّ ما امتحن الأخت مريم يسوع المصلوب، تطهيرًا لها، وتحدّيًا للشرّير، وإِمعانًا في إذلاله. ولكن ليس بين القدّيسين المعروفين من سكنه ملاك الربّ، وتكلّم بلسانه، مثل ما سكن الملاك جسد الأخت مريم طيلة أربعة أيّامٍ، في أعقاب انسحاب إبليس، خاسئًا، منها، بعد أربعين يومًا من المحاولات المستميتة

الفاشلة للنّيل من نفسها. ومنذ حلوله فيها، آنس جميع الشهود حضورًا إلهيًّا، فجثَوا راكعين، وصاحوا: "يسوع". ولطالما تكلّم ذلك الضيف السماويّ بلسانها، مُسديًا النُصح الخلاصيّ، وعندما ألحف الحاضرون في الاستفسار عن هويّته، أَجاب: "أَنا ممّن يهبطون ويصعدون. أنا روح مريم... أَنا ملاك مريم".

ولئن لم يتعدّ سكن الملاك فيها أَربعة أيّامٍ، إلاّ أَنّ الروح كان يقيم في حنايا الأخت مريم، لا يبارحها، ويُلهمها من أنواره أقوالاً يحسدها على سموّها أكبر اللاهوتيّين، وأناشيد تعيد إلى الأذهان نغمات مواطنيها الأنبياء، وقصائد تحفل بطَعم العفويّة، وتزهو بصور الشرق وألوانه، وتعبق بأريجه، وتتألّق بزهوره وضيائه، وشفافيّة سمائه الصافية، بحيث غدت تلك القصائد، التي ارتجلتها فتاةٌ أمّيّةٌ، في لغةٍ غريبةٍ لم تكن تجيدها، متعةً لبعض كبار الشعراء والكتاب من أمثال وليم جيمس الذي سحرته فيها صُوَرٌ "ساذجةٌ عطرةٌ"، ورينيه شورب الذي تمنّى أَن تغدو تلك الفتاة الأمّيّة، عندما يتمّ تطويبها، شفيعة المفكّرين، فهي كفيلةٌ بإِنقاذهم من الخُيلاء.

أوَلَم تقل هي نفسها، يومًا: "كان في قلبي عصفورٌ صغيرٌ يشدو"؟

لقد كان يسوع شاعر الإنسان والله، فأبرز سنى قسمات الله، الله الحبّ والله الجمال، وأبدع للإِنسان وجهًا قشيبًا حين انتدبه لمصيرٍ إلهيٍّ، رغم بؤسه ووهَنه، وعبوديّاته وحماقاته، دافعًا به إلى القفز أَبعد من كلّ الحدود.

لقد عزف يسوع على سلّم الحياة، كما لم يعزف كائنٌ قطّ، معزوفةً خافقةً بالحبّ، مضرّجةً بالدّم، ما انفكّت أصداؤها تستفزّ البطولات.

ومذ هو درج، من غير ضوضاء، على أَرض فلسطين، بات كلّ قَدَرٍ عاجزًا عن سَحْق الإِنسان، إذ غدا الموت نفسه بذارًا يحضن الحياة.

وعلى منواله تفتّقت لدى أوليائه موهبة الشعر عفويّةً، طليّةً، تُسبغ على الحياة أَبهى ألوان السماء.

وهكذا كانت الأخت مريم، في مخاطبتها لله، وفي دعائها الخليقة إلى تسبيحه، شاعرةً مبدعةً، تنطق، وهي شبه أمّيةٍ، بلسان الأنبياء، وتشرك الوجود كلّه في تمجيد الرب.

لقد حفلت الصفحات السابقة بنماذج من تلك الأناشيد والقصائد، ولكن لا مفرّ من الإقرار بأنّ الترجمة قد أفقدتها الكثير من نكهة تعبيرها العفويّ، فضلاً عن أنّ من

أثبتوا تلك النصوص قد اعترفوا، هم أيضاً، بأنّها، على الصفحة المكتوبة، تبدو جامدةً بعد أن حُرمت من نبرات صوت الأخت مريم الملائكيّة، التي كانت تُضفي عليها روعةً خلاّبةً، تسحر جميع من كانوا يستمعون إليها، وهي تنشدها في جرْسٍ أخّاذٍ، وحركاتٍ مُفعمةٍ بالبراءة والإبداع، والاضطرام بلهيب الله.

كرامات واستئهال

تلك الخوارق والكرامات التي وسمت كلّ سيرة الأخت مريم، قد أثارت إعجاب من عرفوها، وما انفكّت، اليوم، تستفزّ دهشتنا. ولولا مصداقيّة الذين دوّنوا سيرتها، وشهدوا لها، والذين عُرفوا بنفاذ البصيرة، والتمرّس بخبرة النفوس وبالحياة الروحيّة، ورجاحة الحكم، ونخصّ بالذكر منهم المطران لاكروا، أسقف بايّون، وبطريرك القدس، والأبوين إسترات ولازار، لانتابنا الشكّ في وفرة تلك الامتيازات الاستثنائيّة التي خُصّت بها مخلوقةٌ على ذلك القَدْر من البساطة والامّحاء.

ومن أبلغ الأدلّة على سموّ تلك الخوارق وصحّتها أنّ الأخت مريم نفسها كانت في غفلةٍ عنها. فحين كانوا يحدّثونها عن أناسٍ أوتوا مواهبَ إلهيّةً استثنائيّةً، كانت تشفق عليهم وتقول: "يبدو لي أنّ هؤلاء يسيرون على خشبةٍ فوق الماء، وقد قيل لي إنّ هذه الحالات حافلةٌ بالمخاطر... إنّني أوثر الفقر والجهل... يبدو لي أنّني لو أُعطيت مواهب استثنائيةً، لما أقمت ثلاثة أشهر في مدينةٍ واحدةٍ، ولضربت في أرجاء العالم، لكي لا يعلم بي أحدٌ...".

وقد علَّقت مرشدة المبتدئات على هذا التصريح: "كنّا نراقبها عن كثبٍ، وهي تتكلّم على هذا النحو، وكان في حديثها من الإقناع والبراءة، ما يثبت خلوّه من كلّ تظاهرٍ، ويؤكّد لنا، أكثر فأكثر، أنّها كانت تجهل امتيازاتها جهلاً مطبقًا".

هذا فضلاً عن أنّها كانت عاجزةً عن الخداع، من جرّاء سليقتها الصريحة، المجبولة بالصدق، ولأنّها، وهي البسيطة الجاهلة، كانت بين ظهرانيْ قومٍ تختلف عنهم عقليّةً ولغةً، وبالتالي غير قادرةٍ على التأثير فيهم إلاّ بأفعالٍ ملموسةٍ لا لَبْس فيها.

ولكن مهما كانت خارقةً الامتيازات التي خصّ بها الربّ الأخت مريم، ومهما بلغت من تعدّدٍ ووفرةٍ وطابعٍ استثنائيٍّ، بحيث قلّما اجتمع مثلها، يومًا، لواحدٍ من

القدّيسين، إلاّ أنّ تلك الخوارق والامتيازات ليست هي التي تؤكّد قداستها، بل إنّ قداسة سيرتها هي التي تؤكّد مصدر الخوارق وتبرّرها إلى حدٍّ بعيدٍ.

أولَم يتعدَّ يسوع، في ما قطعه للمؤمنين من وعودٍ مغرقة الجرأة في سخائها، كلّ حدٍّ عندما أعلن: "الحقّ الحقّ أقول لكم: إنّ مَن يؤمن بي لا يعمل الأعمال التي أعملها فحسْب، بل يعمل أعظمَ منها أيضاً"؟

إنّ سيرة الأخت مريم التي ما انطوت إلاّ على كلّ رائعٍ، سامٍ، مشرقٍ، هي الجديرة بكل إعجابٍ، أَكثر من الخوارق، وهي الكفيلة بتكنيس كلّ بقعةٍ مبهمةٍ في مسيرتها، كتلك التي برزت في مرحلة منغالور الهنديّة.

وقد أَجمع مَن عرفوها عن كثَب، ومَن تقصّوا سيرتها، من أَمثال اللاهوتيّ الأب "كاريغو لاغرانج"، على أنّها متّزنة النفس، مستقرّة المزاج، سليمة الصحّة عمومًا، راجحة الحكم، فطنةٌ، بحيث لا يمكن عَزْوُ خوارقها لأيّ اضطرابٍ نفسيٍّ، ولا معدى عن التسليم بأنّ تلك الخوارق كانت ثمرة صوفيّتها الممعنة في الاندماج بالله.

فهي، على نحو ما كانت مجمعًا للخوارق والكرامات الإلهيّة، التقت فيها، وتعايشت، في تناغمٍ رائعٍ، جميع الفضائل، وإن بدت متناقضةً أَحيانًا، ممَّا يدلّ على أنّ تلك الفضائل لم تكن دائمًا وليدة استعداد فطريٍّ، بل هي نتيجة عمل النعمة في نفسٍ مخلصةٍ لتوجيهات الروح القدس، فقد أَلّفت بين براءة الطفولة وحكمة الشيوخ، بين تواضعٍ قد يبدو مُغاليًا لو لم يرافقه البساطة والصدق، وبسالةٍ لا تعرف وهنًا، ولا يصدّها عائقٌ عن تنفيذ المشاريع الجبّارة التي ينتدبها لها الربّ. وقد وفّقت بين طاعةٍ مذهلة، وإرادةٍ ماضيةٍ فولاذيّةٍ استسلمت من غير رجوعٍ للمشيئة الإلهيّة، فلم يعد يفلّها مثبّطٌ، ولا يُرهبها فشلٌ، ولا تعرقلها عَقَبةٌ؛ لقد أحبّت الآخرين بغير حساب، ولكن في تبصّرٍ وتجرّدٍ؛ ووقفت حياتها على العزلة والصلاة، ولكنّ إشعاعها تخطّى الحدود والحواجز، وغيّر مجرى نفوسٍ كثيرةٍ؛ عاشت في صمت الكرمل، ولكن كان لأقوالها أبلغ أَثرٍ وأرهن وَزْنٍ في شتّى المناسبات، ولدى مختلف المقامات، حتّى الرفيعة الشأن.

وقد اعترفت، بهذا الصدد، الأخت فرجينيا بيكوسيه قائلةً: "لقد عرفت في حياتي قدّيسين حقيقيّين، منهم الأب شـﭭرييه، مؤسّس الـﭙرادو. وقد أحدثت فيّ أَمَة الله (الأخت مريم) انطباع قداسةٍ مماثلاً. لقد كان لكلامها وَقعٌ فريدٌ يحرّك أعمق ما في القلوب".

لوحةٌ وملامح

وقبل المضيّ في تفصيل فضائل الأخت مريم، يحسن بنا التوقف، برهةً، أَمام لوحةٍ لها رسمها الأب بورداشار، نحو ثلاث سنواتٍ قبل وفاتها، في أعقاب مرافقته لمؤسِّسات كرمل بيت لحم في رحلتهنّ من فرنسا إلى الأرض المقدّسة. وقد كتب:

"عندما شرعت أدرس شخصيّتها، كانت في التاسعة والعشرين من العمر، ولكن، للوهلة الأولى، وعن بُعد، كانت تبدو وكأنّها قد تجاوزت الأربعين، بسبب بدانتها، ووقار سلوكها. ولكن، لدى مراقبتها عن كثبٍ، من زاوية ملامح وجهها المتحرّك، وحركاتها الساذجة المتدفّقة حيويّةً، ولا سيّما أَثناء الفسحة، وعندما لا تقتضي الظروف تناول قضايا جادّةٍ، فهي لم تكن سوى فتاةٍ بين الثانية عشرة والخامسة عشرة.

"كانت من نمطٍ شرقيٍّ أَصيلٍ، واسعة المحيّا، بيضاويّته بعض الشيء، بيضاء البشرة، كامدة اللون، تحمرّ أحيانًا... مجمل قسماتها يتّسم بالقسوة، ولكن غالبًا ما تضفي عليها رقةً بسمةٌ عريضةٌ ودودةٌ، وعينان واسعتان تعكسان براءتها، حيث يلتمع شيءٌ عميقٌ ناطقٌ، ينمّ عن ذكاءٍ حادٍّ رحب الأفق، ونفسٍ أَلِفت التأمّل الطويل، وإرادةٍ قادرةٍ على أجسم المشاريع.

"قامتها تجنح إلى القِصَر... إلاّ أنّ جسمها المنتفخ الذي شوّهه سُقمٌ مُزمِنٌ كان يطبع قِوامها بشيءٍ من الثخانة غير المتوازنة. ولكن لم يكن هناك أروع وأبلغ تأثيرًا في النفس، من الرشاقة الفريدة، والأناقة الرفيعة التي كانت تلك الكتلة السقيمة الثقيلة، تعبّر بهما عن جميع الإرادات والأحاسيس التي تتّصف بها نفسٌ جميلةٌ، تُحكم السيطرة على جسدها، وتأمره كما تشاء.

"وهذا ما يفسّر، ظاهريًّا، تلك التحوّلات السريعة، في سلوكها اليوميّ، من راهبةٍ جليلةٍ، قدّيسةٍ، إلى طفلةٍ ذكيّةٍ متواضعةٍ، حلوة المعشر، ومن الطفلة الفَرِحة، الوافرة الحيلة، البريئة، إلى راهبةٍ متقشّفةٍ، راسخة التجربة، غارقةٍ بكليّتها في الله، متمكّنةٍ من كتمانٍ تامٍّ... والتي تُفلح بلاغتها المتينة النافذة في الإقناع بأكثر النصائح حكمةً وأعمّها فائدةً...

"مثابرةٌ، مُتَدَفِّقَة حيويةٌ، واسعة الحيلة، ومتفانيةٌ في كلّ مجالٍ. كانت المهامّ الأشدّ مهانةً، والأعمال الأكثر تنفيرًا ومشقّةً هي التي تستأثر باختيارها، فتتذرّع بألف حيلةٍ

صغيرةٍ للظفر بها، والاندفاع في أدائها بحماسٍ عارمٍ، غير آبهةٍ بكللٍ، ولا بثياب لا تلبث أن تبلى وتخلَق؛ إلاّ أنّها، مع عدم مبالاتها بالتمرّغ بالتراب، وبتمزيق ذاتها، شأن طفلةٍ لا ترى غير الغاية التي عليها بلوغها، وتمضي نحوها بكلّ عنادٍ، كانت كَلِفةً، إلى أَبعد حدٍّ، بالنظافة والحشمة والفقر. فحبًّا بالفقر، كانت تتسربل، قبل العمل، بثياب المعركة البالية، والتي لم تعد تخشى لها ضررًا، على أن تكون تلك الأسمال ممثّلةً، أبدًا، للزيّ الرهبانيّ الكامل، الذي لا ترتضي حشمتها انتقاص شيءٍ منه. وهي لا تكاد تفرغ من عملها الشاقّ القذر، حتّى يتجلّى ميلها المرهف للنظافة، بمبادرتها إلى مضخّة الماء، ولو اقتضى الأمر منها أن تختلف إليها عشرين مرّةً في اليوم، وِفقًا لوجوه مشاغلها، بحيث لا يظهر على يديها أو ثيابها أدنى لطخةٍ منفّرةٍ، تحدوها، في ذلك، محبّتها للقريب، بقدر ميلها الشخصيّ إلى النظام والنظافة.

"ذلك هو المشهد الذي تجلّى لناظري طوال أسابيع عديدةٍ، بالإضافة إلى إغفالها الدائم لذاتها، وتجرّدها من غير حدودٍ، ممّا يحملها، أبدًا، على التضحية بذاتها، في كلّ شيءٍ، بل حتّى على التخلّي عن سعادة التناول وحضور القداس، من أجل التفرّغ للعناية بالجمعيّة، أو لتقديم خدمةٍ لإحدى الرئيسات أو الأخوات.

"ولم ألحظ، قطّ، منها انفعالاً أو شكوى أو تذمّرًا أو ثورةً على ما يلحق بها من مُضايقاتٍ، أو ما ينال منها من أوصاب...

"ولكن، كما أَشرت سابقًا، كانت تتميّز بغَيرةٍ متّقدةٍ لا توفّر شيئًا ولا أَحدًا. وتثور على كلّ من يصرّ على تعمّد إهانة الله، فتبدو، حينئذٍ، على غرار يسوع يطرد بالسياط باعة الهيكل. ولكن، ما إن يعترف المذنبون بشرورهم، ويقرّرون إصلاحها، حتّى تعود إلى محبّتها الرقيقة، وصلواتها، ونصائحها، وعذوبتها التي لا تحدّ، وتفانيها اللامتناهي. إنّها خليطٌ من مزاجٍ حيويٍّ، مضطرمٍ، مندفعٍ، مستقلٍّ، مطلقٍ، أبيٍّ، وقلبٍ كريمٍ، رقيقٍ، عطوفٍ. إنّها نفسٌ من نارٍ يسيّرها حبّ الله ونفحة النعمة على هواهما، وتوجّهان لهيبها نحو الشرّ، حيثما وجد، في سبيل انتصار الخير وانتشاره.

"صارمةٌ على نفسها حتّى الوسواس، تعامل الآخرين في مرونةٍ ورحابة صدرٍ ويُسْرٍ، على أن تعوّض بصلواتها، وكفّاراتها، عمّا لا تطالبهم به...".

هذه اللوحة، لا بدّ من إِضافة بعض لمساتٍ عليها مستمدّةٍ من فيض الشهادات

التي تناولت الأخت مريم، والتي أجمعت على أنّها كانت قليلة الكلام، تتنكّب عن الثرثرة، وإذا ما تكلّمت، فبصوتٍ خافتٍ، عذبٍ، مقنعٍ، كافٍ لكي يسمعه مخاطبوها فحسب. وإن هي ضحكت، ففي براءةٍ، ضحكةً يعروها وقارٌ رهبانيٌّ، أنظارها خفيضةٌ، لا تلتفت يمنةً ويسرةً، وتتحاشى التحديق في محدّثيها. وإذا ما اقتضت منها الأحوال التحديق في أَحدهم، فقد كانت نظرتها تحمل رسالةً بعيدة المدى، على حدّ ما شهدت به إحدى أخواتها بقولها: "عندما كانت تحدّق فيّ، كانت نظرتها تخترق أعماق نفسي، مع أنّنا ما كنّا نتبادل لفظةً واحدةً".

مندفعةٌ، جيّاشة النشاط، سريعة الخطى، شأن من يحفزهم التفاني، وتدفعهم غَيرة الربّ. غير أنّ شعورها الراسخ بحضور الله، قد أسبغ على مشيتها وقارًا، بحيث شُبِّهت، وهي على متن الباخرة التي أقلّتها من فرنسا إلى الأراضي المقدّسة، بأنّها مشية ملكةٍ. وحين لم تكن تؤدّي عملاً مادّيًّا، كانت تخفي يديها بين أردان ثوبها الرهبانيّ.

ومع حدّة مزاجها، كانت متّزنةً، معتدلةً، لا تستطيرها طفرات فرحٍ صاخبٍ، ولا تهدّها نوبات اكتئابٍ مفاجئٍ. لا تغضب إلاّ نادرًا، إذا ما استفزّتها إهاناتٌ موجّهةٌ إلى الله. ولا تكتئب إِلاّ لمنظر الخطيئة. رقيقة المعشر، حلوة الحديث، حتّى ولو كانت الآلام تهصرها.

وقد أجمعت النّسوة اللائي عملن معها أَثناء بناء كرمل بيت لحم على الشهادة بأنّها لم تطرح قطّ سؤالاً ينطوي على فضولٍ، ولا هي حاولت يومًا الاستفسار عن العالم الخارجيّ، فقد كان يشغلها عالمها الداخليّ حيث تعيش في أُلفةٍ حميمةٍ مع الله، ومنه كانت تنهل فرحًا ساكنًا مستقرًّا، لا يعكّره تقلّب الظروف مهما صخبت، ولا الآلام مهما قست.

وكان يشعر كلّ من يدنو منها أَنّ قلبها مولعٌ بالله فحسب. ولا غَروَ أَنّ أروع ما قيل فيها من شهادةٍ، أَجمع عليها كلّ الذين عرفوها، أنّ شعورًا كثيفًا بحضور الله كان يشيع منها، فقد حوّلتها حياةٌ نُسِجت كلّ خيوطها بالفضائل والقداسة والطهر، واندماجها المطلق بالله، هيكلاً حيًّا متحرّكاً.

وقد أجمعت مئات الشهادات على أنّها كانت مجمعًا لكلّ الفضائل التي مارستها جميعها على نحوٍ بطوليٍّ.

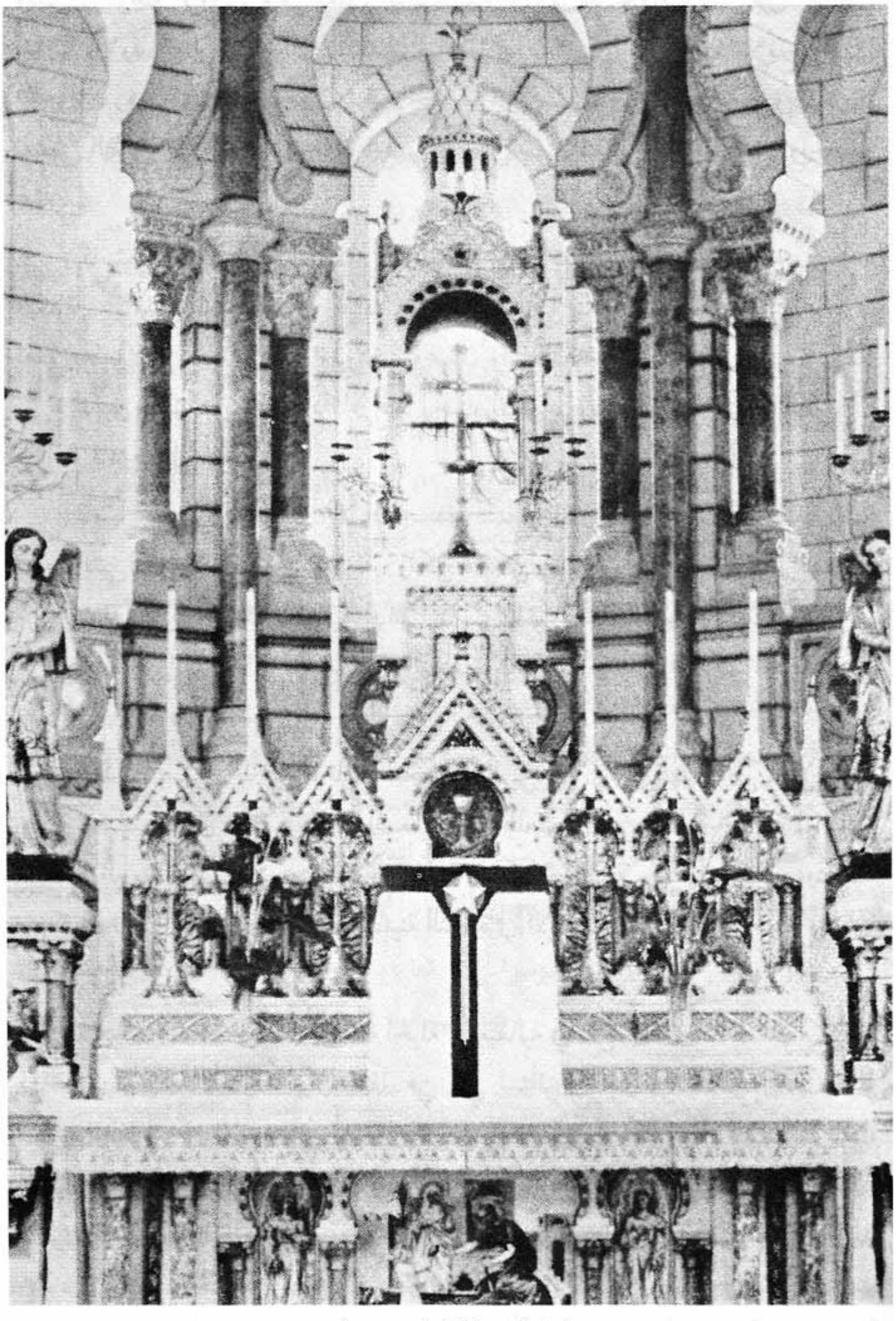

داخل كنيسة كرمل بيت لحم

إِيمانها

ولا غَروَ أَنّ فضائلها كلّها، والقداسة التي طبعت حياتها بأكملها، كانت تتدفّق من نبع إِيمانها الثرّ الصافي. لقد كانت حياتها بأجمعها فعل إِيمانٍ متّصلاً، لا يفتر، صارعت، في سبيل الحفاظ عليه، كلّ قوى الأرض والجحيم، وصارعت أَيضاً، بلا هوادةٍ، ذاتها وضعفها وريبَها.

ومذ تفتّحت عيناها على النور، وذهنها على الإدراك، وقلبها على الشعور، ملأ الإِيمان كيانها، وظلّ ينمو، ويتألّق، ويصبغ شَخْصِيَّتَهَا حتّى مماتها، ففي سبيله عزفت عن رَغد العيش في بيت عمّها، وعن أحلام الحياة الزوجيّة الهانئة، والثروة والمُتع والرفاه، بل صدفت عن العالم، ووقفت ذاتها وإرادتها وحرّيّتها على حبّ الله. من أَجله استُشهدت ببسالةٍ، ومن أَجله كابدت كلّ ضروب استشهاد حياة الطاعة والتقشّف والتجرّد المطلق، والصَّلب اليوميّ. وقد امتاز إِيمانها بكلّ صفات الإِيمان الذي أَحبّه يسوع واقتضاه، ووعد بالاستجابة له. فكان طفولةً روحيّةً تروز في الأعماق مدى وهَنها، ولكنّها، في آنٍ معًا، ترى في الله أبًا كلّيّ القدرة تقوى معه على كلّ شيءٍ، وتستغني عن كلّ ما سواه. وكان إِيمانها ثقةً مطلقةً بالله، تدفعها على القفز في مهاوي المجهول، وهي مطمئنّةٌ بأنّها لن تقع إلاّ بين ذراعي الربّ؛ وكان مقايضةً مجنونةً تؤثر المجهول الذي وعد به يسوع من يتقلّدون صليبه، ويقتفون أَثره، على كلّ مُغرٍ ملموسٍ ممّا يستهوي به العالم من يعيشون في رحابه.

وكان إِيمانها علاقةً بنويّةً وثيقةً بالله، لا بل استكانة طفلٍ إِلى حضن أَبويه، ومناجاةً حميمةً مستمرّةً معه، على حدّ ما جاء في شهادة الأب لازار: "إنّ السماء تحادثها على نحو ما نتحادث في ما بيننا... مع ما هي عليه من بساطةٍ، بل من حياءٍ، في علاقتها مع البشر، تُبدي من الجرأة في تعاملها مع الله ما يحاكي جرأة الأنبياء...".

وإِيمانها كان انتصارًا متجدّدًا على تجارب عاتيةٍ قارعها بها إبليس بضراوة وحاصرها بها الناس بقسوةٍ، أَو انبعثت من أَغوار ضعفها البشري، فواجهتها جميعَها بثقةٍ لا تتزعزع بالله الذي آمنت به، وهي غير مرتابةٍ في قلبها، على نحو ما أَراد يسوع الإِيمان. وثقتها بالله كانت تتعاظم وتتوطّد، كلما قست عليها المحن، وعتت الشدائد.

وكان إيمانها تخطّيًا لكلّ ألغاز الكون المُستغلقة، وأسراره المحيّرة، يحدوه يقينٌ لا لَبْس فيه، بمن هو النور، بمن هو وحده الطريق والحقّ والحياة.

نار الله الآكلة

وكان إيمانها حبًّا لله من غير حدودٍ، حبًّا صافيًا مجرّدًا، ثابتًا، بطوليًّا، لا ينشد لذاته نعيمًا، ولا يبتغي سوى تنفيذ مشيئة المحبوب، ولو هي كانت نكران الذات، والصلب والموت. وما انفكّ هذا الحبّ يزداد اضطرامًا، ويستولي على كلّ كيانها، حتّى غدا اسم يسوع وحده كافيًا لانتزاعها من ذاتها، ومن عالم الأرض، ولخطفها إلى عالم السماء.

وحبّها لله جعلها لا تخشى سوى إهانته، وتتصوّر في أعمالها ومظاهر وهنها من الإساءة له، ما يُترع نفسها كَرباً وندمًا، لا يلطّفهما سوى رجائها الجمّ، وثقتها المطلقة بعطف الله، ورحمته اللامتناهية. وكانت لا تني تردّد مثل هذه الأقوال:

"**أنا لست شيئًا، ولا أقوى على شيءٍ، ولكنّك، يا إلهي، على كلّ شيءٍ قديرٌ**".

"**أنا لست سوى خطيئةٍ، ولكنّني أثق، يا إلهي، برحمتك وحنانك.**

"**يا إلهي، رغم هواني وخطاياي، لي فيك رجاءٌ دائمٌ، وحتّى لو أنّك ألقيت بي في جهنّم، سيظلّ رجائي فيك قائمًا**".

مصابةً بمرض السماء، وفي سبيل رؤية الله، كانت متأهّبةً لكلّ شيءٍ، على حدّ ما تعبّر عنه تلك الصرخة المتفجّرة من أعماقها: "**يا ربّ، إنّني أرضى أن أُصلى، إلى الأبد، بالنار، وأن أُقَطّع إربًا إربًا، وأن أُطحَن كالدقيق، على أن تمنّ عليّ برؤيتك**".

ومن شدّة حبّها لله، نشأ خوفها من وهَنها، وحذرها من الانقياد لدوافع الجسد، وباتت تتلهّف، في أيّامها الأَخيرة، إلى الانعتاق من ذلك الجسد الذي كان ينهض عائقًا دون كمال حبّها، وتهديدًا دائمًا بفَصلها عن الله، وكانت تهتف، في لوعةٍ صوفيّةٍ: "**لن يسعني القول: أحبّك، يا يسوع، حتّى يتحوّل جسدي اضمحلالاً وترابًا. آنذاك فقط، لن أعود أقوى على ارتكاب الخطيئة**"، معبّرةً بذلك، في بلاغةٍ مؤثّرةٍ، عن ذلك الصراع الدائم، الناشب في داخلنا، بين تَطَلُّعٍ متشوّقٍ إلى التمثّل بكمال الله، ونزعةٍ آسرةٍ تشدّنا إلى التراب الذي منه جُبلنا.

وما عاد لِشَيْءٍ في الدنيا وزنٌ في نظرها، وما عاد لحكم الناس عليها من شأنٍ. فالله وحده شاغلها، ورضاه وحده تتوخّى، ومن أَجل حبّه، تتمنّى قلبًا أرحب من الكون، على حدّ ما جاء في إِحدى رسائلها:

"كم أتمنّى قلبًا أوسع من السماء والأرض والبحر، لكي أحبّك، يا ربّ، وكم أموت خجلاً، لأنّني لم أحببك، مثلما أتمنّى أن أحبّك!...

" قد يُقال لي، على حدّ ما حدث فعلاً، أنّني من أهل السماء، ثم يقال لي أنّني من أَهل الجحيم، ولكن لا ذاك القول أطربني، ولا هذا ألقى في روعي الاضطراب؛ فنحن ما نحن أمام الله. إنّ منفانا قصير الأمد، وليست لي سوى رغبةٍ واحدةٍ: أن أمضي إلى الله في أقرب وقتٍ، وأهجر هذه الأرض. فإنّني أرتعد هلعًا، عندما أَشهد نفوساً على قدْرٍ كبيرٍ من النقاء والعلم، تهوي على نحوٍ مريعٍ. فما عساه يحلّ بي، أنا الغارقة في الخطايا والجهل؟ أنا لا أبتغي سوى الله، وقد وهبته إِرادتي، وأسأله أن يسلخني عن هذه الأرض قبل أن أسيء إليه. لا، وألف مليون مرّةٍ لا، لا أريد الإساءة إليه، وأوثر على ذلك الموت".

وكان يسوع يعزّيها تارةً بإِشاعة شعور حضوره فيها، فتتولاّها النشوة، وتتفجّر من أعماق كيانها صيحات الجذَل، وتمجيد الربّ؛ وقد تجري وتصيح داعيةً الخليقة كلّها، إلى مشاركتها حبّها للخالق: "**أجل، أنا لله. وأودّ أَن أسجّل بنجيع فؤادي: أنا ليسوع، أودّ أَن أظهر ذلك للسماء والأرض، ولجميع المخلوقات**".

وكان يسوع يتوارى، تارةً أُخرى، فتتعالى من أغوار ذاتها صيحات الوجْد، والشوق المضنى: "**ما العمل كي أحبّ يسوع؟ إِني جائعةٌ وعطشى إلى يسوع، أريد أن أشرب يسوع، أريد أن آكله... متى سأظفر بيسوع، متى سأرى يسوع؟**".

وسواءً تجلّى لها يسوع، أو انحجب عنها، كان حبّه حريقًا يلتهم أَحشاءها، ولا يزيده تجلّيه أو انحجابه إلاّ اضطرامًا. وكان توقها إلى الله يُلهمها صرخاتٍ مؤثّرةً، تتردّد فيها أصداء مراثي الأنبياء، وشكوى أيوب:

"يا رب، إن تربتي جافّةٌ محروقةٌ
فأمدِّها بنداك.

الفساد يعيث في لحمي،
ساقاي باتتا عاجزتين عن حملي،
وباتت يداي عاجزتين عن الحركة،
أعصابي متشنّجةٌ،
وعظامي قد جفّت،
ومخّ عظامي مثل دخانٍ عَفِنٍ،
شعر رأسي غدا قاسيًا
وانتصب مستقيمًا يخزّني وخز الإبر.
أذناي قد انسدّتا، وتصلّبتا بحيث لا أقوى على السماع.
عيناي تبعثان نارًا، ولا تريان النور.
أنفي قد ضاق،
والتصق لساني بحنكي،
فلا يستطيع النُطق بكلمةٍ كي يصرخ إليك،
وأسناني متراصّةٌ، بحيث لا يمرّ منها الهواء،
وقد أشفيت على الموت.
شفتاي بلغ منهما الجفاف بحيث لا أقوى على تحريكهما،
لكي أهتف إليك استغاثتي،
يا ربّ، أرسل نداك إلى هذه التربة المقفرة،
فتدبّ فيها الحياة من جديدٍ".

ومرّةً أُخرى هتفت: "**أنت بالغ الحنان، كيف قسا قلبك، حتّى لا ترأف بي؟ صحيحٌ أنّني خطئت، ولكن انظر كيف أنّني لم أعُد أطيق احتمالاً**".

وكانت تجتاحها رغبةٌ عارمةٌ في أَن يشاركها حبّها المتّقد لله العالم أَجمع؛ وكان يمزّق نفسها أَن ترى الطبيعة تُسهم في تمجيد الله، في حين يحجم عنه الكثير من البشر، رغم حبّ الله اللامحدود لهم.

وكلّ عملٍ اضطلعت به، استهدف مجد الله، وحياتها كلّها عاشتها حبًّا بالله، فكانت عظةً متصلةً حافزها الرغبة في نشر حبّ الله.

وكم كانت في لهفةٍ إلى انتشار الإيمان، كم ألزمت نفسها بأصوامٍ وتضحياتٍ وكفّاراتٍ ومسوحٍ، من أجل هداية الخطأة، وارتداد الضالّين، وشيوع حبّ الله في المسكونة كلّها، واضطرامه في كلّ قلبٍ!

وكم قد صلّت وضحّت من أجل نجاح الرسالات وانتشارها، حاثّةً أَخواتها على التضحية من أَجل المرسلين: "**بما أنّنا لا نستطيع أَن نعمل عملهم، فعلينا مؤازرتهم بصلواتنا وتضحياتنا**".

وكم قد قدّمت من آلامٍ في سبيل انتصار الكنيسة ووحدتها، فحبّها لله كانت تعبّر عنه بكَلَفها بالكنيسة: "**أنا ابنة الكنيسة المقدّسة، ويشرّفني أَن أدعوها أمّي، وبودّي أنْ أهبها دمي**".

حبًّا بيسوع، ونشرًا لمعرفته تطوّعت لتأسيس كرمل منغالور، وتمجيدًا لتجسّده، دأبت على تأسيس كرملي بيت لحم والناصرة.

حبّها ليسوع أذكى فيها حبّها لممثّليه. فقد أَحبّت البابا بيوس التاسع، الذي كانت تدعوه أَباها، حتّى إنّها عاشت معه أوجاعه ونزاعه، واتّشح محيّاها بقسمات وجهه؛ وكم قد صامت لكي يحقّق المجمع الڤاتيكاني أَهدافه، ويتجاوز العقبات والمعاثر! وقد رأت يسوع في كلّ كاهن، حتّى في أزرى الكهنة منظرًا، كالأب يعقوب، خوري قريتها عبلّين، وقد طالما ردّدت: "**إنّ صلاة الكاهن تُفعمني سرورًا، لأنّني لا ألحظ علمه، بل عمل نعمة الله فيه**".

وكم قد غمّها أنّ كثيرين من ممثّلي يسوع، لم يكونوا في مستوى حبّه!

ومثلما أحبّت ممثّلي الله، أحبّت مقامه، فكانت كلِفةً بتزيين الكنيسة، تجد متعةً في تنظيفها، ولا تني تقول: "**من أجل الدير، علينا أَن نكون فقراء، فقراء. ولكن من أَجل الكنيسة، يجب أن نخصّص أجمل ما لدينا**".

ولئن هي أَحبّت يسوع، واستشفّته في كنيسته وممثّليه، فإنّها قد لمسته وعايشته معايشةً سرّيّةً في إِنجيله، وفي سرّ قربانه، وفي صليبه على الأخصّ.

الحديث الوحيد الذي كان يستهويها هو الكلام عن الله، في أسلوبٍ شيّقٍ يُفعِمه الحبّ، ويُطرب جميع مستمعيها ويجتذبهم. وتسليتها الأثيرة، أثناء الفُسَح، كانت في

أن تفتح كلّ راهبةٍ الإنجيل، كيفما اتّفق لها، وتقرأ ما يطالعها من آياته، وعندما كان يحين دورها، كانت تقرأ في تردّدٍ وتعثّرٍ، كطفلٍ يتهجّأ درسه. ولكن غالبًا ما كانت المقاطع التي تقرأها ردًّا مناسبًا على مقتضيات الساعة.

وكانت ترى يسوع في الافخارستيا، رؤيةً حسّيّةً، تأخذ بمجامع قلبها، وتمتلك عليها كلّ مشاعرها. فمنذ الثامنة من عمرها، عندما ظفرت بذلك الغذاء السرّيّ، ما انفكّت في نَهَمٍ إلى ذلك الحبّ المتجسّد، تستمدّ منه عذوبةً ومنعةً. ولطالما عبّرت عن جوعها إليه، بعباراتٍ من نارٍ، تلهب قلوب مستمعيها، وتحلّق هي بها إلى عالمٍ علويٍّ.

ففي ١٨٧٤/١١/٩، كانت طريحة الفراش، وعادتها الأمّ الرئيسة مُستطلعةً أحوالها، فرجتها الأخت مريم، في لهجةٍ طفوليّةٍ، أن تزوّدها بالطعام. وخُيّل إلى الرئيسة أنّها كانت تتضوّر جوعًا، فعرضت عليها طعامًا كانت تستسيغه. ولكنّ العليلة هزّت برأسها رافضةً، وأردفت: "إنّك من الفقر بحيث تعجزين عن إشباعي". حينئذٍ تبيّن للرئيسة إلى أيّ غذاءٍ كانت المريضة تفتقر.

وأمام القربان، كانت تقضي الساعات الطوال، في خشوعٍ وانخطافٍ، تائهةً في الله، مُنتشيةً به، وغالبًا ما دفعتها النشوة إلى الرقص والإنشاد. فكان يغمرها شعورٌ نابضٌ بحضور يسوع في القربان، وإذا ما أمضّها، يومًا، سكوته، لم تكن تتورّع عن قرع باب بيت القربان صارخة: "**استيقظ، استيقظ**".

وكانت تتأهّب للتناول بلهفةٍ، وبعده، غالبًا ما كانت تهتف مذهولةً: "**الآن لديّ كل شيءٍ**".

وكان الصليب كتابًا مفتوحًا يحدّثها عن حبّ يسوع، ويحثّها على مبادلته حبًّا بحبٍّ. وكَلَفُها بيسوع قد جعل الصليب أثيرًا على قلبها، بل قبلة أنظارها، وبرنامج حياتها.

فكلّ ما يذكّرها بيسوع كان يغمرها بالسعادة. وكان عيد الميلاد، على نحوٍ خاصٍّ، ينهمر على نفسها فرحًا يبلغ حدّ الانخطاف.

وحبّها ليسوع قد أضرم فيها التعبّد للروح القدس، ذلك التعبّد الكفيل بتمهيد الدرب إلى يسوع، وبتعميق معرفته، وبإفاضة النعم التي تهب المنعة للمضيّ قدمًا في حبّه. وكانت تبتهل إليه ضارعةً: "**أنا لا أسألك من العلم والحكمة، سوى علم**

اكتشاف يسوع، وحكمة الحفاظ عليه".

وكان أَثمَنَ ما تهديه، صُورٌ دوّنت على ظهرها، بخطّ يدها، في كثيرٍ من الجهد والعناء، دعاءها للروح القدس الذي أسلفنا ذكره.

وبالإجمال، أمست هي نفسها، وأمسى سلوكها كلّه، انعكاسًا لعمل الروح القدس فيها، وتدعيمًا حيًّا لقول القدّيس باسيليوس:

"**كما أنّ الأشياء الصافية الشفّافة، عندما يُصيبها شعاع نورٍ، تتألّق وتستمدّ من ذاتها نورًا جديدًا، كذلك النفوس التي تحمل الروح القدس، والتي يضيئها ذلك الروح، تغدو هي أيضاً روحانيّةً، وتعكس النعمة على الآخرين**".

وهي لم تفرّق، قطّ، في حبّها بين الروح القدس، ويسوع وأمّه. فالعذراء مريم قد واكبتها منذ طفولتها، وظلّت ترعاها في حدْبٍ وعطفٍ حتّى مماتها. وحبُّها الجمّ لتلك الأمّ كان يزيد من حبّها لابنها، وحبّ الله يزيدها تعلّقًا بأمّه، التي كانت تدعوها "أمّ الحبّ".

وخليقٌ بالذكر أنّها، منذ نعومة أظافرها، قد دأبت على الصوم كلّ يوم سبتٍ تكريمًا للعذراء، وكانت تحثّ الأخريات على ممارسة مثل ذلك الصوم تعميمًا لتكريم أمّها السماويّة، وهي عادةٌ ما زالت شائعةً بين الكثيرات من نسائنا المتعبّدات.

وخير تعبيرٍ عن حبّها لله، كان الصلاة. فقد كانت حياة الأخت مريم صلاةً متّصلةً، صلاةً تتلوها بقلبها وشفتيها وكلّ سلوكها؛ صلاةً انقلبت اتّحادًا حميمًا بالله.

وقد عبّرت عن ذلك الاتّحاد، أبلغ تعبيرٍ، بلسان الملاك الذي قال لها في إحدى رؤاها:

"**خذي دلو ماءٍ، واسفحيه في البحر، ثم حاولي العثور على الماء الذي سفحته، فيتعذّر عليك ذلك. على هذا النحو تغلغل هذا الإنسان في الله، وضاع فيه، وبما أنّه وهب الله إرادته، فالله والإنسان يصبحان واحدًا. وكما أنّنا عندما نبحث عن دلو الماء المُراق في البحر، لا نعثر إلاّ على ماء البحر، كذلك عندما نبحث عن الإنسان الذي تغلغل في الله، لا نجد ولا نكتشف سوى الله**".

وهل من عجبٍ، بعد هذا، أَن يشهد جميع الذين عرفوا الأخت مريم، أنّها كانت تُشيع حضور الله من حولها؟ فمن أفعالها وأقوالها وصمتها، ومن كلّ شيءٍ فيها، كان يشعّ الله، ويوحي بحضوره.

وقريبك كنفسك

وقد اقترن حبّ الله فيها بمحبّة القريب، اقترانًا حميمًا، عملاً بتعليم يسوع الـذي أقام من محبّة القريب الدليل الأكيد على حبّه.

وقد أجمع كلّ الذين عرفوها على الشهادة بأنّ الأخت مريم كانت تخفّ إلى أكثر المهامّ مشقّةً ومهانةً، فتقوم بها نيابةً عن أَخواتها، لا بل هي كانت تفزع إلى الحيلـة، للاضطلاع بها عنهنّ.

ومنذ مطلع حياتها، تجلّت لديها فضيلة المحبّة، في روعةٍ نـادرةٍ، يـوم كانـت خادمةً يتيمةً فقيرةً وحيدةً، تعمل في المنازل لكسب معيشتها، ومع ذلك، مـا كانـت تحتفظ لنفسها بشيءٍ من الأجر الذي تظفر به، بل تجود به على من هم أكثـر منهـا فقرًا وعوزًا. وعندما لم يعد لها أيّ مالٍ خاصٍّ تتصدّق به، أغدقت حبَّهـا وعطفهـا وذاتها كلّها، بلا حسابٍ، وظلّت محبّتها المتبصّرة بحاجات الآخرين، الـسبَّاقة إلـى تلبيتها، تتألّق حتّى مماتها، الذي جاء نتيجةً لتفانيها في خدمة العمّال، إذ سقطت وهي تحمل إليهم دلاء الماء البارد، تروي به غليلهم، وتنعش أجسادهم المكدودة. وقد أدلت إِحدى الراهبات بهذه الشهادة:

"إنّني لواثقةٌ بأنّني مدينةٌ بطول أيّامي لعنايتها ومحبّتها وصلواتها. وقد برهنـت عن مثل تلك المحبّة لجميع الأخوات، من غير تمييزٍ، لخير نفوسهنّ وأجسادهنّ".

ولم يكن لبذلها حدودٌ، فهي أَبدًا كانت تغفل ذاتها، كي تعنى بـالآخرين. بحيـث كانت غالبًا ما تحتاج إلى من يذكّرها بأنّ لها جسدًا عليها العناية به أيضاً.

ولم تكن خدماتها مادّيةً فحسب، بل كانت، في المقام الأوّل، تستهدف النفـوس، وقد حباها الله امتياز قراءة خفايا الضمائر والقلوب، بحيث تكتـشف فيهـا مـواطن الضعف، وتسعى إلى إِصلاحها، متذرّعةً الإقناع واللين أَحيانًا، والصراحة القاطعـة أَحيانًا أُخرى، وفي كلّ حالٍ، كانت تمارس أَثرًا بعيد المدى. فكم قـد طالعـت مـن حكايات الضلال في عيون من صادفتهم، فقادتهم إلى سويّ السبيل!

وأكثر من أساليب الصراحة والإِقناع، كانت تلتمس إلى إصلاح الآخرين، التألّم عنهم، والتطوّع لجميع ضروب التضحيات والأَصوام، في سَبيل خلاصهم.

وكانت تبتغي القداسة والكمال للجميع، مثلما تبتغيهما لنفسها، ولا تتوانى عن أيّة تضحيةٍ، في هذا السبيل، وقد جاء في رسالةٍ لها: "**هذه الدنيا تبعث فيّ سأمًا شديدًا، ومع ذلك فإنّني على أهبةٍ للعيش أربعين سنةً، إن كنت، بذلك، أستطيع تجنيب أحد إخوتي ارتكاب أصغر هفوةٍ**".

وكانت، أبدًا، رسول محبّةٍ، ولا تني تردّد: "**عوضاً عن نَكْءِ الجراح، وصبّ الخلّ فيها، يحسن، بالأحرى، محاولة الحدّ من ألمها، ولأمّها بزيت المحبّة**".

وقد توّجت محبّتها بحبّها من ناصبوها العداء، وإحسانها لمن اضطهدوها، والائتار منهم بالصلاة من أَجلهم. فهي لم تُضمر، يومًا، ضغينةً أو حِقدًا على أَحدٍ؛ بل كانت تستمدّ من الاضطهاد فرحًا، وتحلّ المفتئتين عليها المقام الأثير في قلبها، وبذلك، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، أَثبتت وفاءها ليسوع.

شركة القدّيسين

وقد أحبّت الأخت مريم، حبًّا خَاصًّا، النفوس التي تقضي في المطهر، فترة تطهّرٍ من الأكدار التي لطّختها على الأرض، تمهيدًا لاتّحادها بالصفاء الإلهيّ. فتلك النفوس باتت عاجزةً عن استحقاق أَيّ ثوابٍ بنفسها، ومن ثمّ، فهي تفتقر إلى شفاعة من لا يزالون قادرين على التضحية والاستحقاق. وقد ضربت الأخت مريم أروع مثالٍ في شراكة القدّيسين التي تجمع بين أَهل الدنيا والآخرة بأواصر المحبّة والتعاون، فدأبت على الصلاة من أجل نفوس المطهر، وتجشّمت، من أَجلهم، الكثير من التضحيات والأصوام والكفّارات، وعقدت مع تلك النفوس علاقاتٍ وثيقةً فريدةً، كثيرًا ما انطوت على عِبَرٍ وعظاتٍ، مثل إبراز الثمن الباهظ الذي يكلّفه إِرضاء نزواتٍ عابرةٍ، وإيثار الزائل على الخالد، وحَرْق البخور على موائد المادّة بدلاً من إِحراقه على هيكَل الروح.

فقد تراءت لها، يومًا، راهبةٌ متوفّاةٌ، وأنبأتها بأنّها تعاني الكثير في المطهر لأَنّها ظلّت متعلّقةً بقطعة نقدٍ قيمتها خمسة فرنكاتٍ، أَخبأتها في مكانٍ ما من الدير، ولم تجرؤ، وهي على فراش الموت، على الاعتراف بذلك. وقد تقصّت الرئيسة الأمر، فعثرت على قطعة النقد، في المكان المحدّد.

وكانت الأمّ إِيلي، مرشدة الأخت مريم، دائمة القلق على مصير أَبيها الذي فاجأتــه المنيّة، لعدّة سنواتٍ خلت. وفي أعقاب صلواتٍ كثيفةٍ، طمأنتها الأخت مريم أَنّ أباها قد خلص في اللحظة الأَخيرة بفضل "نعمة نورٍ وتوبةٍ"، وأَنَّه يتطهّر في المطهــر، وقــد أشفى أَجل تطهّره على الانقضاء. ورغبةً في التأكُّد، اقتضت الأمّ إِيلي من الأخت مريم الإفصاح عن اسم أَبيها، فأفضت إليها به، بعد صلاةٍ قصيرةٍ، مــع أنّ المــألوف فــي الكرمل أن تبقى طيّ الإغفال والكتمان أسماء الراهبات، وأسماء أسرهنّ. وبذلك تثبّتت الأمّ إِيلي من الأمر، وراحت تضاعف الصلوات والأصوام والقداديس عن نيّة والــدها، ممّا عجّل انتقاله إلى الوطن السماويّ. وكذلك كان شأن كثيرٍ من أقرباء الراهبات.

براءتها

ولم تكن الطفولة، في حياة مريم البواردي، وقفًا على إِيمانها فحسب، بــل هــي طبعت كلّ سلوكها، وتجلّت في براءة طويّتها، وفي جهلها للشرّ، رغم إِحاطته لها من كلّ صوبٍ، ومناصبته إيّاها العداء الشرس.

نعمة العماد التي انسكبت على نفسها، طفلةً، ظلّت فيها ناصعةً متألّقــةً ســحابة حياتها، لم يلطّخها، يومًا، عكر الخطيئة، بحيث استطاع معرّفوها الذين أحاطوا بهــا معرفةً حميمةً، في أواخر أيّامها، التأكيد، تأكيدًا قاطعًا، أنّها لم ترتكب، يومًا، خطيئةً طوعيّةً، ولو طفيفةً، بل لم يكن بوسعها ارتكاب الخطيئة، بسبب وفائهــا لحــبّ الله، وفاءً كانت، أبدًا، مستعدّةً، في سبيله، للتضحية بكلّ شيءٍ، وعلــى الأخــصّ بــذاتها وحياتها، عملاً بتعليم الإِنجيل، وعلى حدّ ما يشهد به هذا الابتهال المنبثق من أَغوار كيانها:

"**يا إِلهي، إن كان من شأن عينيّ إِهانتك، فاقلعهما، أَو إِنّني أقتلعهما بنفــسي، وإن كان من شأن يديّ أو رجليّ أو لساني إهانتك، فابترها. حطّم جــسدي بــأعتى الآلام، على أن لا تأذن لأيٍّ من أعضائي بإِهانتك**".

وحتّى في أَشهرها الأَخيرة على الأرض، كانت تقول: "**أودّ ألاّ أغضب يــسوع؛ إنّني أوثر أن ينتزعني من هذه الحياة، وأن يدعني في المطهر مئة سنةٍ، بل ألــف سنةٍ، على أن أعصى له أدنى أمرٍ**".

وقد دلّلت بالبرهان الماديّ الدامغ أَنّ تلك لم تكن أقوالاً يُمليها شعورٌ متأجّجٌ فحسْب، بل تأهّبًا فعليًّا جريئًا للتضحية في سبيل الحفاظ على طُهر النفس والجسد. فذات يومٍ راودتها خواطر دنسةٌ، فلم تتوانَ عن مكافحتها بالنار اللاهبة التي وضعت يدها فوقها إلى أن احترقت إِحدى أصابعها، ونزّ منها الدّهن، ممّا خلّف فيها ندبةً دائمةً، لا بل وسامًا رفيعًا مُرضيًا في عينَي الربّ.

ولقد شهدنا كيف أنّ الشرّير نفسه، عندما أذن له الله بالتصدّي لها بأشرس تجاربه، قد حظر عليه المسّ بطهرها، وكان إبليس مرغمًا على الإِذعان للأمر، لا بل أنّه اضطرّ قسرًا إلى الإِقرار بأنّ الربّ حريصٌ على طهرها لأنّها حافظت عليه بعنايةٍ وحرصٍ.

وقد اعترف جميع الشهود الذين عايشوها أنّها كانت توحي انطباعًا بطهرٍ ملائكيٍّ، وأنّ محيّاها وأقوالها وسلوكها كانت تنطق بالطُهر والبراءة، وأنّها حملت معها إلى لحدها طهر الروح والفكر والجسد، نقيًّا نضيرًا.

إنّ معايشتها الله، في كلّ لحظةٍ، وإِخلاصها لحبّه بأيّ ثمنٍ أَحاطاها بوقايةٍ دائمةٍ من الخطيئة، وحافظا على براءة عمادها ناصعةً. ولكنّ تلك البراءة لم تتوفّر لها دائمًا بيُسرٍ، بل إنّها كانت، غالبًا، ثمرة صمودٍ بطوليٍّ في وجه قوى الجحيم. لقد راودتها تجربة الخطيئة، للمرّة الأولى، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وقد ألقت في روعها الذُعر والاضطراب، فهرعت إلى كرسيّ الاعتراف، ولم يسكن جأشها حتّى عرفت أنّ التجربة ليست هي الخطيئة؛ بَيدَ أَنّ نفورها من الخطيئة ظلّ راسخًا في أعماقها لا يبارحها، وظلّت كلّ تجربةٍ تبعث فيها الرّعدة من تلطيخ العماد الناصع.

وقد لحظنا، بعد معايشة الأخت مريم، خلال الصفحات السالفة، كيف كانت تحذر حتّى شبح الخطيئة، وبيّنّا أيّ شعورٍ بالندم كان يستحوذ عليها، على أدنى انفعال تتخيّل فيه إهانة الله، في ذاته، أو في واحدةٍ من أخواته، وأيّة دموعٍ مريرةٍ مدرارةٍ كانت تذرفها على ذلك؛ ويخيّل إِليها، أنّها، من جرّاء ذلك، تستأهل الهلاك، لولا رجاؤها الراسخ في رحمة الله الجمّة.

وأيّة عِبرةٍ، في ذلك، لنا، نحن الذين، بمجاورتنا للخطيئة والشرّ، نألفهما بحيث نغدو لا نتحرّج منهما، بل نشربهما يوميًّا شربنا للماء القَراح، ولا يؤرّق لنا ذلك

نومًا، ولا يأخذنا بالذنب شعورٌ، في حين أنّ تلك التي أجمع كلّ الذين اطّلعوا على خفايا نفسها عن كثب، على أنّها لم تقترف، يومًا، خطيئةً، كانت ترزح تحت وقرِ هناتٍ ترى فيها معاصي جسيمةً.

وكان الربّ يدعم براءتها، ويوطّد مقتها للخطيئة، بإِطلاعها، في رؤاها المتعاقبة، على حِيَل الشرّير للإِيقاع بالنفوس، وعلى مدى ما يعيث فيها من فسادٍ، وما تهوي إليه النفوس الخاطئة من دركات الانحطاط التي تُثير غضَب الله وألمه. فالخوف الذي كان يتولاّها، في أعقاب تلك الرؤى، لم يكن خوفًا من عقابٍ أو جحيمٍ، بل إنّ جلّ ما كانت تخشاه، وترتعد منه، هو إِغضاب من وقفت حياتها على حبّه، وبالتالي، فقد كانت تلك الرؤى لا تزيدها إلاّ إيغالاً في الاتّحاد بالله، وفي محبّةٍ له مشرعة الآفاق إلى ما لا نهاية.

على خطى الأسيزيّ

براءةٌ وطهرٌ أكسباها مثل ما كان للأبوين الأوّلين، قبل معصيتهما، من سلطانٍ على الخليقة، ومثل ما تيسّر للقدّيس فرنسيس الأسيزيّ، عندما بلغ من سموّ النفس مستوًى ملائكيًّا، فأنِست إليها الحيوانات العُجم، وأطاعتها، وأذعن لها الجماد.

وقد سبقت لنا الإشارة إلى السمكتين اللتين قفزتا من حوضهما للاقتراب منها، وظلّتا على قيد الحياة، ولأوراق النبتة اليابسة التي غرستها فضربت جذورًا ونمت نبتةً سويّةً. ويحسن بنا أن نضيف أمثلةً أُخرى تنطوي على طرافةٍ ودلالةٍ.

ففي الأوّل من حزيران ١٨٧٤، لحظت الأخت مريم أَنّ جماعةً من النحل كانت تهمّ بهجر خليّتها، وكانت مشاغلها تدعوها إلى عملٍ آخر يحول دون مراقبتها لها، فخاطبتها قائلةً: "يا مخلوقات الله الصغيرة، إن أنتنّ انطلقتنّ من غير أن نراكنّ، فلا تفررن، ولكن امكثنَ على الأرض حتّى أعود، وحينئذٍ ستنطلقن إلى الشجرة. وما لبثت أن انطلقت جماعة النحل، في غياب الأخت مريم، وحطَّت فوق العشب، على الأرض، مع توقها الشديد إلى التحليق، وكأنّ قوّةً سرّيةً كانت تشدّها إلى الأرض. وما إن عادت الأخت مريم حتّى طارت النحل، وحطّت على الشجر امتثالاً لرغبتها. ثم جيء بالخليّة، فأنشدت الأخت ترنيمةً دينيّةً، وتوجّهت إلى النحل بالقول: "باسم

يسوع، ادخلن إلى الخليّة"، وإذا بالنحلات تتزاحمن على منافذ الخليّة، فيما الأخت مريم تفيض إِعجابًا بطاعتهنّ.

وكان، في كرمل بيت لحم، كلبٌ شَرِسٌ يُدعى "لولو" ينشر الرعب في قلوب الغرباء، بحيث لا يجرؤ أَحدٌ على الاقتراب من الدير، ما لم يكن الكلب موثقًا بإِحكامٍ. وكانت الأخت مريم شديدة الحَدْب عليه، والعناية به، ولا سيّما بعد أَن أَنقذت حياته، في أعقاب اعتداء مجرمين عليه. وقبل وفاتها بأيّامٍ، أنبأته بأنّ "أُخيّتها" الآنسة دارتيكو هي التي تنفق على إِطعامه، فعليه التعبير لها عن شكره وودّه لدى زيارتها للدير. وفي شهر أيّار من عام ١٨٧٩، مثلت الآنسة دارتيكو أمام بوّابة الدير، فهرع نحوها "لولو" – وهو لم يكن قد رآها، قطُّ، من قبل – واستروح ثيابها، ولثم قدميها، ثم ارتمى عندهما مُبصبصاً بذيله، في أعذب تظاهرة ودٍّ، تنفيذًا لوصيّة الأخت مريم.

وحتّى الطبيعة الجامدة كانت تمتثل أَحيانًا لرغبة الأخت مريم؛ فقد اكتشفت يومًا أَنّ الحليب الذي كان عليها تقديمه لأَخواتها الراهبات، قد حمض وتجمّد وأَصبح كاللبن الرائب، غير أَنّ ثقتها بالله كانت بلا حدودٍ، فغلت اللبن، مبتهلةً إلى الله وقائلةً: "أنت تعلم أنّني بحاجةٍ إلى هذا اللّبن من أَجل تقديمه للأخوات، وسأغليه؛ فباركه بحيث يعود صالحًا تمامًا، ولا يزداد فسادًا"، وربّما ارتابت، آنذاك، رفيقتها في المطبخ بسلامة عقلها، ولكنّها ما لبثت أَن فغرت فمها دهشةً، وهي ترى اللبن المحمّض الرائب يرتدّ سائلاً حلوًا طيّب المذاق، في حين أنّ الأخت مريم وقفت معجبةً بطاعة اللبن وانصياعه لأمر الربّ.

هذا، وكانت الطبيعة تُشيع في نفسها الإعجاب والنشوة، فلا تقع عيناها، في الحديقة، على الأَشجار والثمار والزهور والطيور والفراشات حتّى يضجّ عيدٌ في حنايا صدرها، وتتصاعد إلى شفتيها أناشيد شكرٍ مضمّخةٌ بالشعر، فتدعو الخليقة كلّها إلى مشاركتها تسبيح الخالق.

وكانت، على نحوٍ خاصٍّ، كَلِفةً بالزهور التي يوحي إليها كلّ صنفٍ منها ممارسة فضيلةٍ ما، وقد حفلت الصفحات السابقة بأمثلةٍ على ذلك. كما كانت تستمدّ من البهائم دروسًا في محبّة الله؛ فالأسماك الفاغرة أشداقها تلقّنها التطلّع الدائم إلى الله، والعصافير التي ترفع رأسها عاليًا عقب كلّ غبّة ماءٍ، تعلّمها شكر الله على كلّ أَفضاله.

وقد استلهمت من كلبٍ فضيلة الرجوع إلى الله، ذات يومٍ، وقد استبدّ بها الأَرق على هنةٍ رأت فيها إِهانةً جسيمةً لله، فراحت تتساءل، قلقةً، إن كان الله يقبل خاطئةً جاهدةً، وحريٌّ بنا أَن نستمع إليها تحاور نفسها:

"**كنت أقول: أأفقد رؤية الله أبدًا، أَبدًا؟ لا، لست أقوى على ذلك! إنّه قلقٌ يُحرق حتّى عظامي... ونهضتُ باكرًا جدًّا، وشرعتُ بالغَسل وحدي، وكنت متأهّبةً لأن أحمّل جسمي ما لا يُطيق، بل لأن أنقل الجبال، وأمتاح كلّ ماء البئر، وأَن أغسل الدير كلّه، من أعلاه إلى أسفله، في غير شعورٍ، لشدّة ما كان خوفي ألاّ أرى الله، أبدًا، يضنيني...**

"**إليكم ما سكب في صدري العزاء: لدينا كلب حراسةٍ، وقد ارتكب خطأً، فضربته، وكان يتلقّى الضرب حاني الرأس. ثم مضيت إلى قاعة الطعام، فلحقني، ونهرته، ولكنّه عاد، وطردته من جديدٍ، فقبع عند الباب، وراح يرنو إليّ بنظرةٍ أَثارت شفقتي. وإذ ذاك أَلقمته كسرة خبزٍ، وفي تلك اللحظة جال في خاطري عطف الله على النفس التي تتوب إليه، على نحو ما عاد إليّ الكلب، وأدركت أنّه أكثر استحالةً ألاّ يرأف الله بنا. وأَخذ بي التأثّر، وزالت كروبي. صحيحٌ أنّني ظللتُ أعاني من السقم ما يحاكي الاحتضار، ولكنّني أَتيت على عملي بأكمله**".

مستقيمةٌ كالأَلِف، صريحةٌ كالسّيف

وطفولة الأخت مريم الروحيّة، تجلّت أَيضاً في بساطتها واستقامتها وصراحتها. فقد أجمع الشهود على أنّ كلّ ما فيها كان يتعارض مع أيّ نوعٍ من الرياء والنفاق والمراوغة، ولطالما ردّدت: "**إن الربّ يمقت الرياء، ويحبّ القلب المستقيم...**" وأفادت أيضاً: "**إنّ الراهبة التي خاطت عُنقي كانت تقول، لدى كلّ غرزة إِبرةٍ: "تذكّري أن تسيري أبدًا بقلبٍ مستقيمٍ، وفكرٍ متّضعٍ...". يقول الربّ: القلب المستقيم والفكر المتّضع يحفظهما الله. إذا امتلك إنسانٌ جميع ضروب المناقب، وافتقر إلى القلب المستقيم والفكر المتّضع، فلن تجدوني في بيته. وإذا كان لإنسانٍ كلّ المعايب والخطايا، وكان مستقيم القلب، متّضع الفكر، وجدتموني في بيته". "من لم يكن قلبه مستقيمًا خشي الإنسان، أمّا القلب المستقيم فيخشى الله، لا الإنسان. من خشي الخليقة، انتبذني، يقول الربّ**".

والأخت مريم، لم تخشَ يومًا سوى الربّ، ولم تداهن إنسانًا، ولم تخضع إلاّ لأوامر الله، مهما غلا الثمن، فكانت مستقيمةً كالألف، صريحةً كالسّيْف، ممّا سبّب لها قسطًا وفيرًا من الاضطهاد والعَنَت. وهي لم تَغْمِط يومًا إنسانًا حقّه، وأدّت جميع فرائضها في أمانةٍ مطلقةٍ، وكانت تذوب عرفانًا بالجميل، لكلّ من أَحسن إليها.

ولقد كانت عاجزةً، بسليقتها، عن كلّ كَذبٍ أو خداعٍ، بل، على النقيض من ذلك، كانت تجهد وترغب في ألاّ يرى الناس سوى مواطن ضعفها، فيزدروها، ويشيحوا عمّا خصّها به الله من كراماتٍ تجهد في التكتّم عليها.

وتلك الاستقامة الصافية أسبغت على بصيرتها جلاءً وشفافيّةً، فسقطت عن أَبصارها الأقنعة التي يختفي وراءها الآخرون، ولم تؤخذ، يومًا، بحبائل خداعٍ، ولا سيّما في ما يتعلّق بشؤون الله؛ وقد حفلت سيرتها بمواقف أماطت فيها اللثام عن محاولات الغشّ والتضليل. وكانت، على نحوٍ خاصٍّ، شديدة الحيطة حيال الخوارق، وتحذّر الرؤساء الدينيّين من الانسياق وراءها، داعيةً إيّاهم إلى إيلاء اهتمامهم، في المقام الأوّل، للإنجيل والكنيسة، والواجهات الرعويّة.

وأُعطيت أن تستشفّ خفايا النفوس، فأَلِفَتْ أَن تخفّ لتقويم كلّ معوجٍّ فيها، وكانت محبّتها تغلّف الحقيقة بعباراتٍ حلوةٍ، ليكون الدواء مُستساغًا. لكنّها لم تحاول، يومًا، عن الحقيقة، مراوغةً.

حكيمةٌ كالحيّات

إنّ النيّرين غالبًا ما يدهشون بنظرتهم الواقعيّة إلى الأمور، وحكمهم السديد فيها. وقد اقترنت في الأخت مريم بساطة اليمامة بحكمة الحيّة. فإذا ما سُئلت، تمهّلت في الإجابة، وإذا ما أَجابت اتّشحت أقوالها بحكمةٍ سماويّةٍ. وبكلمةٍ كانت تحلّ قضايا مُستعصيةً، وتدلّ إلى الدرب المتوجّب انتهاجه. وكانت فطنتها تلمّ بدقائق الحياة، وتميّز في جميع الأمور خَيرها.

لقد رأينا كيف أنّها لم تفرّق، قطّ، بين تمجيد الله في الصلاة، وتمجيده في العناية بالمرضى، وقد أسدت يومًا للأخت جوزفين، من الراهبات العاملات، التي كانت وَلِعةً بالصلاة بحيث تُهمل، في سبيلها، مهامّ المطبخ، النصيحة التالية: "**عليك الاهتمام بشؤون المطبخ، اهتمامك بتلاوة "أبانا"**".

ولم تكن تملي على أيّة راهبةٍ رسالةً تنطوي على أمورٍ خطيرةٍ، بل تفزع إلى رئيس الدير توكل إليه المهمّة، إذ كانت تدرك ضعف المرأة في كتمان السرّ.

وفطنتها كانت سماويّةً، مستمدّةً من استلهامها الدائم للروح القدس. تلك الفطنة هي التي آزرتها على اجتياز مخاطر الحياة، وهي الحَدَث اليتيمة، الوحيدة، الجاهلة الفقيرة. من غير تعثّرٍ ولا ضَياعٍ، وكان الله هو الذي كان يقود كلّ خطواتها.

وفطنتها المستوحاة من السماء هي التي أسبغت على نصائحها حكمةً فائقةً، بحيث لم يتورّع الكبار عن استشارتها، وما ندموا، يومًا، على الاسترشاد بأقوالها، التي كانت تقود إلى الهدف بدقّةٍ، وبحيث لقيت فيها كثيراتٌ من أخواتها سبيلاً إلى الخلاص والكمال.

وكانت عفويّةً في غير تصنّعٍ، مندفعةً، في اتّزانٍ ومن غير مغالاةٍ. حتّى التقشّف والكفّارات التي كانت سبيلها إلى إحكام سيطرة الروح، وترويض الجسد، والتشبّه بالفادي المصلوب، كانت تقف بها عند الحدود التي لا تمنعها من المضيّ في القيام بواجباتها.

وبقدر ما كانت محبّتها دفّاقةً، عطوفةً، كان مَقتُها لكلّ شططٍ قاطعًا، واستنكارها له حازمًا، وفي جميع الأحوال لم تستهدف سوى مجد الله.

وعندما كان عليها تبليغ رسالةٍ سماويّةٍ، كانت تتكلّم بسلطانٍ، في جرأة الأنبياء والقدّيسين، وفي بسالةٍ غير هيّابةٍ، تحدوها قوّةٌ لا تقاوم، وتؤكّد، في آنٍ معًا، على هوانها وصغرها. وقد صرّحت، في مطلع عام ١٨٧٤: "**النعمة الحقّة هي التي تدفع إلى التلاشي... عندما يزورني الربّ، أتبيّن مدى عدمي وبؤسي، بحيث لا أقوى على احتمالهما، إن لم يساندني الربّ**". وإن لم يرافق إيحاءاتها الشعور العميق بهوانها، ارتابت بمصدرها، وجنحت إلى عَزْوها إلى وسوسةٍ شيطانيّةٍ.

أيّة حكمةٍ في ذلك المعيار! وكيف لا يُغدق الروح القدس فَيض حكمته على نفسٍ على ذلك القَدْر من التواضع والاستسلام لله، في بساطةٍ عذبةٍ، وبراءةٍ ناصعةٍ، وكيف لا يصبح لها مشيرًا وملهمًا؟!

إنّه ليصحّ فيها قول برغسون في النفس المتصوّفة: "إنّها تكتسب رؤيةً بسيطةً، وهذه البساطة، التي تدهش في أقوالها، وفي سلوكها، تقودها، عبر تعقيداتٍ تتجلّى

للجميع وتخفى عنها، إذ يولد لديها علمٌ فطريٌّ، وبراءةٌ مكتسبةٌ، فيوحى إليها تلقائيًّا بالنهج المُجدي، والفعل الحاسم، والكلمة الفصل".

تجرّدٌ وفقرٌ

لقد أدركت قدّيستنا بغريزتها الصافية، أَن ليس مثل حبِّ التملّك ما يقصينا عن الله، ويحوّلنا عن دروبه. فصدفت، منذ صباها، عن كلّ متاع الدنيا، وتجرّدت، حتّى العُري، عن كلّ شيءٍ، حتّى عن رغباتها وإرادتها، ولم تحتفظ إلاّ برغبة حبّ الله، وتنفيذ مشيئته.

واختارت الفقر، طائعةً، ومارسته بحبٍّ وقناعةٍ، فكان فقرها، على حدّ ما اقتضاه يسوع من أتباعه، ازدراءً للمال، ولكلّ ما يمثّله من تملّكٍ وتعلّقٍ وأنانيّةٍ، وقسوةٍ، واستغلالٍ، لا فقرًا تفرضه الظروف قسرًا، ويظلّ خنجرًا مسمومًا مغروسًا في النفس يعيث فيها الفساد، مولّدًا الحقد والحسد والنّهم المكبوت إلى الثروة، والتلهّف إلى الاثّثار ممّن يمتلكونها ببذّهم في النيل منها، مهما كانت السبل والذرائع.

وكانت مريم ما تزال طفلةً عندما همس الروح في قلبها أنّ كلّ شيءٍ زائلٌ، فاختارت الخالد الباقي الوحيد، وكان خيارها أبديًّا. ففي السنّ التي تُبهَر فيها الصبايا باللباس الجميل، والحليّ والبَهْرَج والتبرّج، لم يستملْها من كلّ ذلك شيءٌ، بل تطلّعت أبصارها إلى ما هو أسمى وأبقى.

وعندما هجرت منزل عمّها برفاهه ويساره، ورفضت زواجًا مثقلاً بوعود الثراء والسّعة، واضطرّت إلى العمل خادمةً في المنازل لتعول نفسها، لم تستهوِها ثروات الأسياد، وازدادت التصاقاً بالفقر والفقراء، وأَلِفت ألاّ تحتفظ بشيءٍ من أجرها لنفسها، بل كانت تجود بكلّ ما تظفر به على من هم أكثر منها عُدْمًا وعوزًا. وبقيت طليقةً من كلّ تملّكٍ، حرّةً كالعصافير، في استهتارٍ إنجيليٍّ مفعمٍ ثقةً بالله من غير حدودٍ.

ولم تؤمن، يومًا، بضرورة توفير القرش الأَبيض لليوم الأسود، فإله الغد كفيلٌ بتأمين حاجة الغد. ومع أنّها كانت كثيرة التنقّل والترحال، وهي "مقطوعةٌ من شجرةٍ"، لا ملجأ لها ولا معيل، فقد كانت أَبدًا تمضي "لا تحمل ذهبًا ولا فضّةً ولا نحاسًا، ولا مزودًا للطريق..."، تتبع إلهام الروح، وتدع له تحقيق مراميه وخططه. وفي الرواية التالية، التي سردتها بنفسها، نموذجٌ لذلك التشرّد الإِنجيلي الرائع:

"ذات يومٍ، حططنا الرحال في مرفإٍ، وأنا لا أعلم عن مصيري شيئًا. كنت على الطوى، منذ زمنٍ طويلٍ، وقد أَخذ بي الجوع، وأنا لا أملك شروى نقيرٍ، فأبتاع طعامًا ما. ولم أكن أعرف المكان، ولا أعرف أحدًا، ولم يكن بوسعي أَن أقيم في عرض الشارع، فاقتفيت أَثَر المسافرين، ودخلت معهم فندقًا، ورأيت بابًا مفتوحًا، فولجت الغرفة، وألفيت نفسي وحيدةً. كدت أبكي لشدّة الجوع، ولكنّني قلت لنفسي: "بل من الأفضل أن أصلّي". وإذ بشخصٍ يدخل ويشرع بإِعداد عشاءٍ فاخرٍ على المنضدة. ودُعِيتُ إلى الطعام. وجال بخاطري: "إنّها العذراء". وتعشّيت. ثمّ وافتني صاحبة النزل، في كثيرٍ من الرقّة والعطف، واستلّت من غطاء رأسها قطعة نقد ذهبيّة، وألقتها في يدي، وقالت لي: "عندما ستخرجين، أعطي هذه القطعة لزوجي، بدل العشاء، وإن هو رفض أَخذها، احتفظي بها لنفسك" وقد رفض صاحب الفندق استيفاء أيّ بدلٍ، رفضاً قاطعًا".

ذلك الميل الفطريّ إلى التجرّد والفقر الطوعيّ، ما انفكّ المعلّم الإلهيّ يرسّخه فيها بتعاليمه ورؤاه. فقد تراءى لها، يومًا، عند شاطئ بحرٍ، وقال لها: "**أترين هذا البحر؟ لا تأخذي من مائه إلاّ بقدْر حاجتك، مع أنّه لا ينضب. بهذا أعطيك مثالاً على الفقر الذي ينبغي أن تمارسيه**".

وكان يطيب لها رواية هذه الرؤيا، كي تفيد أخواتها من درس الربّ، وتعقّب: "**بفضل الله، أدركت كنْه الفقر، وأعتقد أنّني قد مارسته مذ ذاك**". كيف لا، والفقر ركنٌ أساسيٌّ من أركان الحياة الرهبانيّة التي اختارتها، ووقفت كلّ طاقاتها على ممارستها حتّى الكمال!

وكانت تبحث عن الأكثر فقرًا، وتجد أكبر مُتعةٍ في ارتداء الثوب الخلق المرقّع. وكانت، على غرار الفقراء المعوزين، لا تهدر ذرّةً من مال الدير، وفي عملها في المطبخ، كانت حريصةً على الإِفادة من أتفه الأشياء، فتتحاشى أيّ هدرٍ مهما كان زهيدًا.

وكانت ضنينةً على نفسها، تجود على الفقراء بكل ما تستطيع من جودٍ.

ومكافأةً لها على فقرها، أُعطيت المشاركة بالسهم الأوفر في تأسيس كرمل بيت لحم تكريمًا لفقر يسوع الذي ارتضى أَن يولد في مذود بهائم، كما لم يولد أكثر بني البشر فقرًا وإِملاقًا. وفي ذلك الكرمل، كانت رسولة الفقر، وانتهجت تقليدًا يقتضي

من الراهبات التقشّف إلى أَقصى الحدود، في مأكلهنّ ولباسهنّ، والإِغداق بسخاءٍ على المعوزين.

وأثناء رؤاها، كانت لا تني تشدّد، من قبل الله، على ممارسة الفقر بكلّ دقّة، كما أنّها كانت تثور ثائرتها على كلّ انتهاكٍ لتلك الفضيلة، مؤكّدةً أنّ من شأن ذلك تكدير الربّ. وكانت حريصةً على ألاّ نهدر دبّوسًا أو فتات خبزٍ. وكلّ تبذيرٍ، مهما كان تافهًا، كان يحزنها. وقد ألفت أَن تردّد: "**إن كانت ثمة إِصلاحاتٌ لا بدّ منها، مهما كانت جسيمةً، ولو أنّها اقتضت مليونًا، فالربّ سيوفّر المال اللازم لها. ولكنّه بسبب قشّةٍ نافلة، تُستخدَم عبثًا، يتألّم، وقد يبعث عقابًا؛ ومقابل ثغرةٍ واحدةٍ، تُسَدّ من غير ضرورةٍ، قد يُشرع عشر ثغَرٍ أُخرى**".

وكانت ترى في ضيق ذات اليد نعمةً من الله، ووسيلةً إلى التشبّه بفقر يسوع، وتلوم الجمعيّة إِن هي لم تشكر للربّ ما تمرّ به من فترات فاقةٍ وعَوَزٍ. ولا تكفّ تذكّر الجميع، في جرأةٍ نادرةٍ، بما لعيشة الفقر من وَزنٍ عند الله. فقد اعتلّت، يومًا، صحّة الأمّ الرئيسة، وارتأت الأخوات استبدال معطفها الصفيق بمعطفٍ جديدٍ أكثر رقّةً، بحيث لا يُرهقها. غير أنّ حالتها استفحلت سوءًا. ولم تَتَوَرَّع الأخت مريم عن نصحها بخلع المعطف الجديد، الذي يتنافى وروح التجرّد، والعودة إلى ارتداء المعطف الخشن العتيق، التزامًا بالفقر الرهبانيّ. وانصاعت الرئيسة لإِيعاز ابنتها في جَذَلٍ ورضًى، وسرعان ما أبلّت من علّتها.

وما كانت الأيام إلاّ لتزيد الأخت مريم إِمعانًا في التجرّد عن ذاتها، وعن الدنيا، وإِيغالاً في البذل، على غرار الثمرة الناضجة التي تجنح إلى الانفصال عن غصنها لتقدّم ذاتها جنًى لذيذًا.

على مثال المصلوب

كانت كَلِفةً بالصليب، فيه ترى إِشارة اختيار الله، ودليل التمثّل به فأحبّته حبّها ليسوع، فكان هو سِمَة حياتها، وطابع سلوكها، وقد انغرس في قلبها، وارتسم ارتسامًا ماديًّا على القماش الذي كانت تمسح به الدماء المتفجّرة منه؛ وكان يتوهّج، أحيانًا، على صدرها، وسامًا مجيدًا.

ولطالما عبّرت عن تعلّقها بالصليب، حبًّا بيسوع، على حدّ ما انطوت عليه روايتها لإحدى رؤاها:

"**هذا الصباح "تمْتُ"، فرأيت الربّ يسوع. كان الغبار يغشى وجهه ورأسه ورجليه ويديه، وكلّ جسمه، ويرين عليه وِقْر الحُزن والكروب والهموم الهاصرة. وبدا لي أنّ العرق كان يتدفّق، قطراتٍ كبيرةً، من كلّ جسمه... وبدا لي أنّني كنت أتمنّى أن آخذ على عاتقي جميع المشاقّ والأحزان والآلام، كي أعتق يسوع منها وأعزّيه. وحينئذٍ سمعت صوتًا يقول: إنّ عزائي سيكون لكِ شوكًا، وأريج ورودي سيكون لكِ غمًّا، ولذّتي ستكون لكِ عذابًا. فقلت له: يا ربّ، هذا هو كلّ ما ألتمسه**".

وفي سردها لرؤيا أُخرى، تضمّنتها رسالةٌ إلى الأب لازار، مؤرّخةٌ في ١٨٧٣/١/٧، أعربت ببلاغةٍ مُغرقةٍ في البساطة عن وطيد إيمانها بعلوّ شأن الصليب في عين الربّ، إذ قالت: "**سأل شخصٌ الربَّ: لمَ يتألّم ذلك الإنسان؟ فأجاب المعلّم الإلهيّ: لأنّني أحبّه. وأيّة مكافأةٍ سوى هذه قد أدّيت لتلاميذي، أولئك الذين أحببتهم على هذه الأرض؟ إنّني كلّيّ القدرة، بَيدَ أنّ هذا هو الحبّ الأمثل الذي يسعني إيلاءهم إيّاه، ولست أملك ثوابًا أفضل أكرّم به من أحبّ**".

إنّ في هذا القول إجابةً، – وأيّة إجابةٍ! – على تساؤلاتنا الوجيعة أمام أسرار الأَلم التي غالبًا ما نقف أمامها حائرين!

وقد دلّل الله على حبّه الجمّ لأمته مريم، فأفاض عليها المحن والآلام، النفسيّة منها والجسديّة، بغزارةٍ، بل إنّه خصّها بأنماطٍ فريدةٍ من المِحن، كإذنه لإبليس بالاستحواذ على جسدها مرّتين، وبمحاصرتها بوساوسه الدائبة سنواتٍ ثلاثًا متعاقبةً، وانحجاب الله عنها فتراتٍ كان يسحقها فيها الشعور بالتخلّي، والافتقار إلى أيّ عزاءٍ روحيٍّ؛ ومع كلّ ذلك، كانت لديها قناعةٌ راسخةٌ بأنّ عليها مُعاناة المزيد من ضروب الآلام، لتكون أكثر جدارةً بمن جعلت صليبه رمزًا لحياتها، ونبراسًا لمسيرتها؛ وحتّى ساعاتها الأَخيرة، كان يخيّل إليها أنّها لم تُصِب من الألم قدْرًا كافيًا يؤهّلها للمثول بين يدي الربّ.

ولم تزدها الآلام إلاّ يقينًا بعدَمها، وعدم جدارتها، ونمّت فيها وردةَ التواضع الفاغمة العطر. وقد صهرتها بوتقة الصليب فطهّرتها، وطحنتها رَحى المحن، فحوّلتها دقيقًا كفيلاً بصنع أكرم قربانٍ على مائدة الربّ.

باحة كرمل بيت لحم
يتوسّطها المصلوب

وهي لم تقتصر على صليب الآلام والمحن، التي كانت توافيها عرَضاً، أو يمتحنها بها الله تأكيدًا لحبّه لها. بل إنّها قد التمست الصليب، وحملته طوعًا، كلّ يومٍ، تلبيةً لطلب يسوع، وصلبت ذاتها، لا حبًّا بالألم، بل إيمانًا منها بأنّ الجسد لا يغدو لصاحبه حليفًا، ما لم يُروَّض باستمرارٍ، وتُحكِم عليه سيطرةٌ حازمةٌ، فينعتق الإنسان من نزواته، ومن أسر أهوائه، ليظفر بحرّيته، حرّية الانطلاق نحو الله. ولقد أدركت، على غرار كبار القدّيسين والصوفيّين، وناشدي الله والحقّ، من أمثال غاندي، أنّ دون الله الحقّ، كلّ ما يكبّلنا به الجسد من شهواتٍ ومطامع، وما يجرّنا إليه من مناقع الصغارة والجبن والأنانيّة؛ وشأن الذين يتصدّون لهذا الكفاح مع الذات، كان كفاحها يوميًّا، مستمرًّا، مشحوذ اليقظة، لا يستكين لهوادةٍ، إذ إنّ وساوس الشرّير لا تفتر، ومكرَ الجسد لا ينتهي إلاّ بنهايته.

ولقد أعرضت الأخت مريم عن نِداء الجسد، منذ طفولتها، ودأبت، سحابة حياتها الرهبانيّة، على ترويضه بالتقشّف الصارم البطوليّ؛ فلجمت ميوله، وأشاحت عن نزواته، وأرغمته على ما يثير نفوره، وحرصت على كسر شوكته، لكي لا تقوم لجموحه قائمةٌ، ولا تصرفها متعةٌ عن حبّها السماويّ الأوحد.

ففي خلال السنوات العشر الممتدّة بين الأعوام ١٨٦٣ و ١٨٧٣، تجاوزت أيّام صومها على الخبز والماء الألف يومًا؛ وقد راقت تلك الأصوام في عيني الربّ، الذي جعلها أوفر ثمارًا، إذ أسبغ على الخبز والماء طعم العلقم والتفاهة، استجابة لدعائها "ألاّ تجد على الأرض متعةً، لا في المذاق، ولا في أيّ شيءٍ آخر". فهي لم تكن ترغب في استساغة طعمٍ سوى طعم الله، ولا تبتغي الاستكانة إلى متعةٍ في سواه. هذا، فضلاً عمّا كانت تروّض به جسدها من مسوحٍ وإماتاتٍ شتّى.

بيدَ أنّها، حتّى في تقشّفها، قد برهنت على حكمةٍ وواقعيّةٍ وتواضعٍ، وانقيادٍ لروح الله، إذ لم تكن تباشر كفّارةً إلاّ بإذن رؤسائها. وإذا ما رُفضَ لها، في هذا المجال، طلبٌ، أقرّت أنّ الطاعة تسمو على التضحية. وكانت موقنةً بأنّ الخدمة خيرٌ من أيّة تضحيةٍ، فلا تمارس من التضحيات، ما يحول بها دون القيام بواجباتها، لا بل إنّها كانت تبكي كلّ دقيقةٍ يصرفها، خلالها، انخطافٌ أو مرضٌ عن مهامّها اليوميّة، فتحاول التعويض عمّا فاتها، بمزيدٍ من الجهد والدأب، بحيث أجمعت شهادات الذين عرفوها على أنّها كانت تعمل فوق طاقاتها، مستنفدةً كلّ قواها في الخدمة.

وكانت حريصةً على أَن تظلّ أَصوامها، وكفّاراتها وتضحياتها، خفيّةً عن العيون فتغلّفها بمظاهر المرح والنشاط، ولا يعلم بها سوى رؤسائها الذين أذنوا لها بها.

وهكذا أفلحت، بفضل كلّ صليبٍ أُلقي على كاهلها، أو تقلّدته، هي، طائعةً مختــارةً، في التشبّه، إلى أبعد حدٍّ، بالمصلوب الفادي، وفي وقاية جسدها وذهنها وقلبها من كلّ دنسٍ وكدَرٍ، فأُوتي لها، على فراش موتها، أَن تقدّم للربّ زنبقة طهرها ونقائها ناصعةً متألّقةً.

تواضعها

لم ينقل لنا الإِنجيل من كلام أمّ يسوع، مواطنة أختنا مــريم وســميّتها، ســوى عباراتٍ شديدة الاقتضاب، بَيدَ أَنّها، مع إِيجازها، تنطوي على فلسفة حيــاةٍ كاملــةٍ، كثيفة المغزى، بعيدة المرامي. وتتراكض تلك العبارات إلى الذاكرة، لدى استعراض سيرة الأخت مريم:

"تعظّم نفسي الربّ
وتبتهج روحي بالله مخلّصي
لأنّه نظر إلى حقارة أَمَته...
بسط قدرة ساعده
فشتّت ذوي القلوب المتغطرسة بأفكارها.
حطّ الأعزّاء عن عروشهم، ورفع المتواضعين
غمر الجياع بالخيرات، وأرسل الأغنياء فارغي الأيدي".

لقد تملّت الأخت مريم، منذ صباها، بشعور حقارتهــا وعَــدَمِها، وعظمــة الله وكرمه، وأفرغت ذاتها من ذاتها حتّى العُري، فتدفّق الله في تلك الهــوّة المــشرعة، وملأها بحضوره وذاته وسخائه.

فلقد كان التواضع، مع الإيمان، هو المحور الذي حوله تجمّعت كــلّ فــضائلها، وكان الشمس التي تنير تلك الفضَائل، والأرض التي تحضنها وتنمّيهــا، والمعطــف الذي يقيها. وكان الطابع الذي دمغ جميع أعمالها، ومراحل حياتهــا. فقــد أدركــت، بغريزتها التي ألهمها الروح أبدًا، أنَّ الادّعاء والغرور هما الحاجز الذي يفصلنا عن الله، فدمّرت ذلك الحاجز، وآمنت بعَدَمها، فتسنّى لها مشاهدة الله، وجهًا لوجه.

وعندما كان الآخرون يفاخرون بأُسرهم، كانت هي تقول: "أنا لست شيئًا"، وتشير إلى الأرض قائلةً: "هذه هي أسرتي".

لقد دعت نفسها "**العدم الصغير**" أو "**اللاشيء الصغير**"، وعاشت إِيمانها بفحوى هذه التسمية في عمقٍ وصِدقٍ. فكان هذا العدم هو الأعظم في عين الربّ، والأحبّ على قلبه، وكان هو القلعة التي تحطّمت عندها هجمات الجحيم. وحده عدمٌ صغيرٌ، كان قادرًا على إِذلال جيش الأبالسة ودحره.

وقد ترسّخ شعورها بهوانها، مع الأيّام، فازدادت انسحاقًا مع تصعيدها في مراقي الفضيلة، ومضت إِيغالاً في الاتّضاع مع تدفّق كرامات الله عليها، وفَيض الخوارق التي كانت هي أداةً مختارة لها[1].

لا بل إنّ معيارها لمصدر تلك الخوارق، ودليلها على صحتها كانت تلتمسهما في مدى ما يُغرقانها فيه من مشاعر الهوان والتلاشي، وفي غياب تلك المشاعر، كانت تستشف في كلّ خارقٍ وفي كلّ إِيحاءٍ، يد الشرّير ووسوسته. وهي، في تواضعها، لم تكن ترى في كرامات الله عليها ميزاتٍ أو إِيثارًا سماويًّا، بل طالما اعتبرت سِمَاتها مرضاً وبَرَصًا، ودعت انخطافها "نعاسًا". وحاولت مكافحته بكلّ ذريعةٍ.

وعلى نحو ما يكون المتواضع الحقّ، لم تعِ يومًا تواضعها، ولم يراودها، يومًا، به شعورٌ، بل ما انفكّت تسعى إليه لاهفةً، مبتهلةً إلى الربّ أن يغرقها في لججه، فهي، على سبيل المثال، كانت تتقرّب من المائدة المقدّسة بقولها:

"**يا ربّ، إنّني فتاةٌ جاهلةٌ عمياء، معتلّة الساق، واهية القوى، وإنّني أشخص إليك طلبًا للرؤية، والقدرة على السير، والتماسًا للقوّة والحياة. أشفق على ابنتك، فطبيعتها تلطّخها بالأكدار، وكبرياؤها تغطّيها بالقذارة. هيّا هبني القوّة، لكي لا يلتهمني الوحش. هيّا، وليشفِني نظرك. فأغدو بكلّيتي لك. نظرتك هي الحياة والسحر. خذ قلبي ونفسي، ووحّدهما بك، لتقدّمهما إلى الآب الأزليّ. إِنّني من غيرك عاريةٌ، فتعالَ وألبسني؛ إنّني قذرةٌ، فتعالَ وطهّرني**".

---

[1] يقول برغسون: "إنّ التسامي لا يُوحي للصوفيّ بأيّ كبرياء، بل إنّه يدفعه إلى تواضعٍ سحيقٍ، وكيف له ألاّ يتّضع، بعد أن تحقّق، في نجواه الصامتة، وفي وحدته مع الوحيد، وفي شعورٍ يذوب به كلّ كيانه، ممّا يمكن تسميتها "التواضع الإلهي"، تواضع إله لم يختر مظهرًا إلهيًّا، بل لبس طبيعةً بشريّةً، واختار موت عبدٍ آبقٍ، موت الصليب؟!".

ولطالما ردّدت: "**أنا لست سوى عَدَمٍ. إنّ ذرّة التراب أرفع منّي شأنًا فالهواء يرفعها، أما أنا فأهوي، وحينئذٍ على يد الربّ أن ترفعني**".

وعندما كانت تروي رؤياها لطفلةٍ شديدة الشبه بها، كان يسوع يحملها، في حبٍّ، على ذراعيه، تجلّى للجميع أنّها هي التي كانت تلك المحظيّة التي اصطفاها الربّ، ولكنّ ذلك استغلق عليها وحدها، فظلّت تغبط تلك الفتاة، وتتمنّى الظفر بشيءٍ من حُظوتها لدى الربّ. وقد استفسرت الأمّ المرشدة عمّا عساها تفعل للتشبّه بتلك الطفلة، وإذ ردّت عليها المرشدة: "عليك أن تصبحي صغيرةً، وتنتبذي كلّ كبرياء"، أجابت الأخت مريم: "**علامَ التكبّر، وأنا يتيمةٌ تجهل القراءة والكتابة؟!**".

لقد كانت حريصةً على إبراز مواطن ضعفها وهوانها، وتؤثر الإقرار بجميع خطاياها – أو الهَنات التي تتصوّرها خطايا – على مسمع العالم أجمع، على أن تشاهَد عندما تتجلّى فيها كرامات الربّ من انخطافٍ وسماتٍ. وقد أدلت السيّدة مرقس بهذه الشهادة:

"كانت الأكثر تواضعًا؛ تزدري نفسها، ولا تمتدح ذاتها أبدًا، وتُخفي سِمَاتها قدر استطاعتها. ذات يومٍ، إذ كانت تهبط درجًا (في بيت لحم) شاهدتُ سِمَات الجراح في قدميها، وهممت بتقبيلها، إلاّ أنّها ردّتني بحزمٍ قائلةً: "لا، يا ابنتي، فأنا خاطئةٌ، وقلبي أسود...".

ويتجلّى شعورها الراسخ بهوانها الذي يزيدها بالله التصاقًا وتعلّقًا، من خلال هذا الدعاء:

"**شكرًا يا إلهي. إنّه لمن حُسن طالعي أنْ أكبو ألف مرّةٍ، لكي أقول لك، ألفي مرّةٍ، إنّني فيك أَضع رجائي. يا ربّ أنت قوّتي الوحيدة.اُنظر إلى وَهَني وشقائي وخُبْثي. شكرًا لك لأنّك تؤازرني على معرفة نفسي واكتناه ذاتي، إنّني أوثر ذلك على العجائب، فهو خيرٌ لي. إنّني أودّ أن يراني الجميع وأنا أهوي. يا لكبريائي! وما الذي، فيّ، يبرّر الكبرياء؟...**".

وتواضعها السحيق كان يحملها على تقبّل التقريع، حتّى غير المحقّ، في جَذَلٍ وشكرٍ، وتقبّل الافتئات عليها على أنّها له أَهلٌ، وعلى الاستغفار عمّا لم تقترف من

ذنبٍ، وكانت تجد سعادتها في ازدراء الآخرين لها واضطهادهم، لا في مديحهم وتكريمهم، إذ كانت على يقينٍ بأنّها خاطئةٌ كبيرةٌ يحقّ للجميع دوسها بأقدامهم. ولدينا في ذلك أمثلةٌ بليغةٌ وطريفةٌ:

فذات يومٍ، أمسكتها مهامّ الخدمة، فوافت إلى الفُسحة متأخّرةً، بعض الشيء، ووبّختها على ذلك الأمّ الرئيسة، فانحنت وقبّلت الأرض، من غير أن تنبس بكلمةٍ، ولم تنهض إلاّ بأمر الرئيسة، وهي تفيض فرحًا، راجيةً أَخواتها الراهبات الصلاة من أَجلها، لأنّها خاطئةٌ كبيرةٌ.

ومرّةً أُخرى، كانت تحدّث الراهبات عن الفضائل، حين أقبلت الأمّ الرئيسة، وقاطعتها قائلةً للمستمعات: "أما زلتنّ تُصغين إلى هذه الثرثارة؟" فجثت الأخت مريم، في الحال، أمام رئيستها، ملتمسةً الغفران.

وكانت السعادة تغمرها، عندما تسمّيها الرئيسة "الخِرقة الصغيرة". وكان ردّها، أَبدًا، على الإِذلال والتقريع: "شكرًا، يا ربّ".

وقد رسّخ فيها التواضع شعورها بالتقصير والخطيئة، فكانت تندم على هَناتها، أكثر ممّا يندم الآخرون على خطاياهم الجسيمة. ولا يصيب منها مديح الناس ممسكًا، بل لا يعني لها شيئًا، فهي لا ترى نفسها إلاّ على ضوء تواضعها السحيق في حضرة الله، على حدّ ما يعبّر عنه قولها هذا:

" إنّ الله سيدينني، ولو أجمع الناس على القول بقداستي. ففي ساعة الموت لن يعبأ الله بأقوال الناس أو بآرائهم فيّ".

"أنا ما أنا أمام الله. أنا لست سوى خطيئةٍ ومعصيةٍ وجحودٍ. يا إلهي ارحمني، ولتشفع بيَ السماء والأرض، من أَجل خلاصي".

إنّها على غرار معظم القدّيسين قد تعرّضت للافتراء والافتئات، ولكنّها ظلّت وديعةً، ساكنة الجأش؛ والذين حاولوا مسخ صورتها، وطَلْيَها بالقتام، إنّما أسهموا في إبراز نصاعتها وروائها، إذ كانت الإِهانات تُسهم في ازدهار فضائلها وتوطيد تواضعها.

وهي، حبًّا بالتواضع، وتشبّهًا بالمعلّم الإلهيّ، الذي جاء "ليَخْدُم لا ليُخْدَم"، أحبّت

الخدمة، وكَلِفت بها طوال حياتها. فعملت خادمةً قبل أن تترهّب، وفي الدير حرصت على أَن تبقى راهبةً عاملةً تفني ذاتها في خدمة الآخرين، ملتمسةً أكثر المهامّ وضاعةً ومهانةً، وامّحاءً؛ وهكذا، من وراء مواقدها وقدورها ومكانسها، بلغت أسمى ذرى الروحانيّة والكمال.

وقد رسّخ الله فيها تلك الفضيلة الأَثيرة لديه، برؤًى كان يبرز لها فيها قدْر التواضع في ميزانه، وحبّه للمتواضعين؛ وقد طالما لقّنها، في هذا المجال، دروسًا جليلة الشأن، فكانت أقوالها في التواضع، من أروع دُرَرها. وقد استفضنا في إِيراد شذَراتٍ منها، في تضاعيف الفصول السابقة. وقد حرصت الأخت مريم على إِشراك أخواتها في تلك العِبَر الجليلة الشأن، فما انفكّت تردّد، على مسامعهنّ، نُتَفًا من عظات السماء، مثل قولها:

"كنّ صغيراتٍ، صغيراتٍ، كدودة الأرض المختفية تحت الأرض. فالدودة التي تسرح فوق أَديم الثرى، تدوسها الأرجل، أو تلتهمها حيواناتٌ أُخرى. أمّا دودة الأرض القابعة تحت الأرض، فهي تعيش في مأمنٍ من جميع المهالك.

"التواضع ينعم بنور الله، ويُري الله. إن وقعتم في الخطيئة، فلا تقنطوا، بل صعّدوا، متذرّعين بتواضعكم. هنيئًا للمرء الذي ينشد الاتضاع، فالجحيم عاجزةٌ عن النيل منه".

وأَثناءَ انخطافٍ قالت: **"أخبئوا ما أنعم عليكم به الله من آلاءٍ سماويّة، ولا تبرزوا جواهركم على قارعة الطريق، لئلاّ يسلبها اللصوص، ويسلبوا معها حياتكم. ذات يومٍ كان عليّ العبور أمام لصوصٍ، وكنت مغطّاةً بالحليّ في يدي وأذنيّ، وكلّ جسمي. حينئذٍ طفقتُ أتضرّع إلى الله؛ ولففت نفسي بفراشٍ مهترئٍ. وسألني اللصوص: ما هذا؟ لمَ تتلفّعين بفراشٍ بالٍ؟ فأجبت: لافتقاري إلى ثوبٍ أرتديه. وفرّ اللصوص مُدبرين، لكي لا أسألهم حسنةً. ولو عرفوا الحقيقة لقتلوني ألف ميتةٍ... صلّوا لأجلي، إنّي راهبةٌ سيئةٌ".**

وبوسعنا تخيّل ما كان لتواضع الأخت مريم من مكانٍ في قلب الربّ، من خلال قولها عام ١٨٧٤، أَثناء انخطافٍ:

"النفس المتواضعة تعيش منذ الآن في السماء. إنّها أكثر عذوبةً وإنعاشًا لقلب يسوع، من المطر على أرضٍ قد طالما عانت الجفاف".

بَيدَ أَنّ تواضعها السحيق، شأن كلّ تواضعٍ حقٍّ، لم يُفضِ بها إلى التقاعس والتواني، بل كان لها دافعًا جبّارًا إلى تحقيق أجسم المهام، وأكثرها إدهاشًا وجرأةً. فالمتواضع لا يُرهبه فشلٌ، ولا تثبّطه عقباتٌ، ولا يُعميه نجاحٌ ، ولا يُصيبه انتصارٌ بغرورٍ أو خُيلاء، ولكنّه يمضي، في بساطةٍ وعفويّةٍ، إلى التصدّي لما يُحجم عنه أشدّ العتاة من عظيم الصنائع.

الطاعة

لا تُقاس فضيلة الراهب بأعماله الخارقة، بل بمدى طاعته – والطاعة الحقّة تنمّي الحرّيّة ولا تسحقها؛ ولقد وهبت الأخت مريم إرادتها لله، بلا رجوعٍ ولا تحفّظٍ، وبرهنت عن ذلك بإطاعتها المطلقة لممثّلي الله طوال حياتها من غير تلكّوءٍ ولا تردّد.

وكانت العذراء، مذ خاطت عنقها في الإسكندريّة، قد أوصتها بالطاعة، وما انفكّت تُذكي فيها تلك الفضيلة، التي، بفضلها، غدَت العذراء أمًّا لله، وبفضلها نفّذ ابن الله مشيئة الآب في خلاص البشر.

ومنذ مستهلّ حياتها الرهبانيّة، أوحى لها الله أنّ الطاعة للنفس هي بمثابة الأَجنحة للطيور. وهي نفسها طالما ردّدت على مسامع أخواتها أَنّ الانقياد والطاعة شمعتان تُنيران سُبُل النفس في الظلمات.

والطاعة المطلقة كانت نبراسها لتجنّب الضلال، ولإفشال خداع إبليس، ودرء تجاربه؛ وطاعتها المطلقة هي التي أكّدت لقادةٍ روحيّين، مشهودٍ لهم بمراسٍ راسخٍ في قيادة النفوس، أنّ ما خُصّت به من كراماتٍ فريدةٍ، وما ميّز سيرتها من خوارق نادرةٍ، إنّما كان من الله مصدره.

فكلمة الرؤساء، كانت هي كلمة الله نفسه، تلتزمها، فتضمن السير في الصراط القويم. وقد عبّرت عن ذلك الإيمان بهذه الأقوال الرائعة التي تعكس سيرة حياتها كلّها:

"يا إلهي، أنا لست جديرةً بأن أراك وأكلّمك. ومع ذلك، فأنت تكلّمني وتأمرني بواسطة رئيستي. وأنا أؤمن وأطيع. فإن هي قالت لي: اِعملي، وكنت مريضةً، فسأعمل. وإن هي قالت لي امضي والزمي فراشك، وكنت في أوفر صحّةٍ، لزمت فراشي. وإن كنت راغبةً في الصوم، وأوعزت إليّ بتناول دجاجةٍ مشويّةٍ، فبفضل عزوفي عن الصوم، قد أسهم في خلاص بعض النفوس. أمّا إن أنا أنحيت على نفسي بالتعذيب ليل نهارٍ، بدافع إرادتي، فلن يكون في كفّارتي مرضاةٌ للربّ.

"إنّي أؤثر المضيّ إلى جهنم، بدافع الطاعة، على المضيّ إلى السماء بإرادتي".

ولقد كانت، أبدًا، متأهّبةً لتقبّل أيّ أمرٍ يصدر إليها، إيجابيًّا كان أو سلبيًّا، بموقفٍ واحدٍ قائمٍ على الانقياد في رضًى واندفاعٍ، لا بل إنّ إيمانها بالطاعة كان من الرسوخ بحيث كانت مستعدّةً لتجاوز أوامر الله نفسه، إن صدر إليها أمرٌ بالطاعة يناقضها، على حدّ ما فعلت في منغالور، حين مورست عليها الضغوط من أجل حملها على البوح بأسرار نفسها للرئيسة والمرشدة، خلافًا لأوامر الربّ الذي كان قد أوعز إليها بألاّ تبوح بتلك الأسرار، إلاّ لمعرّفها وللأسقف، فقالت لرئيستها: "مُريني باسم الطاعة، فأبوح لك بكلّ شيءٍ".

ولقد بلغت بالطاعة حدود المعجزة، إذ كان أَمر الطاعة كفيلاً بسلبها من العالم الآخر، فتمتثل له حتّى وهي في أشدّ انخطافاتها توغّلاً وانسجامًا صوفيًّا. بل إنّها أطاعت حتّى في موتها، إذ لم يكفّ ذراعاها عن الانبساط خارج النعش، حتّى أمرتها الرئيسة بطيّهما وتجميدهما.

"بل إنّها كانت تمتثل لأوامر لم يعبّر عنها، وما زالت خواطر في البال. فقد حظرت عليها الرئيسة الكلام، ذات مرّةٍ. ثم راودتها الشكوك في سلامة حظْرها، وقرّرت الرجوع عنه، راجيةً أَن تكون تلك مشيئة الربّ؛ وفي الحال تكلّمت الأخت مريم، قبل أن تفوه الرئيسة بكلمةٍ.

ونوبةً أُخرى، أوعز الأب مانوداس، رئيس إكليريكية بايّون، بمنع الأخت مريم من تسلّق الأشجار، أثناء انخطافها. وتقاعست الرئيسة في إبلاغ الأمر للأخت مريم؛ وفي غضون ذلك نُمي إلى الرئيسة أنّ الأخت مريم على قمّة شجرةٍ، فخفّت لإبلاغها

أمر الكاهن، ولكنّها فوجئت إذ رأتها تهبط قائلةً: "لقد بلغني الآن أمر الأب مانوداس". ومذ ذاك، أقلعت عن تسلّق الأشجار، إلى أن قضى الأب مانوداس نَحْبه، فعادت، في انخطافها، تتسلّق الأشجار، معلّلةً ذلك بأنّ "العجوز" المتوفّى قد بات يأذن لها بذلك.

وكان الربّ نفسه يدفعها بحزمٍ في سُبُل الطاعة، بل يطيع هو نفسه، عبرَها، لممثّليه، فيوقف تجلّي كراماته فيها، كالسِمَات والانخطاف، إذا ما رغب الرؤساء في زوالها، ويعود إلى إظهارها، عندما لا يقوم من الرؤساء اعتراضٌ عليها. ففي مستهلّ عام ١٨٧٢، كان المطران ماري أفرام قد حظّر عليها كلّ انخطافٍ، في كرمل منغالور بالهند، فامتثل الربّ، فيها، للأمر؛ ثمّ عادت إلى كرمل پو، في شهر أيلول من العام نفسه، ولكنّها ظلّت تشعر أنّ أمر أسقف منغالور ما زال يُلزمها، إلى أن حلّ يوم الخميس المقدّس، من عام ١٨٧٣، حيث رأت في الحلم جدارًا شاهقًا يهوي، والقيود في عنقها تتحطّم وتتناثر هباءً، وإذ بظواهر الانخطاف تداهمها من جديدٍ. وبعد أيّامٍ، ورد إلى كرمل پو نبأ وفاة الأسقف التي كانت قد جرت في يوم الخميس العظيم، يوم رأت الحلم، وعاودها الانخطاف. ومذ ذاك تواترت انخطافاتها، بعد أن أزال رؤساؤها، في كرمل پو، كلّ مانعٍ دونها، وأذنوا لها بالاستسلام لها.

ولكنّها شعرت بحرَجٍ شديدٍ من "النعاس" الذي كان ينتابها أثناء مواعظ رياضةٍ روحيّةٍ، كان يُلقيها الأب مانوداس، فتوسّلت إليه أن يلتمس من الربّ إعفاءَها من تلك المحنة، بعد أن ظلّت جميع أدعيتها، في هذا السبيل، لا تُلاقي استجابةً. واستقرّ في خَلَدها أنّ الربّ سيستجيب لطلب رؤسائها. وقد تمّ لها ذلك فعلاً، فانعتقت من "النعاس"، حتّى انتهت مواعظ الرياضة، وإذ ذاك، فيما كانت منصرفةً إلى مهامّ المطبخ، داهمها الانجذاب من جديدٍ.

لقد كانت طاعة الأخت مريم إلهيّةً بقدر ما كانت بشريّةً. ففيها، كان الربّ يخُضِع سلطانه طائعًا لأوامر السلطة التي هو أقامها، وينحني أمام الإنسان الذي يمثّله على الأرض.

أمّا مثال الطاعة الأكثر بلاغةً ودلالةً، فهو ما امتحنها به الأب لازار، معرّفها في منغالور، أوّل عهده بها، وقد استهدف التأكّد من سلامة سلوكها، ومصدر خوارقها، ولم يجد، لذلك، مقياسًا أفضل وأصدق من الطاعة، فأمرها بالبصق على

أيّة رؤيا تعرض لها، ولو كانت الربّ نفسه؛ وسرعان ما توفّرت لها الفرصة لخوض الامتحان، وحريٌّ بنا أن نستمع إليها تروي بنفسها ما حدث:

"رأيت يسوع، ولكنّه كان من البهاء والسحر، بحيث لم أكن لأجسر على البصق عليه، إذ كنت أرى وأحسّ، بقوّةٍ، أنّه حقًّا الربّ إلهنا. أمّا هو فقال لي: "يا ابنتي، اذكري ما أمرك به معرّفك، وابصقي". كان بودّي أن أطيع، ولكنّني ما كنت قادرةً على قَسْر نفسي على ذلك. وكان يسوع لا يني يردّد: "يا ابنتي، مارسي الطاعة". ولكنّني، كنت عاجزةً عن القيام بما أُمرت به. وحينئذٍ اختفى كلّ شيءٍ، فيما كنت أسمع صوتًا يقول: "ستعاقَبين على إحجامك عن الطاعة". وفي الحال، اكتنفتني الظلمات، واستولى على نفسي القلق والحزن والألم، وقضيت أربعة أيّامٍ في جحيمٍ مريعٍ. وأخيرًا، زارني الربّ، وقال لي: "يا ابنتي، افعلي ما أمرك به معرّفك، وأطيعي". كنت أجهد، وفي آنٍ معًا، أحسّ إحساسًا بالغًا أنّه يسوع حقًّا، فتقترن رغبتي في الطاعة بنفورٍ شديدٍ، اقترانًا يندّ عن الوصف. وفي نهاية المطاف امتثلت، إلا أنّني بصقت على نفسي. ولكن الربّ قال لي: "ليست هذه هي الطاعة". وإذ ذاك، بصقت حسبما أُمرت، وتوارى يسوع مخلّفًا فيّ سلامًا وفرحًا جمّين، ونعمةً فائقةً طوال عدة أيّامٍ".

لقد كان يسوع أكثر رضًى بإهانةٍ دافعها الطاعة، منه بدعاباتٍ يوحيها حبّ الذات والإرادة الخاصّة.

طوبى لها

إنّ استعراض تلك المجموعة السنيّة من الفضائل التي مارستها الأخت مريم في حرارةٍ ما فتر لها، يومًا، لهيبٌ، بل ما انفكّت تكتسب، كلّ يومٍ، مزيدًا من سموٍّ واضطرامٍ، ينير سرّ إفاضة الله عليها كراماته في وفرةٍ نادرةٍ، ويعيد إلى الذهن الوعود المتألّقة التي أطلقها من على هضبةٍ من هضاب الجليل، في فجر عهدٍ جديدٍ، مَن جاء ليبعث بشريّةً متجدّدةً، قائمةً على الحبّ والرحمة والخدمة والعطاء.

لقد كانت مسكينةً بالروح، فولجت الملكوت، وهي، بعدُ، على الأرض تدرج، وكانت وديعةً فامتلأت نفسها غنًى.

قاست من الآلام ألوانًا، فانسكب عليها عزاء الروح دفّاقًا.

تضوّرت جوعًا إلى البرّ، وتلظّت إليه عطشًا، فملأها الربّ بآلائه شبعًا وارتواءً.

كانت رحومًا، فغمرها برحمته

ظلّت نفسها ناصعة النقاء، فعاينت الله وجهًا لوجهٍ

جهدت، أبدًا، في نشر السلام، وحبّ الله، فجعل منها الله ابنةً أثيرةً.

اضطُهِدت، وعُيِّرت، وذاقت من الافتراء والافتئات كلّ لونٍ من أجل الربّ، ولكنّها، في غمرة الشدائد، كانت تختلج جذلاً وابتهاجًا لأنّها كانت تُقاسي حبًّا بالله.

وفي بساطتها المغرقة في التواضع والطفولة، أدركت ما لم يدركه الموغلون في العلم، فحقّ فيها قول يسوع.

"**أباركك، يا أبت، ربّ السماء والأرض، لأنّك أخفيت ذلك عن ذوي الحكمة والدهاء، وكشفته للأطفال**".

الفصل الرابع عشر

حضورٌ يخترق اللّحد

صباح السادس والعشرين من آب ١٨٧٨، شهد عددٌ غفيرٌ من أهالي بيت لحم، وبيت جالا، حدثًا عجبًا، إذ رأوا، مع شروق الشمس، قوس قزحٍ رائعةً، ترتسم في وضوحٍ مدهشٍ فوق دير الكرمل. ومع أنّ ظهور قوس قزح، في مثل تلك الحقبة من السنة، ليس بالأمر الطبيعي، وأنّ بروزها في اتّجاه الشمس يناقض المعهود من نواميس الطبيعة. فلا بدعَ، إذن، إن استشفّ المشاهدون في تلك القوس هالةً تكلّل الراهبة المتوفّاة، ودمغةً تطبع قداستها.

وفي الوقت عينه، من ذلك الصباح، في مكان ناءٍ عن فلسطين، في دير الراعي الصالح للراهبات في بيربينيان بفرنسا، رأت، في الحلم، راهبةٌ معروفةٌ بقداسة السيرة، هي الأمّ ماري رئيسة الدير، حمامةً ناصعة البياض، قد وافت وأقلّتها على جناحين منيعين، ومضت بها إلى كنيسةٍ رائعةٍ، في بلاد المشرق، حيث حضرت القدّاس، واشتركت في الأسرار الإلهية، وأثناء صلاة الشكر، تحوّلت الحمامة إلى كائنٍ بشريٍّ، أخّاذ الجمال، قال للراهبة: "إلى هذه المائدة السماويّة أدعوك كلّ يومٍ؛ سأكون إلى جانبك، وسأقدّم، بنفسي، صلواتك إلى يسوع. وإلى هنا أيضًا، أدعو جميع أصدقائي على الأرض... فلتكن لك هذه الرؤيا سندًا في الأيّام العصيبة! أنا مريم يسوع المصلوب...".

ونحو شهرٍ، بعد ذلك، استيقظت تلك الراهبة نفسها بغتةً، عندما غمر غرفتها نورٌ باهرٌ، تألّقت وسْطه نفس الحمامة البيضاء، التي ما لبثت أن ارتدت قسمات الأخت مريم يسوع المصلوب، وقالت لها: "**لا تكن لديك أيّة ريبةٍ: أنا هي... عيشي في هذه الدنيا كالملائكة، ولا تبتغي سوى حبّ يسوع. واكتسبي له النفوس بصلواتك وتضحياتك. إن أذن الربّ سأراك، أحيانًا، من جديدٍ. وداعًا، أنا سعيدةٌ**". ثمّ توارت. ولكن الأمّ ماري. كانت رأت، في تلك النوبة، بأمّ عينها، لا في الحلم، الأخت مريم يسوع المصلوب، ممجّدةً.

وكان لها بها لقاءٌ ثالثٌ وأخيرٌ، في الثاني من شهر تمّوز ١٨٧٩، إذ رافقتها الحمامة البيضاء إلى المائدة المقدّسة، هامسةً: "**كوني، أبدًا، متّحدةً بيسوع، ومتلاشيةً. لا تعيشي إلاّ بالحبّ والتضحية. لا تخافي، سيُساندك يسوع... تشجّعي واستسلمي بلا تحفّظٍ ليسوع!**". وقد أقرّت الأمّ مريم بأنّ هذا اللقاء الأخير قد خلّف فيها طعمًا مسبقًا للسماء.

غير أنّ حضور الأخت مريم السرّيّ، الأكثر انتشارًا، بعد موتها، كان يتجلّى عبر عَرْفٍ ذكيٍّ يتضوّع من الأماكن التي أقامت فيها، وعلى نحوٍ خاصٍّ، من ثيابها والأقمشة التي سبق أن ابتلّت بدماء سماتها، والتي كانت تشيع تارةً رائحة البخور، وتارةً أُخرى عبير البنفسج أو الورد، ولكن بما يفوق، إلى ما لا حدّ له، طيوب الأرض وشذاها.

ولا بِدَع، بالتالي، إن تزاحم كلّ من عرفها على التماس شيءٍ من الأمتعة التي خصّتها أو لامستها، وإلى اقتنائها مثلما يُقتنى كنزٌ نفيسٌ.

ولقد أشارت رائحة البخور المنتشرة إلى حضور الأخت مريم بجوار شقيقها بولس، ساعة احتضاره، في شهر آذار من عام ١٨٩٠، كما أنّ منزل أسرتها المتداعي في عبلّين، كان غالبًا ما يعبق برائحة البخور، فيُدرك أهالي القرية، من خلالها، زيارة القدّيسة لمسقط رأسها.

ولم تقتصر الأمتعة والأقمشة التي لامست جسد القدّيسة على إشاعة العرف الذكيّ، بل كثيرًا ما وفّرت الشفاء العجيب. وكان أوّل من أفاد من تلك المنّة، النطاسيّ الجرّاح الدكتور كارباني، الذي استأصل قلب الأخت مريم، إثر وفاتها، وكان الشاهد الأوّل على إصابته بسهام الربّ. وكان، في شهر آب من عام ١٨٧٨، قد ابتُلي بداءٍ في ساقيه أقعده أيّامًا، ولم يُعثر له على علاجٍ، فأنفذ إلى كرمل بيت لحم رسولاً يلتمس قماشًا يحمل آثار سمات الأخت مريم، وجيء إليه ببعضٍ منه، وما كاد يلمس به ساقيه حتّى انتصب معافى، وقد تبدّد منه كل داءٍ وألمٍ.

وكان كرمل منغالور، في الهند، هو أوّل من طالب بذخائر الأخت مريم التي كان لها، في تأسيسه، فضلٌ كبيرٌ، وقد أسهمت تلك الذخائر في شفاء راهبةٍ هنديّةٍ، كانت مبتلاةً بدمامل مؤلمةٍ، تتشكّل باطّرادٍ في ذراعها، وكانت قد اضطرّت إلى اللجوء لمبضع الجرّاح من أجل فقء دمامل خمسٍ سابقةٍ، واستخراج صديدها. وعندما نشبت الدمّلة السادسة بذراعها، في مطلع عام ١٨٧٩، تولاّها الذعر، إذ كانت قد سئمت من الجراحة، فتوجّهت بابتهالاتها إلى الأخت مريم، وألقت على ذراعها قطعة قماشٍ تحمل أثرًا من دماء سماتها، وفي الحال، انفتح الدمّل، وسال منه القيح

تلقائيًّا، وتمّ الشفاء من غير ما حاجةٍ إلى طبيبٍ، وسْط دهشة الجميع. وقد أكّدت رئيسة كرمل منغالور ذلك، في كتابٍ مؤرّخٍ في ٤ آذار ١٨٧٩، عبّرت فيه عن شكرها لله ولمختارته الأخت مريم، وعن عميق تقديرها لها.

وفي تلك الفترة أيضاً، وردت إلى كرمل بيت لحم الرسالة التالية، وقد كتبتها الأخت ماري سانت مارين قالت فيها:

"ابتُلي زوج أختي، منذ شهرين، بعلّةٍ في يده، فشل النطاسيّون في علاجها، ثمّ عزموا على بتر اليد خشية الغنغرينة، فبعثتُ إلى شقيقتي قطعة قماشٍ تكرّمت عليّ بها أُخيّتنا (الآنسة دارتيكو) وقد أبرأ دم حمامتنا العزيزة زوج أختي في الحال. وقد كتبت لي أختي مستفسرةً عن اسم القدّيسة التي وافيتها بذخيرتها، لكي تستطيع الابتهال إليها باسمها. تلك هي قدرة حمامتنا. ثقوا بحمايتها، فهي تسهر عليكم".

وقد أكّدت الراهبة عينها، في ما بعد، أنّ الكثيرين من المرضى قد ظفروا بالشفاء، بفضل لمس أقمشةٍ تحمل آثار دم الأخت مريم يسوع المصلوب.

ففي فرنسا، كانت راهبةٌ مدرّسةٌ مصابةً بعلّة في قلبها، وتتقيّأ باستمرارٍ، ممّا حال، سنواتٍ عديدةً، دون أدائها مهمّة التدريس. وفي عام ١٨٨١، واظبت طيلة تسعة أيّامٍ على تلاوة صلوات خاصّة، ملتمسةً بها شفاعة الأخت مريم يسوع المصلوب، فنالت الشفاء، وعادت إلى قاعة التدريس.

وفي شهر تمّوز ١٨٨١، أعلنت السيدة "بيريشا بورد"، القاطنة في مدينة بايّون الفرنسية، عن استعادتها كامل صحّتها، بعد معاناةٍ تمادت أربعة عشر عامًا، في أعقاب التماسها شفاعة الأخت مريم، وقد كتبت تقول "يتملّكني شعورٌ حادٌّ بالامتنان لها... ولست أجد كلامًا للتعبير عن مشاعري حيالها... إنّني أعلن جهرًا، وأودّ أَن أنشر في كلّ مكانٍ: إنّها هي التي شفتني".

أمّا في مرسيليا، فقد راود إلهامٌ منقذٌ سيّدةً على شفا الموت، فطوّقت عنقها بمسبحةٍ كانت قد أهدتها إيّاها الأخت مريم. وإذ بالخطر يتلاشى، وبالصحّة تعود.

وفي كرمل بيت لحم، كانت راهبةٌ مبتدئةٌ، قد تعرّضت، قبل دخولها الدير، لعمليةٍ جراحيّةٍ أليمةٍ استؤصلت لها بها دمّلةٌ في ركبتها؛ وقد تولاّها الذعر، بعد حينٍ، عندما عادت تظهر عليها أمارات ذلك الداء من جديدٍ، وخشيت أن يؤدّي ذلك الداء إلى حرمانها دعوتها الرهبانيّة، إذ إنّ من شأنه الحيلولة دون أدائها واجباتها، فشنّت حملة صلواتٍ، مستشفعةً بمختارة الله، الأخت مريم، ولفّت ركبتها المصابة بقماشٍ

كان قد لامس سمات تلك القدّيسة، وبعد أيّامٍ قلائل، استيقظت، وقد تلاشى منها كلّ أثرٍ للداء: الورم والالتهاب والألم، فيما كان قماش القدّيسة يشيع روائح أخّاذة، ومذ ذاك، لم يعد، للداء، من بعدُ، أيّ ظهور.

وقد أسهمت الأخت مريم يسوع المصلوب في شفاء راهبةٍ أُخرى، في ألمانيا، بعد أن نفض النطاسيّون أيديهم من علاجها، لإصابتها بالتهاب صديديٍّ سلّيٍ في حنجرتها، وكانت بضع صلواتٍ بشفاعة الأخت مريم كافيةً لتوفير البرء الذي عجز عنه الطبّ، وعادت الراهبة إلى الاضطلاع بمهامّها الشاقّة في إدارة مطبخ جمعيّةٍ رهبانيّةٍ كبيرةٍ.

وكذلك، أيضًا، كان شأن كاهنٍ، من كهنة البطريركيّة اللاتينيّة في القدس، كان يعالَج في مشفى القدّيس لويس، من جرّاء إصابةٍ شديدة الخطورة في أمعائه، وقد أعرب الأطبّاء والراهبات والممرّضات عن يأسهم من شفائه، بَيدَ أنّ استشفاعه بالأخت مريم يسوع المصلوب، أعاد إليه صحّته كاملةً، خلافًا لكلّ توقّعٍ. ومذ ذاك، ما انفكّ ذلك الكاهن يعلن جهارًا أنّه مدينٌ بحياته لشفاعة الأخت مريم.

وتوالت الأشفية مع كرّ السنين. ففي عام ١٩٢٢، كان داءٌ عضالٌ قد سمّر، منذ أشهرٍ طويلةٍ، على فراش المرض، راهبةً في بيت لحم، وقد أظهر التصوير الشعاعيّ ندبةً في رئتيها ناجمةً عن إصابةٍ مزمنةٍ بذات الجنب، واكبتها مضاعفاتٌ عديدةٌ زادت داءها، خطورةً، وأوجاعها إمضاضًا. وكان قد بُوشر، آنذاك، بدعوى تطويب الأخت مريم يسوع المصلوب، فتوجّهت إليها الراهبة العليلة ملتمسةً شفاعتها، وسرعان ما أظهر تصويرٌ شعاعيٌّ جديدٌ أنّ الندبة في الرئة المصابة قد زالت تمامًا. وكان ذلك في الثاني من تشرين الثاني، موعد الجلسة الأولى المتعلّقة بدعوى التطويب.

وفي ١٩٢٩/١٢/٢٠، نهضت الطفلة الفلسطينيّة خازنة جبران عبّود، وهي في الرابعة من العمر، وهبّت مستقيمةً تمشي، بعد أن ظلّت مقعدةً هزيلةً منذ مولدها، في أعقاب التماس والديها شفاعة الأخت مريم يسوع المصلوب.

ولم تقتصر أفضال مختارة الله على الأشفية الجسديّة، بل إنّها كانت للنفوس خير طبيبٍ. فقد كانت شقيقة الأخت أنيبس، من راهبات كرمل بو، قد تبرّعت بسخاءٍ في سبيل تأسيس كرمل بيت لحم. وقد أكّدت الأخت مريم، قُبيْل سفرها إلى الديار المقدّسة، للأخت أنيبس، أنّ الله سيعوّض شقيقتها أمثالاً. وإثر وفاة الأخت مريم، اعتلّت صحّة زوج السيّدة المحسنة، وأشفى على الموت، إلاّ أنّه كان من المتعذّر حمله على قبول الأسرار الخلاصيّة. فراحت الأخت مريم تظهر باطّرادٍ للأخت أنيبس، وتُطلعها على حقيقة حال

زوج شقيقتها؛ فأقيمت الصلوات التماسًا لخلاص نفسه. وبعد أيّامٍ أفاق المريض، ذات صباحٍ، واستدعى كاهنًا، وتقبّل منه الأسرار في ورَع، ومذ ذاك تحوّل سلوكه: فاتّسم بكثيرٍ من الصبر والتقوى. وعُرِضت أمام ناظريه صورة الأخت مريم يسوع المصلوب، التي لم يكن له بها عهدٌ من قبل، فاختطفها باندفاعٍ، وقبّلها تكرارًا وهو يردّد: "إنّها هي التي هدتني، هي التي ردّتني إلى الإيمان". وقد قضى نحبه في وئامٍ تامٍّ مع الله. وفي تلك الأثناء، كانت الأخت أنبيس تتابع، ساعةً فساعةً، بفضل إلهامٍ من مختارة الله، الأخت مريم، تطوّر حال زوج شقيقتها، الذي لا تلبث أن تؤكّده لها رسائل شقيقتها، بدقّةٍ متناهيةٍ.

وإنّنا، إذ نجتزئ بهذه القبضة من وقائع حضور الأخت مريم يسوع المصلوب، على أرضنا، مخترقةً حدود الموت، تدليلاً على تكريم الله لها في الآخرة، بعدما اختارها، في هذه الدنيا، مكافأةً لها على أمانتها له، تتبادر إلى ذهننا تلك الرؤيا التي خطرت لها يومًا، حيث رأت نفسها، وكأنّها حُقٌّ يودع فيه المحتاجون حاجاتهم وأدعيتهم، فيتناولها الربّ بعطفٍ وحبٍّ، ويبادر إلى تلبيتها، ممّا يشرع أمامنا نوافذ رجاءٍ رحبةً.

فمَن أحقّ منّا بشفاعة القدّيسة "العربيّة"، تلك التي كانت لبلادنا سفيرةً فريدةً في بلاد الغرب، وفي أقاصي الشرق، وهي لنا الآن وسيطةٌ لا تُردّ لها شفاعةٌ لدى كلّيّ القدرة؟

إن القدّيسين لا يخلدون إلى التواني في السماء، حيث تزداد نار حبّهم ليسوع اضطرامًا، بل إنّ أغلى أمانيهم أن يعمّ سعير تلك النار الأرض والسماء، ويلهب قلب كلّ كائنٍ. فأنّى لهم أن يعرفوا الراحة، وهم يشهدون ما يعاني إخوةٌ لهم، على الأرض، من جوعٍ وعطشٍ إلى الخبز والعدل، ومن اغتيال كراماتٍ، ومن اضطهادٍ ونبذٍ، واستعبادٍ للخطيئة؟

فيا وردةً فوّاحةً أنبتتها أرض بلادنا، ويا مواطنةَ يسوعنا وأمّه، وحظيّتهما، ارعَي هذه البلاد، وساعدي على صون كرامة أهلها، ورسوخ إيمانهم، وعلى ازدهار روحانيّتهم التي، بفضلها طالما اتّقوا هجماتٍ مادّيّةً مستشريةً.

وأنتِ التي أبدًا آمنت، إيمانًا راسخًا، بشراكة القدّيسين، وبعد أن انتقلت من قداسةٍ تتجلّى عبر المحن إلى قداسةٍ يكلّلها المجد، وغدوتِ أكثر قبَلاً على مدّ يد العون إلى إخوةٍ لك في الكنيسة المناضلة، التي كنت من أشدّ أبطالها مراسًا، اُعضدي كلّ مؤمنٍ صابٍ إلى الكمال، كي يعيش، على غرارك، الإنجيل بكلّ جنونه ومخاطراته، في غير تحفّظٍ ولا وجلٍ، إيمانًا يهزّ الجبال، وحبًّا حارقًا، وتضحيةً بلا حدودٍ، وتواضعًا لا قرار له، وخدمةً ترى في كلّ إنسانٍ يسوع، وخميرةً تنضج الخميرة البشريّة، ونورًا يدلّ إلى النور الذي يضيء كلّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم.

الطوباوية مريم يسوع المصلوب
تتألق صورتها في كاتدرائيّة القديس بطرس
يوم أعلنها البابا يوحنا بولس الثاني طوباويّة
في ١٩٨٣/١١/١٣